عاشوا بعد الموت

أربعون أديبًا وشاعرًا يعبرون ضفاف الحياة

حسن توفيق



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اسم الكتاب : عاشوا بعد الموت
المؤلف : حسن توفيق
رقم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٢

مكتبة جزيرة الورد
القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_٥@yahoo.com

حتى نقهر الموت

مقدمة بقلم : حسن توفيق

حتى نقهر الموت ..عنوان كتاب رائع وعميق، أصدره الشاعر العظيم والإنسان النبيل صلاح عبد الصبور، وقد صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٩٦٣ وقرأته بالطبع أكثر من مرة، لكني أحسست أن إحدى فقراته تعنيني لأنها تغنيني تماما عما أود قوله فيما يتعلق بمضمون كتابي هذا، حيث يقول صلاح عبد الصبور في تلك الفقرة الدالة والموجزة: لا يقهر الموت إلا الحجر والكلمة، والكلمة أطول عمرا من الحجر وأصلب على الزمن، وأقدر على مغالبته، فالأهرام وكتاب الموتى ولدا في يوم واحد من أيام التاريخ، التي هي كألف يوم مما يعدون أو تزيد، وما زالا يتنفسان أنفاس الحياة حتى غدنا وبعد غدنا. وقد يأكل الزمن المتطاول من الأهرام حجرا فحجرا، ولكنه لن يسقط من كتاب الموتى كلمة واحدة، بل قد يزحم صفحاته بالحواشي والتعليقات.

هذا الذي قاله صلاح عبد الصبور، ينطبق تماما عليه منذ غيابه الجسدي عن عالمنا يوم ١٣ أغسطس سنة ١٩٨١ كما ينطبق – بطبيعة الحال – على الذين أتحدث عنهم في هذا الكتاب، فهم في تصوري قد عاشوا وما زالوا يعيشون بعد الموت، لأن ما أبدعه كثيرون منهم خلال حياتهم يتكفل بمهمة مغالبة الزمن، فهم من الصنف الثاني من الناس الذين أشار إليهم أمير الشعراء العرب أحمد شوقي في بيته الشهير:

الناس صنفان: موتى في حياتهمو وآخرون ببطن الأرض أحياء

أول من أتحدث عنهم في هذا الكتاب هو عميد الأدب العربي طه حسين، وهو بالتأكيد واحد ممن يرى أحمد شوقي أنهم ببطن الأرض أحياء، وقد أجريت حوارا متخيلا مع طه حسين الذي سألني – بعد رحيله عن عالمنا – أما زال المعذبون في الأرض يتعذبون أم أن الحياة قد أنصفتهم وأبعدت عنهم ما كانوا يلاقونه من عذاب وفقدان للكرامة الإنسانية؟ وبنطلق الكتاب بعد هذا السؤال الجارح إلى طه حسين بين مستنيرين ناصروه ومتشنجين حاربوه، وبماذا يتميز طه حسين عن أبناء جيله العمالقة؟ وفيما يتعلق بتفضيل عميد الأدب العربي لأبي العلاء المعري على كل من المتنبي وبشار ابن برد نكتشف أن هذا التفضيل ليس انحيازا أعمى لتوأم الروح .. المعري.

كان من المنطقي أن أتحدث بعد ذلك عن العملاق عباس محمود العقاد بعد الحديث عن طه حسين، لكني غلبت ما هو وجداني على ما هو منطقي، حيث تحدثت عن سهير القلماوي قبل العقاد، لأنها التلميذة الأولى لطه حسين من ناحية، ولأنها – من ناحية ثانية- أستاذتي التي أدين لها بالفضل، وهكذا تحدثت عن التلميذة النجيبة التي أصبحت أستاذة أساتذة، ثم تحدثت عن العملاق العقاد، ومن بعده تحدثت عن ميخائيل نعيمة، باعتباره ثمرة مدهشة من ثمرات تزاوج الحضارات والثقافات، وتظل أحاديثي متواصلة ومتتالية عن هؤلاء الذين قلت عنهم إنهم قد عاشوا بعد الموت، وهم أربعون أديبا وشاعرا من الراحلين الذين عبروا ضفاف الحياة، وقد ذكرت أربعة منهم، هم طه حسين وسهير القلماوي وعباس محمود العقاد وميخائيل نعيمة، أما الذين تحدثت عنهم بعدهم، فهم: إبراهيم المازني- نجيب محفوظ- محمد مهدي الجواهري- ثروت عكاشة- صلاح عبد الصبور- فاروق خورشيد- نازك الملائكة- بدر شاكر السياب- بلند الحيدري- عبد الوهاب البياتي- خليل حاوي- يحيى حقي- عبد الرحمن منيف- محمد شكري- عبد الرحيم محمود- غسان كنفاني- توفيق زياد- محمود درويش- ناجي العلي- إميل حبيبي- إدوارد سعيد- محمد الفايز- غازي القصيبي- معروف رفيق- عبد الرحمن المعاودة- علي بن سعود آل ثاني- نزار قباني- محمود حسن إسماعيل- شكري محمد عياد- ماهر حسن فهمي- كمال نشأت- سمير سرحان- أمل دنقل- صلاح الدين حافظ- رجاء النقاش، وإذا كنت – كما ذكرت- قد بدأت بطه حسين الذي يفضل المعري على سواه من شعرائنا العرب العمالقة، فإني اختتمت الكتاب بحديثي عن زيارتي لضريح أبي العلاء المعري في معرة النعمان، حيث أنشدت- وقتها- أمام الضريح :

غير مجد في ملتي واعتقادي- نوح باك ولا ترنم شاد.

كتبت عن أغلب هؤلاء الراحلين بعد غياب كل منهم عن دنيانا بعدة أيام قلائل، كما كتبت عن آخرين سواهم في ذكرى رحيل كل واحد منهم، وعلى سبيل المثال فإني كتبت عن أول الراحلين في هذا الكتاب وهو صلاح عبد الصبور بعد ستة أيام على رحيله وهو – كما ذكرت- يوم ١٣ أغسطس سنة ١٩٨١ كما كتبت عن طه حسين الذي رحل عن عالمنا يوم الأحد ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٧٣ في الذكرى الثلاثين لغيابه، وإذا كنت قد كتبت

عن ثروت عكاشة- وهو آخر الراحلين في هذا الكتاب- يوم الاثنين ٢٧ فبراير سنة ٢٠١٢ فهذا يعني أني لم أكتب فصول هذا الكتاب دفعة واحدة بطبيعة الحال، وإنما كتبتها على امتداد اثنتين وثلاثين سنة، تبدأ من سنة ١٩٨٠ حتى سنة ٢٠١٢ وإذا كان هؤلاء الراحلون ينتمون لأقطار عربية عديدة، فإنهم – كذلك- ينتمون لأجيال عربية مختلفة، كما أن منهم من رحلوا وهم في ذروة شبابهم، ومنهم من رحلوا بعد أن عمروا طويلا، وفي السطور الاستهلالية لما كتبته عن ثروت عكاشة أشرت إلى هذه النقطة بالتحديد، حيث قلت: هناك كتاب وشعراء وفنانون رحلوا عن عالمنا وهم في ذروة شبابهم، ومن هؤلاء أبو القاسم الشابي وأسمهان وبدر شاكر السياب وأمل دنقل، وهناك آخرون عاشوا طويلا، لدرجة أن منهم من كان يطل خلال حياته من شرفة الثمانين أو التسعين، ومن هؤلاء فدوى طوقان ومحمد مهدي الجواهري ونجيب محفوظ، وكان آخر الذين رحلوا من المعمرين هو الكاتب الفنان العملاق الدكتور ثروت عكاشة، لكن القضية الجوهرية التي ينبغي أن نركز عليها – في تقديري – لا تتعلق بما قدر لكل واحد من هؤلاء أن يحياه، وإنما بما استطاعوا جميعا أن ينجزوه وأن يحققوه خلال سنوات الحياة، بصرف النظر عما إذا كانت حياة قصيرة أو طويلة، لأن الرصيد الذي يبقى وقد يتجدد على امتداد الأجيال يتمثل في الثروة الأدبية أو الفنية التي يبدعها الكاتب أو الفنان طيلة حياته، و يخلفها وراءه بعد غيابه النهائي عن الحياة والأحياء .

وقد أشرت إلى هذه النقطة بالذات، في سياق مقدمتي لكتاب هنريك إبسن – سيرة حياة، وهو الكتاب الذي ترجمته عن اللغة النرويجية الكاتبة المبدعة زكية خيرهم، حيث قلت : ولد هنريك إبسن في النرويج، وعلى أرضها شب وشاب، إلى أن غاب، لكن حدود شهرته لم تتوقف عند حدود وطنه الجميل الذي أنجبه . هذا شأن العباقرة العظماء، الذين ينطلقون من أوطانهم، لكي يسكنوا قلوب الناس من مختلف العقائد والألوان والأجناس، وقد كان هنريك إبسن وما يزال واحدا من هؤلاء العباقرة العظماء، وهنا أجد نفسي مندفعا للإشارة إلى ثلاثة من هؤلاء الذين سبقوا إبسن، وهم – وفقا لأسبقية ميلادهم – ثرفانتس الأسباني، مبدع دون كيخوت، وقد ولد سنة ١٥٤٧ ورحل عن عالمنا سنة ١٦١٦ بعد أن عاش تسعا وستين سنة، ووليم شكسبير مبدع

هاملت وروميو وجولييت وماكبث وسواها من روائع المسرح العالمي، وقد ولد سنة ١٥٦٤ ولم يقدر له أن يعيش سوى اثنتين وخمسين سنة، حيث رحل عن عالمنا سنة ١٦١٦ وهي نفس السنة التي شهدت غياب ثرفانتس، وأما ثالث هؤلاء العباقرة العظماء فهو فولفانج جوته الذي عاش ثلاثا وثمانين سنة، حيث ولد يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٧٤٩ وغيبه الموت يوم ٢٢ مارس سنة ١٨٣٢ بينما عاش هنريك إبسن ثماني و سبعين سنة، وكان طفلا في الرابعة من عمره عندما رحل جوته عن عالمنا، فقد ولد يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٢٨ ورحل عن عالمنا يوم ٢٣ مايو سنة ١٩٠٦ وبطبيعة الحال فإن هؤلاء العباقرة العظماء هم ممن أنجبتهم أوروبا،لكن هذا لا يعني أن البشرية لم تنجب سواهم في قارات العالم الأخرى .

تعمدت أن أ شير إلى سنوات الحياة التي عا شها كل من ثرقانتس و شكسبير وجوته وإبسن، لكي أؤكد على أمر مهم، يتمثل في أن العبرة بما يخلفه الكاتب العبقري وراءه من حصاد أدبي، يبقى من بعده ميراثا روحيا للبشرية جمعاء، ولعل المثال الساطع لما أشرت إليه في أدبناالعربي يتمثل في الشاعر العظيم بدر شاكر السياب الذي ولد سنة ١٩٢٦ ولم يعش سوى ثمان وثلاثين سنة، حيث رحل عن عالمنا يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٦٤ كما يتمثل في نجيب محفوظ الروائي العبقري الحائز على جائزة نوبل في الأدب،والذي ولد يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩١١ وعاش خمسا وتسعين سنة، حيث رحل عن عالمنا يوم ٣٠ أغسطس سنة ٢٠٠٦ فنحن نقرأ السياب - الشاعرالعظيم كما نقرأ نجيب محفوظ – الروائي العبقري، دون أن نلتفت كثيرا إلى ما عاشه هذا أو ذاك من سنوات حياة.

كنت قد أجريت حوارات عديدة مع كثيرين ممن كتبت عنهم في هذا الكتاب، وقد رأيت أن أختار ثلاثة حوارات منها، هي حواراتي مع محمد مهدي الجواهري يوم ٣ مارس ١٩٨٠ وصلاح عبد الصبور يوم٢٧ أبريل ١٩٨٠ وناجي العلي يوم ١١ مايو ١٩٨٢، وذلك لأن هذه الحوارات تتضمن إشارات موثقة إلى أمور مهمة، وعلى سبيل المثال فإننا نعرف من خلال الحوار مع صلاح عبد الصبور أنه كان ينوي أن يصدر ديوانا جديدا بعنوان عندما أوغل السندباد وعاد، وهذا العنوان هو نفس عنوان قصيدته الرائعة التي لم تنشر حتى الآن ضمن أعماله الشعرية الكاملة، رغم أنها قد صدرت في عدة

طبعات بعد غياب صلاح عبد الصبور، ولهذا السبب فإني حر صت أن يكون النص الكامل لهذه القصيدة الرائعة موجودا عبر صفحات هذا الكتاب، وإلى جانب قصيدة عندما أوغل السندباد وعاد، نلتقي كذلك مع قصيدة لسهير القلماوي التي لا يعرف كثيرون أنها كانت تكتب الشعر في عنفوان شبابها، كما نلتقي مع قصة قصيرة، شارك في كتابتها ثلاثة أدباء هم صالح جودت ونجيب محفوظ وعبد الحميد جودة السحار، وهي قصة بعنوان على البلاج، وقد نشرت يوم ٥ أغسطس سنة ١٩٥٠ وظلت حبيسة صفحات مجلة القصة التي كانت قد نشرتها، ولعل من الطريف هنا أن أذكر أن مدير تحرير تلك المجلة لم يكن قا صا ولا روائيا، وإنما هو الشاعر الرقيق والكبير الدكتور إبراهيم ناجي، كما اخترت كذلك نصا مهما لعبد الوهاب البياتي، يقول فيه: في القاهرة تغيرت حياتي لأن الأفق الثقافي كان أرحب، وعلينا هنا أن نسأل أنفسنا عما إذا كان هذا الأفق الثقافي ما زال أرحب في أيامنا هذه، أم أن انغلاق العقول المتخلفة والمتزمتة يحاول – بكل عناد وغباء- أن يجفف ينابيع الشمس؟!

وإذا كانت كتاباتي هذه عمن عاشوا بعد الموت قد تجاورت على امتداد صفحات هذا الكتاب، فإني أشعر حقا بالحسرة، لأن كتابات أخرى قد ضاعت أو فقدت مني، أثناء عملية نقل مكتبتي من الدوحة حيث كنت أعمل إلى القاهرة حيث أقيم ابتداء من يوم ٥ يوليو ٢٠٠٩ ، وعلى سبيل المثال فقد ضاع مني ما كتبته عن الكاتب الناقد الذواقة للفن التشكيلي بدر الدين أبو غازي والروائي والقاص العبقري يوسف إدريس والشاعرة الكبيرة فدوى طوقان، كما ضاع مني ما كنت كتبته عن ثلاثة من أساتذتي الأجلاء هم شوقي ضيف الذي أثرى المكتبة العربية بما قدمه من مجلدات نفيسة عن تاريخ الأدب العربي على امتداد عصوره وبيئاته المتنوعة، ويوسف خليف صاحب الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، فضلا عن أنه كان شاعرا رومانسيا رائعا، وتشهد على هذا قصائد ديوانه الوحيد نداء القمم، وعبد المحسن طه بدر الذي كان يحاول أن يخرجني من قوقعتي الرومانسية لكي أتعامل مع الواقع بصورة واقعية، ويبقى القول إن هذه الكتابات الموجودة والمفقودة على حد سواء كانت قد نشرت على امتداد اثنتين وثلاثين سنة- كما ذكرت من قبل- على صفحات جريدتي الراية والشرق في قطر، وعلى صفحات جريدة

أخبار الأدب، وصـفحات مجلة أدب ونقد التي كان يرأس تحريرها الشـاعر الراحل والإنســان الجميل حلمي ســالم، وصــفحات مجلة أكتوبر خلال رئاســة الكاتب الجاد محسن حسنين لتحريرها.

وأترككم الآن مع الذين عبروا ضـفاف الحياة، لكنهم ما زالوا يعيشـون بعد الموت، لأن آثارهم الأدبية والعلمية والعملية التي خلفوها وراءهم لم تزل متجددة وناصــعة، وأعترف مقدما بأني قد كتبت عن هؤلاء جميعا بوجداني العاشــق لكل منهم، متمنيا ألا تكون عاطفتي الصــادقة تجاههم قد أثرت فيما أطلقته من أحكام أو تحليلات، لابد أن تستند إلى العقل، لكي يتحقق لها ما نسميه بالروح الموضوعية أو شبه الموضوعية، وإن كنت أتصور أن هذه الروح لايمكن أن تتحقق إلا في ميدان العلوم البحتة وحدها.

حسن توفيق

الزيتون - القاهرة

١٤ سبتمبر ٢٠١٢

في ذكرى غيابه عنا (١-٣)
طه حسين
يسألني عن أحوال المعذبين في الأرض

غاب عنا عميد الأدب العربي طه حسين منذ سنوات عديدة ، وبالتحديد يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، وكنت واحدا ممن ساروا في موكب جنازته التي انطلقت من جامعة القاهرة حتى جامع صلاح الدين، مرورا بكوبري الجامعة، وبعد سنة على غيابه، كنت مع أمل دنقل الوحيدين من الشعراء الشبان – وقتها – الذين شاركوا في حفل التأبين الذي أقيم بالقاهرة، ودون اتفاق بيننا، كتب كل منا – أمل وأنا – قصيدة عمودية، لا تنهج نهج الشعر الحر الذي كنا متحمسين له، ومازلت أتذكر كيف انسحب وزير الثقافة وقتها – يوسف السباعي – غاضبا أثناء إلقاء قصيدتي التي كانت أبياتها ترصد ما يجري من سياسات رعناء، تحاول التقرب من الكيان الصهيوني.

المرة الوحيدة التي صافحت فيها طه حسين كانت على سلم كلية آداب القاهرة سنة ١٩٦١م حيث كان يهبط السلم مع معاونيه، فاندفعت لأصافحه، وهممت – وقتها – أن أقبل يده، عملا بمقولة «من علمني حرفا صرت له عبدا» لكني تراجعت عما هممت به، وفي ذهني مقولة الزعيم – الأب جمال عبد الناصر – ارفع رأسك يا أخي فقد ولي زمان الاستعباد.

منذ صغري، كنت واحدا من الملايين الذين قرؤوا «أيام» طه حسين والتي تعد أجمل سيرة ذاتية عربية، يكتبها كاتب عربي،ولست أقول «أجرأ سيرة» لأن هناك سيرا ذاتية أكثر جرأة في نبش التفاصيل الإنسانية من «الأيام».

وخلال المرحلة الجامعية، كان هناك ثالوث مقدس لدى المهتمين بالأدب، وهو ثالوث يتألف من طه حسين وعباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم، وكان هناك منا من يضيفون إبراهيم عبد القادر المازني إلى هذا الثالوث.

أ صدقاء كثيرون تفرقوا أو شغلتهم دوامة الحياة عن شؤون و شجون الأدب، وفجأة أحسست أني وحدي أواجه ذكرى مرور ثلاثين سنة على غياب العميد العظيم طه حسين، وتغلبت على الشعور بالوحدة بوسيلة سحرية، حين أخذت أجمع ما أقتنيه من كتب طه حسين، محاولا أن أعيد قراءة بعضها، وأن أدير حوارا مع بعض آخر منها، وهذا ما جعلني أ شعر أني في حضرة العميد العظيم، بكل ما تحمله «الحضرة»من مهابة ممزوجة بالحب.

سيدي العميد.. من أين أبدأ معك؟ إني حقا حائر.. فأنت قد طوفت في آفاق شتى مع الفكر والفن والأدب القديم والحديث والتاريخ.. ففي الرواية – مثلا – قدمت «دعاء الكروان» و«المعذبون في الأرض» وفي الفكر قدمت «مستقبل الثقافة في مصر» وفي النقد كنت «مع المتنبي» وقمت ب«تجديد ذكرى أبي العلاء» وفي علم الاجتماع نلت درجة الدكتوراه من السوربون في باريس عن ابن خلدون، وفي الترجمة إلى العربية، قمت بتعريب المسرح الإغريقي و شاركت في تقديم شكسبير.. وما أقوله بالطبع عن كتبك هو «غيض من فيض».

علت وجه طه حسين ابتسامة هادئة ومشفقة، وقال بصوته العميق وبنطقه المحبب الذي يعكس جمال لغتنا العربية.

لقد نسيت أشياء عملية.. و تذكرت الكتب والدراسات الأدبية والاجتماعية والتاريخية.. لماذا نسيت مثلا أني أول من أطلق على ما جرى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر «ثورة». لقد لاحظت أن كثيرين ومنهم بعض «الضباط الأحرار» كانوا يصفون ما جرى بأنه «حركة» وأحيانا يضيفون «حركة مباركة» أما أنا فقد قلت إن ما جرى «ثورة» بكل معنى الكلمة، وقد كتبت في مجلة «التحرير» مقالا مطولا، شرحت فيه هذا الأمر شرحا مستفيضا كما أنك على ما يبدو نسيت أني كنت رئيسا لتحرير مجلات أدبية وجرائد يومية.. هل نسيت مجلة «الكاتب المصري» وهل نسيت جريدة «الجمهورية».. ولأني كنت رئيس تحرير. لابد أن أسألك عما اخترته لي من صور، لكي تنشرها مع حوارك هذا المزعوم.

سيدي العميد.. لابد من القول إني قد بدوت حائرا وأنا أختار صورك، تماما مثل حيرتي التي أبديتها عما أبدأ به هذا الحوار.. كان لابد أن أختار رسم «البورتريه» الذي أبدعه جمال قطب، وكان لابد أن أختار صورتك مع الزعيم جمال عبد الناصر عندما كرمتك مصر – الثورة بجائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة ١٩٥٩م، كما اخترت صورة لك مع زعيم وطني إيراني، كنت وما زلت أحبه. وهو الدكتور محمد مصدق، وقد كان لكما لقاء جميل في القاهرة عندما كان رئيسا لوزراء إيران، وكنت أنت وزيرا للمعارف.

هنا قاطعني العميد العظيم بهدوء متسائلا:

لماذا تحب الدكتور مصدق؟

لأنه كان رجلا صادقا، و شديد الانتماء لوطنه، وأراد أن يكون نفط إيران للإيرانيين، وإذا كان قد فشل فيما أراد، فإن جمال عبد الناصر قد تعلم من تجربة فشله في تأميم البترول الإيراني، ولهذا نجح في تأميم قناة السويس سنة ١٩٥٦م وهذا يؤكد أن على الثوار الذين يريدون أن يواجهوا الظلم والاستعمار أن يتعلموا من أخطاء الذين سبقوهم.

وماذا بعد؟

عندي صورة جميلة لك مع الكاتب اليوغسلافي الكبير إيفو اندريتش صاحب «جسر على نهر درينا» والفائز بجائزة نوبل للآداب، وقد التقيتما معا في القاهرة سنة ١٩٦٢م وكانت قرينتك الجليلة معك أثناء اللقاء.

معنى هذا أنك أحببت إيفو أندريتش؟

بالتأكيد.. لأن هذا الكاتب الكبير كان يدعو مخلصا للتسامح بين الأعراق المختلفة في يوغسلافيا، وقد تسبب عدم الإصغاء لدعوته – فيما بعد – في تناثر جمهورية يوغسلافيا إلى شظايا متفرقة والآن –يا سيدي العميد – أرجو أن تسمح لي بالعودة إلى ما سألتك عنه في البداية. لماذا أحببت أن تتنوع في عطاءاتك الفكرية والأدبية والتاريخية؟

لم يكن الأمر بيدي.. كل ما في الأمر أنني شـــهدت مع أبناء جيلي كيف يتقدم الغرب ويتأخر العرب والمسلمون، وكان لابد من التعرف على أسباب التقدم حتى نواجه ما كنا نواجهه من تخلف في مختلف مناحي الحياة، فأنا أتصـــور أن الأديب الرائد كالملاح الذي يريد اســـتكشـــاف المجهول، وكالفلاح الذي يريد للأرض الجرداء أن تصـــبح خضـــراء.. فكل هؤلاء.. الرائد.. والملاح.. والفلاح.. يتطلعون إلى الجديد، ولابد أن أنبهك إلى أني لم أكن وحدي الرائد.. فقد كان معي العقاد والحكيم والمازني وعبد الرحمن شكري ومحمد حسين هيكل.. إياك أن تخلط بينه وبين محمد حسنين هيكل!

هل يمكن للنون الزائدة في «حسنين» أن تجعلني أخلط بين صاحب «زينب» و«حياة محمد» وبين الكاتب الســياســي الأكبر والأشــهر الذي طالبه الجامدون المتخلفون بأن يتوقف عن الكتابة حتى لا يكشــف أســرار جمودهم وفضــائح تخلفهم، لدرجة أنهم قد أقدموا على سرقة وثائق عديدة من مكتبته؟ اطمئن يا سيدي العميد فلن أخلط بين محمد حسين هيكل ومحمد حسنين هيكل.

أردت أن أعلمك أن الدقة مطلوبة، وأنها تتطلب اليقظة والانتباه حتى في حرف «النون».

سيدي العميد.. هل تعرف أن صلاح عبد الصبور، وهو أحد أساتذتي وأحد تلاميذك ومحبيك قد كتب عن الدور الريادي الذي تحدثت عنه عندما مزجت بين الرائد والملاح والفلاح؟

ماذا قال؟

قال بالحرف الواحد: «إن أمثال طه حسين من الرجال الموسوعيين الذين يشتغلون بكل شـــيء ويأخذون من كل فن بطرف، لا يعيشـــون إلا في الفترات الأدبية المتخلفة من حياة شـــعوبهم، لأن التقدم معناه التخصـــص، حيث يدأب الكاتب القاص مثلا على الإجادة في فن القصـــة. والتفوق في كتابتها والمتابعة لتياراتها، ويشـــغل المؤرخ الأدبي نفســـه بالنظريات المحدثة في كتابة تاريخ الأدب، ويخلص لها.. أما في عصـــور التخلف فإن المجال مفتوح للرجال الأذكياء المتطلعين..».

أنا أتذكر هذا الذي كتبه صــلاح عبد الصــبور، فقد كنت على قيد الحياة عندما كان ينشره سنتي ١٩٦١ و١٩٦٢ ولكني أتشوق الآن لأن أعرف منك.. هل أصبح لدى مصر وأمتها العربية متخصصون مجيدون، أم ما زلتم محتاجين لرجال موسوعيين؟

بكل أسف وصدق.. أقول لك يا سيدي العميد إن أوروبا والولايات المتحدة تسرق المتخصصين المجيدين من أبناء العروبة، وهؤلاء يسعدون بما يجري لهم لأن المناخ العلمي الحقيقي ليس متاحا أمامهم في دولهم التي ينتمون إليها. أما الرجال الموسوعيون فإننا الآن محتاجون إليهم، ربما أكثر من حاجة الحياة إليهم عندما شــققت أنت ومن معك طريق الريادة.

ولماذا هذا؟

لأن مناخ التخلف لم يتوقف؟

ماذا تعني؟

أعني أن القضايا الكبرى التي أثيرت منذ أكثر من مائة سنة ما زالت تطرح حتى اليوم، فهناك من يدعون إلى الانغلاق، ويقدســون كل ما هو محنط،وهناك من ينبهرون بكل ما لدى الغرب، حتى لو كان مجرد قشور وبهرجة، لأنهم يحبون «الفرنجة».

تنهد طه حسين من أعماق قلبه وهو يقول:

لا حول ولا قوة إلا بالله.. كيف تكررون ما سبق أن أثرناه وطرحناه من قضايا؟

لأن هناك من لهم مصالح وقتية ومنافع ضيقة وشخصية، وهؤلاء يريدون أن يجمدوا حركة الحياة، وإذا كنت أنت – يا ســيدي العميد – قد ألقيت قنبلة فكرية مدوية ســنة ١٩٢٦م، عندما أصدرت كتابك الشهير «في الشعر الجاهلي» داعيا فيه إلى حرية المفكر في أن يفكر وحرية الباحث المدقق في أن يبحث وأن يدقق، فإننا الآن – بعد ثلاثين سنة على غيابك عنا – نحتاج إلى قنابل مدوية، لكي تقضــي على الترهل الذي أصــاب العقول، فمنعها من أن تتأمل ما يدور حولها، وأبعدها عن التفكير فيما تواجهه من قضايا حاسمة ومصيرية.

وهنا سأل العميد العظيم:

أما زال «المعذبون في الأرض» يتعذبون أم أنهم الآن بالحياة ينعمون ويسعدون؟.. إني أتذكر أني قلت في إهدائي للكتاب «.. إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل، وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل، إلى أولئك وهؤلاء جميعا، أسوق هذا الحديث.. وإلى الذين يجدون ما لا ينفقون، وإلى الذين لا يجدون ما ينفقون يساق هذا الحديث..».

سيدي العميد.. أنت أطلقت شعار «التعليم كالماء والهواء» ثم طبقته بالفعل عندما كنت وزيرا للمعارف في آخر وزارة «وفدية» قبل ثورة يوليو ١٩٥٢م وحين انطلقت الثورة قامت بإكمال مشوارك خلال زعامة جمال عبد الناصر، لكن التعليم من بعده، ومن بعد من بعده.. أصبح حكرا على «الذين يجدون مالا ينفقون» أما «الذين لا يجدون ما ينفقون» فإن منهم من نسوا مجرد «التعليم» فمنهم أحياء لكنهم يسكنون وسط المقابر،ومنهم من تدور عليهم الدوائر، ومنهم من يلهثون لسد رمق أطفالهم الجائعين.

لقد كنت أدعو دائما إلى أن يكون لكل حوار غاية.. ويبدو أن غايتك الآن تتمثل في أن تحزنني، لا أن تسعدني.. ما هذا الذي يجري يا فتى؟

سيدي العميد.. لم أعد بالفتى.. أنا عجوز حزين، أتأمل ما يجري للمعذبين في الأرض، بينما قلوب الآخرين كالحجارة لا تلين.



في ذكرى غيابه عنا (٢-٣)

طه حسين بين مستنيرين ناصروه ومتشنجين حاربوه

عند احتدام العواصف في مختلف المواقف، فإنها تخرج بصورة تلقائية من أعماق الإنسان، لكي تتجلى على شفتيه في هيئة كلمات، ولكي تبدو من عينيه في شكل نظرات، ولكي أوضح هذا الذي أقول، لابد من العودة إلى يوم تشييع جثمان عميد الأدب العربي طه حسين.

كنت قد دخلت قاعة الاحتفالات الكبرى في جامعة القاهرة بصحبة صديق من أجمل أصدقائي، هو نظمي رمزي مبارك الذي كان الطالب المسيحي الوحيد في دفعة ١٩٦٤م التي تخرجت من قسم اللغة العربية بآداب القاهرة، تماما كما كان الصديق «الأب» كمال قلتة هو الطالب المسيحي الوحيد بين أبناء دفعتي. دفعة سنة ١٩٦٥م، وفيما بعد قدر للأب كمال قلتة أن يحصل على الدكتوراه بإشراف أستاذتنا العظيمة الدكتورة سهير القلماوي، وكان موضوع أطروحته «أثر الثقافة الفرنسية في فكر طه حسين».

وقفنا – نظمي وأنا – صامتين واجمين، نتابع حركة كبار المسؤولين وعظماء الأدباء، وهم يدخلون من الباب الرئيسي لإلقاء نظرة على جثمان العميد.. الفقيد، وما زلت أتذكر ملامح الحزن التي كانت مرتسمة على وجه كمال الدين حسين، أحد الضباط الأحرار في ثورة يوليو ١٩٥٢م المجيدة، كما أنني ما زلت أتذكر – بحب – كيف مر توفيق الحكيم من أمامي، وهو يتأبط ذراع نجيب محفوظ اليسرى، ويلوح بعصاه الشهيرة أو يحركها مع حركة خطواته، ورأيت كثيرين من أساتذتي الأجلاء، وهم في حالة حزن عميق، لم أشهدها من قبل على وجوههم، إلا يوم غياب الزعيم العربي الخالد جمال عبد الناصر.

إذا كنت وقتها قد «تجرأت» بدافع التعلق الشديد بطه حسين، ودخلت مع نظمي رمزي مبارك قاعة الاحتفالات الكبرى، فإني اكتشفت بمجرد خروج الجثمان من القاعة إلى الخارج، أن كثيرين ممن أعرفهم وممن لا أعرفهم يقفون خارج أسوار الجامعة ذاتها مترقبين أن يسيروا في موكب الجنازة التي ظلت تسير متمهلة بجوار الرصيف المحاذي لحديقة الحيوان، مرورا على كوبري الجامعة، ومنه إلى جامع صلاح الدين في نهاية الكوبري مباشرة.

هنا أعود إلى حكاية احتدام العواطف في مختلف المواقف، وأنا أرصد هتافات المشيعين الذين كانوا ينتمون إلى جماعات مختلفة، بل متناقضة، فقد كان الهتاف الجماعي هو «لا إله إلا الله» لكن جماعة معينة كانت تهتف «الإسلام هو الحل» بينما كان شاعر العامية المصرية سمير عبد الباقي، يردد مع جماعة من حوله قصيدة شهيرة يؤديها الشيخ إمام عيسى، وهي «مصر.. يا أمه.. يا بهية.. يا أم طرحة وجلابية.. الزمن شاب وانت شابة.. فات عليك ليل وميه.. واحتمالك هوه هوه.. وابتسامتك هيه هيه..» وهكذا عبرت كل جماعة من الجماعات المختلفة، بل المتناقضة، عن حزنها لفقد طه حسين، وهي تسير خلف نعشه الملفوف بعلم مصر العربية.

وسط الزحام تاه مني نظمي رمزي مبارك، لكني وجدت صديقا آخر يقترب ويصافحني، هو الدكتور أحمد إبراهيم الهواري، وبعد لحظات مر بجانبنا أستاذنا الدكتور عز الدين إسماعيل بقامته الشامخة، فقال لنا: «البقية في حياتكم..» وتأثرنا عميقا بهذه اللفتة، فقد أحسسنا إننا من أحفاد الرجل العظيم طه حسين.

دخل كثيرون إلى جامع صلاح الدين ليصلوا على الجثمان، وانتظر آخرون خارجه، وفجأة وجدت رجلا ممتلئا،يتجلى من نظراته غيظ لا حزن، واقترب الرجل الذي كنت أعرفه وكنت أتلاقى معه في «دار المحفوظات المصرية» بقلعة صلاح الدين الأيوبي، وصافحني هذا الرجل بقدر من الخشونة، وهو يقول:«إزاي يصلوا على واحد كافر..؟!».. ومن جانبي، فإني حاولت أن أكون هادئا وأنا أرد على هذا السؤال السخيف: «.. مادام هذا الرجل كافرا.. فليه انت ماشي في جنازته يا أستاذ أنور؟».. تعجبت تماما كيف يستطيع بعض المسلمين أن يحكموا على غيرهم من المسلمين بأنهم من الكافرين، وانسحبت بعيدا عن الرجل الذي أصدر – فيما بعد – كتبا عديدة تشكك في إيمان طه حسني.. أما الرجل فهو أنور الجندي، وبعيدا عنه وعن المتشنجين والمنغلقين والمتشددين الذين حاربوا وما زالوا يحاربون الاستنارة الفكرية، ويكفرون أي مسلم يختلف معهم، ويتصورون أن المسيحيين كفار!.. بعيدا عن هؤلاء الذين حاربوا طه حسين وما زالوا يواصلون حربهم ضده، أنطلق الآن إلى شاعرين عربيين مستنيرين، ينتميان إلى كل من العراق وسوريا. فأولهما شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري

الذي كان يرتبط مع طه حسين بصداقة إنسانية رائعة لدرجة أنه طلب منه أن يعلم أولاده في مصر، عندما كان العميد وزيرا للمعارف، وثانيهما الشاعر الكبير نزار قباني الذي ألقى قصيدة رائعة في حفل تأبين طه حسين في مقر الجامعة العربية، وكنت واحدا ممن حضروا هذا الحفل التأبيني الكبير، وأتذكر التصفيق المتواصل الذي كان الحاضرون يقاطعون به نزار قباني أثناء إلقاء قصيدته، وخصوصا عندما وجه حديثه لطه حسين قائلا:

آه يا سيدي الذي جعل الليل.. نهارا.. والأرض كالمهرجان

الق نظارتيك كي أتملى كيف تبكي شواطئ المرجان

ألق نظارتيك.. ما أنت أعمى إنما نحن معشر العميان

استمعت وقتها إلى قصيدة نزار قباني، لكنني حين قررت أن أعيد قراءتها في أجواء الذكرى الثلاثين لغياب العميد العظيم عنا، وجدت أن الشاعر الكبير قد أبدل لكلمة «ألق» كما سمعتها منه بكلمة «إرم» كما غير كلمة «معشر» وجعلها «جوقة» على النحو التالي:

ارم نظارتيك.. ما أنت أعمى إنما نحن جوقة العميان

وتحتدم الثورة في قلب نزار قباني، وهو يشير إلى عصر الظلام الفكري،مقارنا إياه بالعصر الذهبي للفكر في مرحلة طه حسين، وتتفجر الثورة شظايا في هيئة أبيات متوهجة:

أيها الأزهري.. يا سارق النار ويا كاسرا حدود الثواني

عد إلينا.. فإن عصرك عصر ذهبي.. ونحن عصر ثاني

سقط الفكر في النفاق السياسي وصار الأديب كالبهلوان

يتعاطى التبخير.. يحترف الرقص ويدعو بالنصر للسلطان

عد إلينا.. فإن ما يُكتب اليوم صغير الرؤى.. صغير المعاني

إذا كان نزار قباني قد تحسر على عصر طه حسين بعد مماته، فإن محمد مهدي الجواهري يقدم شهادة إنسانية مؤثرة عن العميد خلال حياته، وهذا نص ما قاله:

«.. كانت سفرتي إلى القاهرة إلى مؤتمر المثقفين العرب الذي كان بإشراف ورعاية الدكتور طه حسين وهو حينئذ وزير المعارف.

كانت سفرتي هذه تلبية لدعوة تلقيتها من الدكتور طه وحضرت المؤتمر مع جمع غفير من المثقفين العرب، وبخاصة من المصريين الذين كانوا الأكثرية، شاركت وألقيت قصيدتي وهي في الطليعة من قصائدي التي أعتز بها:

يا مصر تستبقُ الدهور وتعثرُ   والنيل يزخر والمسلة تزهرُ

وبنوك والتاريخ في قصبيهما   يتسابقان فيصهرون ويصهرُ

يا مصر لم تبخس جمالكِ ريشةٌ   مرتْ عليه ولم يخنكِ مصوِّرُ

الليل عندك غير ما عرف الدجى   في أرض غيرك والصباحُ المسفرُ

وكأنما من صنع جوِّكِ وحده   قمر على كبد السماء منور

وتمورت حبّاتُ رملك بينها   رفق الدهور وعنفها يتمورُ

يا «مصر» مصر الأكثرين ولم يزل   في الشرق يرضخ للأقلِّ الأكثرُ

يا «مصر» مصر الشعب لا غاياتُه   تفنى ولا خطواته تتقهقرُ

جبروته الأعلى فلا «نيرونه»   شيءٌ ولا «فرعونه» المتجبرُ

وألقى الدكتور طه بعدها خطابا عاطرا بالثناء والتقدير وبقيت بعد ذلك مدة غير قليلة ضيفا عليه، واغتنمت هذه الفرصة فطلبت إن كل يسهل عليه أن يتكفل أمر دراسة أولادي (أميرة وفرات وفلاح).. هؤلاء الثلاثة الذين كانوا مؤهلين لمثل هذا الطلب لأن البقية كانوا أطفالا وهم (نجاح وكفاح وظلال وخيال) وأن يتقبلهم كطلاب على نفقة وزارة المعارف في مصر. وفعلا رحب الرجل بذلك وانتقلوا بعدها إلى القاهرة.

وفي هذه السفرة قال لي وهو يشير إلى سفرة لندن عام ١٩٤٧م عندما زارني ودعاني إلى بيته:

عجيب أن تذهب إلى لندن بالطائرة وتترك هذا السفر الجميل والدنيا عن جانبيك في الباخرة.. فلما قلت له: إنهم يعتذرون (أي المصريين) ويقولون إنه لا توجد بواخر.. قال: يا أخي هؤلاء الإنجليز هم أهل مصر وأهل العراق ولا يصعب عليهم أن يعدوا لك باخرة .. جديدة.

عجيب أمر هذا الرجل إنه لا يرى ولكنه كان يحس الحياة بكل ما فيها.. على كل حال في المرة الثانية قال لي: تلك المرة ضاعت وهذه المرة لا أدعك تذهب، فحجز لي على «إسبيريا» وهي من أكبر البواخر في العالم وكانت قادمة. فسأل السكرتير عنده والذي كان كاتبا شهيرا هل وصلت إسبيريا؟ قال نعم سيدي قال له: احجز. فحجز لي على أرقى وأجمل وأعلى ما يكون من طوابق الباخرة. وكم كان أسفي أن تكون هذه الرحلة النادرة من الإسكندرية إلى بيروت فالإسكندرية ليس إلا، فقد كانت ليلة مقمرة بيضاء لا تنسى، كانت الدنيا ترقص كلها حتى البحر نفسه تحت أشعة القمر. فرجعت إلى بغداد وجهزت الأولاد بكل ما أمكنني وتيسرت الأمور وذهبوا إلى الدراسة وبقوا مدة سنتين أو ثلاثة ثم عادوا...».

تتجلى الاستنارة على المستوى الإنساني عند العميد العظيم في تعامله مع المرأة باعتبارها شريكا متكافئا للرجل في معترك الحياة، وقد كان يمكن لتلميذته الأولى الدكتورة سهير القلماوي أن تصبح طبيبة، لا أديبة، كما كانت تريد، لولا أنه شجعها تشجيعا صادقا على الالتحاق بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة، وأعتقد أنه ليس من الغريب أن أذكر الآن شهادة فراش قسم اللغة العربية «عم محمد مرسي» رحمه الله، والذي كان معاصرا لمرحلة التحاق سهير القلماوي بالقسم باعتبارها طالبة حيث قال لي في عدة مناسبات: «.. الدكتورة سهير ديه يا أستاذ حسن.. كانت تيجي تقف جنبي وهي طالبة..لأن كتير من الطلبة ماكانوش بيحبوا يكلموها.. إنما الدكتور طه هو بنفسه اللي كان دايما يسأل عليها..».

الحركة النسائية في مصر، وفي صدارتها أيام زمان درية شفيق ونبوية موسى و سهير القلماوي وأمينة السعيد وبنت الشاطئ وسواهن، كانت ترى في طه حسين أحد المساندين المؤثرين لها، ومن الطريف أن زعيمات الحركة النسائية في سوريا حرصن على لقاء يجمعهن مع طه حسين عندما زار دمشق بدعوة من وزير التربية والتعليم السوري سنة ١٩٥٥م،وكان العميد متذوقا للفن، وبخاصة في مجال الطرب والغناء، لدرجة أنه كان يهدي نسخا من كتبه الجديدة لأم كلثوم، كما كان يسعد بلقائه مع الفنانة المصرية اليهودية راقية إبراهيم، والتي لم تشأ أن تهاجر بعد عودة يوليو المجيدة إلى الكيان الصهيوني، وإنما هاجرت إلى الولايات المتحدة، وكانت راقية إبراهيم قد شاركت مع محمد عبد الوهاب في «رصاصة في القلب» سنة ١٩٤٤م الذي يتضمن أغنية مشتركة بينهما هي «محاورة حكيم عيون» وأكاد أتخيل من جانب حين أتأمل الضحكة العميقة يطلقها طه حسين في جلسته مع راقية إبراهيم، وكأنه يقول لها هو أيضا: «عشان تحرمي تاكلي جلاس.. وتدوبي قلوب الناس» وإن كانت هي لا تستطيع أن تسأل: «حكيم عيون.. حضرتك..؟!»

طه حسين.. الذي كان عميدا لآداب القاهرة.. وكان مديرا لجامعة الإسكندرية.. وكان وزيرا للمعارف.. وكان رئيسا لمجمع اللغة العربية يؤكد لنا جميعا ما قاله المتنبي العظيم:

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسامُ

طه حسين الذي رحل عن عالمنا يوم الاثنين ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣م رجل من أسرة فقيرة، نشأ في صعيد مصر، وفقد نعمة البصر وهو في الثالثة أو الرابعة من عمره.. وفي حياته ما يؤكد أن الفقر لا يستطيع أن يمنع الإنسان الطموح من أن يتفوق، وأن الإعاقة لا تستطيع منعه من أن يتألق.



في ذكرى غيابه عنا (٣-٣)
بماذا يتميز طه حسين عن أبناء جيله العمالقة؟

يجود الزمان بالرواد الكبار وبالعباقرة والعمالقة حين تكون الحياة في أوج تعطشها إلى الازدهار، وحين تكون الأرض متشوقة إلى الاخضرار، بعد أن شققها الجفاف، وعانت من ويلات الجدب، واستكان في أعماقها الخصب.

من هذا المنطلق، ينبغي ألا ننظر إلى طه حسين باعتباره العملاق الوحيد الذي ارتاد واكتشف وقدم وأبدع ما كانت الحياة في أوج تعطشها إليه، فقد جاد الزمان به وبسواه من أبناء جيله الرواد الكبار والعباقرة والعمالقة الذين تتقارب سنوات ميلادهم تقاربا قد يدعو إلى الدهشة والتأمل، ولو أننا لم نقتصر على الثقافة والفكر لوجدنا ما يدهشنا حقا حين ننظر إلى ميادين أخرى من ميادين الحياة ومجالاتها المتعددة والمتنوعة من ناحية، والمتشابكة والمتداخلة من ناحية ثانية، ولو أننا انطلقنا من دائرة مصر إلى دائرة الأرض العربية بامتداداتها الفسيحة، فإننا نجد ما يدعونا للدهشة والتأمل أكثر وأكثر.

في صعيد مصر، ولد الطفل طه حسين سنة ١٨٨٩ وفي نفس تلك السنة ولد عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني، كما ولد في بسكنتا – لبنان ميخائيل نعيمة، وقبل هؤلاء بثلاث سنوات ولدت مي زيادة سنة ١٨٨٦م، وهي نفس السنة التي ولد فيها عبد الرحمن شكري – أستاذ العقاد والمازني فيما بعد، وقبل مي زيادة وعبد الرحمن شكري بثلاث سنوات، ولد جبران خليل جبران سنة ١٨٨٣ في بشرى – لبنان، وفي سنة ١٨٩٢ ولد كل من سيد درويش ومحمد القصبجي ونجيب الريحاني وبعدهم بسنة واحدة ١٨٩٣ – ولد بيرم التونسي، أما قبلهم بسنة واحدة فقد ولد النحات العبقري محمود مختار صاحب تمثال «نهضة مصر» وسواه من أعمال النحت الخالدة، أما أم كلثوم – خالدة الصوت فقد ولدت سنة ١٨٩٨، بينما ولد توفيق الحكيم سنة ١٩٠٢ وبعده بسنة واحدة ولد في النجف الأشرف – العراق، وفقا لروايته هو – محمد مهدي الجواهري.

إذا كان الأحفاد يطرحون على أنفسهم أحيانا تساؤلات تتعلق بما قدمه الأجداد، فإن السؤال الشائك الذي أود أن أطرحه هو: بماذا يتميز طه حسين عن سواه من أبناء جيله العمالقة في مجال الثقافة والأدب والفكر.

قبل أن أحاول الإجابة على هذا السؤال الشائك،ومن باب الإنصاف التاريخي، لابد من القول أن الرأسمالية الوطنية في مصر قد قامت بدور مهم وعظيم في رعاية الفقراء ممن أصبحوا روادا كبارا وعباقرة وعمالقة فيما بعد، وعلينا هنا أن نتذكر – على سبيل المثال – رعاية هذه الرأسمالية الوطنية لمواهب كل من طه حسين وعباس محمود العقاد وأم كلثوم وكذلك محمد عبد الوهاب، ولابد هنا من المقارنة بين الرأسمالية الوطنية في زمان هؤلاء وبين الرأسمالية التي تتصور أنها وطنية في هذا الزمان، لنرى – وبكل أسف – أن هذه الرأسمالية الجديدة جاهلة ومتخلفة، وهذا ما يتجلى بالطبع من نماذج الفنون التي تقدم لها لإرضاء أذواقها المنحطة والسقيمة.

ولابد من القول إن أجواء الديمقراطية، رغم أنها كانت متركزة على الأقلية لا الأغلبية، دفعت الأحزاب المصرية والعراقية إلى أن تتنافس في استقطاب بعض الرواد الكبار والعباقرة والعمالقة، وهكذا احتضن أحد أحزاب الأقلية طه حسين في بداياته، لكنه – بحكم الانتماء – آثر الوقوف مع حزب الأغلبية فيما بعد، وهو حزب «الوفد» الذي لا أعتقد أن«الوفد الجديد» يمكن أن يمثله، وعلى نقيض طه حسين، نجد العقاد ينتمي في بداياته وشبابه إلى حزب الأغلبية «الوفد» لدرجة أن سعد باشا زغلول كان يلقبه بـ«كاتب الشرق الجبار» لكن العقاد في الكبر، وقبل ثورة يوليو ١٩٥٢م المجيدة، تحول للانضواء تحت كنف أحد أحزاب الأقلية، أما توفيق الحكيم فإنه فضل – وهذا أفضل – ألا ينتمي لأي حزب سياسي، وفضل بدلا من ذلك أن يطلق صوته من خلال الصحافة، وكذلك فعل إبراهيم عبد القادر المازني.

على ضوء سير حياة ومواقف الرواد الكبار والعباقرة والعمالقة، نستطيع أن نرصد ما كانوا يتوافقون فيه وما كانوا فيه يختلفون من خلال طبائعهم الشخصية وانتماءاتهم الفكرية والسياسية، وأهم ما يجمع هؤلاء – في تقديري – هو احترامهم وتقديرهم لمكانة الفكر وضرورة أن يكون هذا الفكر حرا ومستقلا إلى أبعد مدى، وهناك مثال

ناصــع لهذا، يتمثل في الأزمة الخطيرة التي تعرض لها طه حســين عندما أصــدر «في الشعر الجاهلي» سنة ١٩٢٦ فقد وقف عباس محمود العقاد في صفه دون أي تردد، رغم أن كلا منهما كان ينتمي لحزب، تتعارض أفكاره مع الحزب الآخر، وكذلك الحال حين وقف طه حسين دون أي تردد مع العقاد عندما قال: «إن الشعب مستعد لأن يسحق أكبر رأس في ســبيل الديمقراطية» و قد ســجن العقاد – وقتها – بتهمة «العيب في الذات الملكية».

يبدو أنه لابد من محاولة الإجابة على الســؤال الشــائك، بماذا يتميز طه حســين عن ســواه من أبناء جيله العمالقة؟ والحق أني ســأكتفي بالإشــارة إليه والإشــارة إلى عباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم،وربما أعود هنا إلى صــورة كل منهم مع الزعيم جمال عبد الناصر، حين تسلما جائزة الدولة التقديرية في الآداب، إذ يبدو طه حسين مبتسما وراضيا ويبدو العقاد معتدا بنفسه كل الاعتداد، بينما يبدو توفيق الحكيم غامضا إلى درجة المكر أو ماكرا إلى درجة الغموض، ومن خلال صــورة كل عملاق من هؤلاء الثلاثة مع جمال عبد الناصـر، نسـتطيع أن نسـتعيد العديد من المواقف التي تعرض لها كل منهم، وكيف واجهها كل منهم بطريقته الخاصة التي تنطلق من طبيعة شخصيته، فعلى حين كان العقاد يبدو دائما معتدا بنفســه كل الاعتداد، كان توفيق الحكيم يراوغ ويداور ويناور، أما طه حسين فإنه كان يجمع ما بين المرونة والاعتداد بالنفس.

إذا كان المتنبي العظيم قد قال:

«وما الجمع بين الماء والنار في يدي   بأصعب من أن أجمع الجد والفهـما»

فإن طه حـ سين – رغم أنه كان يفـ ضل أبا العلاء المعري على المتنبي – يتميز بأنه كان يجمع ما بين المرونة والاعتداد بالنفس، وهذا ما يتجلى في كثير من المواقف الســياســية والاجتماعية التي واجهته، كما نســتطيع أن نتعرف عليه، منطلقين من هذا «الجمع بين المرونة والاعتداد بالنفس» من خلال ما كتبه عنه كثيرون ممن كانوا قريبين منه، ولابد هنا أن أشير إلى الكتاب الإنساني البديع والرائع الذي كتبته عن طه حسين زوجته الفرنسية الوفية، وهو كتاب «معك» الذي ترجمه من اللغة الفرنســية إلى لغتنا العربية بدر الدين عرودكي، وراجع ترجمته محمود أمين العالم.

كم تمنيت لو أنقل الآن مقتطفات من كتاب سوزان طه حسين «معك» لكني – بكل صراحة – احترت حيرة شديدة فيما أختار، ولهذا أكتفي بالفقرة الأولى التي تتصدر الكتاب، حيث تقول الزوجة الفرنسية الوفية للعميد العملاق، زوجها طه حسين: «... إننا لا نحيا لنكون سعداء.. عندما قلت لي هذه الكلمات في عام ١٩٣٤ أصابني الذهول، لكني أدرك الآن ماذا كنت تعني، وأعرف أنه عندما يكون شأن المرء شأن طه، فإنه لا يعيش ليكون سعيدا، وإنما يعيش لأداء ما طلب منه، لقد كنا على حافة اليأس، ورحت أفكر:«لا.. إننا لا نحيا لنكون سعداء، ولا حتى لنجعل الآخرين سعداء».. لكنني كنت على خطأ.. فلقد منحت الفرح، وبذلت ما في نفسك من الشجاعة والإيمان والأمل. كنت تعرف تماما أنه لا وجود لهذه السعادة على الأرض، وأنك أساسا، بما تمتاز به من زهد النفوس العظيمة، لم تكن تبحث عنها، فهل يحظر عليَّ الأمل بأن تكون هذه السعادة قد منحت لك الآن؟...».

لم تكن خالدة الصوت أم كلثوم «مفكرة» بطبيعة الحال، وإنما كانت «فنانة» عظيمة، وما يزال الذين لم تفسد أذواقهم بعد يستمتعون بصوتها وفنها حتى الآن، ومع هذا فإن طه حسين أهداها سنة ١٩٣٦ «القصر المسحور» وهو بالطبع ليس قصرا من المرمر أو حتى الرخام، وإلا لما كان طه حسين قد حلم مجرد الحلم – أن يهديه إياها، فهذا «القصر المسحور» كتاب ممتع حقا، قرأته منذ أن كنت طالبا بالمرحلة الثانوية، وأعدت قراءته عدة مرات فيما بعد، وإن كنت قد اكتشفت – مغتاظا وآسفا – أن هذا القصر المسحور قد اختفى من مكتبتي، ولابد من القول إن توفيق الحكيم قد شارك طه حسين في تأليف هذا الكتاب، وقد سعدت أم كلثوم حقا، عندما أهدى لها العميد العملاق نسخة منه، حيث كتبت له رسالة رقيقة، تعبر فيها عن امتنانها بإهداء الكتاب، وهذا نص رسالة أم كلثوم:

« سيدي الأستاذ الجليل طه بك حسين. حظيت بمؤلفكم (القصر المسحور) الذي تفضلتم بإهدائه إليَّ فأكبرت منكم ذلك العطف الكريم ولا شك عندي في أنني سأجد بين طياته غذاء ويضاعف شكري ويحفظ لكم في نفسي أجمل الذكريات. أدامكم الله منارا للعلم والأدب. أم كلثوم إبراهيم»

«منار العلم والأدب» غاب عنا منذ ثلاثين سـنة، وبالتحديد يوم ٢٨ أكتوبر سـنة ١٩٧٣، لكن إشـعاعاته المؤثرة والسـاطعة والباقية سـتظل، لكي يهتدي بها الأحفاد، و«منار الفن – كوكب الشـرق» ما زال يمتع الأرواح والقلوب، حتى رغم غيابه عنا منذ الرابع من فبراير سنة ١٩٧٥م.

الآن، أقول إن العمالقة والعباقرة لا يموتون، لكني أطمع طمعا مشروعا في أن يجود الزمان علينا بمن يطلون من جديد، لأن أرضـنا العربية تبدو الآن متشـققة، خاصـة وأن كثيرين ممن يحاولون توجيه الحياة فوقها قد ترهلوا وتجمدوا، وأصـبح كل ما يحلمون به أن تترهل الحياة ذاتها وأن تتجمد.

سيدي العميد.. ليتني كنت قد قبلت يدك عندما صافحتك مرة واحدة في حياتي..



ليس انحيازًا أعمى لتوأم الروح :
طه حسين يفضل المعري على بشار والمتنبي

كأنما كانا يعيشان معا في زمان واحد ومكان واحد ، رغم أن أكثر من ألف سنة تفصل بينهما ، كما أن الأول ظل طيلة حياته قانعا بسجنه أو بسجونه الثلاثة التي تحدث عنها كثيرا ، بينما كان الثاني محبا لأن يجوب الأرض غربا وشرقا ، وكانا كأنما يشتركان في كل ما يتعلق بأمور حياتهما اليومية ، حيث يأكلان معا ، ويشربان معا ، وينامان في وقت واحد ويصحوان من نومهما معا !

هذا ما أحسست به منذ قراءاتي المبكرة لما كتبه عميد الأدب العربي طه حسين عن شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء أبي العلاء المعري ، ومع كل قراءة جديدة كان هذا الإحساس يتأكد عندي ويتجدد ، لكن طه حسين لم يكن منحازا للمعري انحيازا أعمى ، بقدر ما كان يمزج روحه بروحه ، وهو يتغلغل - بعمق وببصيرة نافذة- في أعماق شاعره المفضل عنده ، والذي رفعه في المكانة الشعرية على كل الشعراء العرب بمن فيهم المتنبي نفسه .

كان طه حسين واضحا كل الوضوح ، وهو يتحدث عن فقدانه نعمة البصر ، وكان متعاطفا كل التعاطف مع المعري وهو يتحدث عن معاناته القاسية نتيجة فقدانه نفس النعمة ، لكنه كان يعقد مقارنات عديدة ورائعة بينه وبين شاعره الذي فضله على الجميع ، فهو يبدو واقعيا ومتسامحا تجاه ما أصابه ، وهو يرى أن المعري ظل حانقا وساخطا على ما جرى له .

في إحدى رحلاته إلى إيطاليا صيف سنة ١٩٣٩ يصور لنا طه حسين كيف كان من معه يتأملون الطبيعة التي يرونها بعيونهم ، وكيف كان هو يتأملها ، فيقول : بينما كانت زوجتي وابناي وصاحبي ينظرون إلى البحر والسماء وإلى الجزر والربى ، وإلى هذه المناظر الكثيرة المختلفة التي كانت تُحدث لهم متعة، وتُطلق ألسنتهم بالإعجاب وتبهر نفوسهم ، وتسحر قلوبهم ، كنت أحس هذه الطبيعة التي لم أكن أراها ولا أتصورها ولا أعرف لها كنها تدنو مني قليلا قليلا ، ثم تنفذ إلى نفسي ، ثم تملأ قلبي رضا وأملا وحبا للحياة .

بعد هذا التصوير الإنساني والأدبي الرائع ، ينطلق بنا العميد العظيم ، لكي يعقد مقارنة بينه وبين أبي العلاء المعري ، حيث يقول : .. وبينما كان من معي يتحدثون عما يرون ، ويتواصفون ما كانوا يشاهدون ، كنت أنا أدير حوارا بيني وبين أبي العلاء ، موضوعه الرضا عن الحياة والسخط عليها والابتسام لها والضيق بها ، وكنت أحدث أبا العلاء بأن تشاؤمه لا مصدر له في حقيقة الأمر إلا العجز عن تذوق الحياة والقصور عن الشعور بما يمكن أن يكون فيها من جمال وبهجة ومن نعيم ولذة ، وكان أبو العلاء يقول لي : فإنك ترضى عما لا تعرف وتعجب بما لا ترى .

على امتداد صفحات كتاب – مع أبي العلاء في سجنه – يظل العميد العظيم في حالة حوار جذاب وممتع مع شاعره الذي يفضله – كما قلت – على الجميع ، وعلى الرغم من تعدد وجوه الاتفاق والافتراق بين الرجلين اللذين فقد كل منهما نعمة البصر ، فإننا لا نستطيع أن نتصور إلا أنهما توأمان يتحديان الزمان ، حتى وإن كان كل منهما قد سلك طريقا مختلفا عن الآخر قي مجال التحدي ، لكن انحياز طه حسين للمعري ليس – كما قلت – مجرد انحياز أعمى ، والدليل على هذا أنه قد قارن بين شاعره وبين شاعر آخر هو بشار ابن برد الذي كان كذلك فاقدا لنعمة البصر ، ولكن الفرق بينهما من وجهة نظر طه حسين هو نفس الفرق بين الثرى والثريا ، كما أن العميد العظيم قد قام بعقد مقارنة أخرى بين المعري والمتنبي ، وجاء حكمه لصالح الأول لا الثاني ، ولا بد لي هنا أن أعترف بأن إعجابي الفائق بالمتنبي لم يستطع أن يمنعني من أن أنحاز تماما لانحياز طه حسين للمعري شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء ! .

ولكي تتضاعف متعتي بما أكده طه حسين من انحياز مبني على الحجج والبراهين لشاعر معرة النعمان والإنسانية جمعاء ، كان لا بد أن أجري حوارا جديدا مع العميد العظيم ، حيث سألته عن الأسباب التي حفزته لأن يقدم أبا العلاء على كل من المتنبي وبشار بن برد ، وجاء الجواب حاسما ، ووجدت نفسي في حالة متعة غامرة وآسرة وأنا أنقل ما قاله بالنص، حيث قارن في البداية بين أبي العلاء وبشار بن برد ، قائلا :

إذا كانت سيرة أبى العلاء طهارة ونقاءً وبراءة من الإثم والعاب . فسيرة بشار هي العهارة والدنس والتهالك على الإثم والإغراق في العاب . وإذا كانت سيرة أبى العلاء تواضعاً بل إسرافاً في التواضع، فسيرة بشار هي الكبرياء بل تجاوز الكبرياء إلى ما هو شر منها، إلى التيه والغرور . وإذا كانت سيرة أبى العلاء زهداً في الدنيا بل إعراضاً عنها بل بعضاً لها فسيرة بشار رغبة في الدنيا، بل تهالك عليها، بل فناء فيها . وإذا كانت سيرة أبى العلاء تعذيباً لنفسه وجسمه وأخذاً لهما بأشد القوانين وأصرمها، وحملا لهما على أعنف المحامل وأخشنها، وصرفاً لهما عن أيسر اللذات وأهونها، فسيرة بشار تنعيم لنفسه وجسمه، وإرسال لشهواتهما على سجيتها، وحمل لهما على أيسر المحامل وأوثرها، واقتحام بهما إلى أعظم حظ ممكن من اللذة وأكبر قسط ممكن من النعيم . ومع ذلك فقد كان كل من الشاعرين مجبراً في أكثر أحيانه وأغلب أمره . وكان كل من الشاعرين ينكر التكليف أو يكاد ينكره . وكان كل من الشاعرين يجهر بأنه ليس مسؤولاً عما يأتى في حياته من خير وشر . فما بال هذين الشاعرين اللذين اشتركا في هذه الآفة الطارئة كما اشتركا في التفوق والنبوغ قد سلكا هاتين الطريقين المتعاكستين ؟

كان كل منهما متشائماً ، ولكن تشاؤم أحدهما انتهى به إلى العهارة والفجور والإباحة ، وتشاؤم أحدهما الآخر انتهى به إلى الطهر والبر النسك والتحرج . أكان مصدر هذا الخلاف البيئة التي عاش فيها كل من الشاعرين ؟ فقد عاش بشار في بيئة زندقة ومجون ، وعاش أبو العلاء في بيئة تحفظ واحتشام وورع ؟ أكان مصدر ذلك الأسرة ؟ فقد انحدر بشار من أسرة فارسية خضعت للرق وانحدر أبو العلاء من أسرة عربية لم تعرف إلا العزة والحرية . أكان مصدر ذلك العصر السياسي؟ فقد عاش بشار في عصر ثورة لم تتناول السياسة وحدها بل تناولت الأخلاق والدين ونظام الاجتماع ، وعاش أبوالعلاء في عصر مهما تفسد فيه الحياة فقد كان فيه استقرار ما للعرف الخلقي والاجتماعي . أم كان مصدر هذا كله ما قدمناه وغير ما قدمناه ، وشيء آخر يظهر أنه أساسي وهو أن بشاراً كان إنسي الولادة والغريزة ، وأن أبا العلاء كان إنسي الولادة وحشي الغريزة ، فنشأ أولهما ، ولاحظ له من حياء ، ونشأ ثانيهما والحياء أظهر صفاته وأعظم خصاله سلطاناً عليه . ونشأ أولهما ولا سلطان له على غرائزه ، وإنما لغرائزه على نفسه وجسمه السلطان كله ، ونشأ ثانيهما ولا سلطان لغرائزه عليه وإنما عقله هو المسيطر على نفسه وجسمه جميعاً !

ونشــأ أولهما يتمدح بآفته جهراً ونشــأ ثانيهما لا يذكر هذه الآفة إلا كارهاً ، فإذا تحدث عنها قال: إنها عورة يجب أن تستر ! ونشأ أولهما لا يعرف التستر بمباح ولا بمحظور ، لا يتحرج أن يظهر ســوأته للناس ويرضـــي أخس غرائزه بين أيديهم فضــلا عن معاقرة الخمر وتتبع النساء والتعرض في ذلك لما يخزي ويسوء . ونشأ ثانيهما لا يجب الجهر بشيء لاحظ له من محظور عليه ، فإذا ألم بأيسر ما يباح له وهو الطعام ألوى به سراً وعلى اســتخفاء ! ونشــأ أولهما محباً للمال متهالكاً عليه يطلبه من وجهه ومن غير وجهه، ويحصل عليه بالمدح فإن أعياه ذلك حصل عليه بالهجاء ! ونشأ ثانيهما والمال أبغض الأشـياء إليه وأهونها عليه لا يطلبه بمدح ولا بهجاء ولا يسـعى إليه من وجه ولا من غير وجه ، يتاح له منه ما يقيم الأود فيقسمه مناصفةً بينه وبين خادمه ولو استطاع لما أصاب منه شيئاً ! ونشأ أولهما عدواً للناس مسيئاً إليهم مستطيلا عليهم إلا أن تكون لهم القوة ويتاح لهم الاستعلاء ، فهناك يذل ويستكين ، ويظهر من الذلة والاستكانة ما يستحى منه أهون الناس شأناً وأقلهم خطراً ! ونشأ ثانيهما محباً للناس أشد الحب رفيقاً بهم أعظم الرفق يغلظ لهم قوله ويرق لهم قلبه ، يعنف عليهم في اللفظ وينصـح لهم في دخيلة النفس وأعماق الضمير ، لا يريد بهم شراً ولا ينتظر منهم خيراً ، يقدم إليهم المعروف ما قدر عليه ولا ينتظر منهم شكراً بل لا يرى أنه يستحق منهم شكراً .

** وهنا قلت للعميد العظيم : سـيدي .. إنك رفعت أبا العلاء المعري إلى أعلى سماء ، كما خسفت ببشار بن برد سابع أرض ، فماذا أنت قائل عن أبي الطيب المتنبي ، وهل ستخسف به هو أيضا الأرض كما فعلت ببشار ؟

استأنف طه حسين كلامه بنبرات صوته التي يتجلى فيها جمال لغتنا العربية ، قائلا :

أبو الطيب نشأ وعاش في عصر قريب من عصر أبى العلاء مشبه له في أكثر خصاله ، وقد شــارك أبا العلاء في ذكاء القلب ونفاذ البصـيرة وفى التفوق والنبوغ ، وشــاركه في الشـعور بفساد الحياة العامة للمسـلمين من جميع أنحائها ، وشـاركه في الشـعور بتفوقه وامتيازه وفى اعتداده بنفســه ، ولكنه لم يشــاركه في هذه الآفة التي اضــطرته إلى العجز وأخذته بالوحدة وفرضـت عليه الاعتزال . ومع أن أصـول الفلسـفة العلائية توشـك أن توجد كلها في شعر أبى الطيب ، ومع أن أصول الفن العلائي يوجد أكثرها في شعر أبى

الطيب ، مع أن أبا العلاء كان مقلداً لأبى الطيب مفتوناً به حتى لنستطيع أن نعده تلميذاً من تلاميذه ، مع هذا كله فما أعظم الفرق بين الرجلين لا في حياتهما العملية وحدها بل في حياتهما العقلية أيضاً ! كان أبو الطيب عبداً لشهواته بشرط ألا نفهم من هذه الشهوات شهوات اللذة والفسوق ونعيم الحياة ، وإنما نفهم منها شهوات أخرى ممتازة بعض الشيء، شهوات الثروة والغنى والاستعلاء على الناس . وأنفق حياته كلها في إرضاء هذه الشهوات واحتمل في سبيل ذلك ما يطاق وما لا يطاق. ذاق مرارة البؤس واحتمل ذل السؤال ، وباع شعره في سوق الكساد ، ومدح من كان يحتقرهم أشد الاحتقار ، وتملق من كان يزدريهم أقبح الازدراء واندفع إلى المخاطرة والمغامرة ، انتهى إلى السجن وتعرض للموت ، وباع نفسه وحريته وكرامته للملوك والأمراء ، وتبدل رأياً برأي ومذهباً بمذهب ، وذل للفرس بعد أن كان لهم عدواً وبهم مغرياً وعليهم محرضاً ، وما زال يتقلب في هذا الفساد السياسي والخلقي حتى تلقاه الموت في بعض الصحراء فأراحه وأراح منه !

فأين هذا من أبى العلاء الذي لم يدع لنفسه شهوة إلا أذلها ، ولا عاطفة إلا أخضعها لسلطان عقله ، والذي اعتد بنفسه فارتفع بها عما تحتاج إليه الحياة من صراع ، وآثرها بالعافية وألزمها القصد والاعتدال ، وضن بها على الكذب والمين وعلى البيع والشراء ، ولم يرد أن يتشبه بالملوك والأمراء في ملكهم وإمارتهم ، ولا أن يطمع فيما يفيد عندهم الشعراء والأدباء والعلماء من رخيص اللذات يشترونه بأغلى الأثمان ، وإنما أراد ما هو أرفع من ذلك مكاناً وأبعد من ذلك منالا وأجلّ من ذلك خطراً . أراد أن يتوحد لأن الله واحد فقال :

توحدْ فإن الله ربك واحدٌ ولا ترغبنْ في عشرة الرؤساء

وازن بين المطمحين ، وقس إلى ضعة أبى الطيب رفعة أبى العلاء ، إن كان يمكن أن تقاس الرفعة إلى الضعة . ومع ذلك فقد لقي كل من الرجلين في سبيل مطمحه آلاماً شداداً لا يبلغها الإحصاء ، إلا أن آلام المتنبي تُقصّ فلا تثير في نفسي إلا غيظاً وازدراءً ، وقد تثير في نفس غيري من الناس إكباراً وإعجاباً ، وآلام أبى العلاء تقصّ فتثير في نفسي حباً وإجلالاً كما تثير فيها عطفاً وحناناً وإشفاقاً .

** توقف طه حسين عن الكلام لحظات ، ثم عاد ليعلن انحيازه غير الأعمى لشاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء ، قائلا :

أرأيت إلى الموازنة بين أبى العلاء وصاحبيه هذين إلام تنتهي وماذا تعقب في النفس من إعجاب مرّ بهذا الرجل الضئيل النحيل الذي شارك صاحبيه في كثير من أشياء كانت تقتضى أن تتشابه حياتهم ، ولكنه مع ذلك امتاز منهما أشد الامتياز وأعظمه ؟

أنا أعجب ببشار وأكبر فنه ولكنى لا أحبه ولا أراه يثير في نفسي إلا صدوداً عنه و ضيقاً به وأنا أقدر فن المتنبي وأعجب ببعض آثاره إعجاباً لا حد له ، وأعجب ببعضها الآخر إعجاباً متواضعاً – إن صح أن يتواضع الإعجاب – وأمقت سائرها مقتاً شديداً . ولا تثير حياة المتنبي في نفسي إشفاقاً عليه ولا رثاء له وإنما هو مغامر طلب ما لم يخلق له ، وتعرض لما كان يحسن أن يُعرْض عنه ، فانتهى إلى ما ينتهي إليه أمثاله المغامرون . أما أبو العلاء فإن له في نفسي شأناً آخر لا يغيظني ولا يحفظني لأن حياته كلها قد برئت مما يحفظ أو يغيظ . وهو قد يغيظ فريقاً من الناس وقد يحفظهم ، لأنه يخالفهم في الرأي ولأنه ينكر ما يعرفون ويسخر مما يرتفعون به عن السخرية ، ويستهزئ بما يرون الاستهزاء به إثماً ونكراً . كان هؤلاء الشعراء الثلاثة بشار والمتنبي وأبو العلاء كباراً في أنفسهم ، وكانت كبرياؤهم أظهر ما سيطر على حياتهم من خصلة ، ومصدر ما لقوا من مكروه .

كشفت آفة أبى العلاء له سجنه الفلسفي ، وامتزجت به فأصبحت سجناً من داخل سجن ، وألف الرجل هذين السجنين أشدَّ الإلف ، وضاق بهما أشد الضيق . ولا تعجب لهذا التناقض فهو قوام حياة أبى العلاء ، بل هو قوام الحياة لكل رجل يجمع بين دقة الحس ورقة الشعور وحدة المزاج وقوة العقل والإرادة جميعاً . وقد امتحن الله أبا العلاء بهذه الخصال كلها فثبت للمحنة ثباتاً عجيباً ولكنه ضاق بها ضيقاً شديداً وشكا منها شكاة متصلة. ولولا هذه الشكاة وذلك الضيق لما نعمنا باللزوميات وما ترك لنا أبو العلاء من الآثار! وماذا تريد أن يصنع؟ لقد احتمل حياته في هذين السجنين كارهاً فصوَّر كراهته هذه ، ولم يكن يستطيع أن يفر من حياة السجن هذه :

وهل يأبَقُ الإنســانُ من ملك ربه فيخرج من أرض له وســماء ؟

** بمجرد أن فرغ طه حسين من ترديد بيت أبي العلاء ، قلت له أتعلم يا سيدي أن أحد تلاميذك المحبين قد تحدث بكل إعجاب وإكبار عن هذا البيت ؟

* ومن يكون هذا التلميذ المحب ؟

** إنه – يا سيدي – تلميذك وأستاذي صلاح عبد الصبور .

* أظن أني أتذكر ما قاله ، ولكن عليك أن تذكرني بشــكل وافٍ وكاف إذا كنت أنت تتذكر !

** إن ما قاله صلاح عبد الصبور مبثوث في ثنايا كتاب من أجمل كتبه وعنوانه حياتي في الشعر، وقد قال بالحرف الواحد :

إننا نتألم لأننا نحس بمسـؤوليتنا ، ونعرف أن هذا الكون هو قدرنا ، لقد كنت – مرة – أقرأ بيت المعري العظيم

وهل يأبق الإنســان من ملك ربه فيخرج من أرض له وســماء

لقد ارتعدت حين قرأته ، لم تكن تلك قراءتي الأولى له ولكنها قراءة ما ، قد تكون الثانية أو العشـرين أو المائة فتحت فجأة أمامي طريقا طويلا مخيفا ، وأحســست كأني أصبت بالحمى ، وأدركت فجأة ما دار في خلد هذا الفنان النبيل الأعمى الذي حمل وحده في تراثنا العربي كله عبء الإنســان على كتفيه العجوزين الناحلين ، إن الإنســان عبد، لا لأن الله أمره بعبادته ، بل لأن الحياة ذاتها عبودية وأيسر ، وأين يستطيع الإنسان أن يهرب ؟ هبه استبدل بلدا ببلد أسرع مما يستبدل حذاء بحذاء كما قال بريخت ، فهل يستطيع أن يستبدل بالكون كونا غيره ؟!

** لم يمهلني طه حسين ، وإنما قال على الفور :

كلا ! ليس إلى ذلك من سبيل . فليقم أبو العلاء إذن حيث أراد الله له أن يقيم ، وليرتب أمره كما يستطيع في هذين السجنين ، وقد فعل ، فأنشأ لنفسه هذا السجن الثالث الذى لزمه نصف قرن وهو بيته في المعرة . وليس المهم أنه أقام في بيته نصف قرن لا يتركه ،

وإنما المهم أنه أقام في هذا البيت على نحو خاص لم يتعود الناس أو لم يتعود أكثر الناس أن يقيموا عليه في البيوت وحسبك أنه كان فذاً في هذا بين المسلمين جميعاً على اختلاف البيئات والعصور.



قمر المعرفة
الذي غاب بغير إياب
سهير القلماوي: نحن نتعلم لكي نعرف.. كم نجهل

أستاذتي الغالية العظيمة د. سهير القلماوي.. من أين وكيف أبدأ حديثي معك وعنك الآن؟ أعرف أنك لو كنت تسمعينني الآن لكنت قد قلت لي على الفور: ابدأ من حيث تشاء وكيفما ترى، فالمهم أن تبدأ.. أعرف أنك بالتأكيد كنت ستقولين لي هذا وأنا أسأل: من أين أبدأ وكيف؟.. فأنت لم تكوني تحبين التردد، وكنت تحثين من يترددون على أن يحسموا أمورهم حتى لا يتأخروا في تحقيق ما يريدون.. المهم أن تحسم الأمور، وليكن بعدها ما يكون.

مواقف عديدة في حياتك – يا أستاذتي الغالية – تؤكد أنك لم تكوني تحبين التردد.. عندما كنت في السابعة عشرة من عمرك،كنت تريدين أن تصبحي طبيبة لا أديبة، كنت تريدين أن تدرسي الطب، لتكوني امتدادا لأبيك الذي كنت تحبينه لدرجة العبادة، وأعود هنا إلى ما كتبته أنت بنفسك عن تلك المرحلة الباكرة من حياتك.. «.. كنت بكل ما في عقلي أ سعى لأن أكون طبيبة، وكان تفوقي في العلوم والرياضيات تفوقا أثار إعجاب مدرساتي هو الذي برر عندي هذا الاندفاع في أملي الأكبر.. كنت أكاد أعبد أبي، وكان أبي جراحا من طراز فريد، وكانت سعادتي في أن أناوله شيئا في عيادته وآنس أني أعاونه طبيا».. وقتها ثارت ثائرة كثيرين، لا من الأساتذة المصريين وحدهم، بل من الإنجليز أنفسهم، لدرجة أن العميد الإنجليزي لكلية الطب وقتها هدد بالاستقالة إذا تم قبولك – باعتبارك طالبة – في كلية الطب.

تغيير المسار من طبيبة إلى أديبة تحقق بالإقناع عن طريق الرجل العظيم الذي كنت تلميذته الأولى.. تغيير المسار تحقق عن طريق عميد الأدب العربي طه حسين.. وأتنحى الآن بقلمي لكي تروي لنا بنفسك- يا أستاذتي الغالية – كيف تم تغيير المسار.. في كتاب «طه حسين – كما يعرفه كتاب عصره» تروين أنت القصة.

تقولين.. «ذهبت إلى منزل طه حسين في مصر الجديدة، قرب دير للراهبات هناك وأحسست بالخشية والخوف وزاد خوفي لما وجدت في غرفة الاستقبال زوارا لا أعرفهم ولكن خالي همس يشجعني وما أن خلت الغرفة قليلا حتى بسطتُ لطه حسين قصتي فإذا هو يعرفها، وإذا هو يقول:

ماذا عليك، أنا أقبلك في كلية الآداب وفي قســم اللغة العربية وســتجدين بغيتك من التشريح في شعر جرير والفرزدق.. وضحك ولم أفهم شيئا..

ماذا؟ .. قسم اللغة العربية!.. إنه انتحار لأني قطعا سأرسب وأرسب إلى ما شاء الله.. قال:

ماذا؟.. ألا يعجبك أن أدرس لك..

والتفت وأنا كمن خرج من بئر عميقة، وقلت في تلعثم:

أبدا.. هذا شرف.. شرف كبير.

و ضحك في حنان عجيب، وأحسست من وراء ضحكه روحا حلوة وقارنته بسرعة بأبي فإذا فيه الكثير منه.. ودار كلام كثير وأنا أحاول أن ألم شتات نفسي، وأن أتبين ماذا أنا مقدمة عليه.. ورنت كلماته:

غدًا في كلية الآداب الساعة العاشرة موعدنا.. اتفقنا..

منذ ذلك اليوم ولطه حسين في حياتي منزلة الأب الروحي بكل معاني الكلمة.. هو الذي حوَّل يأ سي أملا وهو الذي شجعني وأنا خريجة مدر سة در ست فيها كل علومي بالإنجليزية على أن أتخصص في اللغة العربية.. ما شكوت له عسرا حتى أحاله في حنان الوالد إلى يسر..».

كنت تبتسمين – يا أستاذتي الغالية – ابتسامة رصينة وجميلة، حين تجدين أني قد أبطأت أو تباطأت في إنجاز شيء ما من الأشياء التي أود تحقيقها.. كنت تبتسمين قائلة: «.. يا حسن.. الوقت كالسيف..» وتطلبين مني أن أكمل «.. إن لم تقطعه قطعك..».. كنت تدركين قيمة الوقت ولهذا لم تكوني تحبين التردد، إذ لابد من حسم الأمور، ولكن في إطار الممكن، لم تستطيعي أن تحققي أمنيتك في أن تكوني طبيبة بارعة، فحسمت الأمر وأ صبحت أديبة رائعة، وكانت درا ستك قبل الجامعة باللغة الإنجليزية وحسمت الأمر في الجامعة فأ صبحت أول طالبة في قسم اللغة العربية.. حسم الأمور في إطار الممكن، هو المنهج الذي سرتِ عليه، وهو المنهج الذي يسير عليه العقلاء الأسوياء، إذ لا فائدة من البكاء على ما ضاع، أو على ما كان مفترضا أن يكون لكنه لم يكن.

إلى جانب حسم الأمور في إطار الممكن، كانت خطواتك في الحياة تؤكد كلها ضرورة التوازن في علاقات الإنســان مع الحياة والناس والأشــياء، لهذا كان لابد أن تكون كل خطوة محسوبة، فالذين يحاولون أن يقفزوا في الهواء لابد أن يسقطوا بسرعة، حتى لو استطاعوا أن يقفزوا مرة أو حتى عدة مرات.

في بدايات خطواتك مع الأدب، جربت – يا أســتاذتي الغالية – أن تكوني شــاعرة، وبالفعل فإن مجلة «أبولو» العريقة قد نشــرت لك عدة قصــائد، أولاها نشــرت في عدد فبراير ١٩٣٣، ولكنك أدركت – بعد مراجعة للنفس – أن موهبتك الأدبية تتفتح أكبر وأكثر مع فن القصة القصيرة، فكان أن حسمت الأمر وهجرت الشعر إلى القصة القصيرة، حيث أصدرتِ – فيما بعد – «أحاديث جدتي» ثم «الشياطين تلهو».

حين أتأمل القصيدة الأولى التي نشرتها «أبولو» لك وأتأمل معها القصيدة التالية لها، أجد أن قضية الموت لا قضية الحب هي التي شغلت بالك وحفزتك للكتابة مع أنه كان من الطبيعي والبديهي أن تكون قضية الحب لا قضية الموت هي شاغلك الأول بحكم أنك كنت وقتها في ذروة شبابك.

كانت قصــيدتك الأولى «إلى الحرب» (أبولو – فبراير ١٩٣٣ – ص٦٥٥) مســتوحاة من قصيدة لشاعر أمريكي، شارك في الحرب العالمية الأولى، وقُتِلَ خلالها عام ١٩١٦م، وهو الشاعر آلان سيجر، وكان موضوع القصيدة هو الموت الذي يتنبأ الشاعر الأمريكي بأن يلتقي معه وجها لوجه، فقد كان عنوان قصيدته:

(I have a Rendez - vous with Death)

وجاءت قصــيدتك «إلى الحرب» المســتوحاة من قصــيدة الشــاعر الأمريكي لتبرز إحساسنا بالواجب الذي قد يتطلب منا أن نضحي بالحياة ذاتها، رغم جمال الحياة ورغبة الشباب لأن ينهل من ينابيعها المختلفة:

يعلم الله لكم تحلو الحياة

لمريض إذ يرى طيف المنون

تلك حالي الآن، لكن كيف أخشى

رهبة الموت ومن عهدي يصون؟

كم أحب العيش في فصل الربيع

كم أحب العيش في الفصل الحنون

كم أحب العيش رباه ولكن

لن أخون العهد، عهدي لن أخون

وجاءت قصيدتك التالية «هي ماتت» (أبولو – مارس عام ١٩٣٣ – ص٨١١) بمثابة مرثية حزينة، تتشابك فيها تساؤلات عن الموت وحقيقته:

أترى قدر للنفس الخلود

كل من يدري يولي لن يعود

قد عرفت اليوم ما سر الوجود

فارحميني.. خبريني.. ما الفناء

إن نفسي في عذاب وعناء

***

لم تكن سهير القلماوي وحدها شاعرة «أبولو» في بدايات الثلاثينيات، فقد كانت هناك شاعرتان أخريان، تنشر «أبولو» لهما قصائدهما، هما الشاعرة جميلة محمد العلايلي – المصرية والشاعرة رباب الكاظمي – العراقية وابنة الشاعر السيد عبد المحسن الكاظمي، وفي عدد ديسمبر عام ١٩٣٣ من مجلة «أبولو» كتب صالح جودت مقالا بعنوان «الشعر النسائي الحديث» تناول فيه قصائد سهير القلماوي – جميلة العلايلي – رباب الكاظمي. يقول صالح جودت عن القصيدة الأولى «إلى الحرب» لأستاذتي الغالية «.. تختلف سهير عن زميلاتها في

نزعتها الإنسـانية، ويخيل إليَّ – وأنا لم أرها– أنها حائرة في نظام الكون..» ويقول: «إنها لا تتطلع إلى حب ولا ترنو إلى أمل من آمال الصبا ولا تشترك في أحلام الشباب لأن لها نفسا أكبر من نفس الشـباب، وعقلا أبدع مرمى من عقله..» وعن القصـيدة ذاتها يقول صـالح جودت: «.. ليتأمل القارئ أية نزعات خلقتها الشـاعرة في صـدر الجندي المسـكين.. نزعة نحو الحياة وإشفاق من الموت، ونزعة نحو النزول على إرادة القدر الظالم، ثم نزعة نحو الواجب واستهانة بالموت.. كل هذه العوامل تخلقها الفيلسوفة الشاعرة في صدر جنديها المجهول..».

أقفز الآن لا في الهواء، فهذا ما لا تحبه أسـتاذتي الغالية، أقفز الآن في الزمان، من عام ١٩٣٣ العام الذي نشـرت فيه سـهير القلماوي قصـائدها في «أبولو» إلى عام ١٩٦٤م، أحد الأعوام التي كنتُ فيها على مقاعد الدراسـة في مدرج رقم (١٨) بكلية الآداب – جامعة القاهرة، فمن بين القصائد التي كانت تدرسها لنا سهير القلماوي – عام ١٩٦٤ – قصيدة «أخي» للشاعر المهجري الكبير ميخائيل نعيمة، وهي قصيدة رائعة من القصائد التي كنت أحفظها عن ظهر قلب، وترسم القصيدة صورة للصراع بين الغربيين خلال الحرب العالمية الأولى كما ترسم صورة مقابلة للعرب الذين لا ناقة لهم في تلك الحرب ولا جمل كما يقال:

أخي إن ضج بعد الحرب غربي بأعماله

وقدَّس ذِكْرَ من ماتوا وعظَّم بطش أبطاله

فلا تهزج لمن سادوا ولا تشمتْ بمن دانا

بل اركع صامتًا مثلي بقلب خاشع دامٍ

لنبكي حظَّ موتانا...

أقفز الآن في الزمان من عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٦٤م، لأسأل نفسي: هل كانت سهير القلماوي وهي تدرس لنا قصيدة ميخائيل نعيمة المستوحاة من الحرب العالمية الأولى تتذكر – في أعماقها – قصـيدتها التي اسـتوحتها من الشـاعر – المقاتل الأمريكي آلان سيجر عن الحرب العالمية الأولى نفسها؟ لا أدري بالطبع.. هذا سؤال فات أوانه.. لكني أتذكر أني – أيام كنت أدرس قصيدة ميخائيل نعيمة على يد أستاذتي الغالية – لم أكن أعلم أن ميخائيل نعيمة نفسه كان جنديا مقاتلا في صفوف القوات الأمريكية التي أرسلت إلى

أوروبا خلال سنوات تلك الحرب العالمية الأولى، والحق أني لم أعلم بهذا إلا حين قرأت – فيما بعد – كتاب ميخائيل نعيمة الرائع « سبعون» والذي يتحدث في فصول منه عن حياته العسكرية خلال تلك الحرب باعتباره جنديا «أمريكيا» وقتها!

***

أعود الآن من قفزتي في الزمان إلى السياق الذي كنت أتجول خلاله.. قلت – من قبل – أن أستاذتي الغالية قد جربت أن تكون شاعرة، لكنها أدركت أن موهبتها الأدبية تتفتح أكبر وأكثر مع فن القصة القصيرة، ولهذا فإنها هجرت الشعر الذي نشرته عام ١٩٣٣ إلى القصة القصيرة التي بدأت تنشر نماذج منها منذ عام ١٩٣٤، وتحت يدي الآن قصة قصيرة بعنوان « سامية» نشرتها سهير القلماوي في أول يوليو عام ١٩٣٥، وقصة أخرى نشرت على امتداد أربع حلقات بعنوان «صديقتي»... ثم تتابعت خطواتها الواثقة مع القصة القصيرة، وهي لم تكتف خلال عام ١٩٣٥ بالإبداع في فن القصة القصيرة، وإنما قامت بترجمة القصة القصيرة أيضا، حيث ترجمت قصة قصيرة للكاتب الأمريكي (الكبير) لويس برمفيلد، وهي قصة (The Scarlet Woman) التي نشرتها في ١٥ أكتوبر عام ١٩٣٥م بعنوان «فرجي ونترز».

وفيما يتعلق بالسعي إلى إيجاد التوازن دون تكلف أو شطط، فإن مقالات أستاذتي الغالية التي نشرتها اعتبارا من عام ١٩٣٥ تؤكد هذا المنهج الذي سارت عليه بكل دقة، ففي ذلك العام – عام ١٩٣٥ – نقرأ لها ما كتبته بعنوان «صور من الأدب العربي – المتنبي يفرج عنه» كما نقرأ لها «صورة من السيرة – رحلة الطائف» ونقرأ ترجماتها في الأدب الغربي والأمريكي، فهي لا تنغلق على عالمها العربي باعتبارها عربية - مصرية، ولا تهتم بدراسة الأدب العربي وحده، وإنما تفتح لروحها الآفاق رحبة وفسيحة لكي تدرس الأدب العالمي.. هي لا تكتفي بالتراث العربي العريق وحده، ولا تنطلق «متفرنجة» إلى الأدب العالمي وحده، وإنما توازن بين هذا وذاك بخطوات محسوبة، لا مجال فيها لأية مغامرات طائشة أو تطرف في النظر إلى الأمور وإلى الحياة ذاتها.

«.. كم أخذت عنك في حياتك وكم سأظل آخذ عنك ما حييت، فما أنا إلا كتاب من كتبك وكما تبدو شخصيتك في كل كتاب لك وتتكرر مميزات أسلوبك في مؤلف،

فكذلك طمعت طوال تلمذتي وسأظل أطمع في أن أحمل بعض مميزاتك وبعض خصائص أسلوبك..».

هكذا تحدثت أستاذتي الغالية عن أستاذها العظيم عميد الأدب العربي طه حسين في الذكرى الأولى لرحيله عن عالمنا عام ١٩٧٤م، فهي – ورغم كل ما قدمت وأعطت خلال حياتها – ترى نفسها كتابا من كتب أستاذها العظيم، وإذا كانت سهير القلماوي ترى نفسها كتابا من كتب العميد العظيم، فالذي لا شك فيه عندي أن كل تلاميذها الكبار والمرموقين وعلى رأسهم أستاذي الجليل والأصيل د. عبد المحسن طه بدر هم أيضا مجموعة كتب من كتبها. وإذا كانت الكتب التي أصدرتها سهير القلماوي كتبا قليلة، فإنها بغير شك قد أصدرت عشرات بل مئات الكتب الحية والناطقة والواثقة والتي تتمثل في تلاميذها الكثيرين في مصر وفي سائر أقطار العروبة، وما يلفت الانتباه ويدعو إلى التقدير العميق لأستاذتي الغالية أنها كانت تحدد لتلاميذها المنهج العلمي الذي ينبغي عليهم أن يلتزموا به دون أن تحاول فرض آرائها أو مواقفها أو تحليلاتها عليهم، فمنحتهم بهذا فرصة أن تكون أفكارهم مستقلة بل مختلفة في أحيان كثيرة مع أفكارها هي نفسها، فالمهم عندها هو التزام المنهج العلمي ومحاولة التحلي بالموضوعية والبعد عن الخلافات الغوغائية.

منذ بدايات خطواتها الأولى وعلى امتداد مراحل حياتها لم تتوقف سهير القلماوي عن متابعة كل ما هو جديد ولم تتوقف عن تشجيع المبدعين من الأدباء، وكانت ببصيرتها الثاقبة وعمق إدراكها لمتغيرات الزمان تتجدد باستمرار، كأنها شجرة عملاقة شامخة لا تكف عن العطاء ولا تتخلى عن التجدد الدائم الذي يجعل الشجرة خضراء ومثمرة مهما تتعاقب عليها الفصول والمواسم والسنوات.

«نحن نتعلم.. لكي نعرف.. كم نجهل».. عبارة من العبارات الباقية بمعناها ومغزاها... عبارة لا أذكر متى سمعتها أو قرأتها لأستاذتي الغالية، لكنها تذكرني دائما بتواضع العظماء، فكلما انطلق الإنسان سابحا في بحار المعرفة فإنه لا يستطيع أن يرتوي إذا كان ممن ينطبق عليهم قول المتنبي :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وإذا كان هذا الإنسان السابح في بحار المعرفة يردد مع أبي نواس قوله:

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة   عرفت شيئا وغابت عنك أشياء

هناك من يتعلقون بالقشور ويقفون على رمال الشواطئ وهم يتصورون بكل غرور أنهم قد عرفوا أسرار البحار العميقة بخبايا ها وخفايا ها، وهؤلاء لا يفلحون لأن غرورهم الأحمق يتكفل بتعميق جهلهم، أما الذين يتعلمون لكي يعرفوا كم يجهلون فهؤلاء – وحدهم – هم الذين يستطيعون أن يسهموا في إثراء الحياة وتجديد أغصانها وثمارها المنوعة. وقد كانت سهير القلماوي طيلة مراحل حياتها تثري الحياة وستظل من خلال تلاميذها وتلاميذ تلاميذها تثري الحياة بما تتحلى به من استنارة عقلية تدعو للانبهار، لكنها لم تكن أبدا استنارة مقرونة بالتحلل الفوضوي أو بالإثارة الوقتية الشبيهة بالزبد الذي لا يمكث في الأرض.

***

أستاذتي الغالية د. سهير.. إني لأفخر بأني أحد تلاميذك الأوفياء منذ أن كنت طالبا في قسم اللغة العربية بآداب القاهرة – دفعة عام ١٩٦٥م، وأتذكر كيف كنت تحثينني أن أنجز دراسة الماجستير عن « شعر بدر شاكر السياب» وهي الدرجة العلمية التي نلتها بتشجيعك الدائم وعلى يديك الكريمتين عام ١٩٧٨ بعد أن ظللت تكررين أمامي «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك».. وأتذكر – بفضل أياديك البيضاء عليَّ – أنك التي بادرت إلى أن أعمل مع أستاذي الشاعر العظيم صلاح عبد الصبور في ظل رئاستك للهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر (الهيئة المصرية العامة للكتاب – الآن).

إني أتذكر ما يملأ الصفحات تلو الصفحات عن مآثرك الجميلة وأياديك البيضاء عليَّ وعلى أمثالي وعلى كل من تشرفوا بالتتلمذ عليك وحاولوا الاقتداء بك في مختلف مجالات الحياة.

أستاذتي الغالية د. سهير...

يا قمر المعرفة الذي غاب بغير إياب.. هل غبتِ حقا؟... لا بالطبع.. لا لم تغيبي، فأنت في ذاكرة بل في قلب كل من تشرف بالتتلمذ على يديك وتلقى العلم منك. من أين وكيف أبدأ حديثي معك وعنك الآن؟.. إني لم أبدأ بعد، فالحديث معك وعنك يظل

حديثا متجددا موصــولا بغير انقطاع. يا قمر المعرفة الذي تظل أشــعته الهادئة والساحرة خالدة في قلوب كل الذين عرفوك وعرفوا سهير القلماوي – الإنسان والعالمة والأديبة.



إلى الحرب
قصيدة من شعر سهير القلماوي

أوحت إلى الشاعرة بهذه القصيدة قصيدة إنجليزية للشاعر الأمريكي Alan Seegar كتبها قبل ذهابه مجاهدا في الحرب العظمى حيث مات سنة ١٩١٦م وعنوانها:

(I have a Rendez - vous with Death) وهي على لسان جندي ذاهب للحرب». نظم الآنسة سهير قلماوي بكلية الآداب بالجامعة المصرية

قد وعدتُ الموت أن ألقاه ليلا — عند سفح التل في فصل الربيع
يوم دوَّى مدفع الأعداء ليلا — منذرا بالموت والفتك الذريع

***

صرخة للموت في أعماق قلبي — هل آفي بالوعد ذا الوعد المريع
داعيَ الموت أتدعو في شبابي — وتمني بالشفا القلب الوجيع
إيه يا داعي أتدعوني لأني — ليس لي في هذه الدنيا شفيع
إنما الموت يناديني وحتمًا — سألبي من ينادي.. سأطيع
سأوافي الموت في الميعاد ليلا — عند سفح التل في فصل الربيع

***

يعلم الله لكم تحلو الحياة — لمريض إذ يرى طيف المنون
تلك حالي الآن لكنْ كيف أخشى — رهبة الموت ومَنْ عهدي يصون
كم أحب العيش في فصل الربيع — كم أحب العيش في الفصل الحنون
كم أحب العيش ربّاه ولكن — لن أخون العهد عهدي لن أخون
بل أوافي الموت في الميعاد ليلا — عند سفح التل في فصل الربيع

***

عند ما أسمع للروح دبيبا
يبعث الخضرة في أرض موات
عند ما أنشق أنفاس الربيع
وتغني الطير أشجى النغمات
عندما يحلو لشيب وشباب
عَوْد أيام الهناء الماضيات
لن أرى زهرا ولن أسمع طيرا
لا ولن تلتذ نفسي الذكريات
بل أوافي الموت في الميعاد ليلا
عند سفح التل في فصل الربيع

***

ها هي الأيام ولتْ لم أبردْ
نار قلبي من أمانيه العذاب
وإذا هذا الذي أصبو إليه
لاح لي كالنجم في شَسْط السحاب
لن أراه زهر جهدي وعنائي
لن أراه ولا مثل السراب
بل هنا في صمت ذا الوادي
سيواريني مع الليل التراب
إذ أوافي الموت في الميعاد ليلا
عند سفح التل في فصل الربيع

***

آه يا شِعر رجائي قبل موتي
أنت يا شعر أياسر الوجود
أنت لا تبلى على مر الزمان
أنت تبقى بعد أن ييبس عود
غنهم يا شعر آمالي وأني
قد قضيت العمر أصبو للخلود
غنهم بعدي أناشيد شبابي
غنهم أني وفيٌّ بالعهود
إذ وعدت الموت أن ألقاه ليلا
عند سفح التل في فصل الربيع
وأنا اليوم أوافي الموت ليلا
عند سفح التل في فصل الربيع

في ذكرى غيابه عنا
عباس محمود العقاد .. العملاق الذي كنا نتهيب لقاءه

«هاتوا لي هذا الولد لكي أناقشه!

.. هذا ما قاله الكاتب العملاق عباس محمود العقاد لأصدقائه وجلسائه وتلاميذه خلال إحدى ندوات يوم الجمعة التي كان يشهدها بيته، أما الزمان فهو ذات يوم جمعة من سنة ١٩٦١، وأما «الولد» الذي طلب العقاد أن يأتوه به لكي يناقشه فكان أستاذي الشاعر العظيم صلاح عبد الصبور.

نبدأ الحكاية حين كتب العقاد في جريدة أخبار اليوم« مقالا تهكميا وساخرا يهاجم فيه «الشعر الحر» ، الذي كان يسميه «الشعر السايب» فانبرى شاعر عالي النبرة، وجاد النظرة لهجاء العقاد بقصيدة «عمودية» نشرتها جريدة «الأهرام» في الملحق الثقافي الذي كان يشرف عليه الناقد الكبير الدكتور لويس عوض، حيث قال هذا الشاعر بكل ما في قلبه من كراهية للآخرين، وعدم تقدير للكبار المرموقين:

من أي بحر عصى الريح تطلبه

إن كنت تبكي عليه، نحن نكتبه

يا من يحدث في كل الأمور ولا

يكاد يحسن أمرًا أو يقربه

تعيش في عصرنا ضيفا وتشتمنا

أنَّا بإيقاعه نشدو ونطربه

وأننا نمنح الأيام ما طلبتْ

وفيك ضاع من التاريخ مطلبه

هذا ما كان من هذا الشاعر الذي لا يحب أحدًا سواه، أما صلاح عبد الصبور الذي يعرف أقدار الناس ويدرك قيمة العقاد الكبرى، فإنه شاء أن يرد عليه بمقال ساخر، لكنه غير مبتذل، عنوانه «موزون.. والله العظيم» قال فيه:

«.. والأستاذ العقاد، وهو من هو، سعة اطلاع، لعلها أول ما يتميز به بين كبار أدبائنا، قد قرأ بلا شك دواوين نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وفدوى طوقان ونزار قباني.. ويشـرفني أنني أرسـلت إليه بالبريد ديواني الأول، ويسـعدني لو كان أجال فيه نظره.. الأستاذ العقاد يعلم أن كل ما حوته هذه الدواوين موزون أحكم الوزن وأرعاه لتفعيلات الخليل بن أحمد..».

نشـر صـلاح عبد الصـبور مقاله يوم ١٧ يونيو سـنة ١٩٦١ في جريدة «أخبار اليوم» فأدرك العقاد أن من يرد عليه ليس شاعرا ضحل الثقافة وليس منكرا لفضله وقيمته، فما كان منه إلا أن قال لأصدقائه وجلسائه وتلاميذه: «هاتوا لي هذا الولد لكي أناقشه..».

كنت – خلال تلك المعركة العنيفة حول الشـعر الحر – طالبا بكلية الآداب، جامعة القاهرة، وأتذكر أني كنت أحفظ مقال العقاد عن ظهر قلب، إلى أن واجهني شاعر العامية الكبير سـيد حجاب معترضـا، وقائلا: لماذا تضـيع وقتك في حفظ هذا المقال التافه؟.. فقلت له: إن مقال الأستاذ العقاد يتضمن سخرية لاذعة، تذكرني بقصائد ابن الرومي.

إذا كنت قد تشرفت بمصافحة عميد الأدب العربي طه حسين، وهو ينزل على سلم كلية الآداب سـنة ١٩٦١، فإني – في الحقيقة – كنت أتمنى أن أرى العملاق عباس محمود العقاد، لكني ومعي كثيرون من أبناء جيلي كنا نتهيب لقاءه، و قد قلت لأحد أصدقائي إذا كان أستاذي صلاح عبد الصبور «ولدا» في نظر العقاد، فماذا سنكون نحن جميعا في نظره؟!

في أواخر سـنة ٢٠٠٣ كنت أسـتمتع بكتاب «خلوة الغلبان» لأحد أبناء جيلي، وهو الكاتب الكبير إبراهيم أصـلان، فوجدته يكتب عن لقائه الوحيد مع العقاد، والحقيقة أنه لم يلتق به ولكنه رآه بالقرب منه.. «.. لم أكن رأيت العقاد بطبيعة الحال، ولم أكن عرفت حتى ذلك الحين أي مخلوق رآه، حتى كنت في زيارة الصـديق والكاتب الراحل ضـياء الشـرقاوي بشـركة الأسـمدة التي كان يعمل بها في عمارة «الإيموبيليا» وما أن غادرته وتقدمت في شارع شريف حتى فوجئت بالعقاد يأتي على الرصيف عينه، وأمامي..

تســمرت في مكاني.. اســتوعبته كله دفعة واحدة، القامة المديدة، والبدلة الفاتحة المقلمة، والنظارة، والكوفية الرفيعة الطويلة، والطربوش القصــير المائل (هل كان يرتدي الطربوش حقا أم أن خيالي هو الذي يضــيف الآن؟).. مضــت شــهور قليلة، ومات».

إذا كنت أحســد الآن إبراهيم أصــلان لأنه رأى العقاد، فإني أظن أن آخرين قد يحسدنني بدورهم، لأن العقاد قد تفضل بالرد على رسالة كنت قد أرسلتها إليه، وإذا لم يصــدقني الآن، فإني ســأحيله إلى كتاب «يوميات – الجزء الأول» للعقاد وبالتحديد ص٣٢٥ حيث يجد اسمي الثلاثي «حسن توفيق محمود – كلية آداب القاهرة» ويجد رد العقاد على سؤالي الذي وجهته إليه بشأن «فلسفات كتابنا» والعنوان للعقاد نفسه.

رحل العملاق عن عالمنا يوم ١٢ مارس سنة ١٩٦٤، وما زلت أتذكر وجوه أساتذتي الجامعيين، وبالتحديد ســهير القلماوي وعبد العزيز الأهواني ويوســف خليف، وقد اكتست ملامحهم بحزن عميق، وهم يحدثوننا – نحن الطلبة – عن رحيل العقاد.

هل تتغير نظرة الإنسان إلى الحياة وفقا لمراحل عمره من الطفولة إلى الشيخوخة؟.. لا أريد أن أجيب على هذا السؤال إجابة محددة، ولكني سأعود إلى العقاد، الذي عايشته خلال الســتينيات من القرن العشــرين، أثناء المعركة العنيفة حول «الشــعر الحر» – «الســايب» في نظره، لابد أن أقفز الآن عائدا إلى زمان لم أعشــه بالطبع، والزمان هو ســنة ١٩٢١، حين أصدر العقاد بالاشتراك مع صديقه الكبير إبراهيم عبد القادر المازني كتاب «الديوان في الأدب والنقد».

كتب النقاد ومؤرخو الأدب كثيرا عن كتاب «الديوان» وقالوا إن العقاد قد رفع معولا ضــخما وحادا لكي يهدم «عرش» أحمد شــوقي، وعلى الرغم من هذا المعول الضــخم والحاد، فإن شــوقي بويع أميرا للشــعراء ســنة ١٩٢٧ أي بعد صــدور «الديوان» بســت ســنوات، ولكن ينبغي أن نتذكر أن ما كتبه العقاد – برغم حدته وقســوته – كان يمثل مفهوما جديدا في النظرة إلى الشــعر العربي، وها هو العقاد يقول موجها كلامه لشــوقي: «.. اعلم أيها الشاعر العظيم أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصي

أ شكالها وألوانها، وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه، وإنما مزيته أن يقول ما هو، ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به. وليس همُّ الناس من القصيد أن يتسابقوا في أ شواط البصر والسمع، وإنما همهم أن يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم في نفس إخوانه زبدة ما رآه وخلاصة ما استطابه أو كرهه..».

أعتقد أني قد أجبت على السؤال الذي طرحته بشأن تغير نظرة الإنسان إلى الحياة وفقا لمراحل عمره، فالعقاد الذي كان مجددا وثائرا على القديم سنة ١٩٢١، هو العقاد الذي أصبح متشبثا بالقديم ومهاجما للجديد سنة ١٩٦١.

بعد رحيل أمير الشعراء عن عالمنا يوم ١٦ أكتوبر سنة ١٩٣٢، حاول كثيرون أن يختاروا من بعده شاعرا يلقب بـ «أمير الشعراء» وقد حاول عميد الأدب العربي طه حسين أن يضفي هذا اللقب على العقاد، أما شوقي نفسه فإنه كان قد قال عن الشاعر اللبناني أمين نخلة «هذا أمير الشعر بعدي» إلى أن حاولت إحدى كليات جامعة القاهرة سنة ١٩٧٩ أن تبايع صلاح عبد الصبور بإمارة الشعر الحر، والحق أن الساحة الأدبية العربية – بصفة عامة – لم تتقبل هذه الألقاب، ورفضت – في السر أو العلن – أن تكون للشعر «إمارة» انطلاقا من أن لكل شاعر أصيل صوته الخاص الذي يميزه عن سواه.

أدرك العمالقة من أبناء الجيل الذي ينتمي إليه العقاد في بدايات حياتهم الأدبية أن على كل منهم أن يحرث أرضا مالحة جرداء، وأن يجعلها – بعد الجهد – تتهيأ لأن تكون صالحة للزراعة، وهكذا جربوا – جميعا – كل فنون الأدب وكتبوا الرواية والقصة القصيرة والشعر والنقد الأدبي والمسرح، وبالطبع فإنهم تفوقوا في بعض هذه الفنون ولم يتألقوا في سواها ولو نظرنا إلى العقاد – مثلا – فإنا نجد أنه أصدر عشرة دواوين منها «وحي الأربعين» و«هدية الكروان» و«أعاصير مغرب» و«ما بعد الأعاصير» كما أنه كتب رواية واحدة هي «سارة» أما كتبه في النقد الأدبي فإنها كثيرة وغزيرة، ولا نستطيع أن ننسى سلسلة «العبقريات» الشامخة كما لا نستطيع أن ننسى كتابه الرائع المؤثر «أبو الشهداء الحسين بن علي» والذي كتبه العقاد – كما قيل – لا بقلمه وإنما بدمه، ولا نستطيع أن ننسى أن العقاد كان يؤكد دائما أن «التفكير فريضة إسلامية» وأن أبناء جيله كانوا ينطلقون نحو هذا التأكيد الذي يدعو إلى احترام العقل الإنساني، ويدعو الإنسان

لأن يفكر بما حباه الله من «عقل» لا أن يتحجر، مكتفيا بـ«النقل» عمن سبقوه، حيث نجد في عصور الانحطاط شرحا لكتاب، ثم شرحا للشرح، ثم شرحا لشرح الشرح!.. أما في عصرنا الذي نحياه، فإن كثيرين قد نسوا أو تجاهلوا أن «التفكير فريضة إسلامية» وأصبح كثيرون من المنتمين للعروبة بصدق يشكون من «سوء التدبير» عند من يتحكمون، كما يشكون من «عمليات التخدير» التي تطال عقول أبناء الجيل العربي الجديد.

شهدت «أسوان» سنة ١٨٨٩ ميلاد عباس محمود العقاد الذي تعلم في أحد «كتاتيبها» ولم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية، لكن جهده الفردي في التحصيل والمتابعة تكفل بأن يعرف ويستوعب ما لا يستطيع أن يعرفه أو يستوعبه مئات الحاصلين على درجة الدكتوراه في مختلف فروع المعرفة، وكان الزعيم الوفدي سعد «باشا» زغلول يحب أن يلقب العقاد بـ«كاتب الشرق الجبار» ومنذ رحيل العملاق صدرت عنه كتب ودراسات عديدة، من بينها كتاب الناقد الكير رجاء النقاش «عباس العقاد بين اليمين واليسار» وأكثر من كتاب لسامح كريم فضلا عن العديد من الكتب التي تناولت حياته، بل التي تناولت قصص حبه وغرامياته، والحقيقة أن «المفكر» في العقاد لم يستطع أن يمنع «العاشق» فيه من أن يحب بدل المرة مرات، وقد كان له غرام مع الآنسة «ماري إلياس زيادة» التي تعرفها الساحة الأدبية باسم «مي زيادة» ويقال إن العقاد قد صور غرامه بها في رواية «سارة» أما أجمل قصائده التي كنت أحفظ منها الكثير، فهي قصيدة يوجهها لحبيبة من حبيباته، بعد أن أدرك أنها قد خانته، وفيها يقول:

تريدين أن أرضَى بك اليوم للهوى	وأرتاد فيك اللهو بعد التعبدِ
وألقاكِ جسمًا مستباحا.. وطالما	لقيتك جَمَّ الخوف جَمَّ الترددِ
جما لك سم في الضلوع وعثرةَ	ترد مهاد الصفو غير ممهدِ
إذا لم يكن بُدٌّ من الحان والطلا	ففي غير بيت كان بالأمس مسجدي

وإذا كانت هذه القصيدة تنتمي إلى ما نسميه شعر الحب، فإن للعقاد قصيدة مؤثرة ورائعة، كنت – كذلك – أحفظها عن ظهر قلب، وهي القصيدة التي كتبتها بعد رحيل الأديبة الشهيرة «مي زيادة»، والتي رحلت عن عالمنا يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٩٤١ ويستهلها قائلاً :

أين في المحفل مي يا صحاب   عودتنا ها هنا فصل الخطاب

عن خمس وسبعين سنة، رحل العقاد عن عالمنا يوم ١٢ مارس ١٩٦٤، وكان طيلة رحلته مع الكلمة، مثالا ساطعا لاعتداد الكاتب بالكلمة وثقته بنفسه وهو يواجه الحياة بخيرها وشرها، ويبقى أن نتحسر الآن، ونحن نرى الكلمة وقد تحولت إلى «بوق» أو جعل منها قائلها أداة للنفاق من أجل الارتزاق.

المتمسكون بشرف الكلمة الآن أصبحوا بالفعل نادرين، بعد أن تجاهل كثيرون أن «التفكير فريضة إسلامية» وأصبحنا في عصر ، يتداخل خلاله سوء التدبير مع تخدير الجماهير.

متى نصحو مما يخدرنا؟.. الجواب عليه الآن عسير.. تحية لروحك يا أيها العملاق العصامي.. عباس محمود العقاد.



ميخائيل نعيمة
ثمرة مدهشة من ثمرات تزاوج الثقافات والبيئات

أمام الحياة.. أمام الطبيعة.. أمام الجمال في الطبيعة أو في الفن والأدب.. لا يستطيع الإنسان أن يكون محايدا.. هناك من يفضلون أن يستمتعوا بمشهد الغروب في البحر.. وهناك آخرون يفضلون أن يستمتعوا بنفس المشهد ولكن في الصحراء. وهناك من يعرفون قيمة وعظمة طه حسين والعقاد. لكنهم يفضلون أن يتابعوا بشغف واحدا منهما دون الآخر.

منذ تفتح وعيي الأدبي كنت أعشق إبراهيم ناجي ولا أحب علي محمود طه على الرغم من أنني قرأت نتاج الشاعرين، وعلى الرغم من كونهما صديقين في الحياة وشاعرين ينتميان لاتجاه واحد في الشعر. وكنت أعشق جبران خليل جبران بصورة أكبر من عشقي لميخائيل نعيمة، على الرغم من أن الاثنين كانا صديقين، وكانا ينتميان لاتجاه واحد كذلك في الأدب والشعر.

كان جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة شاعرين مقلين، حيث أصدر كل منهما ديوانا واحدا لا أكثر.. الأول أصدر «المواكب» والثاني أصدر «همس الجفون» وعلى الرغم من أنني حفظت عن ظهر قلب قصائد من نتاج هذا وذاك، إلا أنني كنت أستمتع حقا بعطائهما في النثر لا في الشعر. وفي رأيي أن شاعريتهما الحقيقية تتجلى في النثر أكثر مما تتجلى فيما كتباه من شعر. حيث تتميز لغة كل منهما في النثر بأنها لغة شفافة موحية. عباراتها مجنحة، و صورها الفنية لها خصائص جميلة ترقى بها إلى مستوى الصورة الفنية في الشعر. ولم يكن جبران ونعيمة وحدهما، فلطه حسين مجموعة من القصائد، وللعقاد دواوين عديدة، لكن قيمة وعظمة كل منهما لم تتحقق من خلال الشعر، وإنما من خلال كل منهما ما كتباه نثرا.

رحل ميخائيل نعيمة عن عالمنا يوم ٢٢ فبراير سنة ١٩٨٨، وقد نحس عندما يرحل إنسان نعرفه بالمفاجأة، خاصة إذا كان شابا في مكتمل عنفوانه وجيشانه، ولكن أمام رحيل ميخائيل نعيمة لم تكن هناك مفاجأة، فقد رحل بعد أن عاش قرنا من الزمان باستثناء عام واحد.. رحل بعد أن عاش تسعا وتسعين سنة، بداية من يوم مولده وهو ١٧

أكتوبر سـنة ١٨٨٩ .. ومنذ سـنتين أو أكثر كنت قد قرأت حوارا أجراه معه أحد الصحفيين، وسأله عما إذا كان ينتظر جائزة نوبل فأجابه بأنه لا ينتظر الجائزة وإنما ينتظر الموت.

يكتسـب الأديب العربي في عالمنا العربي قيمة كبيرة عندما يرحل عن عالمنا. تصـل أحيانا إلى درجة المبالغة ومقابل هذا فإن كثيرين من أدبائنا العرب لم ينالوا ما يسـتحقونه وهم أحياء. والمثال الصارخ لهذا بدر شاكر السياب الذي لم تصدر عنه دراسة واحدة طيلة حياته القصيرة التي لم تتجاوز ثماني وثلاثين سنة، لكنه أصبح محل اهتمام الجميع بعد رحيله يوم ٢٤ ديسـمبر عام ١٩٦٤ حيث تتابعت الدراسـات التي تحلل شـعره وتدرس تفاصيل حياته، وبعض منها تجاوز الستمائة صفحة من القطع الكبير!

وفيما يتعلق بالراحل ميخائيل نعيمة، فإن دراسات عديدة صدرت عنه خلال حياته، من بينها كتاب «فلسـفة ميخائيل نعيمة» للدكتور محمد شـفيق شـتاو «ميخائيل نعيمة – طريق الذات إلى الذات» للدكتور نديم نعيمة (ابن أخيه) و«بين نعيمة وجبران» لطني زكا، إلى جانب دراسـات أخرى تناولت الراحل الكبير ضـمن من تناولتهم من شـعراء وأدباء المهجر، من بينها دراسـة «أدب المهجر» للدكتور عيسـى الناعوري و«ثلاثة رواد من المهجر» لنادرة جميل السـراج و«شـعراء الرابطة القلمية» لنفس الباحثة. وبطبيعة الحال فإن دراسـات أخرى عديدة وأطروحات جامعية سـتعد بعد رحيل نعيمة، لكن الراحل الكبير كفى كل من سيدرسونه عناء البحث عن تفاصيل حياته، لأنه رواها بنفسه في كتابه الرائع الممتع «سبعون» بأجزائه الثلاثة.

قبل أن يرحل ميخائيل نعيمة بنحو شـهرين، كنت منهمكا في قراءة جديدة لصـديقه الذي رحل عام ١٩٣١ .. جبران خليل جبران، مركزا على استكشاف الفوارق في أساليب مترجمي كتبه التي كتبها باللغة الإنجليزية، وأحسست بأن من اقترب حقا من روح جبران وهو يترجم أعماله هو آخر من ترجموا هذه الأعمال.. أقصـد الكاتب الفنان الكبير الدكتور ثروت عكاشة.

ومنذ أن رحل ميخائيل نعيمة وأنا منهمك في إعادة قراءة ما كنت قد قرأت له،وقراءة ما لم أكن قد قرأت من أعماله، وأعانني على هذا أن أحد أصدقائي الحميمين تكرم وأهداني الأعمال الكاملة للراحل الكبير، وهي تقع في تسعة مجلدات فخمة وضخمة، وكان يتأكد لي كلما أوغلت في قراءة ميخائيل نعيمة أن قراءتي له هي امتداد لقراءتي لصديقه جبران خليل جبران، وكانت المقارنات بينهما تتداعى ببساطة في ذهني.. فكتاب «مرداد» لنعيمة يُذَكِّر على الفور بكتاب «النبي» لجبران وكتاب «كرم على درب» لنعيمة يذكر هو الآخر بكتاب «رمل وزبد» لجبران..وأجواء قصائد «همس الجفون» لنعيمة تذكر كذلك بأجواء قصائد «المواكب» لجبران.

ولكن لابد من الاعتراف هنا – وعلى الرغم من عشقي القديم المتجدد لجبران – بأن نعيمة يبدو أكثر عمقا وثقافة واتساقا مع ذاته من جبران، ولعل السبب الذي أسوقه الآن يتمثل في أن جبران لم يعش غير ثمان وأربعين سنة فحسب، بينما عاش نعيمة تسعا وتسعين سنة، ومن هنا فإن تجاربه في الحياة ومواقفه منها ومن ناسها قد زادته حنكة وخبرة وعمقا،وهو ما لم يتح لجبران. هذا إلى جانب ما أشار إليه نعيمة منذ سنوات طويلة (عام ١٩٣٢) فيما يتعلق بثقافة جبران، وما أشار إليه (عام ١٩٥٩) فيما يتعلق بثقافته هو. ويمكن للقارئ أن يتبين الفارق إذا رجع إلى كتاب «سبعون» مع الأخذ في الاعتبار عنصر التنافس بين كاتبين كبيرين كانا صديقين. وإننا نأخذ رأي نعيمة في ثقافته وثقافة صديقه دون أن نأخذ رأي جبران في نفس الموضوع، وهذا أمر يتطلب دراسة مضنية ليس هذا مكانها بالطبع ..

يستطيع من يتتبع عطاء ميخائيل نعيمة أن يتبين أن هذا العطاء بمثابة ثمرة مدهشة من ثمرات تزاوج الثقافات والبيئات.. فقد أتيح للراحل الكبير أن يجمع بين الثقافة العربية والثقافة الروسية والثقافة الإنجليزية والثقافة الفرنسية، من خلال تعمقه في اللغات العربية والروسية والإنجليزية وإلمامه بالفرنسية، وقد كتب نعيمة قصائد من شعره بثلاث لغات.. بالعربية والروسية والإنجليزية.. وترجم بعضا مما كتبه باللغتين الأخيرتين إلى العربية، حيث ترجم قصيدته «النهر المتجمد» التي كتبها عام ١٩١١ بالروسية إلى العربية.. ترجمها شعرًا، وبقيت من أشهر قصائده، كما ترجم مجموعة من

قصائده التي كتبها منذ أواسط العشرينيات إلى نهايتها من الإنجليزية إلى العربية، لكنه ترجمها نثرا.. و قد تضمنها ديوانه الوحيد «همس الجفون» (راجع من ص١١٣ إلى ص١٤٤ – طبعة ١٩٨١).

أتيح لنعيمة بما تهيأ في أعماقه من تزاوج الثقافات أن يتعمق قراءة أبو العلاء المعري الذي أحبه أكثر من حبه للمتنبي، نتيجة ميله إلى التأملات الفلسفية في الحياة والموت، وكان يحفظ وهو في سن باكرة قصيدته الشهيرة:

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد

كما أتيح للراحل الكبير أن يتعمق قراءة أعمال كثيرين من الشعراء والأدباء الروس. من بينهم ليو تولستوي وفيودور دوستوفسكي وإيفان تورجنيف، و قد قرأ لهؤلاء ولغيرهم باللغة الروسية التي كتبوا بها، كما أتيح له أن يتعمق قراءة أعمال كثيرين من الشعراء والأدباء الإنجليز والأمريكيين، من بينهم وليم شكسبير و شللي وكيتس وبيرون ووردزوث ووالت ويتمان، وقد قرأ لهؤلاء ولغيرهم بالإنجليزية التي كتبوا بها، وهكذا الحال ولكن بدرجة أقل في الأدب الفرنسي.

وإذا كان قد أتيح له هذا بما تهيأ في أعماقه من تزاوج للثقافات، فقد أتيحت له كذلك تجارب ثرية وعميقة في الحياة من خلال تزاوج البيئات في أعماقه... فابن «بسكنتا» بلبنان، أتيح له أن يعايش أجواء روحية فيما يتعلق به في «الناصرة» بفلسطين العربية (قبل أن يجثم الكيان الصهيوني فوق ترابها) وقد عاش نعيمة وهو بعد طفل صغير في الناصرة أربع سنوات (من ١٩٠٢ – إلى ١٩٠٦).. ثم أتيح له أن ينتقل إلى بيئة أخرى.. هي البيئة الروسية في زمن روسيا القيصرية حيث عاش هناك خمس سنوات (من ١٩٠٦ – إلى ١٩١١).

وأتيح له بعد ذلك أن يعايش بيئة أخرى... هي البيئة الأمريكية التي عاش في أجوائها إحدى وعشرين سنة (من ١٩١١ – إلى ١٩٣٢) أو بتعبير أدق.. عاش في أجوائها أقل من عشرين سنة، إذا تذكرنا أنه قد جند في الجيش الأمريكي وأرسل ضمن من أرسلوا من المجندين إلى فرنسا حيث قضى هناك ما يقرب من سنة ونصف في أواخر الحرب العالمية الأولى، وهو يؤكد أنه على الرغم من اشتراكه في الحرب إلا أنه لم يطلق رصاصة واحدة من بندقيته ضد أي إنسان، وأن هذا من حسن حظه. (راجع المجلد الأول من الأعمال الكاملة – طبعة دار العلم للملايين – من ص٣٥٤ – إلى ص٣٥٩).

وإذا كان تزاوج الثقافات والبيئات في أعماق ميخائيل نعيمة قد جعل عطاءه الأدبي الخصب والوفير بمثابة ثمرة مدهشة من ثمرات هذا التزاوج، فإنه لم يكن وحده في هذا فمن أدبائنا العرب الذين عاصرهم وعاصروه نستطيع أن نذكر أسماء كبيرة.. طه حسين – يحيى حقي – توفيق الحكيم.. مع كثيرين من أدباء وشعراء المهجر بشقيه الشمالي والجنوبي.. نسيب عريضة – جورج صيدح – إيليا أبو ماضي – فوزي المعلوف.

فمما لا شك فيه أن الصدمة الحضارية التي أحس بها هؤلاء في بدايات احتكاكهم مع بيئات وثقافات جديدة غير البيئة والثقافة العربيتين، قد انعكست على نتاج هؤلاء و شكلت ملمحا أساسيا من ملامح عطائهم الأدبي، والفكري، على نقيض من لم يحسوا بهذه الصدمة الحضارية، مثل العقاد الذي لم يغادر مصر نهائيا إلا لعدة أشهر فرارا من قوات الألمان أثناء اقترابها من مصر في أواخر الحرب العالمية الثانية، حيث فر العقاد إلى السودان، لأنه كان يكن عداوة شديدة للعنصرية المتمثلة في النازية وكان قد أصدر كتابه «هتلر في الميزان» يدين فيه الفكر العنصري، ويشبه نجيب محفوظ العقاد في هذه الزاوية، حيث لم يخرج من مصر، بل إن أدبه كله يدور حول بيئة مدينتين مصريتين فحسب هما القاهرة والاسكندرية. وقد أشار نجيب محفوظ أخيرا إلى أنه كان يتمنى لو سافر خارج مصر، لكنه قال: «الوصول إلى مساحة واسعة ممكن عبر أشياء ضيقة، وممكن أيضا عبر أشياء عريضة غير محدودة.. أنا واثق أني بعدم الحركة خسرت أشياء كثيرة».. ثم أضاف: «... منذ يومين كنت في اجتماع وكان معنا يوسف إدريس، أقرأ الآن في الصحيفة أنه في باريس لمناسبة ما، وتجدينه بعدها في موسكو، في أفريقيا، في أمكنة كثيرة... هذا شيء جميل». مجلة كل العرب – عدد ٢٩ فبراير ١٩٨٨ – ص٤٢

وبعد...

هل استطعت في هذه العجالة أن أتحدث عن أديبنا العربي الكبير ميخائيل نعيمة؟ ... لا بالطبع.. لا أعتقد.. وهو نفسه عندما قرر أن يكتب سيرة حياته عندما بلغ السبعين من عمره قال في مستهل هذه السيرة مخاطبا نفسه:

«... إنك خادع ومخدوع كلما حاولت أن تحكي لنفسك أو للناس حكاية ساعة واحدة من ساعات عمرك، لأنك لن تحكي منها إلا بعض بعضها.. فكيف بك تروي حكاية سبعين سنة؟..» (ص٩ من المجلد الأول).

إبراهيم المازني
دعوة صادقة ومبكرة للقومية العربية

إبراهيم عبد القادر المازني.. كاتب عربي كبير، متعدد الاهتمامات، متنوع العطاء. شأنه في هذا شأن كثيرين من الكتاب والأدباء أبناء جيله. ممن كانوا يأخذون الحياة مأخذا جادا، ويحاولون أن يقتحموا كل المجالات، كأنهم يشقون الأرض ويحرثونها للأجيال المقبلة التالية لهم، إدراكا منهم بأن الأجيال لابد أن تتواصل خلال رحلتها الساعية دوما لتطوير الحياة ذاتها والانطلاق بها نحو الأفضل والأجمل.

وإبراهيم المازني من الكتاب الذين يأسرونك ويغزون وجدانك إذا قرأت لهم.. وكنت وما زلت واحدا ممن أحبوا المازني بعمق، ولست أذكر أنني كرهته إلا في موقف واحد، هو موقفه من موجهه وصديقه عبد الرحمن شكري، ذلك أنني أعتز بمجموعة من القيم، من بينها قيمة «الوفاء» وقد رأيت أن المازني قد افتقدها في موقفه من موجهه وصديقه عبد الرحمن شكري، الذي أفاد منه – في البداية – كثيرا، لكنه لم يلبث أن هاجمه بقسوة لا هوادة فيها في «الديوان» وهو الكتاب الذي ألفه المازني بالاشتراك مع عباس محمود العقاد، وصدر في جزءين عام ١٩٢١، حيث كتب المازني عن عبد الرحمن شكري بأنه «صنم الألاعيب»!!

في كتاب «مشاهير شعراء العصر» الذي أصدره أحمد عبيد عام ١٩٢٢ في دمشق، يرسم المازني – بناء على طلب المؤلف – صورة مختصرة لحياته. وكيف تقلبت به الحياة. وكيف خاض معتركها، فيقول: .. ولدت في ١٩ أغسطس ١٨٩٠، وأبي اسمه – أو كان لما كان اسمه – محمد عبد القادر المازني، وكان محاميا، وتعلمت في المدارس من ابتدائية وثانوية وعالية، إلى أن تخرجت في مدرسة المعلمين الخديوية العالية سنة ١٩٠٩، وعينتني وزارة المعارف مدرسا للترجمة في المدرسة السعيدية الثانوية ثم الخديوية الثانوية. ثم مدرسا للغة الإنجليزية بمدرسة المعلمين الناصرية. ثم طلبت الإقالة في سبتمبر ١٩١٤ بعد قيام الحرب الكبرى بشهر، فرارا من اضطهاد وزير المعارف يومئذ، وكان صديقا لحافظ إبراهيم الشاعر الذي انتقدته...».

ويتحدث المازني بعد ذلك عما أصدره منذ بداية دخوله عالم الكتابة، حتى عام ١٩٢٢ (العام الذي صدر فيه كتاب أحمد عبيد) فيقول: «.. ولي من الكتب المطبوعة الجزآن الأول والثاني من ديوان شعري، ورسالة في «الشعر: غاياته ووسائطه»، ورسالة في نقد «شعر حافظ إبراهيم»، وأصدرت أنا وصديقي الأستاذ عباس أفندي محمود العقاد جزءين من كتاب اسمه «الديوان».. هذا إلى كتب أخرى مدرسية وقد نفدت هذه وتلك جميعا، فلا تحسب أني أقصد الإعلان عنها.. وليست بي حاجة أن أقول إني ما زلت مع الأسف حيا لا أدري متى أموت.. والسلام...».

وقد اعتمد كثيرون من الكتاب والدارسين الذين اهتموا بدراسة المازني على المعلومات التي سجلها بنفسه في كتاب أحمد عبيد الذي أشرت إليه، وذلك باستثناء الدكتور شوقي ضيف الذي يذكر في كتابه «الأدب العربي في مصر» أن المازني قد ولد عام ١٨٨٩ وليس عام ١٨٩٠. فإذا صدقنا رواية د. شوقي ضيف، فهذا يعني أن المازني قد ولد في نفس العام الذي ولد فيه كل من عباس محمود العقاد وطه حسين. وهو يعني كذلك أن عبد الرحمن شكري أكبر من المازني والعقاد بثلاث سنوات، لأنه ولد عام ١٨٨٦.

وإذا كان دارسو المازني قد اتفقوا على أنه ولد يوم ١٩ أغسطس ١٨٩٠ – نقلا عنه – وذلك باستثناء د. شوقي ضيف، فإن جميع هؤلاء الدارسين لم يثبتوا يوم رحيله على الإطلاق، وهو العاشر من أغسطس عام ١٩٤٩ كما ذكرت من قبل، واكتفى بعض منهم بذكر العام فحسب.. وهم د. نعمات فؤاد في كتابها «أدب المازني»، ود. محمد مندور في كتابه «محاضرات عن إبراهيم المازني» ود.شوقي ضيف في كتابه «الأدب العربي المعاصر في مصر» وأنور الجندي في كتابه «معالم الأدب العربي المعاصر»، وفاروق خورشيد في كتابه «مع المازني» وهو أحدث دراسة عن المازني لأنه صدر وبالتحديد في أكتوبر عام ١٩٨٤.

والشيء الذي يدعو للدهشة والاستغراب أن المقدمة المطولة التي كتبها د. مصطفى ناصف لكتاب «إبراهيم عبد القادر المازني» وهو كتاب يقع في (٣٣٤) صفحة من القطع الكبير، ليست فيه أية إشارة إلى العام الذي رحل فيه المازني عن دنيانا، ويبرر د. مصطفى

ناصف ذلك بقوله: «.. ولست مشوقا إلى سيرة المازني، وأرجو أن يشاركني القارئ هذا الشعور. ولا أدري لماذا نفيض في الكلام عن أسرته و صاحبته وبنيه، ولدينا متسع من الواجب نحو أدبه...».

بعيدا عن التضارب فيما يتعلق بحياة المازني، فإنه كان – كما يقول عنه صلاح عبد الصبور في كتابه «ماذا يبقى منهم التاريخ» – فنانا حتى أطراف أصابعه.

وقد بدأ المازني حياته الأدبية بنظم الشعر وفقا لمفهوم جديد في أيامه، شأنه في هذا شأن صديقه العقاد، وكان يوجه الشاعرين معا أستاذهما عبد الرحمن شكري الذي كان يكبرهما بثلاث سنوات كما ذكرت. وقد أصدر عبد الرحمن شكري الجزء الأول من ديوانه والذي أسماه «ضوء الفجر» عام ١٩٠٩، بينما أصدر المازني الجزء الأول من ديوانه عام ١٩١٣، ثم أعقبه بالجزء الثاني عام ١٩١٧. أما العقاد فقد أصدر الجزء الأول من ديوانه عام ١٩١٦.

وكان شعر هؤلاء الثلاثة – شكري، المازني، العقاد – تعبيرا عن صعود قوة اجتماعية جديدة في الحياة بمصر وقتها، وهي الطبقة المتوسطة، كما كان تطبيقا عمليا لمفهوم الشعر عندهم. والذي يتمثل في الاهتمام بالروح الفردية والابتعاد عن روح الجماعة. ولهذا لا نجد في شعرهم قصائد المديح والمناسبات، على عكس شعر الجيل السابق عليهم.. جيل أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران.

وفيما يتعلق بالمازني فإنه هجر الشعر وانصرف عنه تماما بعد صدور الجزء الثاني من ديوانه عام ١٩١٧، واتجه إلى المقال وإلى القصة القصيرة والرواية وإلى الترجمة، وكان عمله بالصحافة من الدوافع التي وجهته إلى معالجة هذه الأشكال الأدبية المتعددة.

وإذا كان شعر المازني يحفل بالبكائيات وبالحديث عن الموت بمختلف مظاهره، كأن يتحدث عن الوردة الذابلة ويتحدث عن الموت الذي يتهدد حياته هو شخصيا وما إلى ذلك.. فإن كتابات المازني النثرية اتسمت بالسخرية وبروح التفكه والدعابة. وهذا لا يعني أنه قد تخلص في نثره من الحزن، وإنما يعني أنه أصبح يخفف من تأثيره على نفسه وعلى القارئ في آن واحد.

وإذا كان كثيرون قد أشاروا إلى السخرية وروح التفكه والدعابة في الكتابات النثرية للمازني، فإن حياته اليومية ذاتها كانت تتسم بها كذلك، ونذكر هنا موقفا من المواقف العديدة التي حدثت له، وتشي بهذه السخرية وروح التفكه والدعابة. وأنا أنقل هذا الموقف عن د. نعمات فؤاد التي نقلته بدورها عن محمود تيمور.

«.. كان المازني يحب الفكاهة وكان لا يتحرج أن يعبث عبث الأطفال في جميع سني حياته شابا وكهلا، ولا أقول شيخا لأنه اخترم وهو على أعتاب الشيخوخة لم يخط إليها بعد. سهر ليلة من الليالي ولما همَّ بالعودة إلى بيته، وكان في ذلك الحين بالإمام الشافعي، استأجر عربة يجرها جوادان. ومضى الحوذي به في طريقه إلى البيت، وقد رفع عقيرته بالغناء بصوت أجش أزعج المازني، وكان جميل الصوت يحب الموسيقى ويعزف من آلاتها على القيثار، وهو بعد رقيق المزاج كأن أعصابه خلقت من «الدنتلا» أو أوراق الورد، فصمم على أن ينال الحوذي بشقاوة الطفولة المركبة في طبعه، فلما اقترب البيت قفز المازني في خفة من العربة وانطلق يعدو إلى البيت ودلف من الباب وأخذ مكانه خلف نافذة تطل على الشارع ليرقب في خبث ما يجري وما إن وصل الحوذي إلى البيت ووقف به حتى التفت خلفه إلى الراكب معه فلم يجد أحدا، فثارت ثائرته وطفق يسب ويلعن والمازني مغرق في الضحك.. وفي اليوم التالي مضى إلى موقف العربات ليتعرف على الحوذي، وأنقده خمسين قرشا في وقت كان الريال يعد أجرا سخيا.. وكأنه يكفر عن سيئته...».

وإذا انتقلنا إلى قضية هامة شغلت المازني و شغل بها، فإنها تتمثل في دعوته الصادقة المبكرة إلى القومية العربية، بحيث يصبح من الظلم له وللتاريخ ألا نتحدث عنه عند الحديث عن القومية العربية، فقد أصدر المازني في أكتوبر عام ١٩٣٠ كتابا أسماه «رحلة إلى الحجاز»، يصور فيه فرحه بالفرصة التي أتيحت له من خلال رحلته للحجاز. و بالمناسبة فإنه يؤكد أن نسبه ينتمي لقبيلة « مازن» العربية.. في كتابه «رحلة إلى الحجاز».. يقول المازني بالنص:

«... قلت لنفسي إن المصريين يخرجون أفواجا إلى الأقطار الأخرى، وصار ذلك سُنْة مرعية عندهم، حتى ليخيل للمرء في مقدمة الصيف، أن هذه الأمة المصرية قد أزمعت أن تهاجر إلى واد غير واديها، وكنت في صيف كل عام أخشى أن لا يبقى في البلاد غيري وأن لا يعمرها سواي، وسرني على الخصوص أن السفر إلى الحجاز لا إلى الغرب، ذلك أن الغرب يزور مصر، ولو شئت لقلت إنه يغزوها، فلسنا نحتاج أن نزوره، أما الحجاز فأمره مختلف جدا. ولنحن خلقاء أن نجعل علمنا بالشرق العربي أعمق، وارتباطنا به أمتن، وما أحسبني أبالغ حين أقول إن مستقبل الشرق واحد، وإن تفاوتت خطا أبنائه، ومن الجهل أن نشيح عنه...».

وإذا كانت جامعة الدول العربية قد أنشئت بمصر عام ١٩٤٥، فإن المازني كتب قبل قيامها بعشر سنوات، أي عام ١٩٣٥ مقالا صادقا متحمسا أسماه «القومية العربية».. وفيه يقول: «لقد أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين، ولو أن هذه القومية العربية لم تكن إلا وهما لا سند له من حقائق الحياة والتاريخ لوجب أن نخلقها خلقا، فما للأمم الصغيرة أمل في حياة مأمونة، وإن أية دولة تتاح لها الفرصة تستطيع أن تثب عليهم وتأكلهم أكلا بلحمهم وعظمهم، ولكن مليون فلسطيني إذا أضيف إليه مليونا الشام وملايين مصر والعراق مثلا يصبحون شيئا له بأس يتقى...».

تحية للكاتب العربي – المصري الكبير إبراهيم عبد القادر المازني.. تحية لكاتب من الجيل الذي قرأ واستوعب وتمثل ليفيد أبناء الأجيال التالية...



ماذا لو كان نجيب محفوظ
شاعرًا وليس روائيًا؟
تعمقه في دراسة الفلسفة جعل الحارة تتسع للعالم بأسره

الزمان محدد ...

الزمان لا بد أن يكون محددا تماما، طالما أني أتحدث عن إنسان دقيق ، بل مسرف في الدقة ، فقد كان جيران هذا الإنسان الدقيق يضبطون ساعاتهم على إيقاع حياته اليومية ، أما أبناء جيلي من الأدباء والشعراء والنقاد ممن كانوا روادا وزبائن دائمين لمقهى ريش الشهير في شارع طلعت حرب بالقاهرة فإنهم كانوا يعرفون أن هذا الإنسان الدقيق سيهبط عليهم ليقضي معهم ساعتين كاملتين دون زيادة أو نقصان كل يوم جمعة على امتداد عدة سنوات من عقد الستينيات في القرن العشرين الغارب .

هذا الإنسان الدقيق هو عملاق الرواية العربية الكاتب المصري- العربي- العالمي نجيب محفوظ والذي رحل عن عالمنا يوم ٣٠ أغسطس سنة ٢٠٠٦ ، ليتذكره الذين يتذكرون أو ليتناساه الذين يتناسون، بعد أن عاش حياة طويلة حافلة بالأحداث والوقائع على امتداد ما يقرب من خمس وتسعين سنة ، بدأت تتوالى منذ يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩١١ وهو اليوم الذي شهد تفتح عينيه للنور لأول مرة في حياته .

نجيب محفوظ هو اسم مركب ، اختاره له والده عبد العزيز أحمد الباشا ، تقديرا وتيمنا باسم الطبيب الذي كان شهيرا في عالم الطب كما أنه أشرف على الولادة التي كانت متعسرة ، وهو الدكتور نجيب محفوظ . وإذا كانت هناك أحداث ووقائع تؤثر في الأفراد الذين يشهدونها ، فلابد هنا أن نذكر ثورتين خطيرتين ، أثرت كل منهما على نجيب محفوظ حياتيا وفنيا ، الأولى هي ثورة ١٩١٩ الشعبية ضد الاحتلال البريطاني لمصر ، وكان عمره وقتها ثماني سنوات لكن هذه الثورة ظلت مرتسمة في خيالاته ومتغلغلة في أعماقه إلى أن سجل ما جرى فيها ولها في إحدى رواياته التي تمثل المرحلة الاجتماعية عنده وهي رواية بين القصرين ، والثورة الثانية هي ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بقيادة جمال عبد الناصر ، وكان هو قد تخطى الأربعين من العمر ، وقد توقف عن الكتابة أو عن نشر ما كان يكتبه عدة سنوات بعد قيام الثورة ،مبررا صمته أو صومه عن الكتابة بأن

الثورة تو شك أن تحقق أحلامه في العدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس ولهذا لم يعد لديه ما يكتبه ، وفي تقديري أن سنوات الصمت أو الصوم عن الكتابة كانت مرحلة كمون وتأملات عميقة ، إلى أن أطلت سنة ١٩٥٩ و بدأت جريدة الأهرام تنشر روايته الفذة أولاد حارتنا على شكل حلقات مسلسلة يومية ، وقد أثارت هذه الرواية ذات الصيت الذائع ما أثرت من عواصف فكرية ، نتيجة للتضارب حول تفسير أحداثها وشخصياتها ، فظلت دار الآداب البيروتية وحدها تنشرها في عدة طبعات إلى أن صدرت لأول مرة عن دار الشروق في القاهرة سنة ٢٠٠٦ وتصدرتها مقدمة مستفيضة كتبها الدكتور أحمد كمال أبو المجد ، واعتبارا من سنة ١٩٦١ بدأت أعمال نجيب محفوظ التي تمثل المرحلة الرمزية في نتاجه تتوالى ، حيث صدرت رواية اللص والكلاب وتلتها السمان والخريف والطريق والشحاذ وثرثرة فوق النيل ، وقد أصدر عملاق الرواية العربية دون منازع ستة وخمسين عملا أدبيا ما بين رواية وقصة قصيرة ، وكان يمكن لهذا العطاء الأدبي الضخم أن يزيد على هذا العدد لو لم يكن صاحبه ومبدعه قد تعرض لمحاولة الاغتيال الفاشلة التي قام بها شاب جاهل لم يقرأ لنجيب محفوظ حرفا واحدا لكنه استجاب وقتها لتحريض قوى الظلام ضد ثروة قومية وإنسانية نفيسة ، وذلك يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٩٤ ، وأتذكر هنا بكل وضوح أني كنت قد اتفقت مع نجيب محفوظ على إجراء حوار مطول معه في نفس ذلك اليوم ، و هذا ما دعاني لكتابة مقال بعنوان نجيب محفوظ واللقاء المؤجل ، أشرت فيه إلى محاولة الاغتيال التي تسببت في إلغاء ذلك اللقاء !

أعود إلى عقد الستينيات من القرن العشرين ، حيث كنت واحدا من مرتادي مقهى ريش بشكل دائم مع كثيرين من أبناء جيلي وأذكر منهم إبراهيم أصلان وأمل دنقل ويحيى الطاهر عبد الله ، وكان يشاركنا في أغلب الأحيان شاعران عربيان كبيران كانا وقتها يقيمان في مصر وهما عبد الوهاب البياتي ومحمد الفيتوري ، وكنت أحيانا أسبق هؤلاء جميعا لكي يتاح لي أن أجلس مع نجيب محفوظ على انفراد ولو لعدة دقائق ، وذات مرة بادرني عملاق الرواية العربية مداعبا ، حيث قال لي دون مقدمات : هل تعرف أني قد

كتبت قصيدة الشعر الحر قبل أن يكتبها أستاذك صلاح عبد الصبور ، ومن ناحيتي فإني رددت على الدعابة بدعابة مثلها فقلت بأدب شديد : أين الدليل ؟ أتمنى أن أقرأ هذه القصائد التي كتبتها أنت يا أستاذنا الكبير !

أتذكر هذا لكي أتساءل الآن : ماذا لو كان نجيب محفوظ شاعرا ولم يكن روائيا ؟ أستطيع القول بكل ثقة إن حياته كان لابد لها أن تتغير ، لأنه كان يسخر دائما من فكرة الإلهام ، ويؤكد أن كتابته للرواية لا تنتظر هذا الإلهام ، فهو يشرع في الكتابة بمجرد أن تختمر الفكرة في ذهنه ، حيث يجلس لكي يكتب بصبر ودأب ومثابرة وكأنه موظف حكومي مثالي يؤدي عمله اليومي الذي يتعين عليه أن ينجزه في موعد محدد ، وبالطبع فإن الكاتب الروائي لا بد أن يكتب على نحو مشابه لما يحدثنا عنه نجيب محفوظ ، لكن الشاعر – أي شاعر – لا يستطيع أن يكتب القصيدة إلا إذا كان هناك مثير من أي نوع كان ، وهو ما نسميه الإلهام أو لحظة انبثاق القصيدة الجديدة، ولو كان نجيب محفوظ قد أصبح شاعرا بالفعل لما كان قد استطاع أن يكون دقيقا بل مسرفا في الدقة على النحو الذي عرفناه وعهدناه فيه، لأن كتابة القصيدة لا يمكن أن تتم أو تتحقق على طريقة الموظف المثالي الذي يريد أن ينجز ما ينجز خلال وقت محدد !

كتب رجاء النقاش ضمن كتابه في حب نجيب محفوظ – عن روح الشعر التي تتجلى عبر روايات عديدة من أعمال عملاق الرواية العربية ، وأنا – شخصيا – مقتنع تماما بما قاله ، بل إني كنت أحفظ عن ظهر قلب عبارات بل فقرات كاملة تتجلى فيها هذه الشاعرية ، وهي كثيرة ومبثوثة في ثنايا روايات عديدة من روايات المرحلة الرمزية ، وخصوصا في الطريق والشحاذ ، ولكن هذا كله لايعني أن نجيب محفوظ كان يمكن أن يكون شاعرا وأن يحتفظ في نفس الوقت بإسرافه في الدقة ، لأن الشاعر لا يستطيع التقيد بنظام صارم يتبعه طيلة حياته وكأنه قطار يسير على قضبان حديدية !

كثيرون من أبناء جيلي قد قرأوا لروائيين ممن كانت أسماؤهم تتردد باستمرار ودون انقطاع ، ومن هؤلاء – على سبيل المثال – يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس ، وقد قرأت أنا شخصيا معظم روايات هذين الكاتبين خلال مرحلة المراهقة ولكني لم أستطع العودة لقراءتها مرة أخرى عندما كبرت ، بينما أظل أعيد قراءة أعمال نجيب محفوظ بدل المرة مرات ، فلماذا ؟

لم يكن أمثال يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس سطحيين ولا تافهين لكنهم لم يستطيعوا الوصول إلى جوهر الحياة ، وهو ما استطاعه نجيب محفوظ الذي تعمق في دراسة الفلسفة وتمكن من تمثلها واستيعابها في إبداعه الروائي والقصصي دون تعسف أو تكلف ، وهكذا قدر له أن ينفذ إلى الجوهر ، وأن يصل بالتالي إلى عقل القاريء وقلبه في كل مكان وزمان ، فقد استطاع أن يجعل الحارة الشعبية المصرية تتسع لتستوعب العالم بأسره ، وهذا ما جعل جائزة نوبل تتوجه إليه باعتباره أول كاتب عربي يفوز بها في أكتوبر سنة ١٩٨٨ وكما هي عاداتنا العربية حتى في المناسبات التي تدعو للفرح فإن هناك من حاولوا إفساد الأجواء ، إذ أعلن يوسف إدريس أنه كان الأحق بنوبل من نجيب محفوظ ، كما شاء بعض الكتاب الفلسطينيين أن يربطوا بين معاهدة كامب ديفيد وفوز عملاق الرواية العربية بنوبل ، وقد تكفل بالرد على هؤلاء وقتها شاعران عربيان فلسطينيان كبيران هما محمود درويش وسميح القاسم ، أما رجاء النقاش فقد كتب مقالا مطولا رائعا بعنوان جائزة نوبل لنجيب محفوظ أهم حدث ثقافي عربي في القرن العشرين ، ومن ناحيتي فإني أتذكر أنه بعد دقائق من إعلان فوز العملاق بنوبل فإن المكالمات التليفونية المهنئة بدأت تنهال عليّ ، وكانت أولى تلك المكالمات من عميد الصحافة القطرية الأستاذ ناصر محمد العثمان رغم أنه لم يكن وقتها موجودا في الدوحة ، وكذلك كان شأن الكاتب القدير أحمد علي ، وسارعت للسفر من الدوحة إلى القاهرة لأكون واحدا من مهنئي العملاق الذي لم يبخل عليّ بنحو ساعتين أجريت خلالهما حوارا مطولا .

ها هي السنوات تنقضي على غياب عملاق الرواية العربية عنا وعن عالمنا ، لكن إبداعه ما يزال يتجدد وما تزال قيمته الفنية والإنسانية تتأكد ... كيف لا وهو الذي استطاع أن ينفذ من أعماق حارة شعبية إلى جوهر الإنسان في كل مكان وزمان ؟!



على البلاج .. قصة مجهولة لنجيب محفوظ
ثلاثة أدباء يلتقون مع ثلاث حسناوات في الإسكندرية

فجأة وجدت نفسي محاصرا من جميع الجهات ، لكني لم أشعر بالخوف أو القلق ، رغم أني أدركت أني لا أستطيع الحركة لأنها بدت لي مربكة ومرتبكة . لم يكن هذا الحصار جائرا وغادرا من طراز حصار الصهاينة لقطاع غزة ، ولم يكن حصارا مخيفا ومرعبا مثل الفيضانات التي حاصرت الباكستانيين . لا أحد فرض على جسدي الحصار . أنا الذي حاصرت نفسي بنفسي . مئات من المجلات تحاصرني من كل الزوايا . إنها مجلات قديمة، تتفاوت أعمار أعدادها ، فمنها ما يتجاوز تسعين سنة ، أما أحدثها فلا يتجاوز عمر أعداده أربعين سنة .

كان هدفي من فرض هذا الحصار على نفسي أن أبحث عبر صفحات المجلات القديمة عن إبداعات منسية أو مجهولة ، كتبها مبدعوها ونشروها لكنهم لسبب أو لآخر لم يجمعوها ويضموها ضمن الكتب التي أصدروها خلال حياة كل منهم ، وقد سعدت من أعماق القلب لأني اكتشفت قصائد مجهولة عديدة لا لشاعر الحب الرفيق والكبير الدكتور إبراهيم ناجي وحده ، وإنما لشعراء آخرين من أبناء جيله ، منهم محمود حسن إسماعيل وعلي محمود طه وحسن كامل الصيرفي و صالح جودت ، وبينما كنت أبدأ – وسط هذا الحصار الجميل - بتقليب صفحات عدد من أعداد مجلة أدبية من تلك المجلات القديمة ، إذا بمفاجأة رائعة لم أكن بالطبع أتوقعها أو أترقبها ولو في الخيال ، وهذا ما دفعني لأن أقف في مكاني صائحا ومهللا !

المجلة التي أشير إليها مجلة نصف شهرية ، لكني لن أذكر اسمها الآن على الأقل حتى لا يهتدي إليها القراصنة ، لكي يزعموا أنهم قد اكتشفوا ما اكتشفته وعرفوا ما عرفته ، وعلى الرغم من هذا الإغفال المتعمد من جانبي لاسم المجلة إلا أني سأذكر تاريخ العدد وأثبته بصورة واضحة لا لبس فيها ، فهذا العدد هو الحادي والعشرون ، وقد صدر يوم الخامس من أغسطس سنة ١٩٥٠ . على الصفحة الرابعة من هذا العدد تعلقت عيناي بما قرأته .. على البلاج – قصة مصرية اشترك في كتابتها ثلاثة كتاب : صالح جودت ، نجيب

محفوظ ، عبد الحميد جودة السحار . توقفت مذهولا إلى أن أفقت من حلاوة المفاجأة ، ثم شرعت في قراءة القصة .

بعد استمتاعي بالقراءة ، لاحظت ملاحظة طريفة . لاحظت أن القصة التي كتبها ثلاثة أدباء ، تتحدث عن ثلاث حسناوات جالسات على الرمال الناعمة أمام البحر في الإسكندرية ، وفوق هذا وربما لكي تكتمل الثلاثية فإن القصة نفسها تحتل مساحة ثلاث صفحات من صفحات المجلة ! وأحاول الآن رسم جوانب الصورة المتعلقة بأجواء قصة – على البلاج – حيث التقى كل من الشاعر صالح جودت والكاتبان نجيب محفوظ وعبد الحميد جودة السحار في كازينو جليم أمام البحر مباشرة في الإسكندرية ، وبينما كان الأدباء الثلاثة منشغلين في الحديث وارتشاف القهوة الصباحية ، إذا بصالح جودت – وكان مشهورا بأنه عاشق للجمال – يتأمل ثلاث حسناوات فاتنات ، ويقوم بتنبيه صديقيه إلى اللواتي يتأمل جمالهن وسحرهن ، ثم يشرع في كتابة القسم الأول من القصة ، ويتلوه نجيب محفوظ لكي يستكمل ما بدأه الشاعر العاشق للجمال ، وبعد هذا يأتي الدور على عبد الحميد جودة السحار ليصل بالقصة إلى خاتمتها !

لا أريد أن أتناول موضوع القصة ، لكي يستمتع القارئ الجديد بقراءتها دون تدخل مني ، لكنني أذكر أني قد رددت بيتا من شعر أبي نواس ، أحسست أنه يلخص جوهر هذه القصة :

ليس على الله بمستكثرٍ أن يجمع العالم في واحدِ

وبعد برهة صمت ، سألت نفسي : ماذا أفعل بهذه القصة ؟

على الفور أجبت على سؤالي ، قائلا : يمكنني أن أجمعها على الكمبيوتر ، لكي أتهيأ لنشرها في أجواء ذكرى غياب نجيب محفوظ عن محبيه وعن الدنيا كلها، ولكن وقبل كل شيء لا بد من أن أتأكد أن هذه القصة لم تنشر – من قبل – ضمن أية مجموعة من المجموعات القصصية لنجيب محفوظ أو لعبد الحميد جودة السحار ، أما صالح جودت فإن من البديهي أنه لن يكون قد ضمها إلى أحد دواوينه الشعرية !

تنفيذا لما ألزمت نفسـي به قمت بمراجعة مجموعات نجيب محفوظ والتي تبدأ بمجموعة – همس الجنون – رغم أني أعرف بالطبع أنها قد صدرت سنة ١٩٣٨ مرورا بمجموعة – دنيا الله – الصادرة سنة ١٩٦٢ ثم ما تلاها من مجموعات قصصية : بيت سيئ السمعة – خمارة القط الأسود – تحت المظلة – حكاية بلا بداية ولا نهاية ... وبالطبع فإني كنت متأكدا أني لن أجد قصة – على البلاج – ضمن أية مجموعة قصصية للكاتب العملاق .

أعادني اكتشاف هذه القصة المجهولة أو المنسية التي كتبها ثلاثة أدباء ، إلى عمل أدبي جميل ومشوق ، كنت قد قرأته للمرة الأولى عندما كنت طالبا في المرحلة الثانوية ، ثم أعدت قراءته عدة مرات فيما بعد . هذا العمل الأدبي ليس مجهولا ولا منسيا ، ولكنه عمل شارك في كتابته كاتبان من جيل العمالقة هما طه حسين وتوفيق الحكيم ، وعنوان هذا العمل الجميل والمشوق – القصر المسحور – وقد صدر في طبعته الأولى سنة ١٩٣٦ وفضلا عن هذا فإني تذكرت عملا أدبيا رائعا ، يتمثل في رواية – عالم بلا خرائط – و هي الرواية التي شارك في كتابتها كذلك كاتبان عربيان كبيران هما جبرا إبراهيم جبرا وعبد الرحمن منيف ، ولا بد أن أتذكر الآن موقفا طريفا ، حيث تحدى الكاتبان الكبيران جميع النقاد أن يعرفوا من الذي كتب هذا الفصل أو ذاك من تلك الرواية التي صدرت في طبعتها الأولى سنة ١٩٨٢ ثم صدرت طبعتها الثانية سنة ١٩٩٢ ، وهنا يطيب لي أن أذكر أني قد عرفت من الذي كتب هذا الفصل أو ذاك ، حيث أفشى لي الشاعر الكبير بلند الحيدري أسرار كتابة – عالم بلا خرائط – وهو أمر يحتاج لكتابة تفصيلية عنه فيما بعد .

هنا أقول إن القاعدة العامة تتمثل في أن الكاتب المبدع – روائيا كان أو كاتبا قا صا أو شاعرا –يشرع في كتابة إبداعه وحده دون أن يسمح لأحد سواه بأن يشاركه فيما يكتبه ، أما الا ستثناء فيتمثل في ا شتراك أكثر من شاعر أو كاتب في كتابة عمل أدبي ، على نحو ما رأينا في قصة – على البلاج – ومن قبلها – القصر المسحور – ومن بعدها – عالم بلا خرائط – ولكن لا بد لي من تسجيل ملاحظة تتعلق بأسلوب الكتا بة في الأعمال المشتركة ، وعلى سبيل المثال فإن أسلوب كتابة – على البلاج – يبدو متجانسا ومنسجما رغم أن ثلاثة أدباء قد شاركوا في كتابتها ولكل واحد منهم أسلوبه الخاص المتفرد عن سواه ، وكذلك يبدو التجانس والانسجام واضحين في أسلوب رواية – عالم بلا خرائط –

رغم أن أديبين اثنين قد شـــاركا في كتابتها ، بينما نســـتطيع أن نميز بين أســـلوب طه حسين وأسلوب توفيق الحكيم في – القصر المسحور – وبالطبع فإن هذه الملاحظة تتطلب دراسة متمهلة ومتأملة .

أعتقد الآن أنه قد آن لي أن أحرر نفســـي من الحصـــار الذي فرضـــته عليها ، وأترك المجال لقراء الجيل الجديد لكي يستمتعوا بالقصة التي شارك في كتابتها نجيب محفوظ ، ولكن قبل الاســـتمتاع بالقراءة ، أظن أن علينا أن نتذكر عملاق الرواية العربية الكاتب المصـري- العربي- العالمي نجيب محفوظ والذي رحل عن عالمنا يوم ٣٠ أغســطس ســـنة ٢٠٠٦ ، بعد أن عاش حياة طويلة حافلة بالأحداث والوقائع على امتداد ما يقرب من خمس وتسعين سنة ، بدأت تتوالى منذ يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩١١ وهو اليوم الذي شهد تفتح عينيه للنور لأول مرة في حياته .

ولقد ذكرت – من قبل – أنه حين انبثقت ثورة ٢٣ يوليو ســـنة ١٩٥٢ بقيادة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ، كان نجيب محفوظ قد تخطى الأربعين من العمر ، وقد توقف عن الكتابة أو عن نشر ما كان يكتبه عدة سنوات بعد قيام الثورة ،مبررا صمته أو صومه عن الكتابة بأن الثورة توشـــك أن تحقق أحلامه في العدالة الاجتماعية والمســـاواة بين الناس ولهذا لم يعد لديه ما يكتبه ، وفي تقديري أن سنوات الصمت أو الصوم عن الكتابة كانت مرحلة كمون وتأملات عميقة ، إلى أن أطلت ســـنة ١٩٥٩و بدأت جريدة الأهرام تنشر روايته الفذة – أولاد حارتنا – على شكل حلقات مسلسلة يومية ، وقد أثارت هذه الرواية ذات الصيت الذائع ما أثرت من عواصف فكرية ، نتيجة للتضارب حول تفسير أحداثها و شخصياتها ،فظلت دار الآداب اللبنانية وحدها تنشرها في عدة طبعات إلى أن صدرت لأول مرة عن دار الشروق في القاهرة سنة ٢٠٠٦ وتصدرتها مقدمة مستفيضة كتبها الدكتور أحمد كمال أبو المجد ، واعتبارا من ســـنة ١٩٦١ بدأت أعمال نجيب محفوظ التي تمثل المرحلة الرمزية في نتاجه تتوالى ، حيث صـــدرت رواية اللص والكلاب وتلتها الســـمان والخريف والطريق والشـحاذ وثرثرة فوق النيل ، وقد أصــدر عملاق الرواية العربية دون منازع ستة وخمسين عملا أدبيا ما بين رواية وقصة قصيرة ، وكان يمكن لهذا العطاء الأدبي الضخم أن يزيد على هذا العدد لو لم يكن صاحبه ومبدعه قد تعرض لمحاولة الاغتيال الفاشلة التي قام بها شاب جاهل لم يقرأ لنجيب محفوظ

حرفا واحدا لكنه اســتجاب وقتها لتحريض قوى الظلام ضــد ثروة قومية وإنســانية نفيسة ، وذلك يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٩٤، وأتذكر هنا بكل و ضوح أني كنت قد اتفقت مع نجيب محفوظ على إجراء حوار مطول معه في نفس ذلك اليوم ، وهذا ما دعاني لكتابة مقال بعنوان نجيب محفوظ واللقاء المؤجل ، أشــرت فيه إلى محاولة الاغتيال التي تسببت في إلغاء ذلك اللقاء !

تحية لروح هذا العملاق الذي كان يدرك أن الكلمة المبدعة تتطلب من كاتبها أن يظل مخلصــا لها ومؤمنا بجدواها باعتبارها رســالته الشــريفة التي يتوجه بها إلى قلب الإنسان وعقله .



على البلاج
قصة قصيرة مجهولة اشترك في كتابتها ثلاثة أدباء :
صالح جودت
نجيب محفوظ

عبد الحميد جودة السحار

**** بدأ القصة الأستاذ صالح جودت :**

كان البحر في ثورة على الجمال ... الراية السوداء منصوبة تنذر بعدم الاقتراب من الماء ، ولهذا اكتفت صاحباتنا الثلاث بالاستلقاء على الرمل المتوهج تحت أشعة الشمس التي ينساب سحرها في بشرتهن ، فيكسوها طبقة رقيقة من النبيذ الأسمر المشرب بالحمرة .

ثلاث فتن ، لا يشك من يراهن في رقدتهن هذه ، أن الخطر كل الخطر الذي رفعت من أجله الراية السوداء ، ليس كامنا في الموج ، بل على الرمل ، وأن مغامرة الاقتراب من البحر قد تفقد الرجل حياته على الأكثر ، ولكن مغامرة الاقتراب منهن تفقده دنياه وآخرته معا .

***

وفيم تفكر هذه الفتن الثلاث ؟ فيم يدور حديثهن الهامس الذي يمتزج بابتساماتهن الحلوة ، ونظراتهن إلى أفق بعيد ؟ لعلهن يتحدثن عن الحب ، ولعل لكل واحدة منهن حبيبا ، ولعل حكاية كل منهن مع حبيبها تصلح لتأليف مادة كاملة لقصة شائقة .

ثلاث قصص راقدة أمامي على الرمل ، وأنا مطل عليها من شرفة كازينو جليم ، ومع هذا لا أجد مادة لقصة واحدة ، قصة تلزمني بها المجلة، ويستعجلها رئيس التحرير للعدد القادم .

وفي غمرة هذه الحيرة تفاجئني ضربة على كتفي من الخلف ، تسقط القلم من يدي ، وأتلفت إلى الوراء فأرى صديقي أنور يضحك من نظراتي إليهن ملء شدقيه ، ويقول :

– إني أرقبك منذ نصف ساعة ...

ثم يرتسم الجد على وجهه ويقول :

– ولكن .. خير لك ككاتب – لا كمفتون – أن تنظر إلى الناحية الأخرى من الشاطيء ..

– ماذا هناك ؟

– هناك .. إلى هذه المظلة المخططة بالأحمر .. ألا ترى نظراتهن مترامية إلى هناك لا تتحول ؟

وسكت لحظة ثم استطرد يقول :

– هل تصدق أن هؤلاء الثلاث مشغولات برجل واحد

**** ثم تبعه الأستاذ نجيب محفوظ :**

وكان صاحبنا السعيد ، رجل المظلة الحمراء مشغولا كذلك، ولكن بالفتن الثلاث معا ، فوجد نفسه في حيرة ، وعز عليه أن يستمتع بسعادته السخية في صفاء وسلام ، وقد تواصلت رؤيته لهن على الساحل يوما بعد يوم ، فتردد بصره بينهن طويلا ثم تنقل فؤاده بينهن دون أن يستقر على حال . تخلب لبه حينا السمراء الرشيقة التي تهوى بكل روحها الرياضة والسباحة، فيوحي جسدها اللدن المرن بالانطلاق والحيوية ، ثم تجذبه ذات القد الرشيق والعينين الحالمتين التي تقسم وقتها بين السباحة والاستسلام للكرسي المتمدد فتسبح في تأملاتها أو تقرأ في كتاب ، وبين هذه وتلك تسترعي نظره ذات جسم ناضج ، لم يرهله القعود ولا جففه الإغراق في الرياضة، وسط في كل شيء ، تذكر جلستها الطويلة على الساحل بين أطفال الأسرة بالبيت والأمومة .

طالما ساءل نفسه أيها أحب إلى قلبه دون أن يظفر بجواب حاسم ،وكم تمنى لو يجمع الله الثلاث في واحدة ، فيزين رشاقة الأولى بعقل الثانية ويكملها بقلب الثالثة ، وكم أنفق الساعات وهو يبادلهن نظرا شغوفا ناطقا، وخياله دائب على الإنشاء والاختيار ، والوصل والفصل ، والخلط والمزج ، قانعا إلى حين بلذة الأحلام ، وزاد من حيرته أنهن كن يستجبن لنظراته استجابات متعادلة في حرارتها ودلالاتها ، فلم تستأثر إحداهن باهتمامه بعطف قصرت دونه الحلوتان الأخريان ، أو لتمنع يستثير النشاط والحماس ،

ولما ضاق بحيرته ، و ضاقت به حيرته صمم على الخروج منها مهما كلفه الأمر ، ما باله لا يسعى للتعرف بهن ؟ أليس من الممكن أن يتمخض الاختلاط عن رأي جديد يكون فيه الخلاص من حيرته ؟

وقال لنفسه : سأتعرف بهن ، وإذا لم يخرجني التعارف من حيرتي كاشفتهن بنجوى قلبي واعترفت بحبي لهن جميعا ، وحيرتي فيهن ، وسألتهن أن ينتشلنني من بلواي ، ولأنظر ماذا يكون بعد ذلك ، ومهما يكن من أمري وأمرهن فهي تجربة بارعة في لطافتها ، وفيما يحتمل أن تتكشف عنه من مختلف الحلول .

**** ثم اختتم القصة الأستاذ عبد الحميد جودة السحار(*) :**

ونهض وقد عزم على أن يسعى للتعرف بهن ، وسار إلى حيث كانت الفتن الثلاث، وما إن دنا منهن حتى اعتدلن في جلستهن ، وتطلعن إليه خافقات القلوب ، ورفت على شفاههن ابتسامات عذبة ، وانبعث من عيونهن سحر، كانت كل منهن تحاول أن تبدي فتنتها لتسلبه لبه وتسبي فؤاده .

وأحس وقع نظراتهن الساحرة في قلبه ، فخفف من خطوه ، وعادت إليه حيرته ، فما كان يدري إلى أيهن يتودد ، وأطرق يفكر في وسيلة تيسر له التعرف بهن ، ومكاشفتهن بنجوى قلبه ، واعترافه لهن بحبه ، وحيرته فيهن ، وفيما هو في تفكيره صك أذنيه صوت نسائي يصرخ ، فالتفت فرأى فتاة في اليم ، تتلقى صفعات البحر الثائر الذي استخفت به ، واقتحمته دون أن تأبه لغضبه أو تحترم ثورته .

وألفى نفسه يندفع إلى البحر كالسهم ،ويلقي بنفسه في الماء ، وراح يشق عبابه ، ويصارع أمواجه ، حتى إذا بلغ الفتاة التي أنهكها الجهد ضمها إليه ، وراح يسبح عائدا إلى الشاطيء ، وخرجا من الماء ، وهو يلف ذراعه حولها ، وهي تستند إلى صدره تحتمي خشية أن تنوء من الإعياء ، وانطلقا إلى المظلة المخططة بالأحمر ، واستسلمت للكرسي المتمدد ، وأخذت تلتقط أنفاسها في جهد ، فيرتج صدرها الناهد الفتان .

(*)نشرت هذه القصة المجهولة في يوم ٥ أغسطس سنة ١٩٥٠ - ح. ت..

ووقف يرنو إليها في دهش وإعجاب ، كانت تجمع ما كان يشـتهيه في الفتن الثلاث ، كانت سمراء رشيقة ، يوحي جسمها اللدن المرن بالحرية والحيوية والانطلاق ، وكانت عيناها حالمتين ، ويستشف من قسماتها الرقة والحنان .

ورفعت صـدرها الرائع ومدت يدها في دلال ، تسـوي شـعرها السـبط المتهدل . ثم راحت تتحدث إليه في صـوت حلو أخاذ ، وهو يصـغي إليها منشـرح الصـدر ، متفتح القلب ، فقد قابل من كانت تتراءى له في أحلامه على غير ميعاد .

ونهضا وفي عيونهما حب ، وفي صدريهما نشوة ، وعلى شفاههما يرف الأمل البسام ، وسارا ومرا على الفتيات الثلاث فلم يحس بمن كن يملأن أقطار نفسه منذ لحظات ، كان مشغولا عنهن بحوريته التي خرجت له من الماء .

ونظرت إليهما الفتيات فأخذت عقارب الغيرة تنهش صـدورهن ، فغامت الوجوه الحلوة بسـحائب من الحزن ، وبان فيها الأسـى العميق ، ورفعت إحداهن بصـرها إلى الراية السوداء ، فازداد ضيقها فلولاها لما قابل من كانت ترتجيه تلك الفتاة !

ولم يطقن البقاء بعد أن سخر القدر بهن ، فقمن وسرن خافضات الرؤوس ، يجرجرن أرجلهن فقد تملكهن اليأس ، بعد أن تكسرت آمالهن على الرمال .

والتفت إلى صـديقي أنور فألفيته فاغرا فاه ، أذهله ما جرى في لحظات قصـار ، فلم يسعفه لسانه ليعلق على ما رآه ، والتفت ثانية إلى الفتيات المنسحبات من الميدان ، فحز في نفسي أن ينهزم السحر والرقة والفتنة والجمال .



حوار معه سنة ١٩٨٠
محمد مهدي الجواهري شاعر العرب الأكبر

لم يكن هذا اللقاء أول لقاء مع شاعر العرب الأكبر. «أبو فرات» فقد سعدت بأن التقيت به لأول مرة على أرض الحبيبة الغالية.. مصر.. كان هذا عام ١٩٧١م، حينما قدم «أبو فرات» إلى القاهرة ليشارك في حفل التأبين الذي أقيم بمناسبة مرور الذكرى الأولى لرحيل الزعيم العربي العملاق جمال عبد النا صر.. ليلتها ألقى الشاعر العربي – العراقي العظيم قصيدة من روائع شعره.. وليلتها اهتزت جدران قاعة الشعب بمبنى الاتحاد الاشتراكي على كورنيش النيل من حرارة الاستقبال وصدق التحية اللذين قوبل بهما «أبو فرات» قبل وأثناء إلقاء قصيدته التي استهلها قائلا:

أكبرتُ يو مك أن يكون ر ثاءَ　　　الخالدون عهدتهم أحياءَ

وليلتها سعدت عندما أتيح لي أن أحيي «أبو فرات» وأن أقف معه دقائق نتحدث.. ومرت تسع سنوات على هذا اللقاء البكر.. إلى أن أتيح لي أن ألقاه ثانية في الدوحة التي قدم إليها بدعوة من إدارة الثقافة والفنون التابعة لوزارة الإعلام القطرية، وذلك لإحياء أمسية شعرية.

«أبو فرات» الآن في الثمانين.. ولد في مطلع العام الأول من القرن العشرين.. ولد عام ١٩٠٠م، وإن كان يطيب له – أحيانا – أن يؤكد أنه من مواليد ١٩٠٣م!!

في الثمانين..

لهذا قيل لي – وأنا متوجه للقائه – «لا تثقل على الرجل.. فإنه يحب أن يستريح وأن ينام في الظهيرة». ورغم علمي بأن شاعر العرب الأكبر في الثمانين إلا أنني اعتبرت أن من حقي المكوث معه والاستمتاع بالاستماع إليه والحديث معه أكبر وقت ممكن.. وهذا ما كان.. فهو في الثمانين.. ولكن روحه النضرة التي كانت تسكنه وهو في العشرين، ما زالت هي نفس الروح النضرة التي تسكنه إلى الآن.. ما زال قلب ابن الثمانين يعشق الحياة والناس والعالم.. ما زال يحب أن يعرِّض بالظلم والطغيان، وأن ينتصر لقضية الإنسان.. ما زال تفاؤله بقدرة الأمة العربية على الانتصار وإلحاق الهزيمة بالأعداء المتربصين بها.. تفاؤلا قائما.. لم تكسبه النكسات لونا قاتما..

** قلت له.. كثيرون من النقاد والباحثين العرب متفقون على أنك آخر الشعراء العمالقة العرب في الشعر العربي كله على امتداد عصوره.. فما رأيك في اتفاقهم هذا.. وكيف تحققت لك هذه المكانة الكبيرة؟

أتمنى – من صميم القلب – أن يكون هؤلاء النقاد والباحثون صادقين، فيما اتفقوا عليه، لأنهم أعرف بي من نفسي، فالحقيقة.. وكما تعلم.. الحكم دائما يكون للحاكمين وليس للمحكوم عليهم.. وأنت من شباب الشعراء العرب المطلعين اطلاعا جادا على الشعر العربي، وتعرف من خلال هذا أن الموهبة تولد مع الشاعر بالفطرة.. ولهذا أقول لك إن موهبتي الشعرية قد وُلدت معي، بل لعلها كانت معي منذ أن كنت جنينا في بطن أمي.. وقد تحققت لي المكانة التي تفضلت وأشرت إليها بفضل الأحاسيس المرهفة والتجاريب والمواقف التي عايشتها، ومعاناة الحياة بشكل عميق ينفذ إلى الأعماق ولا يكتفي بالقشور، فضلا عن قدرتي على التطور، وإيماني العميق بأن الزمن لا يذكر الخاملين، وأن على الشاعر الأصيل إذا ما قطع مرحلة معينة من النضج أن يفكر فيما يليها من مراحل، حتى يتجاوز ذاته دائما دون أن يغتر بما وصل إليه.

** ولكنك – ياشاعر العرب الأكبر – لم تحدثني عن الينابيع الثقافية التي استقيت منها في بداية نشأتك الفنية؟.. وإن كنت أعتقد أن معظمها ينابيع مستمدة من التراث العربي.. فماذا عنها ياترى؟ وهل هناك غيرها؟..

هذه الينابيع – مثلما أشرت عندما سألت – ينابيع مستمدة من التراث العربي الذي كانت تشع به المراكز الأدبية في العراق، وبالذات في النجف.. ولا يمكن لإنسان أن ينشأ نشأة حقيقية إلا من خلال تشربه لأجواء تلك المراكز.. حتى لو لم يقدر لهذا الإنسان أن يصبح شاعرا.. وأقول لك إنني كنت ألتهم الكثير من كتب التراث العربي منذ ميعة الصبا.. لم أكن أخرج للعب مع الصبية أصحابي – عندما كنت صبيا – إلا بعد أن أحفظ سبع قطع شعرية يوميا.. وكثيرا ما كان يضيع عليَّ وقت اللعب لهذا السبب. ومنذ بداية نشأتي الأدبية كنت معجبا أشد الإعجاب بالمتنبي.. وأبو تمام.. والبحتري.. وأبو العلاء المعري.. وهناك الأخطل.. وإذا توغلنا في الزمان أبعد من هذا فدعني أقل لك إنني

معجب بشــعراء الجاهلية.. ومفتون بالنابغة الذبياني.. ومفتون أكثر وأكثر بطرفة بن العبد.. ومازلت مفتونا به إلى يومنا هذا.. ولتأكيد هذا أذكر لك أنني عندما اضــطررت — في أحيان قليلة — للكتابة باســم مســتعار كان الاســم المســتعار الذي اخترته لي هو: «طرفة».. وضــحك «أبو فرات».. وضــحكت معه.. وتركته يشــخص بناظريه في الفراغ كأنا كان يريد استرجاع شيء عزيز على نفسه.. وبعدها سمعته يقول: ما أروع طرفة.. كان محبا للحياة.. ما أجمل هذا الحب.. اسمعه معي:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشــهدَ اللذات هل أنتَ مخلدي

فإن كنتَ لا تســطيع دَفْعَ منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

كريم يروِّي نفســه في حياته ســتعلم أن متنَا غدا أينا الصــدى!!

هذا عن ينابيع التراث العربي التي اســتقيت منها.. ولكنني لا أنســى الكتب المترجمة التي كانت تصــل إلى النجف قبل أن أصــل إلى العشــرين.. أذكر ترجمات هامة لأشــعار بودلير، ولمسرحيات شكسبير.. وأذكر أنني — على قدر استطاعتي — استفدت من قراءة حافظ الشيرازي وسعدي الشيرازي.. وهما شاعران — كما تعرض — من شعراء الفرس.. ما أجمل البلد التي نشــأ كل منهما فيها.. ما أجمل «شــيراز».. شــيراز التي فتن بها المتنبي عندما زارها فقال:

مغاني الشِّــعب طيبًا في المغاني بمنزلة الربيع من الزمانِ

ولكنَّ الفتى العربي فيها غريبُ الوجه واليد واللســانِ

ولعلك تعلم أنني قد ترجمت بعض رباعيات حافظ إلى لغتنا العربية، ونشــرتها عام ١٩٢٦م في جريدة «النجف».

** قاطعته برفق.. وقلت له إنني أعلم هذا وأعلم أن هذه الرباعيات قد تضــمنها الجزء الأول من ديوانك الضخم الذي صدر في ستة أجزاء عن وزارة الإعلام في العراق.. وأنشدته رباعية من تلك الرباعيات، يقول فيها حافظ:

كثر الورد ولكن منع الشـوك اقتطافا

عشـق البلبل وردا هو والشـوك تصـافى

لا سـلا هذا ولا ذاك عن الألف تجافى

ثم قفزت في الزمان قفزة بعد عقد العشـرينات.. انتقلت بها إلى الثلاثينات، وقلت له: لقد نشـرت– يا شـاعرنا الكبير – قصـيدة عن الطبيعة في مجلة «أبولو» عام ١٩٣٢م.. ولكنك لم تنشـر في هذه المجلة كثيرا.. فهل هذا راجع إلى إحسـاسـك باختلاف نظرتك للشـعر عن نظرة الشـعراء الرومانسـيين المصـريين الذين كانوا يحررون تلك المجلة، وعلى رأسهم د. أحمد زكي أبو شادي وإبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل؟؟

ضحك وفاجأني بالجواب.. لم تكن المسألة مسألة كلاسيكية ورومانسية.. لم يكن اختلاف نظرتي لمفهوم الشـعر يمكن أن يبعدني عن هؤلاء الشـعراء الكبار.. المسـألة كانت كسلاً مني.. ولقد ندمت على هذا لأن مجلة «أبولو» كانت مجلة عظيمة، والشعراء الذين عملوا بها في سنوات صدورها قدموا خدمة كبيرة للأدب العربي.. والحقيقة أنه لا توجد الآن مجلات شعرية معاصرة يمكنها أن ترقى إلى مستوى تلك المجلة.

* ذكَّرت الشـاعر العربي الكبير بالدكتور طه حسـين.. قلت: كنت صـديقا لعميد الأدب العربي.. فما رأيك في الحملات التي شـنها عليه عدد من الباحثين المتزمتين بعد رحيله عن عالمنا.. وما أجمل ذكريات تحتفظ بها في ذاكرتك لطه حسين؟

أنا ثائر – بكل ما أملك من قوة وإرادة – على هذه الثورات المفتعلة.. هناك ثورات مفتعلة يقوم بها نمط عجيب من الناس.. وأنا أرفض أن تسـمى الأفراد المندرجين تحت هذا النمط «باحثين».. فهذا النمط يضـم الدجالين والمرتزقة والمنافقين والمتاجرين (ولا سـيما باسـم الدين).. وهؤلاء جميعا نحن مبتلون بهم، وهم يفهمون الدين فهما خاطئا وعاجزا ويريدون أن يفرضوا هذا المفهوم على المسلمين أجمعين.. وأنا أقولها – صراحة – إن هذه الحملات الظالمة ضد طه حسين هي شبه مخطط، يراد به خنق الحرية وكبت الكلمة، وإن هذا المخطط يسـتعين بهؤلاء الناس لتحقيق أغراضـه الدنيئة، وأنا أؤيد الأستاذ الناقد رجاء النقاش في دفاعه عن طه حسين، وأرى فيه نوعا من الوفاء

الصـــادق ونوعا من التقدير لعظماء أمتنا العربية.. ويكفي طه حســين فخرا أنه كتب «المعذبون في الأرض». أما أجمل ذكرياتي عن الراحل العظيم فهي ذكريات أول لقاء لي به.. كان هذا عام ١٩٤٤م عندما التقينا في مهرجان أبو العلاء المعري بدمشــق في ذلك العام.. أذكر أنني عندما ألقيت قصيدتي:

قف بالمعرة وامسحْ خدها التربَا ... واســتوحِ من طرق الدنيا بما وهبَا

أذكر أن الدكتور طه حســين كان إلى جانبي.. ولا شـعوريا كنت أحس كأن إلى جانبي أبو العلاء المعري.. فكنت أضع يدي على كتف طه حسين عندما كنت ألقي الأبيات التي أخاطب فيها شاعر المعرة العظيم.. وكان طه حسين – وقتها – يهتز من فرط التأثر.

** انتقلت من الحديث عن طه حســين إلى الحديث عن بدر شــاكر الســياب.. قلت لشــاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري.. لقد ذكر بدر شــاكر الســياب أنه ســعد بلقائك وهو لم يزل شــابا يدرس في دار المعلمين العالية ببغداد.. وقد ذكر أنك ســاعدته على النشر.. ولم يوضح كيف تم هذا؟ فكيف ساعدته يا ترى.. وما انطباعاتك عنه؟

هل تعلم أن بدر كان قد أرســل لي مخطوطة ديوانه الأول لكي أكتب لها مقدمة؟ لقد أرســل بدر هذه المخطوطة مع صــديقه الكاتب عزيز الحاج الذي كنت أعرف والده.. ولكنني لم أكتب المقدمة المطلوبة، لعدم إيماني بكتابة المقدمات.. فالشعر الأصيل يقدم نفسه، ولا يحتاج إلى من يقدمه.. ولكن أول قصيدة نشرها بدر كان عن طريقي.. نشرتها له في مجلة من المجلات التي كنت أ صدرها عام ١٩٤٨م وكانت عن شهداء «الوثبة».. وثبة الشعب العربي في العراق ضد معاهدة بورتسمورث التي أراد صالح جبر أن يفرضها وقتها، وهذه الوثبة هي التي استشهد خلالها أخي جعفر كما تعلم.

** قاطعته برفق.. مذكرا إياه بقصيدته التي رثى بها أخاه جعفر.. وقد ذاع صيت هذه القصيدة وما زال.. ثم أنشدته منها بضعة أبيات.. استمع إليها مني، وهو يسترجع الأيام:

أتـعـلـم أم أنـتَ لا تـعـلـمُ ... بـأن جـراحَ الضــحـايـا فـمُ

فم ليس كالمدعي قولة ... ولـيـس كـآخـر يســتـرحـمُ

يصــيح على المدقعين الجياع ... أريـقـوا دمـاءكـم تـطـعـمـوا

وعاد «أبو فرات» من جديد إلى ذكرياته مع السياب.

منذ ذلك التاريخ (١٩٤٨م) كنت أستدعي بدر لكي يعمل معي في الجرائد والمجلات التي كنت أصدرها.. فقد كان مترجما قديرا.. وفيما يتعلق بانطباعاتي عنه.. أقول لك أنني كنت أشعر بأنه كان يساعد على أن يعذب نفسه بنفسه.. وضحك الشاعر الكبير.. وقال: يمكن أن يكون هذا من خصائص كل الشعراء. ولكنني أحب أن أصارحك بأن بدر إذا كان قد لاقى – في حياته – إجحافا فظيعا، فإنه قد قوبل – بعد مماته – بتكريم مبالغ فيه.. ويبدو أن ما أصارحك به هو من طبيعة مجتمعاتنا الشرقية.

** ما دمنا تحدثنا عن بدر.. فهل يمكن أن نتحدث عن الحركة التي ارتادها في البدء.. حركة الشعر الحر.. هل ترى أن هذه الحركة قد حققت إنجازات للشعر العربي بعد نشأتها.. أم أنها لم تضف جديدا.. وما رأيك في الشعراء الذين عاصروا بدر..؟

لا شك أنك تعرف عني أني لست عدوا للجديد.. ولكنني عدو للركاكة.. وأنا أرى أن الحركة الجديدة قد قدمت الكثير برغم ما يشوبها.. وأما رأيي في الشعراء الذين عاصروا بدر فإنني أفضل ألا أعلنه.. ولكن إذا كنت مصرا على أن أعلن لك رأيي.. فإنني أرى أن صلاح عبد الصبور شاعر كبير.. ولم أكن أود أن أذكر هذا لأنني أخشى أن يثور عليَّ بقية الشعراء العرب لهذا السبب!!

** نقترب من عام ١٩٥١م.. أريد أن أذكرك بما جرى لك في لبنان وقتها حتى أتعرف منك على تفاصيل جديدة.. عندما اشتركت في تأبين عبد الحميد كرامي وأنشدت قصيدتك الشهيرة:

باقٍ – وأعمارُ الطغاةِ قصارُ – من سِفْرِ مجدك عاطرٌ موارُ

وصلتني عام ١٩٥١م ثلاث برقيات من مسؤولين لبنانيين كانوا كبارا وقتها.. كانت البرقيات تتضمن دعوتي للاشتراك في تأبين عبد الحميد كرامي.. وكنت أنا مشغولا بأمور كثيرة في ذلك الوقت، ولهذا فعندما ذهبت إلى لبنان أستطيع القول بأنني ذهبت متفضلا على من وجهوا لي الدعوة، وعندما ألقيت القصيدة أبلغوني بأنه من المحتم أن أغادر لبنان في اليوم التالي.. وإلى الآن.. أنا ممنوع من دخول لبنان.. بينما يدخل لبنان السفاحون والقتلة.. وأقصى اليمين وأقصى اليسار.

** شاعرنا الكبير.. هل تعتقد أن الشاعر العربي يتمتع بحرية كافية أكثر من ذي قبل، في التعبير عما يود التعبير عنه؟!

لا.. أبدا.. لقد كان يتمتع فيما مضى بحرية أكبر.. إنه الآن لا يتمتع بأي حرية.. وليس هذا قاصرا على الشعر العربي وحده، ولكنه ينطبق على الفكر العربي كله، وهذا – في رأيي – مصيبة المصائب.. مع فروق لا تذكر بين بلد وآخر.. أو فروق في طريقة التعامل وأسلوبه.

** لنترك هذا الحديث جانبا.. حتى ننتقل إلى إطار أرحب.. وحديث أخف وقعا على السامعين.. شاعرنا الكبير: هل يمكن للشاعر أن يكون شاعرا – بحق – دون أن يكون قد مر بتجربة الحب؟

لا.. لا.. لا يمكن أن يكون شاعرا من لم يمر بتجربة الحب!!

** إذن.. هل تعتقد أن المتنبي العظيم قد أحب؟!

قد يكون المأخذ الوحيد لي على المتنبي أنه لم يكتب عن الحب كثيرا.. ولكنه – بالتأكيد – قد أحب.. إن الشاعر – قبل كل شيء – يتميز بإنسانيته وبحبه للإنسانية كلها.. ألا ترى هذا معي؟!!

** سؤال أخير: ذكرت لنا – يا شاعرنا الكبير – أن العرافة في الكويت قالت: إنك ستعيش إلى أن تبلغ المائة عام.. فماذا ستفعل يا ترى خلال العشرين عاما المقبلة.. فيما يتعلق بالحياة والشعر؟

لو صحت هذه النبوءة، فإنها – في الحقيقة – لن تزيدني علما بالحياة ولا خبرة جديدة.

خبرت بما ما لو تخلدت بعده   لما ازددت علما بالحياة ولا خبرا

وعلى الرغم من أنني أقول لك أن هذه النبوءة لو صحت فإنها لن تزيدني علما بالحياة ولا خبرة جديدة.. إلا أنني أتشبث بها.. لأنها – في الواقع – تزيدني تشبثا بالحياة – وإذا قدر لهذه النبوءة أن تتحقق فإنني أتمنى ألا تمر الأعوام العشرون المقبلة ولا تنقضي هدرا.. حتى أستطيع أن أقدم لمن يتوقعون مني مزيدا من العطاء – فنيا وإنسانيا – ما يتوقعونه مني.

والآن.. يا حسن..

أريد أن أسألك أنا بدوري..

وماذا بعد العشرين سنة المقبلة؟!..

إن النتيجة معروفة.. وماذا بعد المائة.. وماذا بعد المائة والعشرين؟ إن مسيرة الحياة لا تتوقف.. علينا طالما أننا أحياء ألا نتوقف نحن أيضـا عن العطاء حتى نخلف ما نُذكر به.. وحتى نساهم في دفع مسيرة الإنسانية إلى الأمام.. ولو خطوات..

تركت شاعر العرب الأكبر.. بعد أن طالت جلستنا.. واعتذرت له عن طول الجلسة، فأكد لي – بحنان صـادق – أنه كان سـعيدا بتلك الجلسـة.. وقلت له: إنني أتمنى أن تتكرر.. وتتكرر.. ولكن يبدو أن الزمان بخيل.

تركت محمد مهدي الجواهري..

تركته في الثمانين..

لكن روحه النضرة روح فتى في العشرين..

ما زال قلب ابن الثمانين يعشـق الحياة والناس والعالم.. ما زال يحب أن يعرض بالظلم والطغيان، وأن ينتصر لقضية الإنسان..

ما زال تفاؤل أبو فرات وإيمانه بالمستقبل قائما..

لم تكسبه النكسات.. ولا السنوات.. لونا قاتما..



محمد مهدي الجواهري
يواجه الطغاة ويعانق الحياة

يوم الأحد ٢٧ يوليو ١٩٩٧ غاب عنا عملاق من العمالقة الكبار الذين غابوا على امتداد قرون، لكن روائعهم لم تغب بغيابهم، بل إنها تتجدد مع إطلالة كل زمان جديد.

غاب عنا العملاق محمد مهدي الجواهري الذي انبهر بشعره كل الذين قرؤوه أو عرفوه، وتجلى هذا الانبهار في الألقاب العديدة التي لقب بها على امتداد حياة قاربت على مائة سنة، فهناك من لقبوه «نابغة النجف» ومن سموه «عملاق الكلمة» ومن سموه «ديوان العصر» ومن لقبوه «شاعر العرب الأكبر».

والحق أن روائع الجواهري السياسية والاجتماعية لم تكن مجرد كلمات قوية ومؤثرة، ولكنها كانت بمثابة «أفعال» تحرك الأحداث وتغير الواقع على النحو الذي يريده «فاعلها» و«قائلها» الذي كان مقاتلا صلبا من طراز فريد، ولم يكن يقبل أن يهادن أو يلاين في المواقف التي تتطلب من الإنسان الشريف أن يرفض المهادنة والملاينة مهما كلفه هذا من عناء ومن تضحيات جسام على المستوى الفردي والعائلي والاجتماعي، وهذا بالضبط ما جرى للجواهري خلال العهد الملكي وخلال العهد الجمهوري في العراق، فقد سجن عدة مرات، وفصل من الوظيفة عدة مرات، وصودرت الجرائد التي كان يصدرها عدة مرات، وحتى بعد غيابه فإن جثمانه الراقد في دمشق ينتظر السماح له بأن يرقد – بناء على وصيته – في النجف الأشرف الذي انطلقت منه شرارات قصائده المبكرة الأولى والتقت فيه المكونات الرئيسية لشخصيته الإنسانية الجذابة وشاعريته العبقرية المعطاء.

بسلاح الكلمة وحده واجه محمد مهدي الجواهري جحافل الطغاة في الداخل وقوافل الغزاة القادمين من الخارج، لأن الشعر عنده لم يكن للمتعة والطرب في ليالي الغناء والسمر، وإنما كان أداة مهمة من أدوات تغيير الواقع البشع الذي كان العراق يعيش تحت وطأته مع غيره من الأقطار العربية التي تتشابه فيها الأوضاع والظروف، حيث كان الطغاة يتوحدون – سرا أو علنا- ليحاولوا قهر كل من يقف صلبا ضد طغيانهم واستهتارهم بمطالب الجماهير البائسة، كما كان المستعمرون الأجانب يتنافسون في سلب خيرات وثروات أقطار الأمة العربية. من هذا المنطلق راح الجواهري

– منذ بداياته – يتعرض للرجعيين الذين كانوا يطالبون بمنع تعليم الفتيات، ويسخر منهم سخرية بغير حدود، حيث يقول:

ستبقَى طويلاً هذه الأزماتُ

إذا لم تقصر عمَرهَا الصدماتُ

إذا لم ينلها مصلحون بواسل

جريئون فيما يدعون كفاةُ

غدا يمنع الفتيان أن يتعلموا

كما اليوم ظلمًا تُمنع الفتياتُ

وإذا كان الجواهري العملاق قد كتب هذه القصيدة عام ١٩٢٩، فإنه ظل طيلة حياته يقف ضد الرجعيين وضد المتخلفين، ومن هنا فإنه كان يسارع إلى مساندة كل الذين يعملون لتغيير وجه الواقع البشع لا في العراق وحده وإنما في سائر الأقطار العربية، ففي عام ١٩٥٠ زار الجواهري مصر بدعوة من عميد الأدب العربي طه حسين الذي أعلن – وقتها– وهو يمطر شاعر العرب الأكبر بأحلى ثناء أن الجواهري ضيف على الحكومة المصرية، وقد ألقى الجواهري قصيدة رائعة، شخَّص فيها أدواء مصر وصراعات أحزا بها وبؤس أبنائها و هاجم فكرة «الفن للفن» بكل قوة. وفي عام ١٩٥١ زار لبنان بدعوة من لجنة تأبين عبد الحميد كرامي، فألقى قصيدة ثائرة، تلقى بمجرد إلقائها أمرا عاجلا بوجوب مغادرته لبنان وهي قصيدة:

باقٍ – وأعمار الطغاة قصارُ –

من سفرِ مجدك عاطر موار

متجاوب الأصداء نفحُ عبيره

لطفٌ، ونفح شذاته إعصارُ

رف الضمير عليه فهو منور

طهرًا كما يتفتح النوارُ

وزكا به وهج الإباء فرده

وقدًا يشب كما تشب النارُ

وحين دعته لجنة تأبين الشهيد عدنان المالكي للمشاركة ألقى قصيدة نارية في دمشق، تعرض فيها للحكم في العراق بصورة عنيفة عام ١٩٥٦ أي قبل قيام ثورة ١٤ – تموز – يوليو ١٩٥٨ بنحو سنتين، فظل مقيما في سوريا باعتباره لاجئا سياسيا إلى أن عاد إلى العراق، وفي هذه القصيدة النارية يقول الجواهري:

خلفتُ غاشيةَ الجموع ورائي

وأتيتُ أقبس جمرة الشهداءِ

ودرجت في دربٍ على عتب السرى

ألِقٌ بنور خطاهم وضاء

خلفتها وأتيت يعتصر الأسى

قلبي، وينتصب الكفاح إزائي

وحمدت نفسًا حرة لم تنتقص

شهد الوفاء بعلقم الإغراءِ

ولو أننا انطلقنا مع الجواهري لنشهد معاركه ضد الذين كانوا يريدون تجميد الأوضاع المزرية لطالت بنا الرحلة، ونظرا لأن الجواهري لم يكن أحادي النظرة إلى الحياة والناس، فإن الذين يتابعونه من خلال قصائده يستطيعون التعرف على الجواهري – العاشق للمرأة والجواهري – المتأمل للطبيعة – والجواهري – عالم النفس الذي يتغلغل في أعماق النفس البشرية، راصدا تياراتها المتضاربة أحيانا والمتقاربة أحيانا، كما يستطيعون التعرف على الجواهري عاشق الحياة وعاشق المدن العربية والأجنبية التي أتيح له أن يعيش فيها لفترات مختلفة، ومن هذه المدن.. النجف الأشرف – بغداد – القاهرة – دمشق – طنجة – الدار البيضاء – براغ وفيما يتعلق ببراغ على وجه التحديد

فإن للجواهري قصائد رائعة، منها قصيدة «بائعة السمك» وهناك قصائد أخرى رائعة يحتفظ بها الشاعر الكبير سميح القاسم دون أن ينشرها حتى الآن وقد استمعت إلى بعض هذه القصائد في الدوحة عندما كان سميح القاسم يزورها لأول مرة.

كنت قد قرأت مقالا مطولا في إحدى المجلات الأدبية الشهرية، وقد أشار فيه كاتبه إلى أن الجواهري أفضل من أحمد شوقي، والحق أن هذا المقال ذكرني على الفور بالراحل الكريم فرات محمد مهدي الجواهري – الابن الأكبر للجواهري – والذي كنت أشهد ثورته التلقائية عندما يداعبه الأصدقاء في بغداد قائلين له: إن أحمد شوقي أفضل من أبيه الجواهري. وفيما يتعلق بهذه القضية فإني أتصور أن لكل شاعر أصيل عالمه الخاص والمتميز، وأن استخدام «أفعل التفضيل» مثل «أفضل» و«أحسن» و«أجمل» هو استخدام يعتمد على المبالغات التي ينبغي علينا أن نبتعد عنها تماما وأن نهتم أكثر بأن «ندع مائة زهرة تتفتح» فللجواهري عالمه ولشوقي عالمه ولخليل مطران عالمه ولإيليا أبي ماضي عالمه، وكل هذه العوالم لا يستطيع أحد ممن يتذوقون الشعر بحب ودون عصبية أن يلغي عالما واحدا منها.

وفيما يتعلق بالجواهري نفسه فإن من مكونات شاعريته الخصبة قصائد المتنبي وأبي العلاء المعري، وهذا أمر يتطلب بحثه دراسة مستفيضة جادة لا يستطيع الذين يزعمون الآن أنهم نقاد أن يقوموا بها نهائيا، لأنهم يدارون عجزهم الفاضح بما يستوردونه من نظريات نقدية أوربية وأمريكية دون أن يكونوا متفهمين أو متمثلين لهذه النظريات.

أتذكر الآن بكل فخر تلك الأيام الرائعة من سنة ١٩٨٠ عندما زار شاعر العرب الأكبر الدوحة بدعوة من إدارة الثقافة والفنون عندما كان الأستاذ ناصر محمد العثمان مديرا لها إلى جانب رئاسته لتحرير جريدة «الراية» فقد أحيا الجواهري خلالها أمسية غير عادية ما زلت أتذكرها ويتذكرها معي كل الذين حضروها، وقد أقيمت تلك الأمسية

الشــعرية الرائعة مســاء يوم الاثنين ٣ مارس ١٩٨٠، وقد أتيح للجواهري وقتها أن يلتقي مع الشــعراء والأدباء لقاءات حميمة، وأن يلتقي مع المســؤولين الذين يتذوقون الـ شعر العربي الأ صيل ومن بينهم الـ شيخ محمد بن حمد آل ثاني عندما كان وزيرا للتربية والتعليم وقتها والأستاذ حسين إبراهيم الفردان الذي أعده من أكبر عشاق الجواهري.

بعد غيابه لم يزل صوت شاعر العرب الأكبر يتحدى عذاب الغياب، وما زلنا و سنظل نردد روائعه الباقية والخالدة على امتداد الزمن وتعاقب الأجيال.



ستظل شامخة بعد رحيله

ثروت عكاشة .. الفنان بساطة الإنسان وروعة

هناك كتاب و شعراء وفنانون رحلوا عن عالمنا وهم في ذروة شبابهم، ومن هؤلاء أبو القاسم الشابي وأسمهان وبدر شاكر السياب وأمل دنقل، وهناك آخرون عاشوا طويلا، لدرجة أن منهم من كان يطل خلال حياته من شرفة الثمانين أو التسعين، ومن هؤلاء فدوى طوقان ومحمد مهدي الجواهري ونجيب محفوظ، وكان آخر الذين رحلوا من المعمرين هو الكاتب الفنان العملاق الدكتور ثروت عكاشة، لكن القضية الجوهرية التي ينبغي أن نركز عليها – في تقديري – لا تتعلق بما قدر لكل واحد من هؤلاء أن يحياه ، وإنما بما ا ستطاعوا جميعا أن ينجزوه وأن يحققوه خلال سنوات الحياة ، بصرف النظر عما إذا كانت حياة قصيرة أو طويلة، لأن الرصيد الذي يبقى وقد يتجدد على امتداد الأجيال يتمثل في الثروة الأدبية أو الفنية التي يبدعها الكاتب أو الفنان طيلة حياته، ويخلفها وراءه بعد غيابه النهائي عن الحياة والأحياء .

عاش الدكتور ثروت عكاشة حياة طويلة حافلة بالأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية التي قدر له أن يكون واحدا ممن أسهموا في صنعها بصورة فعالة ومباشرة أو في متابعتها عن قرب، فقد شهدت القاهرة ميلاده ذات يوم من أيام سنة ١٩٢١ ورحل عن عالمنا يوم الاثنين ٢٧ فبراير سنة ٢٠١٢ أي أنه عاش إحدى وتسعين سنة، و كانت لهذا الرجل العظيم وجوه مشرقة ومشرفة متنوعة، منها مشاركته الحاسمة في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بقيادة الزعيم جمال عبد الناصر ، ومنها عمله الدبلوماسي الحصيف، واضطلاعه بدور فعال في منظمة اليونسكو العالمية، ومنها قيامه بتشييد صروح ثقافية وفنية ضخمة وفخمة في شتى أرجاء مصر وليس في العاصمة وحدها، إلا أن الوجه الذي يعنيني في المقام الأول هو وجه الكاتب الفنان العملاق الذي أثرى الحياة الثقافية والفكرية والفنية بكتاباته ودراساته المتأنية وبترجماته الرائعة لكنوز من التراث الإنساني، حيث نقل ما اختاره منها بذوقه الفني الرفيع إلى لغتنا العربية بأسلوب رشيق ودقيق في آن واحد، أسلوب يترقرق عذوبة وصفاء كما تترقرق الينابيع الصافية وسط الخضرة النضرة .

هنا لا أستطيع أن أمنع نفسي من إغراء التوقف عند كتابين رائعين من الكتب العديدة التي ترجمها الدكتور ثروت عكاشــة، أولهما روائع جبران خليل جبران، وثانيهما مســخ الكائنات للشــاعر الروماني أوفيد، فالحقيقة أني ما زلت إلى اليوم أســتمتع بإعادة قراءة فصــول عديدة من كل كتاب منهما، ومع كل إعادة للقراءة أحس أني في عالم ســاحر ومسحور، بل إني أتذكر أني لم أكن أقنع بأن أظل هائما وحدي في دائرة هذا العالم الساحر والمســحور، فقد كنت أقرأ لكثيرين من أصــدقائي صــفحات تلو صــفحات من هذين الكتابين، وكنت أشــعر حقا بالبهجة حين أقرأ لهؤلاء شــذرات من الأســاطير الإغريقية التي صــاغها الشــاعر أوفيد ضــمن كتابه مســخ الكائنات ثم أنطقها بلغتنا العربية ثروت عكاشــة، ولعل مما يبهجني حتى الآن أن هذا الكتاب الممتع يعاد طبعه باســتمرار، وأحرص على اقتناء نســخ من كل طبعة جديدة لإهدائها لعشــاق الشــعر والجمال من الأصدقاء .

أما الكتاب الثاني – روائع جبران خليل جبران ، فإني أعترف بأني اندمجت فيه، لدرجة أني أسترشد بما يحويه في العديد من المواقف، كما أستشهد بين حين وآخر بأقوال جميلة منه أحفظها عن ظهر قلب، بل إني – في كثير من الأحيان أحرص على اصــطحاب نســخة منه خلال رحلاتي ، ومما أعشــقه في هذا الكتاب حديث جبران عن الحب الذي يدفعنا للعمل المثمر بهمة وحيوية ، ولن أستطيع منع نفسي من الاستشهاد بهذا الحديث : لقد نبئتم أن الحياة ظلام ، حتى أصــبحتم ترددون من فرط التعب ما يقوله المتعبون .. ولعمري إن الحياة ظلام إلا إذا صاحبها الحافز ، وكل حافز ضرير إلا إذا اقترن بالمعرفة، وكل معرفة هباء إلا إذا رافقها العمل، وكل عمل خواء إلا إذا امتزج بالحب.. فإذا امتزج عملك بالحب فقد وصلت نفسك بنفسك، وبالناس، وبالله .

وهنا يتســاءل جبران بأســلوب ثروت عكاشــة : وما يكون العمل الممزوج بالحب؟ وتأتي الإجابة على التساؤل : هو أن تنسج الثوب بخيوط مسلولة من قلبك، كما لو كان هذا الثوب سيرتديه من تحب .. هو أن تبني دارا والوجد رائدك، كما لو كانت هذه الدار ســتضــم من تحب .. هو أن تنثر البذور في حنان وتجمع حصــادك في فرح، كما لو كانت الثمار سيأكلها من تحب .. هو أن تنفح كل ما تصنعه يداك بنسمة من روحك، وأن تدرك أن كل أعزائك الراحلين قد التفوا حولك يراقبون .

أنظر حولي الآن بعد أن استشهدت بهذا الكلام البديع، وأقول بكل أسى وأسف : لو أن القتلة والأوغاد ومخترعي الشرور والأحقاد كانوا يقرؤون، ما كانوا قد أقدموا على ارتكاب ما يرتكبون، لكنهم لا يقرؤون، وإن قرأوا لا يستوعبون !

لم يكتب ثروت عكاشة سيرة حياته بالمعنى المتعارف عليه فيما يتعلق بكتابة السيرة الذاتية، لكنه أصدر سنة ١٩٨٨ كتابا ضخما يقع في مجلدين كبيرين، وهو بعنوان مذكراتي في السياسة والثقافة، وتوحي لنا السطور الأولى أن الكاتب الفنان العملاق ينوي أن يصحبنا معه في رحلة مطولة، يستعرض فيها جوانب متنوعة من حياته، حيث يقول : لكل امريء ما يجول بخاطره صوابا أو خطأ، والمرء بين هذين الخاطرين حائر، أيسجل الخطأ إلى جانب الصواب ليكون حجة عليه، أم يجتزئ بالصواب ليكون صاحب الحجة على الأيام، أو يمضي من الحياة بصفحة بيضاء لا يخط فيها حرفا من هذا وذاك ؟ وتاريخ الوجود كله ليس إلا كلمة مني أو منك أكتبها أنا أو تكتبها أنت، غير أنه ينبغي أن تكون هذه وتلك مشفوعة بالصدق، لاتحوير فيها ولا تبديل . لكننا حين ننطلق في القراءة نتعرف على الدافع الأساسي من وراء كتابة تلك المذكرات في السياسة والثقافة، فهو يريد أن يسجل ما كان له من دور شارك فيه من قريب أو من بعيد في تاريخ مصر القريب، الذي بدأ بقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أما لماذا هذا التسجيل فذلك لأنه رأى طوفانا من المذكرات التي كتبها أصحابها لكي يخترعوا بها لأنفسهم بطولات ليست حقيقية، ولكي يتحثوا عن أحداث لم يشاركوا فيها .

ولست أريد هنا أن أندفع وراء إغراء استعراض فصول الكتاب، ولهذا أكتفي بسطور قليلة مما كتبه الكاتب الكبير رجاء النقاش، حيث يقول : ليس لهذه المذكرات أو هذه الملحمة الكبرى من المذكرات مثيل، لأنها لم تتوقف عند الأشخاص والأحداث المادية فقط، بل سجلت كفاحنا من أجل ترقية الروح وتنقية الذوق من شوائب الماضي وتحويل الفكر والفن إلى ضرورة ولقمة خبز في حياة كل مواطن .

لكن هناك كتابا آخر لم يصــدره ثروت عكاشــة وإنما صــدر عنه، وهو بعنوان ثروت عكا شة – وردة في عروة الفارس النبيل، وقد صدر هذا الكتاب الفخم على نفقة الشاعرة الدكتورة ســعاد الصــباح، كما كتبت له مقدمة فياضــة بالمحبة، ومن خلال الكتابات المبثوثة في ثنايا هذا الكتاب نســتطيع التعرف على بســاطة الإنســان وروعة الفنان كما يتجليان في شخص هذا الفارس النبيل.

أود الإشارة أخيرا إلى أني قد سعدت بلقاءات عديدة مع هذا الفارس النبيل على امتداد ســنوات، حيث ظللت أحرص على زيارته في بيته الجميل بالمعادي، وها هي الســنوات تمر لأكتشــف أني أكتب الآن عن رحيل هذا الكا تب الفنان العملاق ا الدكتور ثروت عكا شة، لكنني أدرك تماما – ومعي بالطبع كثيرون – أن منجزاته الثقافية ستظل باقية على امتداد أجيال .



حوار معه في الدوحة سنة ١٩٨٠

صلاح عبد الصبور :

عندما أوغل السندباد وعاد.. عنوان ديواني الجديد

صعب أن تحاول عبور المحيط بزورق صغير، حيث يتحتم عليك أن تواجه أمواجه العاتية الجبارة التي لا تكفُّ عن الحركة ولا تهدأ أبدا.. وصعب - كذلك - أن تحاول التحدث عن شاعر كبير، حيث يتحتم عليك أن تتعرف على أبعاده الشعرية والإنسانية العميقة المتعددة الجوانب.. ويبدو الأمر أكثر صعوبة عندما تريد أن تتحدث عن شاعر كبير.. تعلمت منه الكثير.. ويسكن دائما في قلبك..

كان من المتفق عليه أن يكون أول ما أجريه من لقاءات على صفحات جريدة «الراية» لقاء أجريه مع الشاعر العربي - المصري الكبير صلاح عبد الصبور.. كان هذا قبل مجيئي إلى الدوحة، وقبل صدور الراية.. وقبل سفري كنت ألتقي بصلاح عبد الصبور أغلب الأمسيات.. وكنت في كل أمسية أؤجل إجراء اللقاء، لأنني كنت أجدني منجذبا إلى سحر أحاديثه ومتعة جلساته.. لهذا كنت أؤجل وأعلل نفسي بالغد.. لكن الغد - في القاهرة - لم يأتِ، فقد سافرت بعيدا عنها.. وبعيدا عنه.. دون أن يتسنى لي إجراء ما كنت أؤمل من لقاء.. وعندما ا ستقبلت «الدوحة» صلاح عبد الصبور قررت هذه المرة.. ألا أؤجل.. وقد كان.. حيث أعددت أ سئلتي.. وتوجهت بها إلى الشاعر الكبير.. والإنسان الرائع النبيل.

للشاعر الكبير صلاح عبد الصبور جوانب متعددة، كلها باهرة وجذابة.. له عطاؤه الشعري الخصب والعميق.. وله مسرحه الشعري الذي يمكن القول بأنه المسرح الشعري الحقيقي في أدبنا العربي كله.. وله دراساته النقدية وبحوثه الأدبية التي تتسم بالرصانة والاتزان.

وعلى الرغم من أن صلاح عبد الصبور من كبار رواد حركة الشعر الحر، وبالتالي فإنه ليس شاعرا تقليديا - بطبيعة الحال - إلا أن سؤالي الأول الذي وجهته له كان سؤالا تقليديا..

** هل يمكن أن تذكر من يعرف.. وتعرف من لم يعرف.. من قرا ئك الكثيرين.. بالينابيع الثقافية التي استقيت وارتويت منها في بداية نشأتك الفنية؟

عاد الشاعر الكبير بذاكرته إلى الوراء.. يذكر المدينة الوادعة التي تشتهر في مصر بكرم ضيافة أهلها وبطيب معشرهم.. تذكر صلاح عبد الصبور «الزقازيق».. مدينته الأولى التي شهدت مولده.. وتذكر قراءاته الأولى فيها، وهو – بعد – صبي صغير.

... ولدت بين صفحات كتب المنفلوطي وجبران خليل جبران.. فقد بكيت مع سيرانودي برجراك وماجدولين وأنا في العاشرة من عمري، ولا زلت أذكر هيئتي بجلبابي وخفي، وأنا أثوي في ركن صغير من فضاء مهمل وراء بيتنا بالزقازيق، ألتهم ما يلقنه سيرانودي برجراك لغريمه من بديع القول،ويتلوى كل عرق لآلام الشاعر وجسامة تضحيته ونبالتها. وقد ظل المنفلوطي معبودي حتى تعرفت إلى جبران خليل جبران في «الأرواح المتمردة» و«الأجنحة المتكسرة» فبكيت مع سلمى كرامة وعا شقها التعس.. وحين أقول «بكيت» لا أتحدث بالمجاز، بل أعني أنني أجهشت بالبكاء في وحدتي وحملت من همهما ما ناءت به النفس.

الروافد الثقافية التي ارتويت منها – في بداية النشأة – يمكن تلخيصها في ثلاثة روافد.. تتمثل في: التراث العربي القديم– شعر المدرسة الرومانسية العربية – النماذج المختلفة من الشعر الأوروبي. فهناك شعراء كبار في تراثنا العربي القديم كنت مفتونا بهم.. وأذكر بالذات.. المتنبي، المعري.. وإنني كنت – وما زلت – أكن حبا خاصا للمعري.. هذا الشاعر العربي العظيم الذي كان يحمل هم العالم كله على كتفيه. وأما عن شعراء المدرسة الرومانسية العربية،فلا شك أنك تعرف أن الشعراء الذين كان لهم تأثير بالغ على أبناء جيلي بو جه عام.. إبراهيم ناجي، علي محمود طه، محمود حسن إسماعيل.. أما النماذج المختلفة من الشعر الأوروبي.. فلم تكن قراءتها تتم أول الأمر بشكل منظم، ولكنها بعد ذلك أخذت مسارها المنتظم.

** هل يمكنك أن تحدث قراءك الكثيرين عن طبيعة الشعر الذي كان يكتب في الأربعينيات.. إنني أتصور أنه كان يعاني من الجمود والخمود.. إلى أن بدأت حركة الشعر الحر تنطلق شيئا فشيئا.. وما الإضافات التي قدمها رواد حركة الشعر الحر.. وماذا قدمته أنت من إضافات؟

ابتسم صلاح عبد الصبور في هدوء.. متهما إياي بالظلم.. مجيبا على السؤال بما يعهده عارفوه ومحبو شعره فيه من روح أمينة منصفة، تتحرى الحقيقة دائما في القول والفعل.. لشعر الأربعينيات قيمته الكبيرة وأهميته البالغة في مجال تجديد شكل القصيدة العربية، فهو شعر استطاع الخروج من الصوت العام إلى الصوت الخاص الذي يتميز فيه كل شاعر، دون أن يكون الجميع نسخا واحدة مكررة لا تمايز بينها.. وتتسم نماذج كثيرة من شعر الأربعينيات بأنها استطاعت أن تكسر حدة عنصرين كانا يتحكمان بشكل حاسم وصارم في بناء القصيدة المتوارثة،وهما: البحر الكامل.. القافية الموحدة.. فقد استخدم شعراء المهجر.. وشعراء «أبوللو» البحور المجزوءة، كما أنهم استعاضوا عن القافية الموحدة بنظام المقطوعات التي قد تقصر إلى أن تصبح ثنائيات.. فقد كان هذا – في الواقع – تمهيدا وإيذانا بميلاد حركة الشعر الحر.. بعد أن تغيرت الحساسية الأدبية لدى الجمهور أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها.. أما الإضافات التي أضافها رواد الشعر الحر، فهي إضافات ثرية وعميقة.. وعلى سبيل المثال، فإن نازك الملائكة – وإن كانت قد نسجت على منوال وحيد – إلا أنها استطاعت التعبير عن حساسية الفتاة العربية بحزنها وانكسارها ومحاولتها الخروج من قوقعتها المفروضة عليها.. أما بدر شاكر السياب فإنه أضاف القصيدة المطولة.. ولا شك أنك تذكر مطولاته الشهيرة «المومس العمياء»، «الأسلحة والأطفال»، «حفار القبور».. غيرها.. كما أن السياب استطاع المحافظة على الجرس اللغوي الواضح في القصيدة الجديدة، وكان لديه ما يمكن أن نسميه بالطموح إلى احتواء القصيدة الجديدة لعالم كثيف.. أما الإضافات التي قد أكون أضفتها فليس من شأني التحدث عنها لأني لا أحب الحديث عن النفس.. تستطيع أنت ويستطيع غيرك أن يتحدثوا عما أضفت وعما لم أضف.. أما أنا.. فلا..

** تذكرت العطاء الفني والنقدي الذي قدمه الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور.. لقد قدم للقارئ العربي حتى الآن ستة دواوين.. أعيد طبعها عدة مرات متتاليات.. ابتداء من ديوانه البكر «الناس في بلادي» – الذي صدر عام ١٩٥٧ ثم ما تلاه من دواوين.. «أقول لكم» عام ١٩٦١، «أحلام الفارس القديم» عام ١٩٦٤، ثم « تأملات في زمن جريح» عام ١٩٧٠، ف «شجر الليل» عام ١٩٧٣م، وأخيرا.. وليس آخرا ديوان «الإبحار في الذاكرة» – الذي صدر عام ١٩٧٩م.. في قصائد هذه الدواوين – مجتمعة – دفاع مستميت عن القيم الإنسانية النبيلة بوجه عام.. وعن قيم الصدق والحرية والعدالة بوجه خاص.. أو على حد تعبير صلاح عبد الصبور..«إن شعري – بوجه عام – هو وثيقة تمجيد لهذه القيم، وتنديد بأضدادها، لأن هذه القيم هي قلبي وجرحي وسكيني معا.. إني لا أتألم من أجلها، ولكني أنزف..». تذكرت العطاء الشعري.. وتذكرت كذلك عطاء الشاعر الكبير فيما يتعلق بالمسرح الشعري.. صحيح أن شوقي وعزيز أباظة كتبا المسرح الشعري.. وصحيح أن عبد الرحمن الشرقاوي كتب المسرح الشعري.. ولكن المسرح الشعري الحقيقي لا يتحقق إلا عند صلاح عبد الصبور.. ومسرحياته خير شاهد على هذا.. حيث قدم «مأساة الحلاج» و«مسافر ليل» و«الأميرة تنتظر» و«ليلى والمجنون» ثم «بعد أن يموت الملك».. وقد ترجمت هذه المسرحيات إلى أكثر من لغة أجنبية، وقامت دار فابر آند فابر ببريطانيا بنشر مأساة الحلاج باللغة الإنجليزية في طبعتين حتى الآن..

وانتقلت إلى عقد الخمسينيات مع صلاح عبد الصبور.. قائلا: هناك أسماء شعرية كثيرة، كانت لامعة خلال ذلك العقد، لكنها انطفأت تماما بسرعة.. وكأن شيئا لم يكن.. فهل سبب هذا هو الالتزام.. أم الفهم الخاطئ له؟

لقد انحسرت موجة من كانوا يتحدثون عن الالتزام إلى غير رجعة، لأن أشعارهم كانت تكتب بصورة مباشرة فجة، فقد كان الشعراء الذين تقصدهم يتصورون أن إقحام الشعارات ذات المضامين الإنسانية العامة هو أمر جدير بأن يجعل الشعر جيدا وناضجا، ولذا فإن غالبيتهم قد أغفلوا متطلبات الفن، والحق أن مواهبهم كانت قاصرة عن إدراك طبيعة رسالة الفن.

** فلنترك الخمسينيات.. دعني أذكرك – يا أستاذ صلاح – بأحد النقاد الذين هاجموك خلال عقد الستينيات بعد صدور ديوانك «أحلام الفارس القديم»، فقد تساءل هذا الناقد.. «لماذا يحزن صلاح عبد الصبور مع أن بلاده تبني السد العالي؟».. والآن ما رأيك فيما قد قيل..

لقد وصفني هذا الناقد بأنني حزين، وأدانني بحزني، مطالبا بإبعادي عن مدينة المستقبل السعيدة، بدعوى أنني أفسد أحلامها وأمانيها، بما أبذره من بذور الشك في قدرتها على تجاوز واقعها المزدهر – في رأيه – إلى مستقبل أكثر ازدهارا.. وقد نسي هذا الناقد أو تناسى أن الفنانين والفئران هم أكثر الكائنات استشعارا للخطر، ولكن الفئران حين تستشعر الخطر تعدو لتلقي بنفسها في البحر هربا من السفينة الغارقة.. أما الفنانون فإنهم يظلون يقرعون الأجراس، ويصرخون بملء الفم، حتى ينقذوا السفينة أو يغرقوا معها.

** سألته بعد هذا.. عن نزار وعن البياتي.. قلت له.. هل استطاع نزار قباني أن يعبر عن هموم المرأة العربية؟ وما رأيك في تهجم البياتي بصفة دائمة على شعراء جيله وأنت من بينهم بل إنك المستهدف الأول لتهجماته يا أستاذ صلاح؟

الواقع أن نزار عبر عما يتصوره– هو – هموم المرأة العربية، ولكن عندما تظهر المرأة التي يمكنها أن تعبر عن نفسها بصدق، فإن دور نزار سيختفي.. مثلما اختفى– من قبل – الممثل الذي كان يقوم بدور المرأة في أوائل هذا القرن.. بعد أن اعتلت المرأة بنفسها خشبة المسرح. أما البياتي فإنني أعرف أن عنده نقطة ضعف تجاه الصحافة.. فهو إذا جلس مع صحفي.. نسي كل شيء إلا البياتي.. وأكثر من مرة فإنه يتحدث عن بعض الشعراء بالسوء، فإذا ما التقى بهم فإنه يبادر إلى الاعتذار لهم، وينسب الحديث للصحفي.. وليس إلى خلقيات البياتي.. لكنه – على كل حال – زميل حرفة قديم.. ونحن لهذا نتحمله كثيرا.

** تذكرت ما أعرفه عن البياتي.. تذكرت أنه يتصـور ذاته محورا للكون.. وتذكرت غيرته الـشديدة من شعراء جيله.. وتذكرت تهجماته العنيفة التي لا مبرر لها على صلاح عبد الصبور.. وعلى نزار قباني.. وعلى محمود درويش.. وعلى كل من يتصور البياتي أنهم يزاحمونه.. تذكرت هذا،فأردت أن أخفف عن صـلاح عبد الصـبور وقع سـؤالي.. فقلت مغيرا دفة الحديث.. أستاذ صلاح.. هل تتصور أن الشاعر لابد أن يمر بتجربة حب لكي يكون شاعرا؟

ليس الشـاعر فحسـب هو الذي لابد له أن يمر بتجربة الحب.. ولكن الإنسـان بوجه عام ينبغي أن يمر بهذه التجربة الخصـبة والفريدة.. وإن كان لكل إنسـان تعريفه الخاص واقترابه الخاص من الحب.. فهناك ألوان من الحب بقدر ما هنالك ألوان من البشـر.. وليس معنى هذا بالنـسبة للـشاعر أنه لابد أن يكون عا شقا لكي يكتب.. فالـشعر، منابعه كثيرة من بينها الحب.. وأ سخف الـ شعر – في رأيي – هو أن يتـ صور الـ شاعر أنه عا شق دون أن يكون عاشـقا بالفعل وهنا ركام من القصـائد الغزلية السـخيفة.. لأن أصـحابها حاولوا تقليد لهجة العشاق دون أن يكونوا عشاقا بالفعل!

** ومن من شـعرائنا القدامى والمحدثين يمكن أن يرقى إلى المسـتوى العالمي لو ترجم نتاجه إلى اللغات الأجنبية؟

الحقيقة أن تراثنا عموما لابد أن يعاد النظر فيه وأن تتم قراءته قراءة جديدة.. وأنا أرى أن هناك شاعرا عربيا عظيما يمكن أن يترجم إلى التراث الأجنبي.. ويبقى.. ولكن ترجمته صـعبة لأن شـعره مليء بالمحسـنات التي يجب أن يحافظ المترجم على بعضـها.. هذا الشـاعر هو أبو العلاء المعري.. أما عن المحدثين.. فيمكن أن يقال عن بعضـهم إنهم نظراء أو من أوسـاط الشـعراء المحدثين في العالم.. ولكن لماذا تسـتعجل الأمور..؟ إن الحكم في هذا هو للتاريخ.. فليحكم بما يشاء.

** قلت له.. هل تأذن لي أن نبتعد قليلا عن الشـعر.. لنقترب من العمل.. لقد ازدهرت الهيئة العامة للكتاب في مصـر خلال رئاسـة الناقدة الكبيرة الأسـتاذة الدكتورة سـهير القلماوي لها.. ولكن هناك مشـروعات ثقافية أظن أنها لم تسـتكمل بعد، منذ أن تركت الأستاذة الجليلة الهيئة.. فهل يا ترى ستكتمل هذه المشروعات خلال رئا ستكم للهيئة؟

إنني أعد نفسي استئنافا لسهير القلماوي.. فأنت تعلم أنني تلميذ من تلامذتها القدامى.. وقد تعلمت منها كما تعلم الكثيرون من قبلي ومن بعدي على السواء.. كما أنني عملت مع الناقدة الكبيرة في فترة رئاستها للهيئة التي أتشرف برئاستها الآن أملا في خدمة الثقافة العربية، وتسهيل تقديمها للقارئ العربي.. وهناك مشروعات ثقافية هامة بدأت الإعداد لها الدكتورة سهير.. ونرجو أن نستكملها.. من بينها مشروعات المعاجم.. والقواميس ونشر التراث.

** الوقت يمر.. وما زال في الجعبة بضعة أسئلة.. كيف نجحت في انتخابات اتحاد الكتاب في مصر؟

الواقع أنني لم أكن موجودا في القاهرة وقت الترشيح لتلك الانتخابات.. وكان هذا في أواخر مارس الماضي.. كنت في إيطاليا للاشتراك في معرض لثقافة الطفل وللقاء المشتغلين بثقافة الطفل من العرب تحت رعاية اليونسكو.. وقد تطوع بعض الأصدقاء الذين يحسنون الظن بي.. وتكرم عدد كبير من الأعضاء بانتخابي.

** سؤال آخر سريع ..لقد علمت أنك مدعو لزيارة اليمن بعد زيارتك لقطر.. فما رأيك يا ترى في شعراء اليمن المعاصرين؟

أذكر لك شاعرين من شعراء اليمن.. أذكر لك عبد الله البردوني.. إنه شاعر ضخم.. وحساس.. وأذكر لك د. عبد العزيز المقالح.. إنه عالَمٌ واسع.. وهو من أنقى الأصوات الشعرية وأجملها.. إنه – باختصار – مساهمة اليمن في حركة الشعر الحديث.

** لمحت في نظرات شاعرنا العظيم أشواقا جامحة عندما تحدثنا عن اليمن.. فلصلاح عبد الصبور صداقاته العميقة التي تربطه بالمثقفين والأدباء اليمنيين.. كما أن اثنين من أقدم أصدقائه.. أو من رفاق العمر – كما يقال – موجودان هناك في اليمن.. توأمه الروحي.. الكاتب القاص الكبير فاروق خورشيد.. وصديقه الحميم الكاتب والفيلسوف الدكتور عبد الغفار مكاوي.. وتذكرت أيضا أن الوقت يمر.. الوقت يمر.. فقلت: أستاذ صلاح.. سؤال أخير.. ما الجديد الذي ستقدمه لنا في الشعر والمسرح والنقد؟

هناك ديوان جديد أ سميته «عندما أوغل الـ سندباد وعاد».. وهناك مـ سرحية لم تكتمل بعد عن «عنترة» بعد عودته من غربته.. وهناك دراســة نقدية بعنوان «كتابة على وجه الريح».. ألا يكفيك هذا؟؟

** الحق يقال إن أحباءك.. وقراءك.. وأنت تعرف أنهم كثيرون.. كثيرون..يطالبون دائما بأن يظل النبع سـخيا.. إنهم – وأنا بطبيعة الحال أحدهم – دائما في انتظار المزيد.. وشكرت الشاعر العربي – المصري الكبير صلاح عبد الصبور.. وجمعت أوراقي متمنيا لأستاذي وصديقي العظيم رحلة موفقة في اليمن بعد أن تنتهي زيارته لقطر.. ولنا.. تلك الزيارة القصيرة التي كنت أتمنى ألا تنتهي.. ليظل صلاح عبد الصبور دائما معنا.. أينما حللنا أو رحلنا..



صلاح عبد الصبور
عندما تتجسد القيم النبيلة في إنسان

«.. أتقدم الآن نحو الخمسين، ولو استطعت أن أوليها ظهري لأعود إلى أيامي السالفة القديمة لفعلت، فأنا أحس بوطأة مقدمها وبيني وبينها سنة وبضعة شهور، فكيف لو سقطت في هوتها مسلوب الحول؟.. ولكن هكذا مضت الأيام، و سقط يوم ميت في آخر مولود، حتى انتبهت ذات مساء أو صباح فإذا العمر في مغربه..».

الرحيل – النبوءة الأسيانة

لم تكن قد أكملت التاسعة والأربعين حينما خط قلمك هذه الكلمات الذاهلة الأسيانة، ليتلقاها قراؤك الكثيرون في أبريل من – عام ١٩٨٠. والتقينا – في أواخر ذلك الشهر – عندما قدمت إلى الدوحة، لتمكث بيننا ثلاثة عشر يوما، أنعشت فيها أرواح محبيك وجلوت عنها الصدأ.. رأيتك – وقتها – مثالا للحيوية والعنفوان، ففرحت بك فرحا عميقا خالصا لم يكدره سوى اختيارك للعنوان الذي أطلقته على سلسلة مقالاتك التي تروي فيها ذكرياتك عمن أحببت وعرفت من الشعراء والفنانين. «على مشارف الخمسين».. كان هذا العنوان الذي اخترته أنت، وكان هذا ما ملأ القلب جزعا وخوفا، تكتمته – حتى عنك أنت – بعدما رأيتك مثالا للحيوية والعنفوان

أستاذي صلاح عبد الصبور..

أحقا قد رحلت؟

يا أغلى وأنبل وأرق من عرفت وأحببت..

عندما حل يوم الثالث من مايو عام (١٩٨١) هممت بأن أكتب عنك كلمة.. هممت بأن أكتب عن الشاعر العربي – المصري العظيم والإنسان الرائع النبيل – صلاح عبد الصبور، هممت بأن أكتب عنك في يوم عيد ميلادك الخمسين، فلقد سعدت مدينة «الزقازيق» بمصر منذ خمسين سنة يومَ شهدت تفتح عينيك للنور – لأول مرة – في الثالث من مايو عام ١٩٣١. هممت بأن أكتب، ولأمر ما أو لهاجس ما ترددت وتراجعت.. ربما لأن بعض من لم يعرفوا الحب كانوا يبدون دهشتهم المريضة وهم يلمسون عمق الحب

الذي يكنه لك القلب، والذي لم يكن وراءه من هدف آخر سوى الحب نفسه، وسط زحام عالم غص بالمرائين والمنافقين والمرتزقة والساعين وراء المطامع والمنافع الدنيوية الدنيئة، دون أن يتورعوا – في سبيل تحقيقها – عن أن يدوسوا على أجساد أقرب الناس إليهم.

قلت.. ما دمت لن أكتب عنك، فلأكتب – إذن – إليك في يوم عيد ميلادك.. وعدلت عن هذا أيضا، بعد أن تبين لي أن الكلمات – مهما رحبت – لن تستطيع استيعاب حبي لك.. وكنت أحلم بلقياك.. أحلم بأن أرى الوطن.. أرى مصر البعيدة – القريبة حتى يتسنى لي أن أحقق حلم اللقيا.. لقياك يا أغلى وأنبل وأرق من عرفت وأحببت ولكن، ومرت الأيام..

مرت الأيام متباطئة متمهلة، وأخذتني في دوامتها، إلى أن حل يوم الثالث عشر من شهر أغسطس ١٩٨١.. هذا اليوم التعس المشؤوم، الذي قالوا لي خلاله إنك قد رحلت.. وإن الرحيل – هذه المرة – إلى ديار بعيدة مجهولة لم تطأها قدم أحد وعاد منها، وغامت الدنيا في ناظري، وما أظنها إلا وقد غامت – كذلك – في نواظر كل من كانوا حولي ممن عرفوك عن قرب أو عن بعد.. سيان.

أحقا أنك رحلت؟

أحقا أنك رحلت بعيدا أم أنهم يكذبون؟.. ولم لا؟ لم لا وقد أصبح الكذب سيد الموقف في حياتنا التي نحياها. أذهلني الخبر، ولم أصدق.. وترقبت الجرائد العربية التي صدرت صباح السبت ١٥ أغسطس ١٩٨١، فإذا بها تتحدث عن رحيلك، وتقرن اسمك بصفة أنكرتها عيناي، لأنني – ببساطة – لم أصدق.. تفحصت الجرائد مرة ومرات، لعل واحدة منها تريح النفس، معلنة أن الخبر كاذب.. كل ما خرجت به أن «الأهرام» الجريدة القاهرية العريقة التي عملت أنت بها عدة سنوات ذكرت أنك رحلت عن عمر بلغ الثانية والخمسين، مع أنك في الخمسين فحسب، وأن «الاتحاد» الظبيانية قالت إن آخر ما أصدرته كان «حياتي في الشعر»، مع أن هذا الكتاب صدر عام ١٩٦٩ أي منذ اثنتي عشرة سنة، بينما صدر آخر كتاب لك في عام ١٩٨٠ بعد أن اخترت له عنوان «كلمات في وجه الريح». قلت لنفسي: مادامت الحياة مثقلة بالأخطاء، فلماذا لا يكون هناك خطأ في الخبر

الذي تحدث عن رحيلك.. صدقني أني لم أ صدق.. لقد ابتعدتَ عن محبيك بمـصر سـنتين (١٩٧٨، ١٩٧٩) عندما كنتَ تعمل ملحقا إعلاميا لسـفارة مصـر بالهند، وكان الشوق إليك ممتدا بلا حدود، جارفا في طريقه كل شئ.. فهل أصدق أنك حقا رحلت.. وأن ابتعادك عني وعن محبيك سيمتد.. ويمتد إلى أن ألقاك؟.. صدقني أني لم أ صدق.. ويبدو أنني لن أصدق..

«الناس في بلادي» والريادة

لهذا تعال الآن لكي نصل ما انقطع بيننا من أحاديث ومن مسامرات.. إنك شاعر من أكبر شـعراء العربية على امتداد عصـورها، وإنك رائد لحركة تجديدية عظيمة هي حركة الشـعر الحر.. وقد صـحبك – من مصـر – في مجال هذه الريادة شـاعران أولهما عبد الرحمن الشرقاوي الذي توقف عن العطاء فيما يتعلق بالشعر، وثانيهما أحمد عبد المعطي حجازي الذي كان بعيدا عن الوطن طيلة العشرة سنوات الماضية، وقدر له أن يلقاك– على أرض الوطن – قبل أن ترحل، بل إنهم قالوا: إنك كنت تسهر معه ليلة رحيلك. وكان هناك ديوانك الأول «الناس في بلادي» الذي صـدر عام ١٩٥٧، متضـمنا مقدمة مطولة كتبها بدر الديب، وديوان حجازي الأول «مدينة بلا قلب» الذي صـدر عام ١٩٥٨، متضـمنا مقدمة مطولة – كذلك – كتبها رجاء النقاش.. لكنني أريد أن نعود سـنوات إلى الوراء.. أريد أن نسـترجع ذكريات الطفولة والصـبا.. لقد تلقيت تعليمك الابتدائي فالثانوي بمدينة «الزقازيق» ثم هبطت إلى المدينة الكبيرة الزاخرة بالأضـواء.. «القاهرة» حتى تتلقى تعليمك الجامعي بكلية الآداب – قسم اللغة العربية. ولكن ماذا عن سنوات ما قبل انطلاقك لأول مرة في القاهرة.. ماذا كنت تقرأ؟.. ومع من من الشـعراء والكتاب تألفت روحك الغضـة في ذلك الزمان.. هيا نسـترجع تلك الأيام.. آه.. إنك تقول مسترجعا إياها:

الأجواء الثقافية بالزقازيق

«.. ولدتُ بين صـفحات كتب المنفلوطي وجبران خليل جبران، فقد بكيت مع سـيرانو دي برجراك وماجدولين وأنا في العاشـرة من عمري، ولا زلت أذكر هيئتي بجلبابي وخفي، وأنا أثوي في ركن صغير من فضاء مهمل وراء بيتنا بالزقازيق، ألتهم ما يلقنه سيرانو دي برجراك لغريمه من بديع القول، ويتلوى كل عرق لآلام الشاعر

وجســـامة تضـــحيته ونبالتها. وقد ظل المنفلوطي معبودي، حتى تعرفت إلى جبران خليل جبران في «الأرواح المتمردة» و«الأجنحة المتكســـرة»، فبكيت مع ســـلمى كرامة وعاشـــقها التعس.. وحين أقول «بكيت» لا أتحدث بالمجاز، بل أعني أنني أجهشـــت بالبكاء في وحدتي، وحملت من همهما ما ناءت به النفس..».

أتذكر أنك قلت لي بأن جبران قد قادك إلى قراءة الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه.. فكيف كان ذلك؟

.. قلت لك إنني قرأت كتاب ميخائيل نعيمة عن صـــديقه جبران.. وقد .. «حدثنا ميخائيل نعيمة عن تأثر جبران بنيتشـــة، وعلق الاســـم بذهني، حتى وجدت بالصـــدفة السـعيدة ترجمة فيلكس فارس لكتاب نيتشـة الخارق «هكذا تكلم زرادشـت».. أي دوار يخلخل الروح عرفته بعد قراءة هذا الكتاب، فلاسفة قليلون من بني البشر يستطيعون أن يؤثروا في الوجدان البشـــري كما يؤثر نيتشـــة، هؤلاء هم فلاســـفة الروح الذين تصـــطبغ فلسفتهم بالشعر، ويغمسون قلمهم في دماء القلب..».

هذا عن قراءاتك التي انطبعت في الذاكرة خلال ذلك الزمان المبكر، لكن هناك أصدقاء من الشعراء والفنانين، ممن يكبرونك بقليل، كنت وإياهم تؤلفون جميعا المناخ الثقافي في مدينة الزقازيق وقتها، قبل أن يهبط معظمهم إلى القاهرة، وقد أتيح لي من خلالك أن أتعرف بهم وأن أتآلف معهم عن قرب، باستثناء اثنين منهم، أولهما رحل عن عالمنا منذ ســـنوات بعيدة ولم يهبط إلى القاهرة إلا مرة واحدة للقاء العقاد، وثانيهما كان فنانا كبيرا مشـــغولا بملايين المعجبين به.. هؤلاء جميعا أذكر منهم الآن إبراهيم الســـروجي، أحمد مخيمر (كنت أداعبه فأناديه «بابا جدو»..) مرســـي جميل عزيز، عبد الحليم شبانة – عبد الحليم حافظ – فيما بعد – (كانت أول أغنية يغنيها من شعرك أنت، وكانت بعنوان «لقاء» ولم تكرر التجربة من بعد)، وأحمد هيكل (عميد كلية دار العلوم بالقاهرة)، وإبراهيم شـــاهين.. كنت تطلق على أصـــدقائك هؤلاء «جماعة الضـــحك القديم».. ذلك الضـــحك الذي كان صـــادرا من الأعماق، دون أن يتخلله همٌّ ولا غم.. الضـــحك الصـــافي الذي «تســـألون الله بعده خيرا.. توجســـا لحزن قادم ما يلبث أن يفد ليسترد هدية الزمان..». لقد كان هذا الزمان هو الذي حننت إليه، وتاقت نفسك إلى

استرجاع ضحكاته الصافية، على نحو ما ذكرت في رائعتك «أحلام الفارس القديم»:

قد كنت فيما فات من أيام

يا فتنتي محاربا صلبا، وفارسا همام

من قبل أن تدوس في فؤاديَ الأقدام

من قبل أن تجلدني الشموس،والصقيع

لكي تذل كبريائي الرفيع

كنت أعيش في ربيع خالد، أي ربيع

وكنت إن بكيت هزني البكاء

وكنت عندما أحس بالرثاء

للبؤساء الضعفاء

أود لو أطعمتهم من قلبيَ الوجيع

وكنت عندما أرى المحيرين الضائعين

التائهين في الظلام

أود لو يحرقني ضياعهم، أود لو أضيء

وكنت إن ضحكتُ صافيًا، كأنني غدير

يفتر عن ظل النجوم وجهه الوضيء

ماذا جرى للفارس الهمام

انخلع القلب، وولَّى هاربا بلا زمام

وانكسرتْ قوادمُ الأحلام

القاهرة - والمعترك الثقافي

.. بعد انقضـــاء الزمان الصـــافي الضـــحكات بالزقازيق، كان لابد أن تهبط إلى القاهرة أواخر عام ١٩٤٧ لكي تتلقى تعليمك الجامعي، وأذكر أن والدك «عمي عبد الصـــبور يوســـف» كان قد حدثني مرارا أنه لم يكن يود لك أن تلتحق بكلية الآداب، لأنها – وفقا لرأيه – «كلية الفاشـلين»، ولكنك أصـررت.. وعاندت.. فما كان منه إلا أن وافق.. كان والدك يروي لي هذا في معرض الفخر بك و بإنجازا تك.. و له الحق.. كل الحق.. ألم ينجب ابنا عظيما ذائع الصيت في كل المحافل الأدبية العربية، بل الأوروبية أيضا؟

وفي كلية الآداب بجامعة القاهرة التقيتَ بمجموعة من زملائك الذين أصـبحوا رفاق العمر والفن والأدب، و شكلوا مجموعة متألقة في سماء الثقافة العربية بأ سرها.. التقيت بتوأمك الروحي فاروق خورشـــيد.. والتقيت بعز الدين إســـماعيل، ومحمود ذهني، ومحمد عبد الوا حد، وعبد الغفار مكاوي، وعبد الرحمن فهمي، وأحمد كمال زكي، و بدأت المســيرة المجددة تنطلق، و كان عليها أن تتزود من الينابيع الثقافية التراثية والأجنبية حتى يتحقق لانطلاقتها ما يرجى منها.. وعلى حد تعبيرك أنت..

«.. بدأت الأســـماء الغريبة تقرع آذاننا بعنف عنيف: إليوت، أندريه بريتون، بودلير، رلكه، شـلي، وردزورت، وبدأت الكلمات الغريبة تطن في ســمائنا الســاذجة الصـافية: الرومانتيكية، الكلا سيكية، الكلا سيكية الجديدة، الشعر الخالص، الشعر النقي، الشعر الميتافيزيقي، الرمزية، السريالية، البرنا سية.. آه ياإلهي لهذا الدوار الساحق الذي زادت من حدته قســوة الظروف الســياســية في ذلك الو قت،وحيرتنا بين التزامنا كمثقفين، والتزامنا كمواطنين، مع ما شـــاء في ذلك الوقت من بدايات تأثير الواقعية الاشــتراكية، وتحول كثير من زملائنا إليها، وحديثهم عنها كأنها حبل الخلاص للإنسان المسكين..».

في ســن العشــرين.. أي في عام ١٩٥١ تخرجت من الجامعة، وتقلبت بين العديد من المناصـــب الوظيفية، حيث عملت بادئ الأمر مدرســا للغة العربية، إلى أن احتضـــنك واحتضـــن موهبتك العملاقة كاتبان كبيران عشـــت تحبهما وتوفيهما حق قدرهما، وهما: إحسان عبد القدوس، وأحمد بهاء الدين، وعملت بالصحافة لأول مرة في «روز اليوسف»، ثم انتقلت للعمل عضو مجلس إدارة للمؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، وبعدها

قدر لك أن تعمل مع ناقد عظيم هو الدكتور لويس عوض الذي كان مستشارا ثقافيا لجريدة «الأهرام» - .. فظللت تعمل بالملحق الأدبي لهذه الجريدة العريقة.. ذلك الملحق الذي كان ملحقا أدبيا وثقافيا بحق، قبل أن يسلمه الزمان الرديء لثروت أباظة وأمثال ثروت أباظة من منتفخي الكروش – فارغي العقول، ثم انتقلت بعد ذلك للعمل بإدارة المجلات الثقافية، وطلبت مني أستاذتي الجليلة د. سهير القلماوي أن أعمل معك.. وما كان أسعدني يوم تسلمت العمل سكرتيرا لك، ثم مديرا لمكتبك، كنت أحس بأنني أنال شرفا عظيما كل يوم لمجرد أنني أعمل معك.. وكثيرون كانوا يحسدونني وقتها.. آه أين ذلك الزمان؟!.. وظللت تترقي قطاع النشر بالهيئة العامة للكتاب، إلى أن تحملت المسئولية كاملة فازدهرت الثقافة وسرى الدم في العروق من جديد، وعادت الآمال تداعب بأجنحتها السحرية آفاق المثقفين والأدباء منذ أصبحت رئيسا لمجلس إدارة تلك الهيئة الثقافية العظيمة.. ولكن يبدو أن الفرحة دائما – في شرقنا العربي – عمرها قصير.. فسرعان ما قالوا إنك رحلت، وكأنك كنت تتعجل الرحيل بعيدا عن زماننا هذا الذي يثقل بوطأته على أرواح المرهفين من البشر.. فما بالنا بروحك أنت.. يا أغلى وأنبل وأرق من عرفت وأحببت.. هذا الزمان الذي أدنته في أشعارك عندما قلت:

هذا زمن الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتول من قاتله؟ ومتى قتله؟

ورؤوس الناس على جثث الحيوانات

ورؤوس الحيوانات على جثث الناس

رحلتك الفنية الزاخرة بالعطاء

.. ولكن ما بالنا نتحدث عن المناصب الوظيفية التي تقلدتها.. إن كثيرين ممن لمع ويلمع صيتهم يستمدون هذا الصيت من كراسيهم التي يجلسون عليها، ولحظة أن تنسحب الأرض من تحت أقدامهم فإن أسماءهم سرعان ما تتلاشى كدخان في الريح.. أما أنت فلقد كانت كراسي الوظائف التي تقلدتها تشرف بك.. لأنك أكبر منها بكثير، ولأنك ذائع الصيت لا بفضل المنصب أو الوظيفة، وإنما لأنك شاعر رائد عظيم وفنان من الطراز النادر المثال.

خلال رحلتك الفنية الجادة أصـدرت سـتة دواوين، بدأتها بديوانك البكر «الناس في بلادي» – عام ١٩٥٧، واختتمتها بديوانك السادس «الإبحار في الذاكرة» – عام ١٩٧٩.. ولقد كانت هناك أعياد تهل علينا بفضلك وبفضل عطائك.. كان صدور ديوان جديد لك بمثابة عيد بهيج وسعيد، يهنئ فيه عشاق شعرك ومحبوك بعضهم بعضا، وفي كل عيد من تلك الأعياد كنت أحس بالزهو يتملكني.. ألسـت قريبا منك؟.. ألا تضـم مكتبتي الأصـول المخطوطة لكل ديوان من دواوينك، ولكل مسـرحية من مسـرحياتك..؟ ألم تكن تشرفني وتسعدني عندما تقدم لي أصول الديوان الجديد قبل أن يصدر لأقرأه بشغف قبل الطبع، وليس غريبا أن أكون قد قرأت قصـائد الديوان الجديد من قبل مرات متتاليات.. قرأتها منشـورة.. واحدة تلو الأخرى.. على صـفحات الجرائد والمجلات.. ولكنني كنت أسعد وأسعد وأنا أقرأها وهي ملتمة الشمل في شكل ديوان كامل يضمها جميعا.

وهل كانت هناك حيوية أعمق من تلك التي تغمرنا جميعا ونحن نشاهد عملا مسرحيا يعرض لك على خشبة المسرح بالقاهرة، ابتداء من مسرحيتك العظيمة – البكر «مأساة الحلاج» التي شاهدتها أثناء عرضها على خشبة مسرح «الأوبرا» قبل أن تمتد لإحراقه يد العبث والضـلال، تاركة مصـر العريقة دون أن يكون لها دار أوبرا حتى الآن.. وانتهاء بمسرحيتك الخامسة «بعد أن يموت الملك» التي أثارت العديد من المناقشات عندما عرضت على خشبة المسرح القومي بالأزبكية؟..

وكتاباتك النقدية.. كتاباتك التي تشـف عن روح ذواقة عميقة الجذور في تربة الثقافة الإنسانية.. كتاباتك ابتداء من «أصوات العصر» – عام ١٩٦٠، وانتهاء بـــ«كلمات على وجه الريح» – ١٩٨٠.

كل هذا العطاء الذي سيبقى لنا، و سيبقى من بعدنا للأجيال المقبلة.. عطاء متجدد.. بالغ العمق والثراء.. عطاء ذوبتَ فيه عصارة فكرك.. وغمستَ أحرفه بدماء قلبك النبيل. لقد كانت أعظم الفضـائل عندك هي الصـدق والحرية والعدالة.. وكنت ترى – على حد تعبيرك – «أن شعري – بوجه عام – هو وثيقة تمجيد لهذه القيم، وتنديد بأضدادها، لأن هذه القيم هي قلبي وجرحي وسكيني معا.. إني لا أتألم من أجلها، ولكني أنزف..». ولقد

ظللت فارسا هماما، ومحاربا عظيما من المحاربين الأشداء الذين يهبون لنصرة قضية الإنســان في كل مكان، يحاول الظلم فيه أن يتدفق كالطوفان.. ولقد حاربك – لهذا الســبب – كثيرون من مختلف الجبهات.. حاربك التقدميون ومن يســمون أنفســهم تقدميين على أســاس أنك – في نظرهم – رجعي انهزامي!! و حاربك الرجعيون والمتخلفون من منطلق أنك تقدمي!! .. الأوغاد.. المرتزقة.. كلهم حاربوك.. لكنك كنت تخرج دائما منتصــرا، لأنك رفضــت أن تحدد ذاتك الرائعة المبدعة بقيود هذا الاتجاه أو ذاك.. وإنما عشــت مدافعا عن الإنســان المقهور.. عشــت محاربا من أجل نصـرة قضـية الإنسـان في كل مكان، وهذا نفســه ما جعل كثيرين من البشـر من محبيك وعاشــقيك الأوفياء، ولا عجب في هذا فلقد كانت ذاتك المرهفة نبعا صــافيا من منابع الحب.. وكنت ترى أن أســاس الشـرور في عالمنا هذا يكمن في أن الناس أضـاعوا هذه القيمة الســامية، ومرغوها في أوحال أنانيتهم وأحقادهم.. ألســت القائل على لســان الحلاج:

ليس الفقر هو الجوع إلى المأكل والعري إلى الكسوة

الفقر هو القهر

الفقر هو استخدام الفقر لقتل الحب وزرع البغضاء

الفقر يقول – لأهل الثروة –

أكره جمع الفقراء

فهمو يتمنون زوال النعمة عنك

ويقول لأهل الفقر

إن جعتَ فكلْ لحم أخيك

الله يقول لنا: كونوا أحبابًا محبوبين

.. والآن يا أستاذي صلاح عبد الصبور.

يا أغلى وأنبل وأرق من عرفت وأحببت..

أحقا رحلت؟

لقد كنت تداعب – منذ عهد قريب – صديقك الحميم إبراهيم شاهين، أحد أعضاء «جماعة الضحك القديم»، وكان هو البادئ بالمداعبة، حيث قال لك: «لو رحلت يا صلاح قبلي فسوف أرثيك رثاء حارا مثلما رثيت مرسي جميل عزيز». فقلت له وأنت ترد على الدعابة.. «إننا نمضي ونرحل بالدور.. الأكبر سنا يتقدم أولا فالذي يليه.. وهكذا رحل إبراهيم السروجي، ثم تلاه أحمد مخيمر، فمرسي جميل عزيز، ثم عبد الحليم حافظ، ولم يبق سوانا، وبما أنني أصغر منك بعشرة سنوات.. فسأرحل بعدك».

لقد كانت دعابة بين صديقين من أعضاء «جماعة الضحك القديم»، ولكن إبراهيم شاهين صديقك الحميم – أطال الله عمره – هو الذي عاش من بعدك.. فالمسألة ليست بالدور إذن – كما كنت تقول له – وإنما كل ما في الأمر أن قلبك – على رحابته – لم يعد يتحمل كل عذابات البشر التي كانت تسكنه وتؤرقه.. فكان أن رحلت.

أحقا رحلت؟

لقد كانت القيم الإنسانية النبيلة والمثل الرائعة السامية متجسدة فيك.. كانوا إذا تحدثوا عن «الصدق» ذكرتك، وإذا أشاروا إلى «العدل» ذكرتك.. وإذا ذكروا «الحب» أشرت إليك.. فويلي من زمن آت لو كنت حقا رحلت.. آه على النبل والسماحة والرقة والعظمة لو كنت حقا رحلت..

لا.. لا أصدق هذا الذي قالوه.. وسأبحث عنك.. سأبحث إلى أن ألقاك مهما تكن ديارك التي رحلت إليها بعيدة.. وسلام عليك من محب مشوق إليك.



صلاح عبد الصبور .. وزمان القتلة

صلاح عبد الصبور..

ها قد مرت الأيام وتوالت في أعقاب ذلك اليوم التعس المشؤوم.. يوم الثالث عشر من أغسطس ١٩٨١. ففي لحظة سوداء شائهة الملامح من لحظات ذلك اليوم جاء من يخبرونني بأنك ارتحلت.. وغامت الدنيا في ناظري، وأنا أردد:

إن دنيا لستَ فيها

ليس تستأهل من عيني نظرة

.. وأخذت أسند بقايا نفسي الكسيرة المنهارة، ذاهلا عما حولي، غير مصدق لما قيل، معللا القلب بأن آخرين سيجيئون ليخبروني بأن ما قيل كان محض كذب وافتراء، وبأنك أيها الحبيب ما زلت معنا، وبأن قصة رحيلك قصة لا سند لها ولا أساس.

.. منذ تلك اللحظة.. كنت كمن يتشبث بك.. حاولت أن أتلمس ها هنا تذكاراتي معك.. يا أغلى وأنبل وأرق من أحببت ممن عرفت.. حاولت أن أحيط نفسي بكل ما يجعلني أستشعر وجودك إلى جواري.. أحطت نفسي بكلماتك.. وأطلقت صوتك الآسيان – من خلال المسجل – ليغمر أرجاء المكان ويغمر أرجاء الروح.. ومضيت أتأمل الصور التي جمعتني فيها وإياك مناسبات عديدة.. ألم أقل لك بأنني كنت كمن يتشبث بك؟

وأخذت أستعيد من الآفاق الموغلة في البعد ذكريات اللقاء الأول.. وقتها كنت ما زلت طالبا بالجامعة، وكان القلب جديدا لم يـ شدخ بعد، وقربتني أنت منك كرما ولطفا.. ومنذ ذلك اللقاء تعلمت منك الكثير، كنت أحس أن الدنيا – على ضيقها – قد أعطتني الكثير لمجرد أنك قربتني منك.. ودارت الأيام.. ومع كل يوم يهل كان حبي لك يشرق في أرجاء روحي، نافضا عنها الظلمة والأدواء.. ودارت الأيام.. دارت.. وحل اليوم التعس المشؤوم.. يوم أن قيل لي إنك ارتحلت.. وأقولها عن يقين بأنك – فيما يتعلق بي – لم ترحل.. ما زلت أراك أمامي كلما خلوت بنفسي فتأنس بك الروح.. ما زالت

كلماتك النبيلة الآسرة تسكنني.. منها أتزود.. ومنها أرتوي.. وما زلت أستشعر أنك تراني وترعاني، فأحاول أن أتجنب الطرقات الملتوية الموحلة حتى أكون دائما – كما كنت – عند حسن ظنك.

«مأساة الحلاج» تكررت

منذ ذلك اليوم التعس المشؤوم.. ألحت على وجداني «مأساة الحلاج» – مسرحيتك الشعرية الأولى والذائعة الصيت.. لست أتذكر فرحتي وأنا أتلقى منك نسخة منها ذات مساء من أمسيات عام ١٩٦٤، حيث سهرت ليلتها عند أحد أصدقائي المحبين لك أقرأ المسرحية كلها بصوت عال، منتشيا بالكنز الذي أضمه بين يدي إلى أن أطل فجر اليوم التالي.. لست أتذكر هذا الآن، لكنني أتذكر المسرحية ذاتها وأنا أكاد أحترق، فلقد كان هناك «حلاج» واحد قتلوه بالكلمات – على حد تعبيرك – عندما أحاط به الجناة الذين نصبوا من أنفسهم قضاة، وتباعد الأصحاب، ولعب بريق المال لعبته الدنيئة في إنكاره وإنكار كلماته.. كان هناك «حلاج واحد» ورحل عام ٣٠٩هـ في القرن الرابع الهجري، وبعد انقضاء أكثر من ألف سنة رحل «حلاج» آخر.. هو أنت يا سيدي وحبيبي.. كلاكما كان يعشق الكلمات، وكلاكما كان مؤمنا بها، مؤملا أن تتحول – في زمن ما – قدرة وفعلا، وأن «تضيء للعشاق وحدهم وللمسافرين – نحو ديار العشق والمحبة – وللحزانى الساهرين الحافظين موثق الأحبة».. وكلاكما في النهاية رحل.. بعد أن قتلوه بالكلمات..

جاءت مسرحيتك «مأساة الحلاج» في جزئين: الكلمة، والموت.. في الجزء الأول نستشف مدى إيمان «الحسين بن منصور الحلاج» بالكلمة، ومدى إحساسه بأن لها دورها العظيم في رفع الظلم عن كاهل المستضعفين من البشر، فيقرر الحلاج أن ينزل للناس ليبصرهم بما يراه فلربما انتفعوا بكلماته.. وقد اتخذ قراره هذا على الرغم من اعتراض أصحابه الذين ارتضوا أن يخبئوا كلماتهم داخل صدورهم دون أن ينزلوا بها للناس.. ومنذ أن نزل الحلاج للناس بدأ الحكام الظالمون يخشون على كراسيهم المزعزعة وبدأ المرتزقة يخافون زوال أطماعهم الدنيوية، فقرر هؤلاء جميعا أن يحتالوا عليه حتى يوقعوه.. وكان ما كان حيث اختطفته الشرطة من بين أحبابه الناس البسطاء

الذين تبقى منهم اثنان يتحاوران فيما جرى.. ولقد كان الاثنان: «الأعرج».. و«الواعظ»، قال أولهما للثاني عن الحلاج:

قد كان يحدثنا بحديث القلب

لم يستطع الكتمان، فباح..

وأما الثاني «الواعظ» فقد كان رجلا أبعد ما يكون عن «التهور».. كان رجلا «عاقلا» بمقاييس السلبيين والجبناء عبر كل العصور. فرد على «الأعرج» قائلا:

.. باح!

بم باح، لكي تأخذه الشرطة؟

لا أدري، وعلى كل، فالأيام غريبة

والعاقل من يتحرز في كلماته

لا يعرض بالسوء

لنظام أو شخص أو وضع أو قانون..

أو قاض أو وال أو محتسب أو حاكم!

وقتلوه بالكلمات

وحين أعلن الجناة الذين نصبوا أنفسهم قضاة للحلاج عن موعد محاكمته.. جاؤوا بشهود الزور والبهتان، بعد أن أعطوا كلا منهم دينارا من ذهب قانٍ – براقا لم تلمسه كف من قبل«. وبدأت المحاكمة الجائرة لإنسان نبيل كان كل همه في الحياة أن يفكر في سبل الخلاص التي يتوخاها للإنسان المقهور، ورأى أن الكلمة النزيهة والشريفة هي التي ينبغي أن تكون سلاحه الوحيد، يشهره ضد القهر وضد الفقر وضد الشر.. وهذا ما صرح به الحلاج بصورة حاسمة أثناء محاكمته..

ماذا أصنع؟

لا أملك إلا أن أتحدث

ولتنقل كلماتي الريحُ السواحة

ولأثبتها في الأوراق شهادة إنسان

من أهل الرؤية

فلعل فؤادا ظمآنا من أفئدة وجوه الأمة

يستعذب هذي الكلمات

فيخوض بها في الطرقات

يرعاها إنْ ولىَ الأمر

ويوفق بين القدرة والفكرة

ويزاوج بين الحكمة والفعل...

لكن الجناة – القضاة أحسوا أن الكلمات أخطر من أي سلاح، لأنها كلمات نزيهة وشريفة، ومن هنا حاكوا أحبولتهم الشيطانية، ولفوها حول عنق «الحلاج».

القتلة من ألف سنة هم.. هم.. لم يتغيروا!!

وفي عصرنا هذا.. عصر القتلة.. تكررت «مأساة الحلاج». بنفس الشخصيات.. وأكاد أقول بنفس المواقف والكلمات.. وكل ما في الأمر هو مجرد اختلاف الأسماء والأزياء.. فلقد كان قاتلو «حلاج هذا العصر» هم أنفسهم الذين حاكموا وقتلوا حلاج القرن الرابع الهجري، وكان القتل واحدا في المأساة المكررة.. كان قتلا بالكلمات.

ليلة الرابع عشر من أغسطس١٩٨١ تحلق حولك – يا سيدي وحبيبي – عدد ممن يطلقون الكلمات دون أن يفقهوا معناها أو يدركوا مغزاها.. منهم من استولت على عقولهم أوهام الزعامة، ومنهم من لم تعرف قلوبهم معنى الحب ولا قيمة الإنسان، ومنهم محترفو الثورية ومراهقو الفكر بغض النظر عن إيغالهم في العمر.. تحلق هؤلاء حولك – في بيت أحمد عبد المعطي حجازي – وأخذت حناجر بعضهم تفح بالكلمات

المسمومة التي يوجهونها نحوك، محاولين أن يطعنوك في أعز ما تملك، وهو إيمانك بالوطن.. بمصر العريقة.. وإيمانك بانتمائك العميق إلى ترابها وإلى شعبها العربي.. كانوا يتلهون ويتسلون بالكلمات، لكنك بالطبع لم تدرك هذا. لأنك تعرف أن لكل كلمة معنى، فالكلمات – في نظرك – ليست لعبة يتلهى بها الحمقى والجهلاء والمرتزقة.. الكلمات – في نظرك – أمانة غالية ينبغي أن يحفظها الإنسان، ويطلقها إلى أن يأتي أوان تحققها قدرة وفعلا.. تحلق هؤلاء حولك، وراحوا يتلهون ويتسلون، لكن الكلمات المسمومة التي بها تلهَّوا وتسلَّوا راحت تتغلغل في أعماق القلب النبيل.. وهكذا قتلك تماسيح الأحياء بالكلمات، ثم انطلقوا بعدها يتبجحون بالرثاء، ويخفون أوجههم القبيحة في سرادق العزاء، ويذرفون دموع الباطل على الحق والنبل والطهارة.. بعد أن أشحتَ الوجه عن دناءاتهم، وكأنك كنت تقول لهم:

وكأني نهر...

يهتف بالمجرى:

أرجعني للقمم البيضاء

حتى لا يشربني الحمقى والجهلاء

أيهما نحمل: القلم أم السيف؟

يا سيدي وحبيبي.. إنك لم تكن تعرف ما يحوكونه حولك ولكنك كنت تعرف أشباها كثيرين لهم.. ولقد تحدثت عنهم في يومياتك.. «يوميات نبي مهزوم، يحمل قلما، ينتظر نبيا يحمل سيفا».. هؤلاء الذين قتلوك بالكلمات هم الذين تحدثت عنهم، وكشفت قبح أعماقهم من قبل أن يتحلقوا حولك في بيت أحمد عبد المعطي حجازي.. إنهم:

كهان الكلمات الكتبة

جهال الأروقة الكذبة

وفلاسفة الطلسمات

والبلداء الشعراء..

... آه، لقد كان بعض هؤلاء القتلة مستظلين بكرم ضيافتك في بيتك عام ١٩٧٩ بعد عودتك من الهند، وتشعب الحديث، وكان من بين الحاضرين صديقك الإنسان الشريف.. الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوي.. وتحدث الشرقاوي عمن باعوا أقلامهم خارج مصر دون إدراك لمعنى الكلمات، لأن كل ما يدركونه هو الاهتمام بأمر من يدفع أكثر.. ودعاك – في تلك الجلسة – بعضهم لأن تهاجر خارج الأرض التي حاولوا – فيما بعد – أن يشككوا في عمق انتمائك لها.. فماذا كان منك؟ .. ما كان منك يا أغلى وأنبل وأرق من عرفت إلا أن صحتَ فيهم بأعلى صوتك أمامنا جميعا.. قلت لهم: لو اضطررت لأن أهاجم مصر خارج مصر فلن يكون أمامي إلا أن أطلق الرصاص على نفسي دون تردد.. هذا ما كان منك يا سيدي وحبيبي، لكن «جهال الأروقة الكذبة» راحوا بعد ذلك – في بيت أحمد عبد المعطي حجازي – يتلهون ويتسلون بالكلمات.. وليس مهما أن أذكر الأسماء.. فهم أنفسهم الذين تلهوا وتسلوا بالكلمات في القرن الرابع الهجري، عندما قتلوا بها «الحسين بن منصور الحلاج».. لا فرق بين الأسماء.. لا فرق بين «ابن سليمان» و«أبو عمر» منذ أكثر من ألف سنة وبين القتلة يوم الرابع عشر من أغسطس الماضي.. تتعدد الأسماء وتتبدل الأزياء، لكن ملامح القتلة متشابهة.. بل واحدة، على الرغم من تباعد المسافات الزمانية والمكانية.

صلاح عبد الصبور..

يا سيدي وحبيبي..

أكره نفسي كثيرا، وأمقتها حين أفكر وأعلم بأنني لم أكن جوارك ليلة الرابع عشر من أغسطس الماضي.. ماذا لو كنت معك؟.. يخطر ببالي أنني كنت سأنقض على القتلة، لأقتلهم دفاعا عن القيم الإنسانية النبيلة التي تجسدت فيك.. وبعدها فليكن ما يكون..

ويهدئ من ثائرتي أن أتذكر بيت شاعر العربية الأكبر – المتنبي، وهو يخاطب أم سيف الدولة بعد أن رحلت:

هبيني أخذتُ الثأر فيك من العدا فكيف بأخذ الثأر فيك من

ثم أتخيل الوجوه القبيحة.. وأتذكر بيت جبران خليل جبران:

فقاتل الجسم مأخوذٌ بفعلته وقاتل الروح لا تدري به البشرُ

وأصرخ.. وتصرخ بقايا نفسي الكسيرة المنهارة.. أصرخ بكلماتك:

هذا زمن الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتول من قاتله.. ومتى قتله؟

ورؤوس الناس على جثث الحيوانات

ورؤوس الحيوانات على جثث الناس

ولكي تهدأ النفس.. ولو لحين من الزمان.. أجدني أردد بيت أحمد شوقي العظيم:

الناس صنفان موتَى في حياتهم وآخرون ببطن الأرض أحياءُ

أعرف أن القتلة موتى.. وأنك حاضر مع كل الذين أحبوك ورعتهم كلماتك.. أعرف أنك ماثل أمامي كلما خلوت بنفسي، وكلما شردت بعيدا ولو كنت وسط الزحام.. وأعرف أيضا – برغم أنك تسكن في القلب – أن الروح المشوقة عطشى إليك. متلهفة على الكلمات التي لم تقلها، ومتشبثة بالكلمات التي قلتها وخلفتها لكل أحبابك حتى يرتووا منها ويتزودوا، ويأتي من بعدهم من يستقون من نفس النبع الرائق.. نبع كلماتك يا أنبل العشاق في «كون خلا من الوسامة».



كل شيء تجلى ..
عندما أوغل السندباد
وعاد في ذكرى غياب صلاح عبد الصبور عمن أحبوه

تعريف الحب أمر صعب، ومنذ أن تعلقت بالشعر، أحببت كثيرين من شعرائنا العرب متنقلا بخيالاتي عبر العصور التي عاشوا خلالها وعبر الأرض التي شهدت مسيرة كل منهم، لكن ثلاثة من هؤلاء الشعراء العرب سكنوا قلبي وظلوا يتناغمون في أعماقه حتى الآن، هؤلاء هم إبراهيم ناجي وبدر شاكر السياب و صلاح عبد الصبور. وإذا كان لم يقدر لي أن ألتقي مع ناجي والسياب، فإنما يظل يسعدني حتى الآن هو أني عشت مع صلاح عبد الصبور، الشاعر العظيم والإنسان الرائع النبيل الذي حرصت على أن يكون آخر الأحباب الذين ألتقي معهم قبل سفري إلى الدوحة للمرة الأولى يوم ٦ أبريل سنة ١٩٧٩م، كما أني كنت آخر من يعانق صلاح عبد الصبور في مطار الدوحة يوم الأربعاء ٣٠ أبريل سنة ١٩٨٠م بعد اختتام زيارته لها بدعوة من إدارة الثقافة والفنون التي كان يديرها وقتها عميد الصحافة القطرية ناصر محمد العثمان، وكان هذا العناق آخر لقاء لي مع صلاح عبد الصبور الذي غاب عني وعن كل محبيه وعاشقيه في تلك الليلة المشؤومة، ليلة الرابع عشر من أغسطس سنة ١٩٨١م، وها هي السنوات تمر، لتطل الذكرى التاسعة عشرة لغياب هذا الإنسان الرائع النبيل عن الجميع.

القارئ لشعر صلاح عبد الصبور يستطيع أن يتعرف بكل سهولة على اهتمامه برسم ملامح الألفاظ وطبيعة كل لفظ منها، لكنه يتوقف دائما عند الألفاظ التي يطلقها الذين يتلهون أو يتسلون بها دون أن تعني لديهم شيئا حقيقيا، فهي في نظرهم مجرد ألفاظ، كما يتوقف عند الألفاظ التي تقتل المرهفين إذا سددها الخشنون بلا مبالاة نحو أرواحهم الشفافة:

لفظ قاتل

ذو ألف لسان تنفث سما

أو لفظ يرديني.. لا قطرة دم

والسكنى الألفاظ تشق اللحم

وأظل أسائل: ماذا تعني في خاطرك الألفاظ

ألفاظ قاتلة في رفقٍ، خالصة الكفين من الدم

أشياء تافهة هي عندك.. ألفاظ!

حين كتب صلاح عبد الصبور مسرحيته الشعرية الرائدة والرائعة «مأساة الحلاج» لم يكن يريد أن يرسم صورة للحلاج، بقدر ما كان يريد الانطلاق إلى دور الكلمة حين تكون مسؤولة وعاشقة و صادقة، وحين يكون صاحبها مدركا لمعناها ومغزاها دون أن تكون «أشياء تافهة» وإذا كنت قد سعدت ذات مساء من أمسيات سنة ١٩٦٥م عندما تلقيت نسخة مهداة من «مأساة الحلاج» من أستاذي صلاح عبد الصبور، حيث قضيت الليل إلى مطلع الفجر، أتابعها وأقرأها بصوت عال مع الصديق فتحي عبد الحافظ، فإني لم أدرك وقتها، بالطبع أن صلاح عبد الصبور يتنبأ بما جرى له هو شخصيا، حيث تحول إلى «حلاج» معاصر في تلك الليلة المشؤومة – ليلة الرابع عشر من أغسطس سنة ١٩٨١م.

تنقسم مأساة الحلاج إلى جزءين: الكلمة، الموت. وفي الجزء الأول نستشف مدى إيمان الحلاج بالكلمة، ومدى إحساسه بأن لها دورها العظيم في رفع الظلم عن كاهل البشر، فيقرر أن ينزل للناس ليبصرهم بما يراه فلربما ينتفعون بكلماته، على الرغم من اعتراض أصحابه الذين ارتضوا أن يخبئوا كلماتهم داخل صدورهم دون أن ينزلوا بها للناس.. ومنذ أن نزل الحلاج للناس بدأ الحكام الظالمون يخشون على كراسيهم وبدأ المرتزقة يخافون زوال أطماعهم الدنيوية، فقرر هؤلاء جميعا أن يحتالوا حتى يوقعوه.. وكان أن اختطفته الشرطة من بين الناس البسطاء، الذين تبقى منهم اثنان.. الأعرج، والواعظ.. حيث قال الأعرج عن الحلاج:

قد كان يحدثنا بحديث القلب

لم يستطع الكتمان، فباح

أما الواعظ فقد كان رجلا أبعد ما يكون عن «التهور».. كان رجلا «عاقلا» بمقاييس السلبيين والجبناء، فرد على الأعرج قائلا:

... باح

بم باح، لكي تأخذه الشرطة

لا أدري، وعلى كل، فالأيام غريبة

والعاقل من يتحرز في كلماته

لا يعرض بالسوء

لنظام أو شخص أو وضع أو قانون..

أو قاض أو وال أو محتسب أو حاكم

وحين أعلن الجناة الذين نصبوا أنفسهم قضاة للحلاج عن موعد محاكمته، جاؤوا بشهود الزور والبهتان بعد أن «أعطوا كلا منهم دينارا من ذهب قان – براقا لم تلمسه كف من قبل»، وبدأت المحاكمة الجائرة لإنسان نبيل فكر مرارا في سبل الخلاص التي يتوخاها للإنسان المقهور،ورأى أن الكلمة النزيهة والشريفة هي التي ينبغي أن تكون سلاحه الوحيد الذي يشهره ضد قهر الإنسان للإنسان وضد الأشرار.. وهذا ما صرح به الحلاج بصورة حاسمة أثناء محاكمته:

هذا ما جال بفكري

عاينت الفقر يعربد في الطرقات

ويهدم روح الإنسان

فسألت النفس:

ماذا أصنع؟

هل أدعو جميع الفقراء

أن يلقوا سيف النقمة

في أفئدة الظلمة؟

ما أتعس أن نلقي بعض الشر ببعض الشر

ونداوي إثما بجريمة

ماذا أصنع..؟

أدعو الظلمة

أن يضعوا الظلم عن الناس

....

لكن هل تفتح كلمة

قلبا مقفولا برتاج ذهبي؟

ماذا أصنع؟

لا أملك إلا أن أتحدث

ولتنقل كلماتي الريح الساحة

ولأثبتها في الأوراق شهادة إنسان من أهل الرؤية فلعل فؤادا ظمآنا من أفئدة وجوه الأمة

يستعذب هذي الكلمات

فيخوض بها في الطرقات

يرعاها إن ولي الأمر

ويوفق بين القدرة والفكرة

ويزاوج بين الحكمة والفعل

لكن الجناة.. القضاة أحسوا أن الكلمات أخطر من أي سلاح، لأنها كلمات نزيهة وشريفة. ومن هنا حاكوا أحبولتهم الشيطانية، ولفوها حول عنق الحلاج.

وفي عصرنا هذا تكررت «مأساة الحلاج».. نفس الشخصيات.. وأكاد أقول نفس المواقف والكلمات.. وكل ما في الأمر هو اختلاف الأسماء والأزياء.. لقد كان قاتلو «حلاج هذا العصر» هم أنفسهم الذين حاكموا وقتلوا حلاج القرن الرابع الهجري، وكان القتل واحدا في المأساة المكررة.. كان قتلا بالكلمات.

في ليلة الرابع عشر من أغسطس سنة ١٩٨١م تحلق حول صلاح عبد الصبور عدد ممن يطلقون الكلمات بكل طيش ورعونة، منهم من استولت على عقله أوهام الزعامة، ومنهم من لم تعرف قلوبهم معنى الحب ولا قيمة الإنسان، ومنهم محترفو الثورية ومراهقو الفكر بغض النظر عن أعمارهم.. تحلق كل هؤلاء حول الشاعر المرهف والإنسان النبيل – في بيت إنسان خشن الملامح والطباع – وأخذت حناجر بعضهم تفح بالكلمات التي تنفث سما، وراحت الكلمات المسمومة تتغلغل في أعماق صلاح عبد الصبور، ثم انطلق أصحابها ابتداء من اليوم التالي متبجحين بالرثاء، وهم يذرفون الدموع الكاذبة، متصورين أن الناس سيصدقونهم.

«مأساة الحلاج» هي أولى المسرحيات الشعرية التي كتبها صلاح عبد الصبور مترسما فيها «مقتل في الكاتدرائية» لـ ت. س. اليوت، وقد أصدر بعدها «مسافر ليل» سنة ١٩٧٠م و«الأميرة تنتظر» سنة ١٩٧١م، و«بعد أن يموت الملك» سنة ١٩٧٢م، أما في الشعر ذاته، فقد أصدر صلاح عبد الصبور ديوانه الأول «الناس في بلادي» سنة ١٩٥٧م ثم تتالت دواوينه «أقول لكم» ١٩٦١م و«أحلام الفارس القديم» ١٩٦٤م و«تأملات في زمن جريح» ١٩٧٠م و«شجر الليل» ١٩٧٣م ثم «الإبحار في الذاكرة» سنة ١٩٧٩م، وعلى الرغم من أن أعماله الشعرية والمسرحية وكتاباته النقدية قد طبعت مرات ومرات، فإن الذين قاموا بهذه المهمة لم ينتبهوا إلى قصائد عديدة لم يكن صلاح عبد الصبور قد ضمها إلى دواوينه، ومن هذه القصائد قصيدة مطولة بعنوان «عندما أوغل السندباد وعاد» وفيها يقول:

كل شيء تجلى له وتكشف

كان انحدار المياه إلى منبع النهر حتما

وصار الرحيل

مللا يستطيل

ثبت السندباد مجاديفه وأدار الشراع

عن الريح.. واستعد ليوم المعاد

قبل أن يزور صلاح عبد الصبور الدوحة، زارها قبله شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري، وحين سألته وقتها – سنة ١٩٨٠م – عن رأيه في رواد حركة الشعر الحر، قال لي بالحرف الواحد: «لا شك أنك تعرف عني أني لست عدوا للجديد، ولكني عدوا للركاكة، وأنا أحب صلاح عبد الصبور وأرى أنه شاعر كبير حقا..» وفيما بعد وبالتحديد يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٨١م كتب الناقد الكبير رجاء النقاش في «الشرق الأوسط» يقول: «.. كان صلاح عبد الصبور فنانا مبدعا واضح الرؤية صادق الأداء، فاتحا لأبواب جديدة أمام الشعر العربي، وكان هذا وحده كافيا وجديرا بأن يحميه من سموم الذين ظلموه وحاصروه ولم يفهموه..». وما يزال الشاعر القطري الدكتور حسن النعمة يتحدث إلى اليوم عن اعتزازه بصداقته العميقة لصلاح عبد الصبور، عندما كانا يعملان في السلك الدبلوماسي في الهند، حيث كان د. حسن النعمة سفيرا لقطر كان صلاح عبد الصبور وزيرا مفوضا ومستشارا إعلاميا لسفارة مصر، وكانت له وقتها لقاءات عديدة مع أنديرا غاندي بشخصيتها الساحرة وثقافتها العميقة.

في أحد حواراتي مع أستاذي صلاح عبد الصبور وهو الحوار الذي نشرته جريدة «الراية» عدد ٢٨ أبريل سنة ١٩٨٠م رأى أن هناك ألوانا من الحب، بقدر ما هنالك ألوان من البشر، أما الشعر فإن ينابيعه متعددة وكثيرة، لكن أجملها هو ينبوع الحب الصادق، ومن هنا فإن أسخف الشعر هو ما يكتبه شاعر يتصور أنه عاشق دون أن يكون عاشقا بالفعل، وهناك ركام من القصائد الغزلية السخيفة، لأن أصحابها حاولوا تقليد لهجة العشاق دون أن يكونوا عشاقا.

ظل صـــلاح عبد الصــبور مؤمنا بالقيم الإنســانية النبيلة لدرجة أني أحس بأن هذه القيم تتجسد فيه، وتكمن قمة الصدق عنده في الصدق مع النفس، ومعناه أن يدرك الإنسان وجوده ويعيه وأن يعرف مكانه في الحياة وأن يتحمل دوره وعبء وجوده فيها، فالصــدق مع النفس هو الذي يعصم الإنسان من التفاهة والسطحية وهما العدوان اللدودان للحياة ذاتها.

صــلاح عبد الصــبور غاب ولكنه لم يغب بالطبع من قلوب محبيه وعاشــقيه الذين يتذكرونه شاعرا عظيما وإنسانا رائعا نبيلا.



عندما أوغل لسندباد وعاد

رائعة صلاح عبد الصبور
التي لم تنشر ض
من أعماله الشعرية حتى الآن

...... كل شيء تجلَّى له وتكشَّفَ

كان انحدار المياه إلى منبع النهر حتمًا

وصار الرحيلْ...

مللا يستطيلْ

ثَبَّتَ السندباد مجاديفه، وأدار الشراع عن الريح..

واستعد ليوم المعاد..

في فصول الرحيل الطويل

عرف السندبادُ الصباحاتِ

عرف السندباد الأماسي

... كان بعض الصباحات يتسع البحر فيه، ويصبح

كونا من الطيب واليشب، والشمسُ

مجمرةٌ تتدلى سلاسلها الذهبيةُ، ثم يعانقها

الغيمُ، تبتل حافتها بالندى، كاشفا سِرَّ

ألوانها السبعة المستكنة فيها...

يُخرج البحر ألوانه

يمزج البحر ألوانه

يتبارى مع الشمس وصلاً وعشقًا، ويبذلُ
حتى تحل العرى، ويذوب الوجوم...
زبرجدةً يصبح البحر، ينفث لؤلؤه الزبدي
ويملؤك الفَرْحُ يا سندباد كما امتلأتْ حبةٌ
بالرحيق، وتمثُلُ للريح والنسم، صدرُكَ
قيثارةٌ تتناوب فيها أصابعها الخشنات
الرقيقات...
ينتشي السندباد بمرأى الزمان يعود إليه
وينفي ويثبت فيما حوت عينه من رؤى
وما احتملت من ظلال البلاد
وما احتملت من شجى كامن أو
أسى مستعاد
ويبحر في عرقه ودماءْ، ويرسي بشط
الزمان البعيد القديم
وتعود إلى السندباد طفولته، وتعود الحقول
حقولا، ويعود الغدير ليمتد كي تتأرجح
في جانبيه الحقول
.. وتعود السكينة كي تتمدد فوق الغدير
وتعود نجوم السماء، لكي تتناثر فوق
ملاءمتها أرخبيلا يطوف بين جزائره
السندباد

زمنا مستعاد...

ويعدو... ويعدو...

لا يضحك السندباد لصورته وهو يعدو...

وتصلصل في قلبه الطفل أجراسه الذهبية

يعدو... ويعدو ...

ويعود إليه صباه

ويعود إليه صباه رغيفا، ونهدين كانا

يميلان في صدره، يلثمان معا بين خاصرتيه

لقد خانك الوقت يا سندباد، تسرَّبَ فوق

رمال حياتك، لولا فم البحر، أسنانه الزبدية

لولا عناق الرياح وأنغامها في وتينك كانت

مثل صخور الشواطئ، كنت قضيت من الوجد

والحزن، أوغل إذن سندباد، افترعْ خيمة

الغيم، وادخل...

ترشف نداها البليل، ارتعد نشوة، وتحول

عمودا من الفرح والنار، يفتض جدرانها، يتلهب

في عمقها، ثم يهوى كبرق أضاء، كبرق خبا

... وتقضَّى زمان الصبا...

كان بعض الصباحات ينكمش البحر فيه، ويغدو

أديما من الجلد، أسود مغضوضنا، لزجا

بالطحالب والسمك الميت والزيت،

تلهث نحو الأديم شفاه المياه مشققةً عطشًا للرياح
أهذا هو البحرُ؟
لحدٌ من الماء، وادٍ من الخضرة المطفأة
أهذا هو البحر؟
موتٌ تئن به جهشات المجاديف معولة، والشموس
ممزقة في جهات السماء
كان بعض الأماسي غطاء جميلاً كجسم امرأة
كان بعض الأماسي غطاء ثقيلا كقبر
كان بعض الأماسي ثوبا شفيفا، ذيولُ
الطواويس، نثرُ النوافير، أعرافُ خيلِ
الرياح العراب
يمتطي السندباد الظلامَ المنقَّطَ بالضوء
يبحر نحو مياه السماوات، وحدك تمضي أيا
سندباد، وقد ثمل الندماء وأغفوا، ونامت
أيادي رجالك فوق المجاديف، لا شاهدَ
لارتفاع البراقع إلا عيونك، جُزْتَ طباقَ
الهواء الثمان الكثيفة... بحر وسبع سموات
وأصبحت معنى تحوم فيه المعاني
وجدت... فقدت... وجدت
ورأيت الذي قد سمعت
وسمعت الذي قد رأيت

كان بعض الأماسي ثوبا صفيقا من الزيت
والقار، والريح ساكنة كالزجاج، على وجهها
البارد المستطيل تخثرت الظلمات كدم
خلفت وعدها السحب، لم تتفتح
حدائقها عن زهور النجيمات، لم يرد
البدر آباره في حقول السحاب، وماتبعته
عيونك، وهو يرطب خديه في زرقة الماء أو
خضرة العشب، أناخ عليك المساء وأثقل
حتى انكسرت شجى..
... وانحللت هباء
ويثقل نفسك ما حملت من رؤى
وما احتملت من ظلال البلاد
وما احتملت من شجى كامن أو أسى مستعاد...



فاروق خورشيد
فارس نبيل حصانة الأمل

«ما محبة.. إلا بعد عداوة»..

مثل شـعبي مصـري، يتردد حين نتحدث عن علاقات صـداقة طويلة وجميلة، لكنها تبدأ بنفور أو خصـومة أو حتى مشـاجرة.. ينطبق هذا المثل على طالبين جامعيين من طلاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب – جامعة القاهرة.. ذات يوم من أيام سنة ١٩٤٨ نشـبت مشـادة كلامية حادة بين هذين الطالبين، لكنها أفضـت إلى صـداقة عميقة من الصـداقات التي نقول إنها صـداقات العمر.. هذان الطالبان هما فاروق محمد سـعيد خورشيد الذي تخرج سنة ١٩٥٠ ومحمد صلاح الدين عبد الصبور يوسف الذي تخرج في السنة التالية سنة ١٩٥١.

بعد التخرج خاض الطالبان معترك الحياة.. أحبا.. وتعذبا.. وكتبا وأبدعا... لكنهما لم يكونا وحدهما بطبيعة الحال، فقد كان معهما أصـدقاء عديدون من أبناء نفس الجيل، وكلهم أسـهموا بكتاباتهم وإبداعاتهم في المسـيرة الثقافية والأدبية، ولمعت أسـماؤهم، نتيجة مثابرتهم واجتهادهم، ومحاولة كل منهم أن يقدم جديداً، لا أن يكرر ما سـبق أن قدمه آخرون من العمالقة والكبار الذين أطلوا على الحياة قبلهم.

احتضـن هؤلاء جميعاً الشـيخ أمين الخولي الذي ربما لا يعرفه كثيرون الآن، مع أنه صاحب كتب مهمة عديدة، من بينها «المجددون في الإسلام» و«فن القول» و«في الأدب المصـري: فكرة ومنهج» و «مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسـير والأدب» وهو الذي قالت عنه تلميذته وزوجته الدكتورة بنت الشـاطئ: «..... أخذت عنه أنه لا يصـح رسوخ في علم اللغة العربية دون فقه الإسلام، ولا يصح فقه الإسلام دون رسوخ في علم اللغة العربية، فانتبهت إلى أن نصـف علوم القرآن هي علوم لغة...». وقد أسـس الشـيخ أمين الخولي جماعة «الأمناء» في الأدب والفن، التي انبثقت منها مجلة «الأدب» الشهرية، وكان لها تأثير واضح على الساحة الثقافية. وبعد مرور عدة سنوات، أحس تلاميذ أمين الخولي أنهم يريدون الابتعاد عن وصايته المباشرة عليهم، وأن يكتفوا بانتمائهم الروحي إليه، وهكذا انطلقوا وحدهم لتأسيس «الجمعية الأدبية المصرية» ابتداء من سنة ١٩٥٤ والتي ظلت تؤدي رسالتها الجليلة حتى أواسط السبعينيات من القرن العشرين.

إلى جانب فاروق خورشـيد وصـلاح عبد الصـبور، كان من أقطاب الجمعية الأدبية المصـرية، كل من الكبار المؤثرين المرموقين: عز الدين إسـماعيل وعبد الغفار مكاوي وعبد الرحمن فهمي وأحمد كمال زكي ومحمد عبد الواحد وعوني عبد الرؤوف ومحمود ذهني وملك عبد العزيز، وكان هناك ممن يكبرونهم عبد القادر القط وشـكري محمد عياد وحسـين نصـار وعبد المنعم شـميس وأحمد حسـين الصـاوي وعبد العزيز الدالي ومحمد الدش. والحق أن الجمعية الأدبية المصـرية تعد مثالاً سـاطعاً وناصـعاً على تواصـل الأجيال الأدبية، فقد كانت تقدم مسـاء كل ثلاثاء أمسـيات شـعرية وقصـصـية وندوات فكرية وثقافية، وتحتضـن كثيرين من أبناء جيلي، ومن بينهم أمل دنقل ومحمد إبراهيم أبو سـنة وأحمد سـويلم ووفاء وجدي، لكني أعترف هنا بفخر واعتزاز أن الكبار من أعـضاء الجمعية الأدبية المـصرية كانوا يهتمون بي وبنـصار عبد الله أكثر من سوانا، خاصة أننا كنا عضوين نشيطين ومتحمسين من أبناء الجيل الجديد.

قلت إن الأعـضاء المؤسـسين للجمعية الأدبية المـصرية كانوا من المبدعين والنقاد والمفكرين، لكن أكثرهم شـهرة على صـعيد الإبداع والخوض في المعارك الأدبية كان صـلاح عبد الصـبور ومعه فاروق خورشـيد، وعلى صـعيد النقد الأدبي عبد القادر القط وعز الدين إسماعيل وأحمد كمال زكي، وعلى صعيد الفلسفة عبد الغفار مكاوي.

يتمثل الفارق بين صلاح عبد الـصبور وفاروق. خورشيد في إخلاص الأول للـشعر إخلاصاً بغير حدود وفي ريادته الجادة للمسرحية الشعرية، بعد أحمد شوقي وعزيز أباظة، أما الثاني فإن عطاءه الأدبي كان متنوعا، فقد كتب القصة القصيرة والرواية والمسرحية، والدراسـات الأدبية ومن بينها كتابة الجميل «مع المازني» الذي يتعاطف معه لأنه لم ينل ما يسـتحقه من تقدير إلى جانب أنه الرائد الثاني والمؤثر لدراسـات الأدب الشـعبي، بعد أستاذه عبد الحميد يونس.. إذا كنت أقول إني قد تعلمت من صلاح عبد الصبور وفاروق خورشيد مالا يمكن أن أنساه، فإن الاثنين عندي يبدوان توأمين روحيين، بل إني أستطيع أن أشـير هنا ولو إشـارة عابرة إلى تناغم الروح وتوحد الرؤية للحياة عندهما، وهذا ما يتجلى لي فيما لم يلتفت إليه النقاد، مما يتطلب منهم دراسـة متذوقة ومتأنية، فالحق أن قـصص فاروق خورشيد تبدو لي كأنها قـصائد صلاح عبد الـصبور، والعكس صحيح، حتى وإن عبر الأول نثراً وعبر الثاني شعرا، ويتصدر رواية «الزمن الميت» لفاروق

خورشــيد إهداء يقول: «إلى صــاحب هذه الكلمات: »وأنا، بعد زمان – أجلس في ركني الجامد كالكوب الفارغ – يتقطر في الزمن الميت« صلاح عبد الصبور.. الباقي في القلوب والوجدان.. إلى يوم اللقاء الأكيد.. فاروق خورشــيد..». لكن تناغم الروح وتوحد الرؤية ليس مقصوراً عليهما وحدهما، إذ يشترك فيهما معهما عبد الغفار مكاوي وعز الدين إسماعيل وأحمد كمال زكي وعبد الرحمن فهمي فيما قدموه من عطاء أدبي، في الشعر والقصة والرواية.

لم يبادر صــلاح عبد الصــبور لفتح جبهات قتال من خلال المعارك الأدبية والنقدية، لكنه لم يكن وحده عندما خاض تلك المعارك التي فرضــت عليه فرضــا، فقد وقف إلى جواره أعضاء الجمعية الأدبية المصرية وفي مقدمتهم فاروق خورشيد، في الخمسينيات من القرن العشــرين، وعلى صــفحات مجلة «الآداب» البيروتية كانت هناك معركة ريادة الشعر الحر بين شعراء العراق ومصر، ودخل المعركة بدر شاكر السياب وكاظم جواد ضــد صــلاح عبد الصــبور، فســانده دون إبطاء فاروق خورشــيد.. وبعد صــدور ديوان «أحلام الفارس القديم» ســنة ١٩٦٤ كتب محمود أمين العالم مقالا حادا، تســاءل فيه: لماذا يحزن الشاعر صلاح عبد الصبور، بينما بلاده تبني السد العالي؟... ولم يهتم صلاح عبد الصبور بالرد، لكن فاروق خورشيد تصدى بقوة لما كتبه محمود أمين العالم. وحين قام يوســف الســباعي بتغيير هيئة تحرير مجلة «الكاتب» التي كان يرأس تحريرها أحمد عباس صــالح، هاجم اليســاريون صــلاح عبد الصــبور بعنف، وامتدت آثار هذا الهجوم خارج حدود مصر، كما امتدت إلى الأقاليم، ومن خلال محاضرة، كان قد نظمها لصلاح عبد الصــبور عميد كلية الآداب – جامعة الزقازيق، محمود ذهني، حيث انطلقنا فاروق خورشــيد وأنا – لحضــور تلك المحاضــرة، إذا ببعض الطلاب يتهمون صــلاح عبد الصــبور اتهامات باطلة، ناتجة عن ســوء فهمهم لطبيعة ما جرى لمجلة «الكاتب» فالمعركة – في الأساس – بين يوسف السباعي الذي كان – وقتها وزيراً للثقافة، وأحمد عباس صالح الذي كان يتهيأ للعمل في العراق ومغادرة مصر.

بين «دون كيشـوت» وفاروق خورشـيد التقاء وافتراق، فهما يلتقيان في أن كلا منهما فارس لا يهاب، وهما يفترقان لأن الأول الذي صـوره سـرفانتس يحارب الأشـباح وطواحين الهواء، أما الثاني فإنه يمتطي حصـان الأمل في تغيير الواقع وتشـكيل ما هو أفضـل وأجمل، وسـلاحه الكلمة الملتزمة الجادة والشـجاعة، وهو يطلقها دون تشـنج انحيازا لما يرى أنه الحق، ولهذا حارب اليمينيون واليسـاريون على السـواء هذا الفارس النبيل، وحيكت ضـده المكائد والافتراءات، محاولة أن تزيحه من عمله في الإذاعة، خلال مرحلة ما بعد جمال عبد الناصـر، لكن الفارس النبيل، وإن كان وقتها قد أحس بطعم المرارة إلا أنه لم ييأس، لأن حصـانه هو الأمل، ولأنه تشـبع – روحيا – بما عرفه وقدمه ودرسه من بطولات شعبية، تتمثل في السير والملاحم التي أعاد هو النبض إليها من خلال تقديمها في أشـكال أدبية معاصـرة، ومن بينها «سـيف بن ذي يزن» و «علي الزيبق» و «أضـواء على السـير الشـعبية» وكتاب «فن كتاب السـيرة الشـعبية» الذي ألفه بالاشتراك مع محمود ذهني.

وكما واجه أبطال السير الشعبية من عنترة إلى سيف بن ذي يزن و سواهما الكثير من المخاطر والأهوال بشجاعة وبراعة، فكذلك واجه فاروق خورشيد ما واجهه من مكائد وافتراءات، أما انتماؤه الصـادق للعروبة فقد دفعه – بكل ما أوتي من جهد وقوة – لمحاربة التطبيع الثقافي مع الكيان الصـهيوني، وبعد أن كان اتحاد الكتاب المصـريين خلال رئاسـة ثروت أباظة له أداة طيعة في يد السـلطة السـياسـية، جاء سـعد الدين وهبة ليواجه التطبيع الثقافي، ومن بعده جاء فاروق خورشيد ليكمل المسيرة الوطنية والعربية على امتداد دورتين متتاليتين، رأس خلالهما اتحاد الكتاب المصـريين وقام بفصـل أحد الكتاب المستهترين والعابثين، بعد أن تبجح وباهى برحلته إلي الكيان الصهيوني الذي لا يهددنا في الحدود، وإنما يهددنا في الوجود.

كما قلت، فإن فاروق خورشيد، فارس نبيل، يتحلى بـ شهامة «ابن البلد» وينحاز دون تشنج إلى ما يرى أنه الحق، كما يتعاطف مع البسطاء، دون أن يتعالى على أحد منهم، وكم من مرة كنت أجده يتدخل دفاعا عن بواب العمارة في وجه صـاحبها لكن هذا الفارس النبيل كان يعاني ما يعاني عندما يتهيأ للإبداع الأدبي.. قصة أو رواية.. وكانت فترات

الإبداع عنده، وهي عادة لا تهبط إلا في الليل، تمثل فترات توتر وقلق لا يستهان بهما. ربما منذ أربع ســنوات، كنت أســهر معه في مكتبه برفقة مجموعة من أبناء جيله، وإذا به يطلب منا أن نستمع إلى ما أ سماه مفاجأة، أما المفاجأة فتتمثل في شريط «كا سيت» نادر بالطبع، يحاول فيه موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب أن يستكمل لحنا لم يكتمل بعد، وحين يشـعر بأن الإلهام يسـتعصـى عليه يظل يكرر المحاولة بدل المرة مرات، دون أن يسـتقر على ما يرضـيه.. بعد ان اسـتمعنا إلى محمد عبد الوهاب، ظل فاروق خورشـيد يحدثنا طيلة هذه السـهرة عن عذاب الخلق الفني، حتى عند المشـاهير، طالما أنهم يستشـعرون بمسـؤولية إبداع جديد، يضـاف إلى ما سـبق من رصـيد. وفجأة طلب مني أسـتاذي الفارس النبيل أن أسـمعه هو ومن معه ما أحفظه من قصـيدة «أغاني الرق» للعبقري محمود حسن إسماعيل:

ألقيتني بين شباك العذاب

وقلت لي: غَنِّ

وكل ما يشجي حنين الرباب

ضيعته مني

هذا جناحي صارخ لا يجاب

في ظلمة السجنِ

ونشوتي صارت بقايا سراب

في حانة الجنِّ

أواه يا فنِّي

لو لم أعش كالناس فوق التراب!

***

صباح عيد الأضحى وكان يوافق يوم ٢٠ يناير سنة ٢٠٠٥، تلقيت رسالة «موبيل» من الدكتور إسماعيل – ابن محمود حسن إسماعيل.. «كل سنة وأنت طيب.. فاروق خورشيد...» لم يشأ الدكتور إسماعيل أن يفاجئني بالنبأ الفاجع بصورة مباشرة.. حاولت أن أتوازن.. شرعت في قراءة ما أبدعه الفارس النبيل من جديد، كأني أريد أن أتحصن ضد النبأ الفاجع بالكلمة التي ظلت سلاح فاروق خورشيد، وفي اليوم التالي ذهبت إلى المكتبات لشراء الجرائد المصرية والعربية... هذا هو فاروق خورشيد وقد تحول إلى خبر.. هو – بالفعل – مجرد خبر عند الذين لم يعرفوه، ولم يقرؤوا وإبداعاته ودراساته، ولم يصادقوا هذا الفارس النبيل.

فيما يتعلق بي.. فإن الأستاذ.. الكاتب الفنان الكبير.. والفارس الذي يمتطي حصان الأمل.. لم يزل موجوداً، وسيظل في القلب، وما كتبته عنه ليس كلمات رثاء بل محبة...



نازك الملائكة..

الشاعرة التي أحبت
جمال عبد الناصر

من أين أبدأ هذه السطور التي أكتبها، وأنا في غمرة الحزن علي رحيل نازك الملائكة - الشاعرة العربية العراقية الكبيرة - التي أدمنت حفظ روائعها الحزينة عن ظهر قلب، أيام أن كنت صبياً صغيراً لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره؟

هل أبدأ من تأمل ضفاف الذكريات، منذ أن كانت نازك الملائكة تتجلى لي لتصحبني - بسحر الشعر عندما يكون عذبا - إلي آفاق خيالية بعيدة؟.. أم أبدأ بما أعرفه ويعرفه سواي عن عمق انتماء نازك الملائكة لأمتها العربية، حيث غنت لفلسطين منذ بداية الجرح الغائر الذي ما يزال ينزف إلي الآن، وأحسست بالفرحة تغمرها حين أجيبت علي طلبها أن تلتقي مع الزعيم العربي الخالد جمال عبد الناصر؟.. هل أتحدث عمن كتبوا عنها - أدبيا وسياسياً- علي امتداد الأيام القليلة الفائتة - فتتجلي فيما كتبوه أنهم متسرعون أو جهلاء أو موتورون مفترون، وأن الحقائق النا صعة تكشف تسرعهم أو تفضح ما في أعماق نفوسهم؟.. أم أبتعد عن هؤلاء جميعا، لأعود إلي قضية الريادة في حركة الشعر الحر، وهل هي لنازك أم للسياب أم لسواهما؟.. من أين أبدأ؟.. الحيرة تتملكني.. فلا أترك للقلم أن ينطلق ليبدأ علي هواه، دون تخطيط مسبق لما يكتب، ولتكن البداية مع سنة ١٩٥٧ التي أعتز بما أتذكره بوضوح عن عوالمها.

***

سنة ١٩٥٧

صبي صغير.. يلتقي مع صديق في مثل عمره، وكلاهما زميلان في الصف الثاني الثانوي بمدرسة روض الفرج الثانوية بالقاهرة .. يقول الصديق للصبي: عندي لك مفاجأة.. لقد عاد بالأمس أحد أقربائي من زيارة لبيروت، وأهداني كتاباً.. ديوان شعر..

لكنك تعرف أن اهتماماتي بالشعر ليست مثل شغفك به، ولهذا سأهديك هذا الديوان.. تسلم الصبي الديوان الهدية، فأحس بالنشوة، وهو يقلب صفحات ديوان قرارة الموجة للشاعرة نازك الملائكة، وكان قد صدر منذ أيام قلائل عن دار الآداب التي يملكها ويديرها الروائي اللبناني الدكتور سهيل إدريس.. لماذا انتشي الصبي الصغير؟.. لأنه كان قد قرأ قصائد عديدة من هذا الديوان، علي امتداد مجموعة من أعداد مجلة الآداب البيروتية التي كانت تصل بانتظام إلي مكتبة المدرسة، ومن خلال هذه المجلة العريقة كان الصبي يعرف أسماء بدر شاكر السياب وسلمى الخضراء الجيوسي و محمد صلاح الدين عبدالصبور ونزار قباني، وسواهم ممن كانوا ينشرون إبداعاتهم علي صفحاتها.. هكذا كان ديوان قرارة الموجة أول هدية شعرية، أتلقاها في حياتي، وماتزال نسختي المهداة موجودة معي إلي الآن، وحين أعود إليها يتغلغل في روحي نفس الحزن القديم الذي تشربته منذ أن كنت أحفظ من قصائد هذا الديوان ما حفظت وقتها، وبالذات قصيدة لحن للنسيان :

لِمَ يا حياه

تذوي عذوبتك الطرية في الشفاه؟

لِمَ.. وارتطام الكأس بالفم لم يزل

في السمعِ همس من صداه؟

والأزمنه

كم ذكرياتٍ.. كم فواجعَ محزنه

ضمتْ صحائفها.. وكم رقد التراب

فوق الخدود اللينه

لم أكن أعرف بالطبع – في تلك السنة – أن الشاعرة التي تسحرني كانت قد زارت مصر سنة ١٩٥٠، أي عندما كان عمري سبع سنوات، وأنها حرصت علي أن تلتقي مع الشاعر الرقيق الكبير الدكتور إبراهيم ناجي في حي شبرا الذي ولدت فيه، وقد أهدي إبراهيم ناجي لنازك الملائكة نسخة من ديوانه ليالي القاهرة وكان قد صدر حديثا، ولم يكتب

ناجي إهداء نثريا، ولكنه كتب بخط يده أربعة أبيات، بمثابة إهداء شعري، يصور فيه فرحته بلقاء الشاعرة القادمة من العراق، والتي تحب شعره أعمق الحب.. هذا هو الإهداء بالنص:

ما كان أقصر هذه من زَورةٍ

ما أشبعتنا من بشاشة نازكِ

كلاَّ ولا رَوَّي النهى من زهرةٍ

بالطهر تفصح عن سمات ملائكِ

إنا حمدنا لليالي أنها

قد قربتنا من سنيٍّ سمائكِ

إن كان أسعدنا الزمان بساعةٍ

فكأنها أبدُ الخلود حيالكِ

سنة ١٩٦٢

منذ أربع سنوات، وبالتحديد يوم ١٤ تموز - يوليو ١٩٥٨ قامت ثورة انقلابية في العراق بتغيير النظام السياسي من ملكي إلى جمهوري، كما أعلنت عن انسحابها من حلف بغداد الا ستعماري، ولم تكن الثورة التي قادها عبدالكريم قاسم ومعه عبدالسلام عارف ثورة سلمية، كما هو شأن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر، وإنما كانت دموية حمراء قتل خلالها كثيرون، من بينهم رئيس الوزراء الشهير نوري السعيد، عندما حاول الفرار من العراق، متخفيا في زي امرأة بدوية، وحين انكشف أمره تم تمزيق جسده قطعة قطعة! منذ أربع سنوات، والدم في العراق.. في بغداد.. والموصل.. يتدفق في الشوارع، نتيجة لتصارع القوى السياسية على السلطة.

كثيرون كانوا قد استبشروا بثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ من بينهم بدر شاكر السياب ونازك الملائكة التي كتبت قصيدة مطولة عن الجمهورية العراقية الفتية، وفي مصر غنت أم كلثوم بغداديا قلعة الأسود من شعر محمود حسن إسماعيل، وتلحين رياض السنباطي. لكن

عمليات السحل والقتل العشوائية أضفت أجواء من الرعب في العراق، وخرجت نازك الملائكة من بغداد إلي بيروت وكانت قد كتبت قصيدة تهاجم فيها الشيوعيين العراقيين، بعنوان ثلاث أغنيات شيوعية وفي تلك السنة -١٩٦٢- صدرت دراسة متكاملة وشاملة عن حركة الشعر الحر، بعنوان قضايا الشعر المعاصر وقد لقيت دراسة نازك الملائكة استجابة إيجابية وسلبية علي حد سواء وأتذكر هنا أن الروائي والكاتب المتنوع في عطائه جبرا إبراهيم جبرا قد تهجم بل تهكم علي دراسة نازك الملائكة، وكتب في إحدى المجلات المشبوهة - مجلة أدب البيروتية - مقالا بعنوان الشعر والنقد الجاهل !

أما القاهرة فقد شهدت سنة ١٩٦٢ انعقاد مؤتمر كبير لأدباء وكتاب إفريقيا وآسيا، وأتذكر أني حاولت الدخول الي القاعة ذات مساء للقاء الشاعر التركي العظيم ناظم حكمت، لكن أحد ضباط الشرطة منعني من الدخول بلباقة وهدوء، بعد أن أكتشف أني مازلت طالبا جامعيا صغيرا، وأني لا أحمل بالطبع بطاقة دعوة، وفيما بعد، علمت أن نازك الملائكة كانت من بين المشاركين في المؤتمر، وأنها أحست بالفخر وبالنشوة حين جاء الزعيم جمال عبدالناصر لكي يلتقي مع المشاركين والمشاركات ويحييهم بل يصافح معظمهم فرداً فرداً، وهنا طلبت نازك الملائكة أن تتاح لها فرصة مطولة للقاء عبدالناصر، الذي التفت على الفور إلى أحد مرافقيه قائلا: حدد للست نازك ميعاد في أقرب وقت .. وهذا ما كان بالفعل، وقد أهدت الشاعرة العربية للزعيم العربي كتابها النقدي قضايا الشعر المعاصر الذي كان قد صدر حديثا كما قلت في بيروت.

سنة ١٩٨٣

كنت أزور الكويت، بدعوة من الدكتور محمد الرميحي، الذي كان قد أصبح رئيسا لتحرير مجلة العربي العريقة، وفي الكويت التقيت مع كثيرين من الشعراء والأدباء، وحين التقيت مع الشاعر الدكتور عبده بدوي في شقته بحي السالمية، طلبت منه أن يحاول تحديد موعد لي مع الشاعرة الكبيرة نازك الملائكة التي كانت تقوم بالتدريس في جامعة الكويت. وهنا قال الدكتور عبده بدوي آسفا: إن شقة نازك مواجهة تماما لشقتي هذه، لكنها لم تعد تلتقي مع أحد، باستثناءات قليلة، بسبب مرضها الذي تعاني منه، ويبدو واضحا في ارتعاش يديها وتصلب جانب من وجهها. وبعد عدة أشهر، قامت نازك

الملائكة بتقديم ا ستقالتها من جامعة الكويت.. بعد أن منحت إجازة خا صة وبراتب تام لمدة سنة كاملة تقديرا لجهودها ولمكانتها العلمية والشعرية، وتألفت لجنة في جامعة الكويت لوضع كتاب عنها ودراسة تراثها الشعري والنقدي، وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩٨٥ هذا ما قالته الكاتبة حياة شـــرارة في كتابها الجميل صـــفحات من حياة نازك الملائكة، أما الكتاب الذي صدر عن جامعة الكويت فإنه كتاب ضخم، شارك فيه نخبة من أساتذة الجامعات وأعده وقدم له الدكتور عبدالله أحمد المهنا.

سنة ١٩٩٢

كانت الشاعرة الكبيرة قد عادت إلي العراق، ووصلت إلي بغداد كما تقول حياة شرارة في يوم ١٥-٢-١٩٨٧ ولكنها كانت مريضة مرهقة الأعصاب.. أما ما أود أن أ شير إليه هنا، فيتمثل فيما قام به صدام حسين الرئيس العراقي – وقتها - تجاه الشاعرة العائدة إلى الوطن، وأقتطف هنا سطورا كاملة مما قالته حياة شرارة صفحة ٢٢٦ من كتابها الصادر في طبعته الأولى ســـنة ١٩٩٤ عن دار رياض الريس حيث تروي الكاتبة مايلي بالنص: ..ذات يوم من عام ١٩٩٢ خرج زوج نازك الدكتور عبدالهادي مع الـ سائق لـ شراء بعض الحاجيات من المخزن الذي اعتاد الشـــراء منه. وكان يركب ســـيارة التويوتا الســـوبر اليابانية والتي جلبها معه من الكويت، يقودها له السائق الخادم.. تركا السيارة في موقف الـ سيارات الخاص، وعند عودتهما لم يجدا الـ سيارة. ويبدو أن الـ سائق الـ سابق الذي كان يعرف المخزن الذي يتبضع منه الدكتور عبدالهادي، كان يترصد لسرقة السيارة إذ لم يعثر له ولا للســـيارة على أثر حتى اليوم ويقدر ثمن مثل هذه الســـيارة اليوم في بغداد بمائة وخمسين ألف دينار.. علم السيد رئيس الجمهورية صدام حسين بهذا الخبر الذي نشرته الجرائد في حينه فأهدى لها ســـيارة جديدة من نوع أولدز موبيل موديل ١٩٩٠ وقد خصص لشاعرتنا راتبا تقاعديا مقداره ألف دينار، تقديرا منه لشاعريتها ولدورها الأدبي الكبير في العالم العربي، وقد أتاح لها هذا الراتب التقاعدي تلبية النفقات المعاشـــية الضرورية في حياتها اليومية.. هذا ما قالته بالنص حياة شرارة في كتابها صفحات من حياة نازك الملائكة وهو ما يتناقض ويتعارض مع ما يقوله المفترون على الرئيس الشـــهيد، وعلينا هنا أن نتذكر وفقا للمقاييس السائدة السخيفة أن نازك الملائكة مسلمة شيعية وأن صدام حسين مسلم من أهل السنة.

سنة ١٩٩٦

شـــهدت أبوظبي إحدى دورات مؤســســة جائزة عبدالعزيز ســعود البابطين للإبداع الشعري، وهي الدورة التي حملت اسم الشاعر أحمد مشاري العدواني، وكانت المؤسسة قد أعلنت عن فوز نازك الملائكة بجائزة الإبداع في الشـعر – وهي جائزة تكريمية – وكان ممن حضــروا تلك الدورة في أبوظبي الدكتور عبدالهادي حبوبة رفيق حياتها وزوجها منذ أن تزوجها يوم الخميس ١ يونيو – حزيران سنة ١٩٦١ وأنجبت الشاعرة ابنهما الوحيد البراق يوم الثلاثاء ٢٣ أكتوبر ســنة ١٩٦٢، وقد اختارت نازك الملائكة لابنها هذا الاســم غير الشائع، نتيجة لإعجابها الشديد بصوت أسمهان، ومن المعروف بالطبع إن لأسمهان أغنية شهيرة وحزينة، مطلعها ليت للبراق عيناً فترى.. ما ألاقي من بلاءٍ وعَنَا .

تســلم الدكتور عبدالهادي حبوبة جائزة الإبداع في الشـعر من الشـاعر عبدالعزيز سـعود البابطين نيابة عن زوجته الشاعرة التي أقعدها المرض في القاهرة، وكنت قد أعددت صفحة كاملة عن نازك الملائكة من صفحات جريدة الراية فقدمت نسخة منها إليه، وهو يستند إلى الدكتور الشــاعر خليفة الوقيان، وهنا بدت الســعادة علي ملامح الدكتور عبدالهادي، وهو يقول لي: كنت أظن أن نازك قد طواها النسيان من جانب الأدباء والشعراء.

سنة ٢٠٠٧

مســاء الأربعاء ٢٠ يونيو – حزيران ٢٠٠٧ ، رحلت الشــاعرة الكبيرة نازك الملائكة عن عالمنا.. .. غمرني الحزن وما يزال يغمرني.. بادرت بالاتصــال بالشــاعرة ريم قيس كبة التي تقيم في القاهرة، وهي من قريبات نازك الملائكة، كما أن بعض النقاد يلقبونها نازك الملائكة الجديدة .. قالت لي ريم: إن خالتها لم تتعذب مطلقاً خلال احتضــارها.. لقد رحلت بسلام شامل، وتجلى وجهها هادئا ومطمئنا. وفي اليوم التالي لرحيل الشاعرة الكبيرة، تلقيت مقالا محزنا، كتبته الشــاعرة بلقيس حميد حســن التي تقيم في هولندا منذ ســنوات، وفيه تشــير إلى أن نازك الملائكة لم تمتدح طيلة حياتها رئيســا أو ملكا عربيا، ورأت بلقيس في مقالها أن هذا هو السبب في عدم احتشاد المثقفين في مصر لتشييع جنازة نازك الملائكة، كما شاهدت ذلك بنفسها من خلال القنوات الفضائية العربية، وهنا تذكرت علي الفور ما كنت قد كتبته عن رحيل نجيب محفوظ يوم ٣١ أغسـطس – آب سـنة ٢٠٠٦، حيث كتبت مقالا حزينا بعنوان اغتيال جنازة نجيب محفوظ فضيحة قومية.

لنازك الملائكة عطاء شعري رومانسي عميق، منذ أن أصدرت ديوانها الأول عاشقة الليل سنة ١٩٤٧ وبعده بسنتين أصدرت شظايا ورماد وفي سنة ١٩٥٧ - كما ذكرت في البداية - أصدرت أكثر دواوينها شهرة وهو ديوان قرارة الموجة وتتابعت دواوين أخري عديدة في الصدور، منها شجرة القمر و للصلاة وللثورة و يغير ألوانه البحر أما عطاؤها النقدي فقد تمثل في دراسات عديدة، من بينها قضايا الشعر المعاصر و الصومعة والشرفة الحمراء - دراسة عن علي محمود طه وهو أحد الشعراء الرومانسيين الذين أحبتهم، رغم اختلاف نظرتها للحياة عن نظرته إليها، وفضلا عن الدراسات النقدية فإن نازك الملائكة لها كتاب ضخم بعنوان التجزيئية في المجتمع العربي .

استكتبت جريدة الحياة اللندنية - عدد الجمعة ٢٢ يونيو - حزيران ٢٠٠٧ مجموعة من الكتاب والشعراء العرب، لكي يبدوا وجهات نظرهم - بصورة سريعة - فيما أنجزته نازك الملائكة من عطاءات شعرية ونقدية وإنسانية، والحق أني قد اندهشت تماما ولم تفارقني الدهشة حتى الآن عندما قرأت ما كتبه الشاعر شوقي عبدالأمير، فقد حكم حكما قاطعا أن الشاعرة الكبيرة الراحلة لم تتأثر بالشعر العربي، وإنما تأثرت بالشعر الأوروبي دون سواه، حيث قال بالحرف الواحد: كانت نازك الملائكة نموذجا متفردا لما يُعرف بالرومنطيقية في الآداب العالمية والتي كان جُلّ عطائها الشعري متماهيا بالروح ذات الوهج الملائكي والنغمات التي تذكر ب وردزورث وشيلر و بايرون ولامارتين في الشعر العالمي.. أولئك هم آباؤها ولا أبوة لها في الشعر العربي .

لست أدري حقا كيف أصدر شوقي عبدالأمير هذا الحكم القاطع، وهو حكم غير صحيح بالمرة، لا فيما يتعلق بنازك الملائكة وحدها، وإنما فيما يتعلق كذلك بأبناء جيلها من الشعراء العرب الذين كانوا روادا في حركة الشعر الحر، ومن هؤلاء بدر شاكر السياب، ويبدوا أن هناك من يحبون أن يلعبوا أدوار القضاة دون أن يطلعوا على أوراق القضايا التي يعلنون بشأنها أحكامهم القاطعة!.

في ذكرى رحيله عن عالمنا

السياب.. رحلة قصيرة مثقلة بالعناء والبحث عن الانتماء

ما بين ميلاده في العراق ورحيله عن عالمنا في الكويت لم يقدر لبدر شاكر السياب أن يعيش أكثر من ثمان وثلاثين سنة، فقد ولد في قرية جيكور وهي قرية قريبة من البصرة جنوب العراق عام ١٩٢٦م، ورحل عن عالمنا وهو على فراش المرض بالمستشفى الأميري بالكويت يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٦٤م، وها هي السنوات تمر لتطل علينا ذكرى غيابه الرابعة والثلاثون، بينما تطبق الوحوش الأجنبية على عراقه وعراقنا الغالي الحبيب في محاولة منها لقهر إرادة أبناء شعبه الذي قدم للحضارة الإنسانية إسهامات عظيمة لا يستطيع أن ينكرها غير الجاحد والحاقد.

وإذا كان العراق الغالي الحبيب يعاني منذ عدة سنوات من وطأة الحصار الأمريكي الغادر والجائر، فإن بدر شاكر السياب ظل طيلة حياته القصيرة يعاني أشد المعاناة، ذلك لأن حياته بسنواتها الثماني والثلاثين لم تكن سوى رحلة قاسية وقصيرة مثقلة بالعناء ومحاولة البحث عن الانتماء من خلال التفتيش عمن يرضون أن يتبنوه ويحتضنوه،حتى لو كان هؤلاء من ذوي الميول والاتجاهات المتعارضة والمتناقضة، وهذا ما يتضح لكل من تابع أو يتابع تلك الظروف المأساوية التي انعكست بكل قسوتها وجبروتها على روح إنسان مرهف، وشاعر لا يملك غير الكلمة الجميلة المؤثرة التي يطلقها في هيئة استغاثات ضارعة لغريق يصارع الموج،بينما يتلهى الآخرون بأن يتفرجوا على هذا الصراع البائس المرير.

واجه بدر شاكر السياب أول شرخ من الشروخ النفسية العديدة التي تزاحمت عليه عندما غابت عنه أمه غيابا نهائيا برحيلها عن الدنيا وهي في الثالثة والعشرين من عمرها عام ١٩٣٢م وكان هو في السادسة من عمره عندما ذاق مرارة طعم اليتم، لكن جدته التي كانت تحنو عليه حنوا رقيقا ظلت تحاول أن تخفف عن الطفل اليتيم مرارة ما يشعر به، إلى أن غابت هي الأخرى عن الدنيا عام ١٩٤٢م، فكتب السياب – ضمن إحدى رسائله – رسالة مؤثرة إلى صديقه الشاعر خالد الشواف يقول فيها:

«... أفيرضـى الزمن العاتي.. أيرضـى القضـاء أن تموت جدتي أواخر هذا الصـيف، فحُرمت بذلك من آخر قلب يخفق بحبي ويحنو عليَّ؟.. لقد أصـبحت الآن أشـقى من ضمت الأرض..».

ظلت مشاعر اليتم والفقد تسيطر على بدر شاكر السياب طيلة حياته منذ أن فقد أمه ثم فقد جدته، وكانت هذه المشاعر التي لم يستطع أن يفلت منها هي التي دفعته إلى التماسها عند زميلاته في الدراسـة، وإلى اختراع العديد من قصـص الحب الرومانسـي بينه وبين بعضهن، وإلى توهم أن كثيرات منهن يفكرن في أمره ويتجادلن حول شعره، على نحو ما يتبين في قصيدته «ديوان شعر».

ديـوان شـعـر مـلـؤوه غـزلُ	**بـيـن الـعـذارى بـات يـنـتـقـلُ**
أنفاسـي الحرى تهيم على	**صـفحاته.. والحب والأملُ**
وستلتقي أنفاسـهن بها	**وتـحـوم في جـنـبـاتـه الـقُـبَـلُ**

والواقع أن قصـة الحب الوحيدة والحقيقية بين السـياب وإحدى زميلاته بدار المعلمين العليا ببغداد هي قصته مع الشاعرة لميعة عباس عمارة، لكن هذا الحب لم يثمر عن الزواج كما كان الشاعر يود، وذلك لأسباب عديدة من بينها اختلافهما في الدين فهو مسلم سني وهي صابئية والتفاوت الطبقي بين أسرته وأسرتها، فقد عاش السياب فقيرا أما لميعة فقد عاشـت وما زالت حياة مترفة منعمة، حيث تقيم منذ سـنوات عديدة في الولايات المتحدة الأمريكية.

وظل بدر شاكر السياب يبحث عمن يخفف عنه مشاعر اليتم والفقد بعد ذلك، حيث أخذ يبحث عمن يتبنونه داخل الحزب الشـيوعي العراقي أثناء انخراطه فيه، وإلى التعلق بالدكتور سـهيل إدريس أثناء علاقته بمجلة «الآداب» البيروتية عندما كان قريبا من صفوف البعثيين بوجه خاص والقوميين بوجه عام، وإلى التعلق بأدونيس ويوسف الخال أثناء ارتباطه بمجلة «شعر» ذات الاتجاه الانعزالي المعادي للعروبة، وإلى التعلق بسيمون جارجي أثناء ارتباطه بمنظمة «حرية الثقافة» التي كانت تمولها – دون أن يدري – وكالة المخابرات الأمريكية، فكل هذه العلاقات والارتباطات المتناقضـة يمكن إرجاعها إلى طبيعة السياب القلقة والباحثة عن انتماء ما، بحكم فقره الشديد من جهة وبحكم

إحساسه الحاد باليتم والفقد ومحاولته لإيجاد من يتبنونه مهما تكن اتجاهاتهم متعارضة تماما. ولم يكن غريبا أن يستنجد السياب بعبد الكريم قاسم الذي كان يسمي نفسه «الزعيم الأوحد» لكي يدفع له مبلغا من المال،ييسر له فرص العلاج من مرضه العضال، ثم أن يكتب قصيدتين يعرب فيهما عن ابتهاجه بمقتل عبد الكريم قاسم أمام عيني مساعده عبد السلام عارف الذي انقلب عليه.

كان بدر شاكر السياب هو الرائد الحقيقي لحركة الشعر الحر، لكنه خاض عدة معارك أدبية مع الشعراء من أبناء جيله لتأكيد أحقيته بالريادة وتشهد مجلة «الآداب» ورسائل شخصية عديدة على معاركه مع كل من نازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي، وصلاح عبد الصبور، وهي معارك غلب عليها الطابع الشخصي في الكثير من جولاتها، بينما حاول صلاح عبد الصبور أن يجعلها ذات طابع موضوعي.

ولو أننا عدنا لقراءة رسائل السياب الشخصية التي كان يرسلها لأصدقائه أو للذين يتوسم فيهم أن يساعدوه ويساندوه في محنته، وهي رسائل مؤلمة حقا، يتضح لنا كيف كان أحد شعرائنا العرب الكبار يعيش حياته وهو يواجه أصعب الظروف وأحلك المواقف، ومن بين هذه الرسائل رسالته التي يتحدث فيها عن قرب حلول عيد الفطر، بينما لا يستطيع أن يقتني أو يشتري لأطفاله ملابس جديدة، يفرحون بها أمام أقرانهم الصغار.

أيها الشاعر الكبير.. الغائب – الحاضر.. إذا كنت قد عانيت طيلة حياتك القصيرة ثم استرحت، فإن أبناء وطنك الغالي العراق ما زالوا يعانون من تجبر الطغيان الأمريكي ومن العجز العربي عن مساعدتهم، لكنهم لم يستكينوا ولن يستكينوا، وسينهضون من جديد، ليواصلوا إسهامهم في الحضارة الإسلامية وقد يتذكر بعض منهم الآن ما قاله ناظم حكمت:

إن أجمل الأطفال

من لم يولد بعد

وأجمل أيامنا

لم نعشها بعد

وأجمل ما أود أن أقوله لك

لم أقله بعد



أخوه مصطفى يؤكد: وفيقة صورة للأم الراحلة وليست حبيبة

السياب.. من العراق إلى كل أرض عربية بدر شاكر

لم يكتب أحد أية دراســة متكاملة عن الشــاعر العراقي – العربي العظيم بدر شــاكر الســياب خلال حياته القصــيرة التي لم تزد على ثمان وثلاثين ســنة، منذ أن ولد في قرية «جيكور» جنوب العراق ســنة ١٩٢٦ إلى أن رحل عن عالمنا – وهو في المســتشــفى الأميري بالكويت – يوم ٢٤ ديســمبر ســنة ١٩٦٤ – وفيما بعد، تتابعت الدراســات وتوالت كأن هناك ســباقا محموما قد جرى بين النقاد والشــعراء والصــحفيين العرب، وكانت صــافرة البداية يوم أن رحل الشــاعر العظيم عن عالمنا، ولا يزال هذا الســباق ممتدا حتى الآن، وكأنه بمثابة تكفير عن جريمة، شارك فيها الجميع.

لو اكتفيت الآن بذكر بعض الأ سماء التي كتب أ صحابها عن الـسياب، فلابد أن أذكر في البداية المحامي العراقي محمود العبطة، لأن دراســته «بدر شــاكر السـياب والحركة الشــعرية الجديدة في العراق» هي أولى هذه الدراســات على الإطلاق، ويرجع تاريخ صــدورها على وجه التحديد إلى يوم ١٥ فبراير ســنة ١٩٦٥، وكما قلت فقد تتابعت الدراســات وتوالت، وأهمها – في تقدير المهتمين من الباحثين – دراســات كل من د. إحـسان عباس ود. عيـسى بلاطة وكاتب هذه الـسطور. وفيما يتعلق بي، لابد أن أ شيد، وأن أ شير إلى فضل دراسة محمود العبطة على كل الدارسين الذين ا ستطاعوا الحصول عليها، لأنها قدمت الأرضــية الصــلبة والخصــبة لملامح الحركة الشــعرية الجديدة في العراق، أما الذين لم يقدر لهم أن يقرؤوا تلك الدراسة، فإنهم – في تقديري – قد خـسروا كثيرا، وهذا ما يتضح لمن يتابع ما قدموه من دراسات تالية عن الشاعر العظيم.

أود – ونحن في أجوا الذكرى الثالثة والأربعين لغياب الـشاعر العظيم – أن أتـساءل: هل استطاعت الدراسات التي صدرت، رغم كثرتها ووفرتها، أن تكشف عن كل كبيرة وصغيرة فيما يتعلق بحياته وبعطائه الشــعري، أم أن الأرض لا تزال قابلة لاكتشــاف الجديد في أعماقها؟ وعلى الفور أبادر فأقول إن الجديد لم يتحقق بصــورة نهائية مطلقة، وعلى ســبيل المثال، فإن السياب كان قد أصدر كتاب «قصائد مختارة من الشعر العالمي الحديث» وحتى الآن لم يقدم أي باحث عربي دراسة دقيقة تبين مدى تأثر السياب بتلك القصائد التي ترجمها

عن اللغة الإنجليزية، وتضم – ضمن ما تضم – قصائد لإليوت وناظم حكمت وإزراباوند وربندرانات طاغور وإيديث سيتويل وستيفن سبندر وسواهم.

وفيما يتعلق بقضية ريادة الشعر الحر في وطننا العربي الكبير فإن أهواء الباحثين وأمزجتهم وانتماءاتهم القُطْرية لا تزال تتحكم فيهم، وكل منهم يتصور أنه يمتلك الحقيقة المطلقة التي لا يعرفها سواه، أما الحقيقة البسيطة والجميلة فإنها تتمثل فيما قاله الشاعر الشيخ مبارك بن سيف آل ثاني، حيث أكد أن التسابق على الريادة الأدبية أو الفنية أمر يختلف تماما عن المسابقات الرياضية، التي قد يتم الحسم فيها بفارق ثوان معدودات، وليس دقائق، بينما الريادة في الأدب والفن تتطلب مناخا جماعيا يتقبل تلك الريادة على يد شخص واحد أو عدة أشخاص في أزمنة متقاربة، لكنها لا تحسب بالدقائق والثواني.

وهنا أقول – بوضوح – إن هناك كثيرين من الشعراء العرب قد سبقوا كلا من بدر شاكر السياب ونازك الملائكة في ريادة الشعر الحر، وعلى سبيل المثال، فإن للدكتور أحمد زكي أبو شادي قصيدة بعنوان «الفنان» وقد كتبها سنة ١٩٢٦، أي في نفس السنة التي ولد فيها السياب، بينما كان عمر نازك الملائكة وقتها ثلاث سنوات، وهناك مسرحية شعرية كاملة مكتوبة وفقا لنهج الشعر الحر، وهي ترجمة علي أحمد باكثير لمسرحية شكسبير الشهيرة «روميو وجولييت» وقد صدرت سنة ١٩٤٧، وفي مقدمتها يقول باكثير: «.. وبعد فقد مضى على ترجمتي هذه زهاء عشرة أعوام، وما زلت أعتقد أن هذه الطريقة في النظم هي أصلح ما يترجم به شكسبير إلى الشعر العربي..». ومن الطريف هنا أن أشير إلى ما يؤكد أن ترجمة باكثير كانت متداولة وشائعة، وليست مخبوءة في قمقم، أن فيلم «غزل البنات» يبدو فيه نجيب الريحاني، وهو يقرأ أبياتا من ترجمة باكثير، بعد أن أصبح عاشقا – ولو بالوهم – لليلى مراد!

أتذكر هنا أيضا أن مهرجان المربد سنة ١٩٨٥ في العراق كان من أضخم المهرجانات الشعرية وأكثرها احتشادا بالشعراء العرب الذين ينتمون لأقطار عربية متعددة، وقد شارك فيه وقتها الشاعر الشيخ مبارك بن سيف آل ثاني الذي نظمت له خصيصا رحلة بحرية في « شط العرب» عند وصولنا إلى البصرة، بينما انطلقت أنا – وكنت وحدي – لزيارة بيت بدر شاكر السياب في البصرة، ولقيت حفاوة رائعة من السيدة «إقبال» زوجته ومن ابنتيه «غيداء» و«آلاء» كما أتيح لي أن أكتشف – بسرعة – قصيدة بخط السياب ليست منشورة في

أي ديوان من دواوينه حتى الآن، وقد سمحت لي الأسرة الكريمة بأن أقوم بتصوير هذه القصيدة، فكان لا بد من الانطلاق إلى فندق «شيراتون البصرة» المشيد على طريقة «الشناشيل» لكي أصور نسخة من القصيدة، لا أزال أحتفظ بها حتى الآن، كما أتيح لي قبل زيارتي للبصرة وبعدها أن ألتقي عدة مرات مع «شاعر الشعب» الشيخ محمد صالح بحر العلوم، صاحب القصيدة الثورية الجريئة «أين حقي؟» وهي القصيدة التي تأثر بها شعراء عراقيون كثيرون، من بينهم بدر شاكر السياب فيما كتبه من قصائد ثورية خلال مرحلة التزامه الماركسي وانضوائه تحت لواء الحزب الشيوعي العراقي.

هذا بعض ما كان سنة ١٩٨٥، أما في هذه السنة سنة ٢٠٠٧ التي توشك على الغروب، فإني تلقيت رسالة رقيقة من الصديق «علي السياب» ويهمني هنا أن أقتطف سطورا من هذه الرسالة، نظرا لأهميتها، حيث يقول علي السياب: «... أستاذ حسن.. بعد أيام قليلة تمر علينا ذكرى رحيل عمي المرحوم بدر شاكر السياب، ولا أعرف إن كنت قد سمعت برحيل أخيه الصغير – العم مصطفى السياب – قبل عدة أشهر، وبالضبط بتاريخ ٥/٨/٢٠٠٧ علما أني لم أحضر مجلس العزاء بالعراق، وذلك لصعوبة الوصول إلى منطقتهم المضطربة مما جعلني أقدم واجب العزاء إلى ولده «رائد» عبر الهاتف، ولقد دار الحديث حول أمور عدة، من أهمها رغبة العم مصطفى السياب وقبل رحيله أن يوضح أمرا مهما كان يلح عليه، وقد عرفت ذلك من ولده رائد، وهو ما يخص المرحوم العم بدر السياب وعلاقته بوفيقة حيث ذكر لي أنه كان يود أن يعلن بأن بدر السياب لم يكن يحب وفيقة كما ذكر في السابق، وأنه رحمة الله عليه كان يود أن يوضح ذلك ولعدة مرات عبر الإعلام فلم يتسن له ذلك إلى أن وافاه الأجل، حيث نقلت القصة عن لسان العم المرحوم مصطفى كالآتي: إن وفيقة كانت تكبر بدر بأربعة أعوام، وهي من أقاربه، حيث إنها ابنة صالح السياب أحد أقاربنا وكانت متزوجة، وقد انتقلت إلى جوار ربها وهي شابة وتركت أربعة أطفال أيتام، بالضبط مثل والدة الشاعر «كريمة السياب» التي انتقلت إلى جوار ربها وهي شابة، وتركت ثلاثة أيتام. لذلك كان بدر يرى في وفيقة صورة الأم الراحلة وليست الحبيبة كما كان معروفا أو كما نقل في الكتب التي تناولت حياة بدر السياب..».

وبالطبع، لابد لي أولا أن أشكر «علي السياب» على اهتمامه بأن ينقل لي ما عرفه، ولابد – من ناحية ثانية – أن تكون لي وقفة متمهلة مع «وفيقة» التي وردت بالاسم مرات عديدة في قصائد الشاعر العظيم، وإن كنت متأكدا تماما من أن وفيقة كانت – بالفعل – صورة لأم الشاعر الراحلة، ولم تكن إحدى حبيباته اللواتي كتب عنهن، ومن أشهرهن الشاعرة لميعة عباس عمارة التي كانت تسمي بدر «النبي الوديع».

على امتداد سنوات حياته القصيرة، انتقل الشاعر العظيم من «جيكور» – القرية الصغيرة الوادعة في لواء أبي الخصيب بالبصرة – إلى بغداد – العاصمة العربية العريقة التي اكتسحها المغول، ثم زالوا، وها هم المغول الجدد – الغزاة الأمريكان – يذوقون فيها الويلات منذ أن ارتكبوا جريمة احتلالهم لها اعتبار من يوم ٨ أبريل سنة ٢٠٠٣، وهي الجريمة التي لم يشهدها السياب بطبيعة الحال، ولو أنه كان حيا إلى الآن، ورأى ما رأى لكان قد كتب أروع قصائد العشق للوطن الغالي – العراق،ولست أقول هذا لأنتقص من شعراء العراق الذين كتبوا و مازالوا يكتبون ضد هذا الاحتلال الأمريكي الأحمق والأخرق، وفيهم شعراء كبار من أمثال عبد الرزاق عبد الواحد و سعدي يوسف وحميد سعيد و سامي مهدي، لست أقول ما قلت لأنتقص من مكانة هؤلاء، وإنما لأتساءل:أما زلنا نحتاج لشعر الالتزام بقضايا الوطن كما شهدناه وتابعناه وقرأناه عند بدر شاكر السياب، أم أن مفهوم الشعر قد تغير؟

من العراق انطلق بدر شاكر السياب إلى كل أرض عربية، ولا تزال «أنشودة المطر» و«غريب على الخليج» و«المسيح بعد الصلب» و«النهر والموت» وسواها من روائعه، تتردد على ألسنة عشاق الشعر العربي ومتذوقيه، وإذا كان هذا الشاعر العظيم قد تقلب في ميادين السياسة إلى درجة التناقض، فإن صوته الشعري سيظل باقيا وخالدا متجددا، لأنه الصوت الأقوى والأعمق والأصدق.. ويا بدر.. دمت متجددا.. «ففي الليلة الظلماء يفتقد البدر».

بلند الحيدري..والأصدقاء الخونة

واهمٌ كل من يتصور أنك قد رحلت عن عالمنا، فالذين أحبهم يسكنون في قلبي، ولا يمكن أن يرحلوا – مهما تمر السنوات – بعيدا عن القلب. صحيح أن جسدك قد غاب، ولن يقدر لي مرة أخرى أن أسـعى لأسـعد بلقاء جديد معك، لكنك تعرف حق المعرفة أنك لن تغيب أبدا عني ولن تغيب أبدا عن قلوب أصدقائك وأحبائك.

أستاذي الشاعر الكبير بلند الحيدري..

إني الآن أهرب من جزعي عليك إليك.. أهرب من زمني الحا ضر إلى أجواء سنوات بعيدة، قادتني مـ صادفة سعيدة منذ أن كنت صغيرا في بدايات المرحلة الجامعية إلى أول ديوان أقرأه لك، وهو ديوان «أغاني المدينة الميتة».

أتذكر أنك كنت قد أهديت نسـخة منه إلى مكتبة جامعة القاهرة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أتأمل فيها خطك المنسـق الجميل.. كان هذا عام ١٩٦١.. أما في عام ١٩٦٨ فقد تعرفت بك في القاهرة خلال مؤتمر للأدباء العرب.. تجولت معك في شوارع القاهرة، وكان معك شـاعر عربي كبير، كنت قد قرأت له أيضـا، هو الرا حل خليل حاوي.. وكان لقائي مع خليل حاوي هو اللقاء الأول والأخير. أما أنت يا أسـتاذي ويا صـديقي فقد التقيت معك بعد هذا اللقاء عدة مرات.. رغم اختلاف المكان والزمان.. التقيت بك في بغداد عام ١٩٨٠.. والتقيت بك في فاس عام ١٩٩٤.. والتقيت بك في لندن عام ١٩٩٥.

وكنت أكتب لك وتكتب لي.. وكنت أتابع بحب وإعجاب كل ما تجود به موهبتك الفذة المـ صقولة بثقافة عميقة متـ شعبة الأطراف.. لم تكن تحب الـ شعر وحده وإنما كنت تحب الشعر والفن التشكيلي والموسيقى، لدرجة أني كنت أتصور أن هذه الفنون تتعانق في أعماقك وتسري مع الدم في عروقك.

أحببتك شـاعرا كبيرا وأصـيلا منذ أن قرأت لك وتعلمت منك مثلما تعلمت من شعراء كبار آخرين من أبناء جيلك.. وأحببتك إنسانا رائعا ونبيلا منذ أول لقاء لي معك.

منذ أن زلزلتني دوامة النبأ الفاجع.. تذكرت أحمد شـوقي وهو يرثي حافظ إبراهيم، متفجعا على ما كان له من سمات المحبة الوفاء والإنصاف:

قد كنت أوثر أن تقول ر ثائي　　　يا منصـفَ الموتى من الأحياءِ

لكنْ سبقتَ، وكل طول سلامة　　　قـدر، وكـل مـنـيـة بـقضـــاءِ

الحق نادى فاستجبتَ ولم تزل　　　بالحق تحفل عند كل نداءِ

زلزلتني دوامة النبأ الفاجع.. أخذت أعزي النفس بتقليب أوراق رسـائلك وإعادة قراءة دواوينك والبحث عن صورك التي سلمتني إياها و صورك التي كنت قد التقطتها لك.. وليتني ما كنت بحثت.. فهناك صور عديدة، عصفت بي هي أيضا.. صور لأدباء ونقاد وشـعراء ممن أحبهم، لكنهم غابوا مثلك عن عيني ولن يقدر لي أن ألقاهم مرة أخرى من جديد. هذا صـلاح عبد الصـبور أمامي.. إن ذكرى غيابه عني وعن محبيه الكثيرين تحل هذه الأيام، فقد غاب عنا يوم ١٤ أغسـطس عام ١٩٨١.. وهذا أمل دنقل.. وهذا د. علي شلش.. وهذا.. وهذا.. وهذا..

لجأت إلى محمود درويش.. لمحمود درويش قصيدة مطولة رائعة يصور فيها حزنه على أصدقائه الذين يرحلون، واحدا في إثر آخر، وهو يطالبهم بأن يعيشوا ولو سنة أخرى فقط، حتى يؤنسوا وحدته.. القصيدة بعنوان «سنة أخرى.. فقط».

أصدقائي شهدائي

فكروا فيَّ قليلا

وأحبوني قليلا

لا تموتوا مثلما كنتم تموتون، رجاء، لا تموتوا

انتظروني سنة أخرى.. سنة

سنة أخرى فقط

ما الذي أفعله من بعدكم؟

ما الذي أفعله بعد الجنازات الأخيرة؟

ولماذا أعشق الأرض التي تسرقكم مني..

... ومن فرط الحزن عليهم، يصف محمود درويش أصدقاءه بأنهم خونة، لأنهم يتركونه يعاني من بعدهم:

فإذا أنتم ذهبتم أصدقائي الآن عني

وإذا أنتم ذهبتم

وأقمتم في سديم الجمجمة

لن أناديكم وأرثيكم

ولن أكتب عنكم كلمة

فأنا لا أستطيع الآن أرثي أحد

بلدا في جسد..

أو جسدا في طلقة..

أو عاملا في مصنع الموت الموحد

لا أحد

لا أحد...

وليكن هذا النشيد

خاتم الدمع عليكم كلكم يا أصدقائي الخونة

ورثاء جاهزا من أجلكم..

أتذكر الآن أن الصديق الكاتب القاص حسن رشيد كان يزورني في القاهرة، وفجأة وجدته يهجم على أحد دواوينك يا أستاذي ويا صديقي.. لكي ينقل منه قصيدة أحبها منذ قرأها وهي منشورة في إحدى المجلات.. كانت قصيدتك التي أخذ حسن رشيد

يترنم بها بعد أن نقلها بخط يده، هي قصيدة «شيخوخة» التي تصور وحشة الإحساس بالعزلة والرغبة في التواصل الذي يبعد هذا الإحساس عن النفس:

شتوية أخرى.. وهذا أنا

هنا بجنب المدفأة

أحلم أن تحلم بي امرأة

أحلم أن أدفن في صدرها

سرا.. فلا تسخر من سرها

أحلم أن أطلق في منحنى

عمري سنى

هنا بجنب المدفأة

شتوية أخرى.. وهذا أنا

أنسج أحلامي وأخشاها

أخاف أن تسخر عيناها

من صلعة حمقاء في رأسي

من شيبة بيضاء في نفسي

أخاف أن تركل رجلاها

حبي.. فأمسي أنا

هناك جنب المدفأة

ألعوبة تلهو بها امرأة

شتوية أخرى وهذا أنا

وحدي..

لا حب.. لا أحلام.. لا امرأة

عندي

وفي غد أموت من بردي

هنا بجنب المدفأة

.. أستاذي.. وصديقي.. بلند الحيدري

واهم كل من يتصـور أنك قد رحلت عن عالمنا، فالذين أحبهم يسـكنون في قلبي.. وأنت – شاعرا وإنسانا – من أنقى وأرق وأغلى الأحباب.



البياتي .. عاشق الحياة الذي طحنته الغربة

عبد الوهاب

هل تستطيع الكلمات أن تتماسك وأن تترابط لكي تفضي إلى معنى واضح إذا فاجأك الآخرون بأن أحد أحبائك الكبار قد غاب غيابا نهائيا عنك وعمن حوله من الأحباب والأصدقاء وعن الحياة ذاتها؟.. هذا ما أحسست به عندما تلقيت النبأ الذي زلزل كياني بعنف، نبأ غياب الشاعر الرائد العظيم عبد الوهاب البياتي، فقد غامت الكلمات أمام عيني وتحولت الحروف إلى أشباح غامضة مبهمة تتصبب حزنا ولوعة، وكل ما أصبحت أردده لنفسي بعد تلقي هذا النبأ الفاجع الذي زلزلني: أحقا أني لن أسعد ولو مرة واحدة بلقاء صديقي وأستاذي عبد الوهاب البياتي بعد الآن؟

أيها الإنسان الجميل.. أيها الشاعر الذي أخلص للشعر واحترم رسالة الكلمة.. يا صديقي.. يا أستاذي الكبير عبد الوهاب البياتي.. لقد كنت أنطلق من هنا، من الدوحة للمشاركة في المهرجانات والملتقيات الأدبية التي تعقد في عواصم ومدن أقطار أمتنا العربية، وبي شوق جارف مكنون إلى لقياك خلال أيام وليالي تلك المهرجانات والملتقيات، وكنت أشعر بالفخر حين يأتي الأصدقاء قائلين لي: الأستاذ البياتي يبحث عنك،كما كنت أشعر بالفرح وبالحيوية والحماسة حين أسعد بلقاء تلو لقاء، أما حين كنت أعرف أنك قد اعتذرت عن عدم المشاركة، فإن الحسرة كانت ترافقني طيلة أيام المهرجان أو الملتقى لأنك غائب عني وعنه.. ولم يكن هذا شعوري وحدي، بل كان شعور جميع الذين يحبونك ويقدرونك حق قدرك من الأدباء والشعراء العرب الذين كانوا يتحلقون حولك ولا يسعدون من الأعماق إلا إذا كنت ساهرا معهم في ليالي المهرجان أو الملتقى الأدبي.. هل غبت حقا؟.. ألن أراك؟.. ألن يراك أحبابك الكثيرون الذين يتوزعون في المدن العربية.. من بغداد إلى القاهرة.. ومن دمشق إلى فاس.. ومن صنعاء إلى الجزائر، إلى جنب أولئك الذين ألقت بهم دوامات الغربة بعيدا عن أرض أمتهم العربية ممن يتوزعون في مدريد ولندن وموسكو وبراغ.

كنت أعرف تماما يا أ ستاذي الغالي أن الغربة تطحنك وأن شوقك إلى دجلة والفرات شـوق بغير حدود خاصـة في السـنوات الماضـية الأخيرة،ولكنك بكبرياء الفنان كنت تداري عنا ما يجتاحك من شوق، بينما كنا نحن أحبابك نشعر به وهو يتسلل فجأة.. من خلال كلمة عابرة.. أو دمعة تحرص أنت أن تخفيها بأسـرع ما يكون قبل أن يلحظها الآخرون.. وأعتقد الآن أن الغربة كان بمقدورها أن تطحنك منذ عدة سنوات، لولا أنك كنت العاشق المتجدد للحب وللحياة.

في بغداد.. كنت تحمل في قلبك بغداد.. وبعيدا عن بغداد كنت تحملها وتتحمل إلى أقصى حدود التحمل، على الرغم من أنك كنت تعشق مدنا عربية أخرى غير بغداد، من بينها القاهرة التي شـهدت أولى لقاءاتي معك منذ عام ١٩٦٣ عندما كنت طالبا جامعيا، وكنت أنت أحد النجوم الكبار الذين تزدان بهم سـماؤها الرحبة ولياليها السـاهرة الساحرة.

في بغداد.. وبعيدا عن بغداد.. كانت بغداد في قلبك الكبير.. وها أنت الآن تعود بروحك كما عادت «عائشـة» التي لا نعرفها إلا من قصـائدك الجميلة عنها.. ألم تقل في ديوان «الموت في الحياة» الذي أصـدرته عام ١٩٦٨ هذه السـطور في أولى قصـائد هذا الديوان..

عائشة عادت إلى بلادها البعيدة

قصيدة فوق ضريح، حكمة قديمة

قافية يتيمة

صفصافة تبكي على الفرات

عارية الأوراق

تصنع من دموعها، حارسة الأموات

تاجا لحب مات..؟

لقد كنت أنت نفسك – لا عائشة وحدها – صفصافة عارية الأوراق.. صفصافة لا تبكي على الفرات، وإنما بطول أرض العراق تبكي.. تبكي بالدموع أحيانا، وتبكي معظم الأحيان بالصمت المفعم بالكبرياء.

لا أستطيع الآن أن أمتع نفسي من التساؤل الملحاح: هل أصبح قدر الشعراء العشاق من أبناء العراق أن يرحلوا عن عالمنا وهم بعيدون عن دجلة والفرات.. عن البصرة والكوفة والنجف و سامراء وبغداد؟ لقد رحل بدر شاكر السياب عن عالمنا عام ١٩٦٤ وهو في الكويت.. وغاب حبيبي وأستاذي الجميل بلند الحيدري وهو في لندن.. وشاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري رحل عن عالمنا وهو في دمشق.. وحتى الآن لم يسترح جثمانه في النجف كما كان يشتهي ويود.. وها أنت الآن.. يا صديقي.. يا أستاذي.. ترحل في دمشق، وفي قلبك بغداد التي لن تراها ولن تراك.

في أكتوبر عام ١٩٩٨ كنت أسعد مع الصديق الكاتب اللبناني إسكندر داغر بلقاءات عديدة معك بمدينة «جونية» وخلال أحد اللقاءات سألتني أنت عن رأيي في ديوانك الجديد «البحر بعيد.. أسمعه يتنهد» فقلت لك – بعد تردد شديد – إن قصيدتك في رثاء بلند الحيدري وهو من أبناء جيلك ومحمد مهدي الجواهري وهو أحد أساتذتك قد هزتا الأوتار الحزينة في نفسي.. ولم أشأ أن أتحدث أكثر من هذا عن هاتين القصيدتين اللتين أحسست فيهما كأنك – وأنت العاشق الكبير للحياة – تخبئ فيهما نبوءة إحساسك بأنك ستغيب لتلحق بهما.. من الغريب حقا أن أتذكر كيف أني عدت أنشر قصيدتك في رثاء الجواهري في جريدة «الراية» في الذكرى الثانية لغيابه عن عالمنا.. وها أنا أعود الآن إلى رثائك لصديقك وابن جيلك بلند الحيدري.. حيث قلت أنت:

ننجو من الموت إلى الموتِ

ويسدل الستار في صمتِ

حديقة الشتاء في عريها

«قديسة» قلت لها: أنتِ

صمدت في وجه رياح البلى

وخانك النهر وما خنتِ

كان شتاء موحشا قاسيا

من بعده الربيع لم يأتِ

وهأنذا أعود إلى ديوان « سفر الفقر والثورة» الذي أ صدرته أيها الشاعر الرائد المعلم عام ١٩٦٨ والذي يضـــم العديد من قصـــائدك التي أحبها وكنت أحفظها، من بينها «إلى عبد الناصـــر الإنســـان» و«رحلة حول الكلمات» و«قصـــيدتان إلى ولدي علي».. وها أنا أتوقف لأتذكر فرحتك بابنك «علي» وأنت تقدمه لي ذات يوم من أيام عام ١٩٨٥ في بغداد.. وقتها قلتُ لعلي: إنني أعرفك تماما فأنا أحفظ عن ظهر قلب القصـــيدتين اللتين كتبهما عنك والدك العظيم منذ ع شرين سنة.. وأعود الآن – ول ست أدري أين علي؟ – إلى إحدى هاتين القصيدتين حيث يقول الأب المغترب لابنه البعيد:

مدنٌ بلا فجرٍ تنام

ناديت باسمك في شوارعها فجاوبني الظلام

وسألت عنك الريح وهي تئن في قلب السكون

ورأيت وجهك في المرايا والعيون

وفي زجاج نوافذ الفجر البعيد

وفي بطاقات البريد

***

أهكذا تمضي السنون

ويمزق القلب العذاب؟

ونحن من منفى إلى منفى ومن باب لباب

نذوي كما تذوي الزنابق في التراب

فقراء، يا قمري، نموت

وقطارنا أبدا يفوت..

وفي فبراير عام ١٩٩٩ كنت أسـعد مع كثيرين من أحبابك بأنك بيننا للمشـاركة في مؤتمر «كتاب في جريدة» بالقاهرة.. كنت تبدو أكثر حزنا، لكن عشـقك للحياة كان يدفعك لأن تظل سـاهرا معنا إلى ما قبل انبثاق الفجر. وكأنك لم تكن تريد الذهاب إلى غرفتك لكي تستريح وتنام طالما أننا نتحلق من حولك.

الآن.. هل أستطيع أن أسافر للمشاركة في مهرجانات وملتقيات أدبية وأنا أعرف أني لن ألقاك خلالها؟.. سأسافر برغم الحسرة.. سأسافر لأني تعلمت منك محبة الحياة يا عاشق الحياة الذي طحنته الغربة الملعونة القاسية.



البياتي في (ينابيع الشمس)
في القاهرة تغيرت حياتي لأن الأفق الثقافي كان أرحب

عبد الوهاب

على امتداد سنوات حياته، تنقل الشاعر الكبير عبد الوهاب البياتي بين مدن عديدة من مدن العالم ، عربية وغير عربية، وقد حرصت – هنا – أن أقدم ملامح القاهرة كما رسمها البياتي في كتابه الذي سماه «في ينابيع الشمس»، ونبدأ الرحلة معه الآن في القاهرة التي يرى أنها قد غيرت حياته، لأن أفقها الثقافي كان أرحب..

***

بعد أن كان القلق يسيطر على حياتي في دمشق قررت أن أرحل إلى مصر وكان ذلك عام ١٩٥٦، وفي تلك الأثناء زار دمشق وفد برلماني كبير، وكان معهم بعض الصحفيين والكتاب من مثل عبد الرحمن الشرقاوي وفاروق القاضي وسواهما،وعندما عرفوا بوضعي تحمسوا لأن أذهب معهم إلى مصر،وكان جواز سفري قد انتهت مدة صلاحيته وامتلأت صفحاته، ولهذا كلم الأستاذ الخميسي رئيس الوفد البرلماني عن وضعي، فوعد أن يحدث الرئيس عبد الناصر وسلطات المطار، وبهذا سافرت بعد سفر الوفد بيومين، مع الأستاذ الخميسي وبجواز سفر غير صالح تماما،ولكن سلطات المطار في القاهرة وضعت تأشيرة دخول عليه، وسمحوا لي بالدخول بشكل طبيعي.

وكتبت في القاهرة قصائد جديدة ضممتها إلى القصائد التي كتبتها في دمشق وقامت «دار الديمقراطية الجديدة» التي كان يرأس إدارتها الأستاذ محمود أمين العالم بنشرها في ديوان يحمل عنوان «أشعار في المنفى» وطبع هذا الديوان طباعة جيدة أقرب إلى طباعة ديواني الأخير «بستان عائشة»، وقام برسم غلافه ووضع رسومه الداخلية الفنان عبد الغني أبو العينين، ولا أريد أن أقدم عرضا تاريخيا بقدر ما أريد أن أمضي وراء القصائد الشعرية التي كنت أكتبها، والطريق الذي كانت تسير فيه هذه القصائد.

وفي القاهرة تغيرت حياتي، إذ أن الأفق الثقافي كان أوسع وأكبر بكثير من المدن الأخرى التي أقمت فيها، وقد استقبلني أدباء مصر الكبار والشبان بترحاب كبير، وأقيمت لي حفلات تكريم كثيرة، أذكر منها حفل «رابطة الأدب الحديث» وكان يرأسها في ذلك الوقت الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي حيث تكلم في ذلك الاحتفال الشاعر صلاح عبد الصبور، وألقى الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي قصيدة ترحيب بي، وكذلك الشاعر كمال عمار، والكاتب والشاعر مجاهد عبد المنعم مجاهد، وكان مسك الختام في الحفل قصيدة رائعة ألقاها الشاعر صلاح جاهين، واعتبرها النقاد فيما بعد من أهم القصائد التي كتبها صلاح جاهين في حياته، وكان مطلعها:

«يا عندليب ع المشنقة عشه»

كما أقيمت لي حفلات كثيرة أخرى في «دار الفكر» وغيرها من المنتديات الأدبية وأستطيع القول إنني كنت ضيفا طوال مدة إقامتي في مصر، وكنت محط الاهتمام في كافة الأجيال الأدبية هناك.

وكانت إقامتي في القاهرة في تلك المناسبة، قصيرة، انتقلت بعدها بفترة قليلة إلى دمشق مرة أخرى، ومن هناك ذهبت إلى فيينا، ومن فيينا إلى موسكو بدعوة من اتحاد الكتاب السوفييت، وفي أثناء وجودي في موسكو قامت الثورة العراقية في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨، فعدت إلى العراق عن طريق القاهرة ودمشق، وكانت الوحدة قائمة بين مصر و سوريا، ولكنني أود التحدث عن إقامتي الطويلة في القاهرة منذ عام ١٩٦٤ حتى نهاية عام ١٩٧١.

فإقامتي الثانية في القاهرة جاءت بعد إقامة طويلة لي في موسكو دامت خمس سنوات، ولهذا فإنني لم أكن هذه المرة ضيفا فحسب، بل شعرت أنني عدت إلى وطني من جديد، الذي هو الوطن العربي الكبير، وكانت القاهرة يومذاك عاصمة العرب الكبرى التي كانت تصب فيها كافة التيارات الثقافية والفنية والأدبية والسياسية، وكانت محط أنظار العالم، إذ أن قيام مصر بتأميم قناة السويس، والنضال ضد الأحلاف الأجنبية قد بوأها مكانة كبرى في العالم، وجعل كل عربي يرفع رأسه عاليا، فلأول مرة استطاع الإنسان العربي أن يفاخر بعروبته.

ساد إقامتي هذه المرة السلام والاستقرار، ووطنت نفسي على قضاء بقية أيام حياتي في القاهرة، فبدأت مشاريعي الأدبية والشعرية تظهر منذ اليوم الأول، وإذا فاتني في إقامتي الأولى أن أعرف مصر (الشعب) معرفة حقيقية، فإنني بدأت هذه المرة من قاع مدينة القاهرة، فعشت مع أناسها البسطاء الطيبين، وكتابها وشعرائها، وكنت أقف في جبهة الشعب التي لم تكن بعيدة عن جبهة السلطة الوطنية القائمة يومذاك.

ومن يتأمل ببلوغرافيا الكتب التي كانت تصدر في القاهرة في تلك السنوات يستطيع أن يعترف بضمير مرتاح، أن كافة ينابيع المعرفة قد تيسرت، وأصبحت في متناول الجميع، وأن ازدهارا ثقافيا قام هناك، وشعت أنواره على العالم العربي، بشكل لا مثيل له في تاريخ العرب، كانت القاهرة أشبه بخلية كونية يفد إليها الشعراء والكتاب والمناضلون والسياح ليحجوا إليها، ولم تعد مصر في تلك الأيام تخفي رأيها وراء الأهرامات أو تمثال رمسيس أو وادي الملوك، وإنما كانت مصر الحديثة تقف جنبا إلى جنب مع مصر القديمة ذات الحضارة العظيمة، وصار العربي المصري والعربي في كل مكان لا يفخر بالماضي فحسب، بل يفخر بالحاضر الذي كان يفتح كل الأبواب أمام إشعاع نور حضارة عربية قادمة، وبالرغم من الآمال العظيمة التي كانت تعمر بها صدور المثقفين والكتاب، كان الجزع لا يفارقهم أبدا، لأن الأعداء كانوا يحومون حول أسوار هذه القلعة التي نهضت قبيل نهاية القرن العشرين.

أتيحت لي فرصة أن أزور معظم المدن والقرى المصرية، وأن أختلط بأبناء الشعب البسطاء، وأزور المساجد العظيمة في مدينة القاهرة، وهي مساجد تنتمي إلى كل عصور تاريخ مصر الإسلامي، وكانت المقاهي تلعب دورا كبيرا في تلاقي الأدباء والشعراء من كافة الاتجاهات الأدبية والفنية والفكرية، وكانت الديمقراطية هي القانون السائد في التعامل ما بين الأدباء، فكنت ترى الأصولي يجلس بجانب اليساري، أو الاشتراكي أو الليبرالي أو المستقل، ويتناقشان كأخوين شقيقين، لأن هدف الجميع كان هو نهضة مصر والعالم العربي.

أما بالنسـبة لي، فقد كانت لي علاقات وثيقة مع مجمل الاتجاهات الأدبية والثقافية، وكنت صديقا للجميع، ولا أتدخل في شؤون أحد الشخصية، ولهذا كانوا يحبونني جدا، لأني كنت ألعب دور الصـديق والأخ، وحمامة السـلام بين الأفراد والجهات الثقافية التي كان ينشـأ فيما بينها خلاف، ولم أكن أقاطع إلا قلة قليلة من المثقفين الذين قاطعهم الشـعب المصـري نفسـه، ومثل هؤلاء القلة القليلة موجودون في كل بلد وفي كل زمان ومكان أيضا.

كنت أرتاد المقاهي هناك، بل إن معظم أعمالي الشـعرية ولدت في المقهى، أو في المجلس الأدبي، وكنت عندما أحس بأنني في حالة كتابة أترك المقهى أو المجلس، وأهيم على وجهي في الطرقات والشـوارع حتى أنتهي من كتابة العمل الشـعري، وإذا ما كنت متعبا أعود إلى البيت فورا، وأعيش حالة الكتابة هذه أحيانا لأيام طويلة، بخاصـة في حالة عدم إكمال القصـيدة في نفس اليوم أو الليلة، وكن أنقطع عن الطعام والشـراب إلى أن أنتهي من العمل حتى لو اسـتمر هذا العمل يومين أو ثلاثة، وكانت الأجواء الأدبية الخصـبة أحد مصـادر إلهامي، ففي هذه الأجواء كانت تقرأ القصـائد الجديدة، وكان يجري الحديث عن المشـاريع القصـصـية والروائية والمسـرحية الجديدة أيضـا، وكان هناك تنافس سلمي يسوده الوئام والحب من أجل الإبداع الأدبي والشعري.

وهكذا نجد أن القاهرة قد منحتني روحا جديدة، وقوة كبيرة في ا ستعادة خطواتي التي منحتها لي بغداد في بداية الخمسينات بظهور «أباريق مهشمة»، ومن خلال هذه المقارنة، وبالإشـارة إلى رأي الدكتور إحسـان عباس حول ظهور ديوان «سـفر الفقر والثورة» أسـتطيع أن أقول أن أهم مدينتين في حياتي منحتاني القدرة على التطور والخلق والإبداع وتجاوز نفسـي هما بغداد والقاهرة، ولكنني أعتبر مرحلة القاهرة أهم من مرحلة بغداد لأنها جاءت بعد عشر سنوات من ظهور «أباريق مهشمة».

وإذا أخذنا في الاعتبار الدواوين الأخرى «الذي يأتي ولا يأتي» ١٩٦٦ ثم «الموت في الحياة» ١٩٦٨، ثم «الكتابة على الطين» ١٩٧٠ والتي تعد مراحل متجاوزة لسـفر الفقر والثورة، هنا يمكن أن أقول إن وجودي في القاهرة وإقامتي فيها كان جزءا من سـيرتي الشـعرية وتجربتي، فلولا هذا الوجود، الذي لم يكن طارئا أو بالصـدفة، لما كنت أعرف إلى أين كانت ستقودني خطواتي.

القاهرة، إذن، كانت من قبل أن أولد، كما كانت بغداد أيضـا، وكان علي أن أعيش في بغداد طفولتي وشبابي الأول، وأن أعيش مرحلة النضج في القاهرة، أما العواصم والمدن الأخرى التي أقمت فيها، لقد كانت هوامش وسفوحا أو ذرى أقل سناما من هاتين المدينتين وأنا في القاهرة، لم أخطط لمرحلة تطوري الثانية، ولكن غنى حياتي واكتنازها بالمدن الأخرى التي عشت فيها، والأزمات الروحية التي عانيتها، والشعور بالغربة والنفي، ومرارة الحياة، كل هذا ولد عندي روح تمرد جديد يتخطى التمرد السابق، الذي كانت تعود أسبابه إلى عوامل سياسية واجتماعية وفنية أيضا.

عندما و صلت القاهرة، كانت المرارة تطفح في نفسي وكنت أ شعر أيضا أنني سأولد من جديد، ولكني لن أولد كإنسان أو شاعر لا يمت إلى الشاعر الأول، الذي كنته، بصلة بل سيولد من رماده شاعر جديد، والقاهرة كانت هي الأرض الصلدة التي منحتني هذا الشعور، وأعادت إلي الثقة، لا بنفسي، ولكن الثقة في التمرد والعصيان والا ستمرار، أي أنني لم أنكص على عقبي – كما يقول المثل – بل إن جذور تمردي وثورتي استمدت من الشعور الميتافيزيقي الذي يخامرني، وهو شعور يخامر كل الفنانين ابتداء من نهاية شبابهم الأول، إلى مرحلة الكهولة، ولكن هذا الشعور الميتافيزيقي لم يكن منفصلا أو قائما بذاته ولذاته، إلى مرحلة الكهولة، وإنما اختلط بالدم والعرق وبأدواتي الشعرية التي بدأت تستشعر رياح الواقع الجديد، وهو ليس واقع الكتب والنظريات والأيديولوجيات، بالرغم من أنين كنت منذ بداية حياتي كثير الشك بالكتب، وكنت أحاول أن أجرب وأقرأ كتاب الواقع لأتحقق من صدق ما تقوله النبوءات والكتب.

وفي هذه المرحلة – أيضا– رفعت الرقابة التي كنت أفرضها على إبداعي ففي داخل كل مبدع هناك رقيب سيا سي أو اجتماعي يقوم بعمله، أو يمارس هواياته، ويقطع كثيرا من الشرايين الحية للعمل الأدبي سواء أراد الشاعر أو لم يرد، من هنا ألغيت هذا الرقيب، وبدأت أكتب الشعر بغض النظر عما تؤديه جملي الشعرية من ملابسات اجتماعية أو سيا سية، أو ما شابه ذلك، ولكني أعتقد أن النضج، وو صول تكوين الشاعر إلى كماله يحميه دائما من الشطط أينما سار وأينما ذهب، ولا يظهر أثر هذه البوصلة إلا في سنوات

التكوين والنضــوج، لقد طبخت القاهرة وأنضــجت تجاربي الواقعية والماورائية وجعلت منها وحدة صلدة،ومن هنا جاء الانعطاف الخطير من قبل شبيبة تلك السنوات إلى شعري بشكل قوي.

وأذكر، على ســبيل المثال، أن شــباب القاهرة من الأدباء قد جعلوا من ديوان «الذي يأتي ولا يأتي» إبان صدوره، كتابهم الخاص، الذي كانوا يتداولونه ويقرأونه، ويتناقشون حوله في المقاهي والحارات وكل المجالس الأدبية، وقد ظهر أثر ذلك على شــكل مقالات ودراسات كثيرة كتبت عنه، وكذلك من خلال لقاءاتي الشخصية، لقد كان حدثا كبيرا، كما كان الأمر بالنسبة للديوان الذي سبقه «سفر الفقر والثورة» لأن هذا الديوان – أي «الذي يأتي ولا يأتي» – جاء ترجمة لتجربة جيلي وجيل الســتينيات الذي كان يتخبط في المتاهة ذات الألف باب، وأنا كنت من هؤلاء المتخبطين، وقد شــعرت بعد كتابته أن بصيصا من الأمل البعيد قد تسرب إلى دياجير نفسي، كما شعر القراء أيضا بذلك.

أما علاقتي بالأدباء، فكانت واســعة، فمنذ أن وصــلت القاهرة كنت أزور مكتب الدكتور لويس عوض في «الأهرام» أيام كان مسؤولا عن تحرير القسم الثقافي فيها، وقد تعرفت من خلال زياراتي له على الكثير من الأدباء العرب والأجانب، وخاصــة المستشرقين، ممن فاتني أن أتعرف عليهم من قبل. وكان الشاعر صلاح عبد الصبور يعمل مع الدكتور لويس عوض في القســم نفســه، وكان معظم الشــعراء الشــبان في ذلك الوقت، يترددون على المكتب أيضــا، أذكر منهم الشــاعر أحمد عبد المعطي حجازي، والشــاعر محمد عفيفي مطر، والشــاعر محمد إبراهيم أبو ســنة، وغيرهم. كما تعرفت لأول مرة على المســتشــرق الفرنســي المعروف جاك بيرك، وأذكر أن الشــاعر الأمريكي الكبير روبرت لويل، الذي يعده النقاد الإنجليز والأميركان بمســتوى ت. س. إليوت، وأودن، كان قد زار القاهرة لإلقاء المحاضــرات بالجامعة الأمريكية، وقد دعاني الدكتور لويس عوض ودعا صلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطي حجازي على العشاء، وكانت فرصة لنا لكي نتعرف على هذا الشاعر الذي قرأت بعض قصائده وأعجبت بها، كما كان كاتبنا الكبير نجيب محفوظ، هو أهم محطة لي في القاهرة، إذ كان يتردد في ذلك الوقت، على مقهى ريش مرة أو مرتين في الأسبوع، وكانت الحلقة التي تحيط به صغيرة في

البداية، ثم أخذت تتسع يوما بعد يوم، وقد أهديت إليه بعض دواويني الصادرة في تلك السنوات، كما أهداني هو أيضا بعض رواياته، أذكر منها «الشحاذ» و«ثرثرة فوق النيل»، وكان الأستاذ نجيب محفوظ نادرا ما يهدي كتبه، ولكن العلاقة الروحية والمودة التي انعقدت بيننا كانت هي التي تدفعه لإهداء هذه الكتب لي، وما زلت أذكر عبارة الإهداء على رواية الشحاذ التي تقول: «إلى البياتي المفتون بعبقريته»، وكان صادقا كل الصدق في إهدائه هذا.

وعندما كنت أقرأ روايات نجيب محفوظ، كنت أحاول الحضور إلى المقهى قبل أن تتسع دائرة المريدين والمعجبين، فأتوجه إلى شخصه ببعض الأسئلة التي تتعلق بأبطال رواياته، والحبكة الفنية، وقد خصصت رواية «الشحاذ» بأطول الأسئلة مني إليه نظرا لأنها كانت تمثل انعطافا جديدا في مضامين رواياته، ولأن أبطال هذه الرواية يختلفون كل الاختلاف عن أبطال رواياته الأخرى، كما تناقشت معه حول مقال كتبه أحد الكتاب المصريين عن هذه الرواية، وكان الكاتب قد استشهد بكثير من آراء بردياتيف الكاتب المتصوف الروسي.

كما كنت ألتقي ما بين الحين والآخر بالكاتب الكبير توفيق الحكيم، الذي كنت أزوره بالأهرام وكان يغرقني بكرمه ويطلب لي الشاي والقهوة من حين إلى آخر، وكلما رآني أو شك أن أنصرف يستبقيني لكي يستكمل حديثه الذي لا ينتهي معي، وعندما كنت أحكي لبعض الأصدقاء، بعد ذلك، عن كرم توفيق الحكيم، قيل لي: إن الأستاذ توفيق الحكيم هو الوحيد في «الأهرام» الذي لا يدفع ثمن الشاي والقهوة، فقد استثني بقرار من رئيس التحرير أو من هيئة أعلى والغريب أن الأستاذ الحكيم كان يتحدث لزواره، وبخاصة الأصدقاء منهم عن آرائه في أخطر القضايا، وغالبا ما تكون آراء جريئة جدا، ولكنه كان لا يكتبها في مقالاته، سواء تلك التي كانت تنشر في الأهرام، أو في كتبه، ومنها كلام عن الحرية والديمقراطية والعدالة، وعن الأوضاع في مصر والعالم العربي أي أنها كانت قريبة من الأحاديث التي يتداولها المثقفون والناس بعامة في مجالسهم الخاصة.

كما كانت لي مودة وصـداقة مع يحيى حقي، ويوسـف إدريس، وألفريد فرج، ونعمان عاشـور، وميخائيل رومان، وصـالح جودت، وأحمد رامي، والأخيران كنت ألتقي بهما في مقهى «لاباس» وكلما التقينا كان صالح جودت يدخل معي في نقاش لا ينتهي حول الشعر الحديث، وأذكر مرة أنني نشرت قصيدة عمودية من قصائد «الموت في الحياة» فاعتقد أنها مكتوبة بالتفعيلة، وأصر على أنها ليست عمودية، وبعد أن بينت له كيف أنها عمودية اكتشفت أنه لا يعرف العروض العربي مطلقا، وقد استغرب هو من معرفتي للعروض، أما أحمد رامي فقد كان لطيفا إلى أقصـى حد، وكان لا يتحدث إلا عن الحب والمرأة والنبيذ، وكان شـديد الحب لكل الناس بحيث إنني لم أسمعه مرة ينطق بأي كلمة ضد أحد.

ومن الأصدقاء في القاهرة الدكتور عبد القادر القط، والدكتور شكري عياد، والدكتور عز الدين إسماعيل، والدكتور سمير سرحان، والدكتور عبد المنعم تليمة، ومحمد مفيد الشوباشي وسواهم، بالإضافة إلى لقائي مع كل الأجيال حتى هؤلاء الذين كانوا في بداية الطريق في ذلك الوقت، ويحتلون الآن مراكز أدبية مرموقة مثل بهاء طاهر وجمال الغيطاني، وعبد الحكيم قاسم وسامي خشبة، وصبري حافظ، وغالي شكري، وسواهم كثيرون.



انتحاره
لم يكن عملاً جبانًا

خليل حاوي .. رحل الشاعر وبقي الشعر

في السادس من يونيو سنة ١٩٨٢م انطلقت جحافل التتر المعاصرين، المتقنعين بأقنعة الحاضرة، لكي يخفوا قبح نفوسهم.. انطلقت جحافل الصهاينة إلى أرض عربية لتدنسها وتشرد من أهلها من تشرد وتقتل من تقتل.. ومع الانطلاقة التترية – الصهيونية تكاثفت الظلمات في نفوس كثيرين من الإخوة العرب الذين خبروا الأمور، وأدركوا أن «المارد العربي» سيظل راقدا في تابوت الصمت، فإذا تحرك فإن حركته ستكون للشجب وللإدانة، وبعدها فلينم في تابوت صمته من جديد، لراحة باله وإراحة جسده من الصراعات التي لا تهدأ بين سائر أعضائه، التي كان من المفروض أن «تتداعى بالسهر والحمى».. إذا ما اشتكى عضو!!

وكان ممن تكاثفت الظلمات في نفوسهم فلم يستطيعوا أن يتبينوا أن النور لابد أن ينبثق برغم كل شيء.. الشاعر الكبير خليل حاوي.. فما كان منه إلا أن انسحب من الحياة ذاتها، بأن أطلق على نفسه الرصاص من بندقية صيد، ولأن خليل حاوي قيمة أدبية كبيرة من ناحية، ولأن العرب لا يحبون أن يتفقوا أبدا على شيء من ناحية أخرى.. فقد تفاوتت الآراء واحتدمت المناقشات حول دوافع الفعل الذي أقدم عليه خليل حاوي، منهيا بذلك أي فعل آخر كان يمكن أن يقوم به.. وأعني فعل «الانتحار».

ومن هذا المنطلق ، أرى أنه من الواجب أن أناقش ما أورده الزميل نبيل خالد الأغا سكرتير تحرير مجلة الدوحة من التهم الجديدة التي وجهها لخليل حاوي ، حيث أورد قائمة بالتهم التي شاء أن يلصقها بالشاعر الكبير، وكان أولها متمثلا في العنوان الذي اختاره لمقاله «خليل حاوي: جبان لا بطل».. ولكنه شاء أن ينتزع سطرا أو سطرين من مقال، بعيدا عن السياق العام للمقال، لكي يخدم به آراءه ويدعم به قائمة التهم.. فقد شاء أن يقول «إن انتحار خليل حاوي ليس وراءه أي دافع وطني»، وكان هذا في مجال الرد على

مقال الدكتور محمد جابر الأنصاري «مأساة أمة في مأساة شاعر» والذي نشرته مجلة «الدوحة» في عدد أغسطس سنة.. حيث أورد الزميل نبيل خالد الأغا قول الدكتور الأنصاري دون أن يذكره بالاسم قائلا: «.. ولأن انتحاره استشهاد في سبيل الانبعاث الحقيقي المقبل، ولأنه الدليل الحي على أنه يوجد في هذه الأمة ضمير واحد، يشعر بالمهانة إلى درجة الانتحار» كما عبر بذلك أحد مفكرينا الكبار!

والحق أن القراءة المتأنية لمقال الدكتور محمد جابر الأنصاري تبين – بوضوح – «أن العيب أن يهرب الإنسان وأن تستسلم روحه للغزو».. أما الإشادة بالشاعر فأمر طبيعي باعتباره شاعرا كبيرا من الشعراء الرواد في حركة الشعر الحر.. وحينما يأتي الدكتور الأنصاري على ذكر انتحار الشاعر.. فإنه يقول: «نحن يا خليل – رغم الانتحار – ننتظر وننتظر الانبعاث، كلمتك المحببة، هو ما زال في قلوبنا حقيقة، ازدادت تأكيدا بعد انتحاره لأن انتحاره هو الاستشهاد في سبيل الانبعاث الحقيقي المقبل، ولأنه الدليل الحي كحيوية الدم الذي تدفق من جسدك على أنه يوجد في هذه الأمة ضمير واحد حي يشعر بالمهانة إلى درجة الانتحار، رغم كثرة الضمائر النائمة والغارقة في اللامبالاة واللهو والهروب ومباذل الحياة الذليلة ومباهجها المخزية».

ويرى الزميل نبيل الأغا «أن انتحار خليل لا يعدو أن يكون جبنا وتخاذلا ويأسا من رحمة الله، بل تعديا صارخا على حدود الله، وليس فيه ذرة واحدة من الشجاعة والوطنية، وعلى الذين يصفقون لميتته الجبانة أن يضعوا القضية في إطارها الديني الصحيح قبل أي اعتبار آخر».

والحق أني لست ممن يوافقون على فرض آرائنا ومواقفنا على الغير، فإذا لم يمتثلوا واجهناهم بمقاييسنا نحن وقمنا بإدانتهم بعد ذلك.. فالذي أعرفه ويعرفه الجميع أن خليل حاوي ليس مسلما، وإنما هو إنسان عربي – مسيحي.. والذي أتذكره ويتذكره الجميع أثناء حرب فيتنام التي خاضتها أمريكا ضد شعب فيتنام البطل أن كثيرين من الرهبان البوذيين كانوا ينتحرون بإشعال النار في أجسادهم وسط الشوارع والميادين احتجاجا على الحرب القذرة التي خاضتها أمريكا ضد الشعب البطل.. والذي أتذكره ويتذكره الجميع هو كيف أضرب عن الطعام – حتى الموت – عدد من الثوار الأيرلنديين المسجونين في بريطانيا من أجل قضية وطنهم.. وكيف أضربت – أخيرا –

عن الطعام زوجات بعض الدبلوماسيين العرب احتجاجا على موقف أمريكا من الغزو التتري – الصهيوني للبنان، وكان يمكن بالطبع أن تموت إحداهن أو أن يمتن كلهن أثناء إضرابهن.. وهؤلاء بوذيون ومسيحيون ومسلمون.. شاؤوا أن يعبروا بطرقهم الخاصة عن مواقفهم واستطاعوا أن يكسبوا الرأي العام العالمي ويلفتوا نظره إلى قضاياهم.

نأتي بعد ذلك إلى قول نبيل الأغا عن خليل حاوي... «وكما انعكس هذا التعقيد النفسي في حياة الشاعر وسلوكه فقد انعكس أيضا في شعره، فأنت تقرأ الكثير منه فلا تفهم إلا النزر اليسير، وكأنك تقرأ ألغازا وأحاجي وطلاسم!».

ويبدو أن الكاتب قد رأى أن ينقض بمعوله على خليل حاوي – الشاعر، بعد أن انقض على خليل حاوي – الإنسان «الجبان»... ولكن ليسمح لي بأن أذكره بأن إطلاق الأحكام أمر مرفوض، وخاصة في القضايا الفنية والأدبية، وقد عانينا جميعا من جراء إطلاق الأحكام وإطلاق الأحكام المضادة.. فليس صحيحا – على الإطلاق – أنك لا تقرأ الكثير من شعر خليل حاوي فلا تفهم إلا النزر اليسير، وكأنك تقرأ ألغازا وأحاجي وطلاسم».. ويدفعني هذا إلى أن أتذكر ما قاله أبو تمام لأحد معاصريه الذين لم يفهموا شعره، حين قال لأبو تمام: «لم لا تقول ما يفهم؟!».. فرد عليه الشاعر العباسي الكبير قائلا: «ولم لا تفهم ما يقال؟!»..

خليل حاوي قيمة أدبية كبيرة، من الصعب تماما أن نتصور أننا نستطيع محوها أو إلغاءها بسطر أو بسطرين.. ويمكن أن يرجع الكاتب إلى آراء كثيرين من نقادنا العرب على امتداد الأعوام الماضية ليتأكد له أن هؤلاء قد أشادوا بشاعرية خليل حاوي، على الرغم من اختلاف معتقداتهم، فمن هؤلاء النقاد.. يساريون ويمينيون.. قوميون.. وماركسيون.. ولم يمنع اختلاف معتقداتهم الفكرية من أن تتوحد أو تتقارب وجهات نظرهم في الشاعر الكبير خليل حاوي.. ومن هؤلاء النقاد.. د. أنطون غطاس كرم – د. إحسان عباس – عفاف بيضون – د. سلمى الخضراء الجيوسي – د. عبد العزيز المقالح – أحمد عبد المعطي حجازي – حسين مروة.. وإذا أراد الكاتب مزيدا من الآراء فليرجع إلى مجلة «الآداب» البيروتية منذ صدورها عام ١٩٥٣.

والآن.. فلنقرأ هذه السطور التي تؤكد إيمان خليل حاوي بالمستقبل.. وبقدرة الجيل الآتي على أن يصنع شيئا.. وهي سطور واضحة، وليست «ألغازا وأحاجي وطلاسم»:

يعبرون الجسر في الصبح خفافا

أضلعي امتدت لهم جسرا وطيدْ

من كهوف الشرق من مستنقع الشرق..

إلى الشرق الجديدْ

أضلعي امتدت لهم جسرا وطيدْ

....

إن لي أطفال أترابي ولي في حبهم خمرٌ وزادْ

من حصاد الحقل عندي ما كفاني

وكفاني أن لي عيد الحصادْ

يا معاد الثلج.. لن أخشاك..

لي خمر وجمر للمعاد.

.. كان هذا منذ سنوات عندما كتب خليل حاوي تلك السطور الواثقة من المستقبل.. المؤمنة بالأطفال العرب الجدد الذين سيجتازون مستنقع الشرق إلى شرق جديد..

ومرت سنوات.. وتكاثفت الظلمات في نفس خليل حاوي.. فآثر أن ينسحب من الحياة، مخلفًا لنا روائع شعرية، ستظل باقية ومؤثرة في الساحة الأدبية العربية جمعاء.

وهكذا رحل الشاعر الكبير، وبقي لنا ما أبدعه من شعر.



يحيى حقي..
فنان البساطة العميقة!
يكرمونه بعد أن
عبر ضفاف الثمانين

اجتاز الكاتب الفنان الكبير يحيى حقي ضفاف الثمانين من عمره يوم السابع من يناير سنة ١٩٨٥.. لكننا لا نستطيع – مطلقا – أن نطق عليه ما طبقه على نفسه الشاعر العربي القديم أبو المنهال الخزاعي:

إن الثمانين – وبلغتها –

قد أحوجت سمعي إلى ترجمانِ

لا نستطيع أن نفعل هذا مع يحيى حقي لأنه ما زال متدفقا بالعطاء.. حاملا للقراء إبداعاته في القصة القصيرة والرواية والمقال الساخر.. ولا شك أن كثيرين منا يتذكرون «قنديل أم هاشم» و«دماء وطين» و«أم العواجز» و«البوسطجي» و«خليها على الله» و«عطر الأحباب».. وغيرها كثير بالطبع.

لكن طبيعة يحيى حقي الهادئة لدرجة أنها كانت مثار تندر عدد من أقرانه جعلت عطاءه يتدفق هادئا كما النهر.. إنه يسخو ويعطي مثلما يروي النهر الأرض المتعطشة.. ولم يحاول مرة أن يتدفق ثائرا مثلما يتدفق السيل الذي يكتسح في طريقه كل ما يراه.

وفي تصوري أن الطبيعة الهادئة ليحيى حقي.. فضلا عن عدم انغماسه في الصحافة وعزوفه عن اقتحام مجال السياسة.. كلها أسهمت في تأثير تكريمه.. ذلك أنه لم ينل حظه من التكريم قبل عبوره الثمانين إلا على استحياء، حيث صدر عنه منذ عشر سنوات وهو في السبعين كتاب تكريمي أعده وقدمه يوسف الشاروني بعنوان « سبعون شمعة في حياة يحيى حقي».

وفي العدد الماضي من مجلة «الهلال» المصرية أسهم عدد من أدبائنا العرب في مصر وحدها في الكتابة عن الكاتب الفنان الكبير.. حيث كتب كل من: فتحي رضوان، د. ناجي نجيب، مصطفى درويش، د. نعيم عطية، د. سيد حامد النساج، محمد الشاذلي، كما طالعتنا جريدة «الشرق الأوسط» السعودية بمقال تكريمي شامل كتبه رجاء النقاش.

وكان جميلا من مجلة «الهلال» أن تبحث عن أول قصة قصيرة نشرها يحيى حقي في بداية حياته الأدبية لكي تعيد نشرها ضمن «العمل الأول لكبار الأدباء».. وكان يحيى حقي قد نشر قصته الأولى التي أسماها «فلة – مشمش – لولو» في صحيفة الفجر القاهرية – عدد ١٥ يوليو ١٩٢٦، وكان عمره وقتها إحدى وعشرين سنة، ذلك أنه ولد في حارة المبيضة بحي السيدة زينب بالقاهرة يوم السابع من يناير عام ١٩٠٥.

وقد استكتبت المجلة يحيى حقي نفسه.. فكتب لها مقالا خفيف الظل – عميق الأثر، يدعو فيه إلى ضرورة استخدام الألفاظ بدقة، ويصف نفسه بأنه خادم اللغة العربية.. وفيه يقول:

«.. إنني منذ بدأت أكتب دعوت وبالتطبيق إلى ضرورة الالتزام بمنتهى الدقة في اختيار الكلمات، بحيث لا يزيد النص كلمة واحدة لا طائل تحتها، وألححت على ذلك إلحاحا شديدا حتى شعرت أنني وصلت إلى درجة المبالغة في كتابي «صح النوم».. ولكن للأسف الشديد فإن أحدا من النقاد لم يلتفت إلى هذه الدعوة مع أني أعتبرها من أهم ما وهبت نفسي له، فأنا أريد أن أذكر في المستقبل لا ككاتب قصة بل كخادم للغة العربية..».

وفيما يتعلق بي فإنني أزعم بأن معرفتي بكاتبنا الكبير بدأت من أن كنت طالبا بالجامعة، ثم توثقت عندما كنت أعمل مع أستاذي صلاح عبد الصبور بالهيئة العامة للتأليف والنشر (هيئة الكتاب حاليا).. وقد شجعني يحيى حقي تشجيعا أبويا صادقا، وكان ينشر قصائدي في مجلة «المجلة» – المصرية التي كان يرأس تحريرها، والتي احتجبت في عهد الظلمة الثقافية عندما هيمن د. عبد القادر حاتم على مقاليد الثقافة في مصر عام ١٩٧١.

وأتذكر خلال فترة رئاسته لمجلة «المجلة» أن بصر كاتبنا الكبير كان قد كل وقتها، فلم يعد يستطيع القراءة بنفسه، فكان عليه أن يستعين بمن يقرأ له.. خلال العمل بالمجلة كان يقرأ له سكرتيرا تحرير «المجلة».. سامي فريد وكمال ممدوح حمدي.. وفي الأمسيات كان علي أن أتوجه لبيته في مصر الجديدة لكي أقرأ له.. اتفق معي على أن أقرأ له ما سبق أن قرأ منذ سنوات بعيدة.. «الكامل» للمبرد و«الأمالي» لأبي علي القالي

و«البيان والتبيين» و«البخلاء» للجاحظ و«رسـالة الغفران» و«لزوم ما لا يلزم» لأبي العلاء المعري.. وكان بين الحين والحين يقاطعني بأدب جم وبرفق أبوي لكي أصحح ما سبق أن أخطأت في قراءته.. لكنني كنت أعود من بيته منتشيا نشوة روحية عميقة.. لأني كنت أ شعر بأني كنت مع كاتب كبير وبصحبتنا الأفذاذ العمالقة من أدبائنا و شعرائنا العرب القدامى..

كما كنت أعود محملا بمجموعة من السجائر الفرنسية شديدة الوطأة.. وعندما أحسست بأنها قاسية حقا رأيت أن أهديها في الصباح لزملاء العمل لكي يضروا بها أنفسهم.. والحق أن بعضا منهم كان يبدو سعيدا وهو يضر نفسه بنفسه طالما أن السجائر هدية لم يدفع فيها شيئا!!

ومن النوادر التي كان يتندر بها عدد من الأدباء الكبار والصغار على السواء نادرة حدثت معي في بيت يحيى حقي، ولم أستطع أن أجعلها سرًّا وقتها.. وذروتها تتكثف في عبارة «... Sorry.. افتكرتك فيديل».

ذات أمسية كان منهمكا في قراءة «رسالة الغفران» وكان يحيى حقي يستمع.. وابنته «نهى» جالسة بقربي.. وإلى جوارها كلبها الأثير الذي كانت تسميه «فيديل».. وفجأة انقطع التيار الكهربائي عن البيت بل عن الشارع كله.. فجلسنا صامتين في انتظار عودة الذي قد يأتي أو لا يأتي.. التيار الكهربائي..

وإذا بيد رقيقة تتحسس رأسي بحنان.. وأعترف بأني شعرت بالنشوة والخجل في آن واحد.. وبعد لحظات أفقت من نشوتي وخجلي على صوت «نهى» تعتذر لي:

«... Sorry.. افتكرتك فيديل».

وضــحك يحيى حقي من أعماقه.. وطالبني بألا أروي ما حدث لأحد.. لكنني توجهت من بيته.. لا إلى بيتي.. بل إلى بيت صــلاح عبد الصــبور لأروي له ما حدث.. ومنه عرف كثيرون بما جرى..

تعلمت من يحيى حقي الكثير.. مثلما تعلم منه كثيرون غيري.. لكني كنت أتعذب وأنا أدرك أنه محب نهم للقراءة وللاستزادة منها حتى عندما تعبت عيناه.. وكنت أعجب للمفارقة التي جعلت كثيرين يتمتعون بعيون ســليمة.. إبصــارها حاد.. ومع ذلك لا يكلفون أنفسهم عناء أن يقرؤوا أو يستزيدوا..



يحيى حقي .
عملاق القامة الأدبية
ما بين الأرنب والسلحفاة!

ما بين لحظة الميلاد ولحظة الموت يعيش الكائن الحي ما قدره الله له من عمر. السلحفاة تعمر طويلا. الأرنب لا يعمر طويلا. لكن السلحفاة تبدو أشبه بالصخرة. إنها تقضي حياتها الطويلة في خطوات متمهلة متثاقلة، أما الأرنب فإن حياته القصيرة تشهد قفزاته السريعة وحركته المفعمة بالحيوية والنشاط.

كذلك الإنسان. هناك من يحيون حياة طويلة ويعمرون فوق الأرض كثيرا، لكنهم لا يقدمون للحياة إلا أقل القليل، ولا يؤثرون في تشكيلها وإعادة صياغتها. ربما ينطبق على هؤلاء قول جبران خليل جبران «إنما الناس سطور.. كتبت لكن بماء». وهناك من يحيون حياة قصيرة، لكنهم خلالها يؤثرون في تشكيل الحياة وإعادة صياغتها.

ما أقوله ليس قاعدة . فهناك أيضا من يحيون حياة قصيرة، لكنهم لا يخلفون أثرا يذكر من بعدهم. وهناك من تتيح لهم حياتهم الطويلة أن يقدموا العطاء الغزير والمتنوع وأن يؤثروا في أجيال عديدة تأتي من بعدهم.

في الأدب الإنجليزي شعراء كبار ماتوا في ريعان شبابهم، منهم برسي شيللي وكيتس وبيرون، وفي أدبنا العربي شعراء كبار رحلوا مبكرين عن عالمنا، منهم الشابي في تونس والتيجاني يوسف بشير في السودان ومحمد عبد المعطي الهمشري في مصر. ورغم أن حياة كل شاعر من هؤلاء كانت قصيرة، فإنهم أثروا بما أبدعوه أيما تأثير.

وفي أدبنا العربي أدباء كبار، عاشوا وعمروا طويلا فوق الأرض، وأبدعوا وقدموا الكثير وما زال عطاؤهم من بعد رحيلهم عن عالمنا متجددا وحيا ومتألقا. من هؤلاء طه حسين ، توفيق الحكيم ،ميخائيل نعيمة. ومن هؤلاء أيضا الراحل العظيم يحيى حقي.

المكان.. حي شعبي من أحياء قاهرة المعز. والزمان.. يوم السابع من يناير عام ١٩٠٥م.. في ذلك المكان وذلك الزمان أطلت اللحظة التي فتح فيها يحيى حقي عينيه ليرى النور لأول مرة.

والمكان.. حي أرستقراطي من أحياء القاهرة.. والزمان.. يوم الأربعاء التاسع من ديسمبر عام ١٩٩٢م. في ذلك المكان وذلك الزمان حلت اللحظة التي رحل فيها عن عالمنا يحيى حقي.

ما بين لحظة الميلاد ولحظة الموت عاش يحيى حقي ثمانية وثمانين عاما إلا شهرا واحدا. ولأن الحياة لا تقاس بالسنوات وإنما تقاس بالعطاء، فإننا نستطيع القول إن يحيى حقي عاش وعمر طويلا،وقدم خلال ما عاشه من سنوات عطاء رائعا وجميلا.

عن تأثير المكان الذي ولد فيه على وجدانه، يقول يحيى حقي: «... ورغم أننا غادرنا حي السيدة زينب وأنا لا أزال طفلا صغيرا، فهيهات أن أنسى تأثيره على حياتي وتكويني النفسي والفني، فما زلت إلى اليوم أعيش مع الست «ما شاء الله» بائعة الطعمية، والأسطى حسن حلاق الحي وبائع الدقة.. ومع جموع الشحاذين والدراويش الملتفين حول مقام «الست»..

أما الجو العائلي فقد كان جوا يحفز على القراءة وعلى الاطلاع. أمه – كما يقول – كانت «شديدة التدين. مغرمة بقراءة القرآن الكريم وكتب الحديث والسيرة النبوية».. أما أبوه فكان «مفتونا بالمتنبي يحفظ كثيرا من شعره ويلقيه علينا في جلساتنا المسائية، وكان مغرما بالقراءة إلى أبعد حد حتى إنه كان يقرأ وهو يسير في الطريق.. وما زلت أذكر كيف عاد لنا ذات يوم وجبهته مبطوحة قد نبتت فيها حبة زرقاء، فقد صدم عمود الترام، وهو سائر يقرأ في صحيفة!

أخوه كذلك كان من المشاركين في تحرير جريدة «السفور» وهو إسماعيل حقي. عمه محمود طاهر حقي له إسهامات عديدة في القصة والمسرحية والصحافة. من خلال عمه تعرف يحيى حقي على أمير الشعراء أحمد شوقي. يقول يحيى حقي: «.. كان عمي محمود طاهر على صلة وثيقة بشوقي، وعن طريقه أتيح لي الجلوس إلى شوقي عدة مرات سواء في محل «صولت» الحلواني أو في بيته. وفي إحدى تلك المرات أعطاني قصته «أميرة الأندلس» وهي مخطوطة لأبدي فيها رأيي، وكنت وقتها لا أزال شابا في السادسة عشرة، ومع ذلك فقد قرأتها ونقدتها بشيء من العنف، وكان ذلك غرورا مني ندمت عليه فيما بعد...».

كان لهذا الجو العائلي أعمق تأثير على يحيى حقي في نشـأته وصـباه، لكنه لم يكن يود أن يكون أديبا. كان يتوق لأن يصـبح طبيبا. لماذا؟ يقول: «.. كنت في صـباي أتمنى أن أصـبح طبيبا لأني أعشـق اكتناه ذلك المجهول الكامن داخل جسـم الإنسـان ورأسـه، فأردت أن أتفرغ لدرا سة أ سباب علله وأمرا ضه، وأ سهم في إ سعاف من يحتاجون إلى العون والمسـاعدة، وكذلك كنت أؤمن بأن المهنة الحرة هي أفضـل عمل للإنسـان فهو فيها سيد نفسه».

لم يـ صبح طبيبا كما تمنى. لكنه من خلال عطائه الأدبي الغزير والمتنوع حقق بالتأكيد ما كان يتمناه ولكن بصـورة أخرى. أليس الأدب عشـقا لاكتناه ذلك المجهول الكامن داخل روح الإنسان، ولكن ليس داخل جسمه ورأ سه؟ ألم يستطع يحيى حقي أن يتعمق وأن يـ ستكـ شف العوالم الخفية الكامنة داخل النماذج البـ شرية التي صورها أدق وأعمق تصـوير؟ بالتأكيد.. إنه اسـتطاع.. وهكذا تحققت أمنيته – كما أتصـور – ولكن بصـورة أخرى.

لم يفتر عـشقه للقراءة أبدا عبر سنوات حياته. حينما كان يـشكو من عينيه كان يستعين بمن يقرأ له. كنت واحدا ممن سعدوا وتشرفوا بالقراءة للكاتب والإنسان العملاق يحيى حقي. كان هذا عام ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ على ما أذكر. كنت أذهب إلى بيته في النزهة بمصـر الجديدة عـصرا ولا أعود إلى بيتي في الشرابية إلا ليلا. كان يتصور أنه يجشمني مشقة. لم يكن الأمر كذلك بالنسـبة لي. كنت أذهب إليه وبي جوع شـديد للمعرفة ولا أحمل غير سـجائري، وأعود من عنده وقد اسـتزدت من المعرفة، وكلت يداي مما أحمله من كتب أهداها لي.

خلال عام ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ كان يحيى حقي مغرما بإعادة قراءة كنوز تراثنا الأدبي القديم. لم أكن أقرأ له دون تخطيط مسـبق. كانت هناك خطة لديه ينبغي أن أقوم بتنفيذها على مراحل وعلى امتداد أيام ذلك العام ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ كان يعاتبني عتابا رقيقا ورفيقا إذا حدث أن أخطأت في القراءة وخا صة إذا كان الخطأ في بيت شعر. أحيانا كان «فيدل» يأتي فجأة ليجلس قرب قدميه. كانت هذه لحظات الرعب بالنسـبة لي.«فيدل» هذا كان كلبا ضخما يقتنيه يحيى حقي وتسعد به ابنته «نهى» وهي إحدى مذيعات التلفزيون

المصـــري منذ ســنوات. وقتها كنت شــابا متحمســا للثورة في كل مكان على وجه الأرض. كنت تواقا لضــرورة تغيير الأوضــاع الظالمة التي يعيش في ظلها البســطاء من الناس. كنت معجبا بفيدل كاســترو. ولهذا كنت على اســتحياء أعاتب يحيى حقي.. أ ستاذنا الكبير.. كيف تـ سمي هذا الكلب الـ شرس فيدل؟!.. ضحكة هادئة تـ صدر عنه. بعدها ينفي أن فيدل شــرس. بعدها ينفي أيضــا أية محاولة للإســاءة من جانبه للثوار في كوبا. مؤكدا إعجابه بحياة ومواقف جيفارا.

خلال رئاســته لتحرير مجلة «المجلة» تعهد بالرعاية الأبوية كل أبناء جيلي. عدة ساعات كان يقضيها يوميا في مناقشة أبناء جيل الستينيات فيما كتبوه من قصة قصيرة أو مقال نقدي أو قصــيدة. هناك أدباء كبار لم يكونوا يهتمون على الإطلاق بنتاج الأدباء الجدد. كانوا يرون أنهم ســيضــيعون وقتهم لو تابعوا هذا النتاج. يحيى حقي كان على النقيض تماما من هؤلاء. لكنه لم يكن يغتفر لأي أديب شــاب إذا تطاول على أحد الأدباء الكبار.

أشــار يحيى حقي إلى أنه كان مغرورا عندما نقد مســرحية لأحمد شــوقي بينما كان في السادسة عشرة من عمره. لكن كل الذين عرفوا يحيى حقي وخالطوه و صادقوه أجمعوا على أنه يتحلى بتواضع لا حدود له، تواضع حقيقي، ليس فيه شبهة ادعاء أو تكلف.

بـ سبب هذا التوا ضع إلى جانب عزوفه عن الأ ضواء. لم يهتم كثيرون من النقاد بعطاء يحيى حقي، باســتثناء رائعته «قنديل أم هاشــم». آن الأوان بعد رحيل هذا الكاتب والإنسان العملاق أن تتوالى الدراسات النقدية التي تتناول أعماله العديدة التي تصل إلى ثمانية وعشرين عملا أدبيا وفنيا.

قضــيت اليوم التالي لرحيل يحيى حقي عن عالمنا في حوارات ولقاءات مع الروائي الكبير الطيب صالح الذي زار الدوحة لمدة يوم واحد، ومع الناقد الدكتور غالي شكري والكاتب مـصطفى نبيل والروائي الرائع الدكتور مبارك ربيع، والذي لا يعرفه كثيرون منا نحن أبناء المشرق العربي لأنه من أبناء المغرب العربي، كما تحدثت مع الكاتب والناقد حسن رشيد.

كل هؤلاء تحدثوا عن يحيى حقي الإنسـان والكاتب.. وبعض منهم كتب مصـورا فجيعته بعد رحيل يحيى حقي. الطيب الصالح أكد أن رحيل يحيى حقي خسارة فادحة للأدب العربي. غالي شـكري رأى أن تكريمه بعد رحيله سـيكون بمثابة تكريم لأنفسـنا. مصـطفى نبيل أكد على القيم النبيلة التي يتحلى بها يحيى حقي والتي نفتقدها عند كثيرين من الأدباء والفنانين. مبارك ربيع أشـار إلى أنه ومعه كثيرون من أدباء المغرب العربي يعدون أنفسهم تلاميذ غير مباشرين ليحيى حقي. حسن رشيد أشار إلى أن يحيى حقي عاش في هدوء ومات في صمت، لأنه كان يحتفظ دائما بدبلوماسيته في حياته.

هذه السـطور سـطور متعجلة غير متمهلة.. كتبتها بعد أن تلقيت النبأ الفاجع.. نبأ رحيل كاتب وإنسان عملاق – لا.. بالجسد – ولكن بما أعطى للحياة.. وكما قلت فإن الحياة لا تقاس بالسـنوات وإنما تقاس بالعطاء، وقد أهدى لنا يحيى حقي روائع أدبية ستظل باقية وحية.



عبد الرحمن منيف
عبقري الرواية العربية في زمن التحولات المأساوية

نبأ موجع وفاجع، تلقيته صباح يوم ٢٤ يناير سنة ٢٠٠٤، كنت نائما، باعتباري كائنا ليليا، يعشــق الســهر ويدمن التأمل في أجواء الليل، حاولت أن أنام ولو قليلا، لكن النبأ الموجع والفاجع كان قد اغتال النوم، أليس موجعا وفاجعا أن يرحل عن عالمنا أحد عباقرة الرواية العربية، وأحد الذين يمســكون جمرات الكلمات، عســاهم أن يلذعوا بها أولئك اللاهين والغائبين والمغيبين؟.. أليس موجعا وفاجعا أن يغيب عن عالمنا عبد الرحمن منيف؟ أقول على الفور، إنه على الرغم من الوجع ومن الفجيعة، فإن عبد الرحمن منيف سيظل باقيا وموجودا في حياتنا وحياة الأجيال العربية التي لم تولد بعد. ما قاله عبد الرحمن منيف عندما رحل الناقد المفكر الكبير حسين مروة سنة ١٩٨٨، ينطبق تماما على عبقري الرواية العربية الذي رحل فجر– السبت ٢٤ يناير سنة ٢٠٠٤م.

كتب عبد الرحمن منيف – مجلة «الطريق» عدد يونيو ســنة ١٩٨٨ – عن اســتشــهاد حســين مروة: «.. الذين قتلوا حســين مروة، وبعده مهدي عامل، يفترضــون أنهم بهذه الطريقة أزاحوا عقبات، لكنهم لا يدركون أن حســين مروة ومهدي عامل، وأمثالهما، ليســوا مجرد أفراد، إنهم بالدرجة الأولى والأســاســية: أفكار.. ومن ميزة الأفكار أنه لا يمكن إطلاق النار عليها لقتلها..». واختتم عبد الرحمن منيف ما كتبه عن حســين مروة، وما ينطبق تماما عليه، حيث قال: «.. ولأن حســين مروة ســأل عن متعب الهذال.. هل يعود؟.. أقول: إن «متعب الهذال» لن يعود، لكن «متعب الهذال» باق وموجود،وكذلك أنت، نعم أنت لن تعود، لأنك لم تتركنا أصلا، ولأنك باق معنا باستمرار، إنك تتجدد ف يكل عقل وكل ضمير، وتتجسد بالآلاف من تلاميذك، والذين يتزايدون كل يوم.

تشــبث عبد الرحمن منيف بالعروبة – الكيان، كما تشــبث باليســار – المبدأ، وإذا كان كثيرون قد تخلوا بدافع «الموضــة» عن العروبة، كما تخلى آخرون عن مبادئهم، بل إن منهم من أصــبح يغير المبدأ، كما يغير ما عليه من ثياب، فإن عبد الرحمن منيف لم يتخل أبدا عن العروبة، ولم يغادر سفينتها، سفينتنا المنكوبة، كما ظل المبدأ هو المبدأ، وهكذا

لم تخمد لديه جمرات الكلمات، ولهذا أقول له بكلماته هو: «.. إنك باق معنا باستمرار، إنك تتجدد في كل عقل وكل ضمير..».

عبد الرحمن منيف، نموذج ساطع لمن تتجسد العروبة في قلوبهم وعقولهم، منذ نشأتهم الأولى، وطفولتهم المبكرة، فأم عبد الرحمن منيف عراقية، وأبوه من نجد في المملكة العربية السعودية، وإذا كان قد رحل عن عالمنا فجر أمس وهو في دمشق، محطته الأخيرة، فإنه ولد في عمان – محطة حياته الأولى، يوم ٢٩ مايو سنة ١٩٣٣، وهكذا جمع عبد الرحمن منيف في قلبه وعقله، عوالم العراق والسعودية والأردن وسوريا،لدرجة أن هناك من كانوا يسألون عن الجنسية التي يحملها. وإذا كنا جميعا نتذكر ما قيل من أن العراق – النظام كان قد سحب جنسية محمد مهدري الجواهري وعبد الوهاب البياتي، ثم أعاد هذه الجنسية لهما بعد ذلك، فإن وكالة الأنباء الفرنسية ذكرت أمس، فيما يتعلق بعبد الرحمن منيف «إن نشاطاته السياسية وتعاطفه المعلن مع الفكر الماركسي قد أدت إلى سحب جنسيته السعودية سنة ١٩٦٣».

ما الفرق بين كتابة قصيدة وكتابة رواية؟.. تنبثق القصيدة الجديدة من «الإلهام» الذي يفاجئ الشاعر في اللحظات الأولى لانبثاقها، لكن «الإلهام» ليس بالطبع شكلا «هلاميا» لكمنه حصاد مواقف وخبرات حياتية مباشرة وغير مباشرة، يتجسد منها ما يتجسد في لحظات الإبداع، فتولد القصيدة ولادة سهلة أو عسيرة، لكنها – في نفس الوقت – ليست وليدة لحظة واحدة كما قد نتصور، وإنما وليدة معايشات طويلة مع الحياة من خلال الشاعر الذي يرصد ويتأمل ويستوعب، إلى أن يفاجئه «الإلهام».

وماذا عن كتابة رواية؟.. قبل أن أجيب، لابد أن أروي حكاية.. المكان: مقهى ريش الشهير في القاهرة، أما زمان الحكاية، فربما كان سنة ١٩٦٦ أو ١٩٦٧.. كنا نلتف حول العملاق المتواضع «عمنا» نجيب محفوظ.. بعد أن خفتت إحدى المناقشات المحتدمة، سألني نجيب محفوظ مداعبا: فين يا حسن قصائدك الجديدة؟ ما فيش إلهام ولا إيه؟.. قلت له بهدوء مشوب بالخجل: حقا لم أكتب منذ فترة، لكنني أتابع بشغف حلقات روايتك الجديدة في «الأهرام».. قال، وهو يمزج الجد بالدعابة: أنا بقى ما

عنديش إلهام.. الإلهام ده للشـعراء بس.. أيام أن كنت أكتب «الثلاثية» كنت ألزم نفســي بالجلوس أربع ســاعات يوميا أمام المكتب.. حتى لو لم أكتب حرفا.. فإني كنت أجلس.. الروا ية تختلف عن القصــيدة.. مع أن أمير الشــعراء قال: «أنتم الناس أيها الشعراء»!

وقبل أن أجيب على الســؤال، لابد أن نعرف عن أية رواية نتحدث، هناك روايات «مسـلـية» تد غدغ عواطف القراء أو حتى غرائز المراهقين منهم.. وهناك روا يات «إنشائية» تدخل في سياقها روايات عديدة كتبها يوسف السباعي.. وكل هذه الروايات لا يســتطيع القارئ، خاصــة إذا كان جادا- أن يعيد قراءتها.. أما الرواية التي تســتحق هذا الا سم، فهي العمل الأدبي المرهق الذي قد يتطلب من صاحبه أن يحتشد له على امتداد ســنوات من حياته، وقد يلجأ هذا الكاتب إلى «التوثيق» بصــورة مباشــرة مثلا نجد عند صنع الله إبراهيم في رواياته «بيروت.. بيروت».. و«ذات» إلى «أمري كان لي».. وقد يكون هناك توثيق دقيق، لكنه لا يتجلى للقارئ بصــورة مباشـرة، ويمكننا بالطبع أن نتعرف على ما هو مباشر وما هو غير مباشر حين نقرأ روايات نجيب محفوظ ويوسف إدريس وحنا مينة وجبرا إبراهيم جبرا وصـنع الله إبراهيم ويوسـف القعيد وأحلام مستغانمي وميرال الطحاوي.. وآخرين وأخريات.

أعود إلى العبقري الروائي الذي هزني نبأ رحيله الموجع والفاجع، فأتســاءل: هل كان عبد الرحمن منيف يستطيع كتابة ملحمته الروائية «مدن الملح» بأجزائها الخمسة «التيه» و«الأخدود» و«تقاســيم الليل والنهار» و«المنبت» و«بادية الظلمات» لو لم يحتشــد على امتداد سـنوات من حياته للقراءة وللتوثيق وللاختيار والمفاضـلة بين ما تجمع أمامه من وثائق ســياســية واقتصــادية واجتماعية وإنســانية؟.. وهل كان عبد الرحمن منيف لو لم يحتشد بنفس النهج، يستطيع أن يكتب «أرض السواد» بأجزائها الثلاثة؟

آخر ما أصــدره عبد الرحمن منيف خلال سـنة ٢٠٠٣ لم يكن عملا روائيا، وقد صــدر هذا الكتاب بعنوان «العراق – هوامش من التاريخ والمقاومة»، ولكي نعرف قيمة «التوثيق» عند الشــروع في كتابة رواية،ليســت من روايات «التســلية» أو «الإثارة» أو «الإنشاء» لابد أن نعرف أن هذا الكتاب الجديد لعبد الرحمن منيف هو من حصاد

عمليات «التوثيق» التي احتشد لها قبل أن يكتب «أرض السواد» وأترك الآن المجال للعبقري الروائي لكي يتحدث بنفســه عن «العراق – هوامش من التاريخ والمقاومة» حيث يقول عبد الرحمن منيف: «.. أثناء تحضيري لرواية – أرض السواد – تكونت لدي من خلال قراءاتي في كتاب التاريخ والمذكرات حول تاريخ العراق، مجموعة من الهوامش، كنت أراها مهمة في تكوين ذاكرة تاريخية، ولكي لا يكون التاريخ مجرد ســجل بارد للموتى، وإنما حياة موارة تعج بالأمثولات الحية والمعارف والمقارنات. ومع كل يوم من الأيام الصعبة التي مرت على العراق، كانت هذه «الهوامش» تحضـر في ذاكرتي، متأملا هذا البلد العربي، الشــديد الأهمية بموقعه وثرواته وهو يتعرض ربما لأقســى محنة في تاريخه قد تخلط الأوراق، تمهيدا لكتابة تاريخ من نمط جديد، هو تاريخ المنتصر، وبالتالي تغييب وقائع واستحضار غيرها أو بدل عنها..».. ونتابع مع عبد الرحمن منيف، ما يؤكد ما قلته عنه من أنه لم يتخل عن العروبة ولم يتخل عن المبدأ، حيث يقول: «لابد من الوقوف في وجه الدخيل المزور في هذه الموجة الجديدة، ورد الاعتبار للقيم والمفاهيم التي قامت عليها المراحل الســابقة، فالوطنية مثلا، ليســت قيمة بالية يجب الاســتغناء عنها، والحرص على الوطن والتضـحية من أجله، ليس موقفا شــوفينيا يجب إنكاره، بل هو جزء من الدفاع عن النفس وحفظ الأمانة للأجيال القادمة».

أصدر العبقري الروائي عبد الرحمن منيف سنة ١٩٧٣ أولى رواياته «الأشجار واغتيال مرزوق» وتلتها «قصــة حب مجوســية» ســنة ١٩٧٤ و«شــرق المتوســط» ســنة ١٩٧٥ و«حين تركنا الجسر» سنة ١٩٧٦ و«النهايات» سنة ١٩٧٧ و«سباق المسافات الطويلة» سنة ١٩٧٩، أي أنه كان يصدر كل سنة رواية جديدة با ستثناء رواية « سباق المسافات الطويلة» التي صدرت بعد سابقتها «النهايات» بسنتين. وفي سنة ١٩٨٢ أصدر «عالم بلا خرائط» بالاشــتراك مع جبرا إبراهيم جبرا، ولهذه الرواية الوحيدة التي لم يكتبها وحده، وإنما شاركه فيها عبقري آخر من الراحلين، حكاية لم تكتب حتى الآن بصورة دقيقة، وقد روى لي هذه الحكاية الراحل الكبير بلند الحيدري، وأعتقد أنه من الضـروري العودة إلى حكاية «عالم بلا خرائط» ولكن ليس في هذا السياق.

ابتداء من سنة ١٩٨٤ وحتى سنة ١٩٨٩ أصدر عبد الرحمن منيف «مدن الملح» بأجزائها الخمسة، ثم أصدر سنة ١٩٩١ رواية «الآن.. هنا.. أو شرق المتوسط مرة أخرى».. إلى أن أطل علينا بعد ذلك بثلاثية «أرض السواد».

وبالطبع، فإني لم أشر إلى روايات أخرى عديدة، أصدرها عبد الرحمن منيف، كما لم أ شر إلى كتبه التنظيرية، ولا إلى مؤلفاته في الاقتصاد والسياسة، والتي قد يندهش بعض القراء حين يعرفون أن الروائي يكتب في الاقتصاد والسياسة، بينما لا يقتضي الأمر إبداء الدهشة، فالروائي يرصد الحياة من كل جوانبها، ويهتم بمختلف مجالاتها، وإذا كان العبقري الروائي عبد الرحمن منيف قد رصد في «مدن الملح» كل التحولات من بداوة الصحراء إلى مدن النفط، فإن عبد الرحمن منيف المفكر والسياسي والاقتصادي قد رصد ما استطاع أن يرصده في هذه المجالات ورأى أن يقدم رؤيته الشاملة لها.

الرواية عند عبد الرحمن منيف تسهم في إعادة الاعتبار للبسطاء الذين هم الصناع الحقيقيون للحضارة، وقد أفاض في هذه النقطة بالذات الكاتب الجاد الكبير محمد دكروب، وذلك في مقدمته المطولة والعميقة لكتاب «الكاتب والمنفى» وأعتقد أنه من الضروري لكل من يريد الإحاطة بعبد الرحمن منيف روائيا وناقدا ومنظرا وباحثا، أن يقرأ هذه المقدمة المطولة والعميقة لمحمد دكروب.

ماذا أقول الآن بعد النبأ الموجع والفاجع؟.. لن أقول شيئا، وإنما سأكتفي بالعودة إلى كلمات عبد الرحمن منيف عن حسين مروة، لأنها - كما قلت - تنطبق تماما عليه: «إنك باق معنا باستمرار، إنك تتجدد في كل عقل وكل ضمير..».



محمد شكري من صعلوك فقير إلى كاتب متمرد مثير
الطامحون يحطمون جدران السجون

ماذا يحدث حين يجد الإنسان نفسه محبوسا داخل زنزانة، فاقدا لإرادة أن يتحرك على هواه؟ الأمر يتوقف على طبيعة هذا الإنسان، فهناك من يألف السجن شيئا فشيئا فيستسلم للقضبان، وهناك من يحاول كسر القضبان أو حفر نفق، ولو بأظافره، يمهد له – إذا استطاع – أن يعانق حريته المفقودة، وهناك من يموت كمدا.

إذا كان الإنسان السوي يمشي على قدمين ويتميز بأن له عقلا أذكى من عقول الحيوانات، إلا أن الإنسان ليس سوى حيوان.. ونستطيع أن نرصد في السجن مشهد الإنسان – الأرنب المستسلم للقضبان، ومشهد الإنسان الأسد الذي يحاول أن يحطم تلك القضبان، ومشهد الإنسان – الغزال الذي يموت قهرا حين يقع في الأسر.

الزمان والمكان سجنان كبيران، لكنهما يخدعان المساجين أجمعين، فكل إنسان يتوهم أنه حر، طالما أنه يمشي تحت الشمس، ويخطو فوق الأرض، دون أن تعيق حركته قضبان حديدية منظورة، لكن الحقيقة تتمثل في أن كل إنسان محكوم بقضبان غير مرئية، هي قضبان الزمان والمكان.

الكاتب المتمرد المثير محمد شكري عاش بالفعل تجربة السجن، وهو في التاسعة عشرة من عمره، وحين تعلم الكتابة والقراءة لأول مرة وهو في سن العشرين، بدأ يدرك معنى أن الزمان والمكان سجنان كبيران، ومن حسن حظ محمد شكري أن زميله ودليله الذي دخل السجن معه كان يجيد القراءة والكتابة، كما كان يتميز بالوعي السياسي، ويستوعب الأحداث السياسية التي تعيشها المغرب، وفيما بعد،سجل محمد شكري في رائعته «الخبز الحافي» كيف أبدى انبهاره بزميله الذي كان يكتب على جدار السجن:

«أخرج حميد قلم رصاص وأخذ يكتب على الحائط

سألته:

ماذا تكتب؟

أكتب بيتين للشاعر التونسي أبي القاسم الشابي.

ماذا يقول هذا الشاعر؟

هذا ما يقوله:

إذا الشـــعـب يـومـا أراد الـحـيـاة

فـلابـد أن يســتـجـيـب الـقـدر

ولابــد لــلـيــل أن يــنــجــلي

ولابـد لـلـقـيـد أن يـنـكـســر

قلت له بإعجاب:

عظيم.

هل تفهم ما يقول؟

كلا. لكنه عظيم. أحس أنه عظيم. (أضفت): ما معنى الذي يقوله؟

إرادة الحياة، هذا هو معنى ما يقوله.

وما معنى إرادة الحياة؟

إرادة الحياة معناها هو أنه إذا كان هناك شعب مستعبد أو إنسان ما وأراد أن يتحرر فإن الله يستجيب له، والفجر يستجيب والقيد ينهرس بقوة إرادة الإنسان.

إنني أفهم الآن.

لاحظت أن الرفاق كانوا يتتبعون باهتمام ما يقوله حميد. قلت له:

إنك محظوظ.

قال مندهشا:

أنا محظوظ؟

نعم، أنت محظوظ.

لماذا؟

لأنك تعلم كيف تقرأ وتكتب.

أنت أيضا يمكن لك أن تتعلم إذا شئت.

جلس وقال:

ذات يوم سأعلمك القراءة والكتابة. عندك استعداد لكي تتعلم.

طلبت منه أن يعيد علي البيتين للشاعر التونسي عدة مرات حتى حفظتهما..».

تعمدت أن أقتطف هذه السطور من رائعة محمد شكري «الخبز الحافي» على الرغم من طولها، لأنها تقول ما أود أن أقوله عن مبدعها الكبير،دون كلمات مني، فالواقع أن «إرادة الحياة» هي التي دفعت محمد شكري – وهو في قلب السجن – لأن يحاول تحطيم جدران سجن آخر من السجون الخادعة، هو سجن «الأمية» وهكذا انطلق محمد شكري وهو في العشرين من عمره، ليتعرف على حروف اللغة من «الألف» إلى «الياء» ثم انطلق ليقرأ، بل ليلتهم الكتب التهاما، إلى أن غامر بالكتابة، وكان رصيده الحياتي كبيرا بكل معنى الكلمة، من خلال ما عاشه، بل ما انغمس فيه من الصعلكة ومن حياة الليل في طنجة ومن مغامرات جنسية مع بغايا «رسميات» وبغايا غير مسجلات رسميا في المهنة، ومن إحساس ظامئ بالحب، رغم الارتواء الجنسي الذي فاق كل حد، ومن مشاهد عاشها، متفرجا عليها حينا، أو منغمسا فيها أكثر الأحيان، ابتداء من مشهد أبيه وهو يقتل أخاه أمام عينيه وعيني أمه، ثم مشاركة الأب القاتل في تشييع ابنه الذي قتله دون أن تطرف له عين، وانتهاء بمشاهد السرقة والدعارة وعمليات التهريب وتعاطي «الكيف» والاستغراق في شرب الخمر، ووسط كل هذا العالم الذي شكل رصيدا حياتيا كبيرا، فإننا قد نتعجب أو لا نتعجب حين نعرف أن محمد شكري قد استمد من بغايا الليل الرسميات وغير الرسميات ثقافته الشفهية، كما أنه كان يستمع معهن إلى أغنيات أسمهان وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، لدرجة أنه يذكر في «الخبز الحافي» قصيدة «أكذب نفسي» التي غنتها أم كلثوم، كما يذكر أنه «.. حينما عدنا إلى الكوخ كانت أم كلثوم تغني أيضا بصوتها القوي:

إني أغار من الكؤوس فجنبي
كأس المدامة أن تقبل فاك..

قد نتعجب.. نحن الذين لم نعايش العالم الذي عايشــه محمد شــكري – و قد لا نتعجب، حين نجد أن هذا العالم، بكل ما فيه من «كيف» وخمر ونســاء وســرقة وتهريب وقتل، تتماوج فيه أيضــا أجواء رومانســية، تتحدث عن الحب المثالي وعن «العذول» ومشاعر الخجل والحياء.

قلت– من قبل – أن الإنســان ليس ســوى حيوان، وهناك – الإنســان– الأرنب والإنسان – الأسد والإنسان – الغزال في تجربة السجن ذي القضبان المنظورة، لكن ما ذكرته مما قد نعجب أو لا نتعجب منه، هو الذي يؤكد – من زاوية أخرى – أن الإنســان يتميز عن الحيوان، بسـعيه إلى الكمال، ومحاولاته لأن يظل متشـوقا إلى الفضـائل، حتى أثناء انغما سه في م ستنقعات الرذائل، ويكفي أنه في ظل انغماس محمد شكري في قلب حياة الليل، فإنه أحس بالتشوق الظامئ إلى الحب.

الكسالى والقانعون والخائبون لا يملكون الشجاعة التي تدفعهم دفعا لأن يحطموا جدران الســجون المنظورة وغير المنظورة التي تجبرهم ظروف الحياة أن يدخلوها، أما الطامحون – من أمثال محمد شـكري – فإنهم يحطمون جدران السـجون ، ولهذا السـبب اسـتطاع محمد شـكري أن يحول حياته.. بإرادة الحياة، من مجرد إنســان صـعلوك فقير، يحلم أحيانا بمجرد لقمة واحدة من الخبز إلى كاتب متمرد مثير، ويكفي أن «الخبز الحافي» قد ترجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة من لغات العالم، وأن كبار النقاد والأدباء في الغرب وفي الشــرق،وفي وطنه المغرب، قد اعترفوا بأنه كاتب كبير على الصـعيد العالمي، ومن المهم القول أخيرا أن محمد شــكري الذي ولد ســنة ١٩٣٥ ورحل عن عالمنا يوم ١٥ نوفمبر ٢٠٠٣، لم يتنكر للعالم الذي عايشــه بكل تفاصــيله وجزئياته، رغم أن هذا العالم يعد عالم الفســاد في نظر من يتشــدقون بالأخلاق صوتيا، لكنهم يمارسون الفساد بوسائل كثيرة سرية.



عبد الرحيم محمود
بين شعر الوطنية ..
وقصائد الحب !

عبد الرحيم محمود إنســان عربي نبيل، آثر أن يواجه الصــهاينة الغزاة لا بالكلمة وحدها، وإنما بما يملك من قوة، لم تكن متكافئة على الإطلاق مع قوة الأعداء، فاستشهد وجاد بروحه التي كان يحملها على راحته، انتظارا لذلك اليوم.. يوم الفداء للأرض التي ولد عليها وولد عليها أجداده، وقد تحققت هذه الشــهادة يوم ١٣ يوليو عام ١٩٤٨، وهكذا تمر السـنوات، ويبقى الشــاعر بنبله وأصــالته و فدائيته في ذاكرة كل عربي شريف،ويبقى صوته الشعري مدويا – رغم غياب جسده – مصورا لمرحلة هامة من مراحل النضال ضد العدو الصهيوني.

ومن هذا المنطلق عكفت على متابعة الدراسات التي كتبت عن الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود وعن شعره، سـواء تلك التي صـدرت في كتب مسـتقلة أفردها مؤلفوها لهذا الغرض وحده،أو الدراســات العامة التي تناولت الشــاعر من تناولته من الشــعراء الآخرين.

وفيما يتعلق بالدراسات المستقلة قرأت دراستين عن الشاعر.. الأولى كتبها الدكتور محمود الشلبي وأسماها « عبد الرحيم محمود شاعرا ومناضلا» والثانية كتبها الأستاذ نافع عبد الله وأسماها «الشاعر عبد الرحيم محمود».

درس الدكتور محمود الشلبي حياة الشاعر الشهيد و شخصيته وثقافته ومشاركته في الحركة الوطنية بفلسطين العربية، ثم انطلق لدراسة المضامين الشعرية عنده، مقسما إياها إلى قسمين أساسيين: مضامين تدور في إطار الوطنية، وفيها درس التحريض على النضال والمواقف الملتزمة والغربة والحنين والرؤية المستقبلية والحس النقدي والرغبة في الشهادة. أما القسم الثاني فتدور مضامينه في الأطر الاجتماعية والإنسانية والتأملية. ثم أفرد الدارس فصلا بأكمله لدراسة شعر الحب. وفيما يتعلق بالتشكيل الفني للقصيدة ومنزلة الشاعر بين معاصريه، حيث تناول لغته والتكرار في الصورة الشعرية عنده والنمط

الشعبي في التعبير والصراحة والرمز ثم أشار إلى استفادته من القرآن الكريم والشعر العربي القديم، كما بين الدارس موقع عبد الرحيم محمود بين شعراء ثورة ١٩٣٦ الكبرى في فلسطين، موضحا أن شعراء الأرض المحتلة الذين ظهروا فيما بعد هم بمثابة امتداد لشعراء الجيل الأول.

أما الدراسة الثانية وهي دراسة الأستاذ نافع عبد الله فقد قسمها إلى ثلاثة أبواب، يدرس في أولها عبد الرحيم محمود الإنسان، من خلال وطنه وعصره وعرض سيرة حياته وإلقاء نظرة متكاملة على شخصيته، أما الباب الثاني فقد بين فيه مصادر شعره واتجاهاته الشعرية ومضامينها وخصائص شعره، بينما يضم الباب الثالث ثبتا متكاملا ودقيقا لآثار الشاعر، متمثلة في ديوانه ورسائله ومقالاته النقدية.

والحق أن دراسة نافع عبد الله تتميز بالدقة والشمول، كما أنها تتبع منهجا علميا أمينا، يرفده حس نقدي مرهف، بينما تتسم دراسة د. محمود الشلبي يغلبه الطابع التقليدي الذي يحكم منهج الدارس.

ومن الدراسات العامة التي تناولت الشاعر ضمن تناولها لغيره من الشعراء.. دراسة الدكتور كامل السوافيري التي أسماها «الأدب العربي المعاصر في فلسطين من سنة ١٨٦٠ إلى ١٩٦٠»، وهي دراسة تهدف إلى التعريف السريع بشعراء وأدباء المرحلة الزمنية التي حددها الدارس لدراسته.

وهناك أيضا دراسة خالد علي مصطفى التي أسماها «الشعر الفلسطيني الحديث~»، وتتسم الدراسة بأنها لا تتعامل مع النصوص الشعرية التي تدرسها وتحللها على ضوء المرحلة التي قيلت فيها وصورت أجواءها، وإنما من خلال رؤية مسبقة، ارتآها الدارس نظريا، قبل أن يبادر إلى دراسة تلك النصوص ذاتها، ومن هنا فإنه ظلم عبد الرحيم محمود ظلما فادحا، مثلما ظلم غيره من معاصريه، وذلك لحساب الجيل الجديد من الشعراء العرب.

أما ديوان الشاعر، فقد جمع قصائده وقدم له الدكتور كامل السوافيري، وصدرت طبعته الأولى عام ١٩٧٤، والطبعة الثانية عام ١٩٨٠، ثم أطلعني الشاعر معروف رفيق على طبعة جديدة صدرت منذ عامين في حيفا المحتلة،والحق أن الطبعة الثانية التي أقتنيها تحفل بالأخطاء المطبعية العديدة التي تسيء إلى الشاعر، بينما الطبعة الجديدة – رغم ضعف إمكانيات الناشر – تهتم بتلافي تلك الأخطاء، وللأسف فإن الطبعة الثانية هي المتوافرة في المكتبات، بينما لم تعرف الطبعة الجديدة رواجها المرجو لها بيننا نتيجة صدورها في الأرض المحتلة.

ولعل الذي لفت نظري إلى قضية الفصل بين شعر الوطنية و شعر الحب هو الديوان نفسه وطريقة تصنيفه التي اتبعها الدكتور كامل السوافيري، فقد كان من الأجدى عدم اللجوء إلى الطريقة القديمة في تقسيم الشعر إلى أغراض متعددة، فهذا غرض وطني، وذاك عاطفي، وهذا في الوصف وذاك في التأمل. كان من الأجدى أن ترتب القصائد في الديوان وفقا لتاريخ كتابة كل منها، بصرف النظر عن اختلاف المو ضوعات المطروقة، طالما أن مصدرها واحد هو رؤية الشاعر للحياة وللناس من حوله، وطالما أنها تمثل عالم الشعر. وهذا ما كان يمكن أن يتيح لها التعرف بسهولة ويسر على التطور الفني والفكري للشاعر عبر مراحل حياته المختلفة إلى أن جاد بروحه.

في إحدى القصائد التي تدخل في إطار شعر الحب، يقول عبد الرحيم محمود:

أخلصتك الود و جازيتني

بالغدر ما أظلم هذا الجزاء

وإذ بأحلامي التي شدتها

تنهار من فوقي وتغدو هباء

لكن سأبنيها فلا تشمتي

نعم سأبنيها وأعلي البناء

مثلي كما قلت رجال ولا

يدركهم حصر، كذاك النساء

ونتساءل الآن: هل يمكننا أن نفصل هذه القصيدة باعتبارها قصيدة قيلت في الحب ونفردها ضمن قصائد الحب، بعيدا عن الإطار الزمني الذي كتبت فيه؟.. أم أنه كان من الأجدر وضعها في إطاره الزمني الذي كتبت فيه، حتى ولو جاءت القصيدة التي تسبقها قصيدة في الوطنية والجهاد ضد الصهاينة؟

إن الأبيات تفصح بوضوح عن روح الشاعر، وعن اعتزازه بنفسه وأنه سينهض من جديد لكي يعلي بناء الأحلام بعد أن انهار هذا البناء، ونحن نجد هذه الروح الأبية متجلية كذلك في قصائد الشاعر الوطنية، وليس في هذا أي مدعاة للتعجب، فقصائد الحب والقصائد الوطنية مصدرها واحد – كما قلت – هو عالم الشاعر وشخصيته الإنسانية المتكاملة سواء في نظرته إلى الحب أو في نظرته إلى الوطن.

وتحية لروح عبد الرحيم محمود، متمنيا أن تهتم المؤسسات الثقافية العربية بعامة والفلسطينية بخاصة بالقيام بإصدار طبعة جديدة من الديوان.. مبرأة من الأخطاء.. ومرتبة وفق تواريخ كتابة القصائد، لا وفقا للأغراض الشعرية، لأن هذا يتيح للقارئ التعرف بصورة متكاملة على عالم عبد الرحيم محمود الشعري.



سهرة معه.. بعد أن مزق الصهاينة جسده
غسان كنفاني..

عاشق يتجدد في كل أرض تتعطش للحرية

لو كان غســان كنفاني بيننا الآن.. يأكل ويشـرب.. أو يدخن ويكتب.. يتجادل بحدة أو يهمس برقة.. لكنا قد شاهدناه رجلاً مخضرمًا، لكنه يظل يقاتل من أجل فلسطين كما لو كان شابًا في العشرين.. بنفس الحيوية والحماسة.. ولأن «لو» حرف امتناع لامتناع، وفيه من التمني المســتحيل ما فيه فإن ما جرى يذكرنا بأن هذا الكاتب العظيم قد غاب عنا وهو في الســادسـة والثلاثين من عمره، بعد أن مزق الصهاينة جسده الذي تناثر أشلاء في مختلف الزوايا بسبب بشاعة الجريمة التي تكفلت باستشهاده في بيروت يوم ٨ يوليو سنة ١٩٧٢م، وكانت عكا قد شـهدت ميلاده يوم ٩ أبريل سـنة ١٩٣٦م، وبعد اثنتى عشـرة سـنة على ميلاده أصـبحت عكا العربية الفلسطينية إحدى المدن الواقعة تحت احتلال الكيان الصهيوني الذي أعلن قيام دولته كما هو معروف يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٨م.

بعد انقضاء سنوات تلو سنوات على استشهاده، أقول بكل ثقة إن غسان كنفاني لم يغب، بل إن حضـــوره يتأكد ويتوطد، فهذا العاشـــق النبيل ما يزال يتجدد في كل أرض تتعطش للحرية، وليس في أرض فلسطين الصابرة والصامدة وحدها، وقد كنت واحدا ممن سهروا مع غسان كنفاني سهرة طويلة ممتعة برغم مرور لسنوات على استشهاده.. كان يجلس أمامي وأنا ألتهم ما كتبه وأبدعه وأحيانا كنت أتوقف، لأستفسر منه عن عبارة أود أن أتبين معناها بصــورة أدق، لكنه كان يســدد لي نظراته النافذة العميقة، مؤكدا أنه ينبغي أن أتبين المعنى بنفســي، لأن الكتابة التي لا تفصــح وحدها عن معناها هي كتابة فاشلة، وأحيانا كنت أسأله عما إذا كان «سعيد س» بطل «عائد إلى حيفا» شخصية حقيقية عرفها في الحياة أم أنها من نســج خياله، لكنه لم يكن يجيب، بل يقذفني بســؤالي قائلا: عليك أن تقرر أنت على ضوء ما تشعر به.

حين قلت لغســان كنفاني إني لا أسـتطيع تحديد عدد المرات التي أقبلت خلالها على إعادة قراءة رواياته وقصـصـه القصـيرة،نظر لي بعينيْ طفل فرحان، لكنه لم يشـأ أيضـا أن يعلق أو أن يجيب.. ما يعرفه وما أعرفه، وما يعرفه كل قارئ يدرك قيمة الكلمة المبدعة

وقدرتها على النفاذ بعيدا عن زمن ومكان كتابتها يتمثل في أن الكتابة التي تنطلق من خلال بيئة معينة، مستندة إلى موقف إنساني جوهري هي كتابة للحياة، لا تنتهي بانتهاء حياة كاتبها، ولا بغياب أبناء الجيل الذي توجه لهم بها.

في سهرتي مع غسان كنفاني، توقفت عندما كتبه عنه أربعة من الكبار، أما الآخران فما زالا يكتبان ويبدعان، وهذا ما يتبينه قارئ «الآثار الكاملة لغسان كنفاني» بمجلداتها الأربعة، فقد تصدرت المجلد الأول منها، وهو المجلد الذي يضم الروايات، مقدمة كتبها الناقد الكبير الدكتور إحسان عباس، أما المجلد الثاني الذي يضم القصص القصيرة فقد تصدرته مقدمة كتبها العبقري يوسف إدريس، في حين تصدرت مقدمة الكاتب الشامل جبرا إبراهيم جبرا مجلد المسرحيات التي كتبها غسان كنفاني، ويبقى المجلد الرابع الذي يضم الدراسات التي كتبها العاشق النبيل، وقد تصدرت هذا المجلد مقدمة كتبها الشاعر العظيم محمود درويش.

إذا كان غسان كنفاني قد استشهد يوم ٨ يوليو سنة ١٩٧٢م فإن الدكتور إحسان عباس قد كتب مقدمته للمجلد الأول بعد ثلاثة أشهر تقريبا من استشهاد العاشق النبيل وبالتحديد يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٧٢م ومن هنا يواجهنا التساؤل الذي طرحه الدكتور إحسان عباس في هذه المقدمة: «ترى أي دور كان من المقدر لغسان أن يؤديه في تطوير القصة العربية الفلسطينية لو امتد به طلق العمر؟..» ويجيب الدكتور إحسان بنفسه قائلا: «.. رغم أني ممن لا يؤمنون كثيرا بالحكم على الغيب من رؤية التباشير الأولى، فإني أستطيع أن أزعم بأنه كان من الممكن للقصة على يدي غسان أن تبلغ مرحلة «الرؤيا الجماعية» التي يستوي في مدى ارتياحه إليها وتأثره بها المثقف وغير المثقف على نحو متشابه أو متقارب لأنها تربط بين الأحاسيس متخطية الفوارق في الميول والمواقف والأذواق».

أصدر غسان كنفاني سبع روايات بعضها غير مكتمل بصورته النهائية لأن الغدر الصهيوني باغته قبل أن تكتمل، وروايات غسان هي: «رجال في الشمس» و«ما تبقى لكم» و«أم سعد» و«عائد إلى حيفا»و«العاشق» و«الأعمى والأطرش» و«برقوق نيسان» وعلى الرغم من إعجابي بهذه الروايات دون استثناء إلا أني أجد نفسي مندفعا بين حين وآخر لإعادة قراءة عائد إلى حيفا وأحس وأنا أتابع أحداثها كأني أقرأها للمرة الأولى على الرغم من أن هذه المرة كانت منذ أكثر من ثلاثين سنة حين استعرت «عائد إلى حيفا» من الصديق الدكتور أحمد أبو مطر الذي كان يعد وقتها أطروحة لنيل درجة الدكتوراه عن «الرواية في الأدب الفلسطيني».

بعد نكسة يونيو – حزيران سنة ١٩٦٧م أصبح كامل التراب الفلسطيني تحت قبضة الا ستعمار الـ صهيوني وأ صبح بمقدور أ شقائنا الفلـ سطينيين في الـ ضفة الغربية وغزة أن يتحركوا للقاء أقاربهم وزيارة المناطق المحتلة منذ سـنة ١٩٤٨م وهكذا انطلق «سـعيد س» برفقة زوجته صـفية من رام الله ١٩٦٧ إلى حيفا ١٩٤٨ وكان هدفهما أن يذهبا إلى بيتهما الذي تركاه منذ تلك السـنة بعد أن نسـيا طفلهما الرضـيع «خلدون» في السـرير، وخرجا هاربين من جحيم القنابل وأصوات المدافع الصهيونية أثناء احتلال حيفا.

رحلة «سعيد س» مع زوجته صفية تهدف إلى البحث عن خلدون بعد كل هذه السنوات من ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧ ولكن المأسـاة تجسـدت في البداية – حين وجدا أن بيتهما في حيفا يسـكنه عجوزان يهوديان وأن الوكالة اليهودية للهجرة هي التي أعطتهما البيت مقابل أن ينشـأ الطفل الر ضيع المنسي «خلدون» في أحضانهما وبالطبع فإن خلدون المسلم – الفلسطيني لم يصبح كما كان مقررا له أن يصـبح وإنما أصـبح اليهودي – الصـهيوني «دوف» بعد أن اختير له هذا الا سم الجديد وتعمقت المأ ساة في قلب سعيد س و صفية حين انتظرا ابنهما العائد من عمله في البيت الذي كان بيتهما حتى سنة ١٩٤٨ وإذا بـ«خلدون» «دوف» يأتي مرتديا بدلة ضابط في «جيش الدفاع» الصهيوني.. وتبدأ المواجهة كما سجلها غسان كنفاني في «عائد إلى حيفا» لنتفق مبدئيا رغم ما في الأمر من قسوة أن الإنسان موقف.

قال دوف – خلدون سابقا – لمن كان أباه سعيد س:

أنا لم أعرف أن ميريام وايغرات ليـ سا والدي إلا قبل ثلاث أو أربع سنوات. منذ صغري وأنا يهودي أذهب إلى الكنيس وإلى المدرسة اليهودية وآكل الكوشير وأدرس العبرية.

وحين قالا لي: إنني لسـت من صـلبهما لم يتغير أي شـيء. وكذلك حين قالا لي بعد ذلك أن والدي الأصليين هما عربيان لم يتغير أي شيء. لا، لم يتغير، ذلك شيء مؤكد.. إن الإنسان هو في نهاية الأمر قضية.

ونتابع تفاصـيل الحوار العاصـف بين الابن المسـلم – الفلسـطيني، والذي أصـبح يهوديا – صـهيونيا، بل ضـابطا في «جيش الدفاع» مع أبيه الحقيقي، إلى أنصـرخ دوف – خلدون سابقا – قائلا:

«كان عليكم ألا تخرجوا من حيفا، وإذا لم يكن ذلك ممكنا فقد كان عليكم بأي ثمن ألا تتركوا طفلا رضيعا في السرير وإذا كان هذا أيضا مستحيلا فقد كان عليكم ألا تكفوا عن محاولة العودة.. أتقولون إن ذلك أيضا كان مستحيلا؟ لقد مضت عشرون سنة يا سيدي! عشرون سنة. ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك؟ لو كنت مكانك لحملت السلاح من أجل هذا.. أيوجد سبب أكثر قوة؟ عاجزون. عاجزون. مقيدون بتلك السلاسل الثقيلة من التخلف والشلل.. لا تقل لي إنكم أمضيتم عشرين سنة تبكون.. الدموع لا تسترد المفقودين ولا الضائعين ولا تجترح المعجزات.. كل دموع الأرض لا تستطيع أن تحمل زورقا صغيرا يتسع لأبوين يبحثان عن طفلهما المفقود..».

لـــ «سعيد س» ابن آخر هو «خالد» الذي يعيش معه في رام الله، لكنه يمنعه من الالتحاق بالفدائيين وفي رحلة العودة الحزينة من حيفا إلى رام الله تمنى سعيد س أن يكون ابنه خالد قد هرب بالفعل من البيت لكي يلتحق بالفدائيين.. تأكد «سعيد س» أن «.. عشرات الألوف مثل خالد لا تستوقفهم الدموع المغلولة لرجال يبحثون في أغوار هزائمهم عن حطام الدروع وتفل الزهور، وهم إنما ينظرون للمستقبل، ولذلك هم يصححون أخطاءنا وأخطاء العالم كله.. إن دوف هو عارنا، ولكن خالد هو شرفنا الباقي..».

المجلد الثاني من «الآثار الكاملة لغسان كنفاني» هو الأضخم، لأنه يضم مجموعاته القصصية «موت سرير ١٣» و«أرض البرتقال الحزين» و«عالم ليس لنا»و«عن الرجال والبنادق» أما المجلد الرابع، فإنه يبرز لنا وجه غسان كنفاني الناقد والمحلل، ويضم هذا الكتاب ثلاث دراسات هي «أدب المقاومة في فلسطين المحتلة» و«الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال من ١٩٣٦ إلى ١٩٦٨» و«في الأدب الصهيوني» وقد صدرت الدراسة الأولى أول مرة سنة ١٩٦٦ أي قبل النكسة، وبهذا يكون غسان كنفاني هو الرائد الأول في دراسة ما اصطلحنا على تسميته « شعراء المقاومة الفلسطينية» أما الرائد الثاني بعد غسان، فهو – بحق – الكاتب والناقد الكبير رجاء النقاش.

في دراسة غسان كنفاني المبكرة تعريف واف ودقيق بشعراء المقاومة الفلسطينية الذين كانت قصائدهم نجوما مشعة بالإصرار والأمل وسط ظلمات النكسة القاسية، كما كان معهم الروائي الكبير إميل حبيبي، وهكذا يقدم لنا غسان كنفاني كلا من توفيق زياد وسميح القاسم

ومحمود درويش وسالم جبران ونايف سليم، ومن النماذج الرائعة التي أوردها غسان كنفاني في دراسته قصيدة «المستحيل» لتوفيق زيادة، والتي يستهلها قائلا:

أهون ألف مرة

أن تدخلوا الفيل بثقب إبرة

وأن تصيدوا السمك المشوي في المجرة

أن تحرثوا البحر

أن تنطقوا التمساح

أهون ألف مرة

من أن تميتوا باضطهادكم وميض فكرة

وتحرفونا عن طريقنا الذي اخترناه

قيد شعرة

كأننا عشرون مستحيل

في اللد والرملة والجليل

هنا على صدوركم باقون كالجدار

وفي حلوقكم كقطعة الزجاج.. كالصبار

لم يكتب غسان كنفاني عن شعراء فلسطين الذين عا شوا خارج أر ضها بعد سنة ١٩٤٨م أمثال هارون هاشم رشيد وفدوى طوقان، لكنه قدم لنا ما لم تكن نعرف عنه شيئا.. قصائد الشعراء الذين تشبثوا بتراب فلسطين، وبطبيعة الحال، فإن ما تضمه المجلدات الأربعة التي صدرت بعد غياب غسان كنفاني، ثم أعيد طبعها أكثر من مرة، لا تمثل كل ما كتبه هذا العاشق النبيل للحرية ولفلسطين، وقد أشارت إلى هذا الدكتورة رضوى عاشور في دراستها عنه.

ترتسم في أذهاننا جميعا صورة نمطية للكاتب المناضل، وهي صورة تفضل أن تبعده عن دائرة الحب،ومن هنا فقد ثار كثيرون ضد الكاتبة الكبيرة غادة السمان عندما قامت سنة ١٩٩٢م بإصدار كتاب «رسائل غسان كنفاني إلى غادة السمان» لأن هذه الرسائل – بطبيعة الحال – تكشف عن جانب العشق للمرأة، وهو الذي يتعارض مع الصورة النمطية للكاتب المناضل،والحقيقة أنني كنت واحدا ممن هاجموا هذا الكتاب، ولكن

لسـبب مختلف، فقد رأيت أنه ليس من حق غادة السـمان أن تنشـر رسـائل غسـان كنفاني وحدها، بل كان واجبا عليها أن تنشـر – ضـمن نفس الكتاب – رسـائلها هي إليه أيضا، حتى تتكامل جوانب الصورة، لا أن تطلعنا على ما تريد اطلاعنا عليه، وتخفي عنا ما تريد، وهذا الذي قلته عرفت – فيما بعد – أن أستاذنا الكبير الدكتور إحسان عباس قد قاله«.. فهذا الكتاب كان يجب أن يضم كل ر سالة وجوابها، لذلك فهو في شكله الحالي يمثل نصف الحقيقة والذي يكون أحيانا أشد تضليلا من الكذب».

بعيدا عن هذه القضية، فإن غادة السمان أشارت في عدد السبت ٩ يوليو ٢٠٠٢م من جريدة «الحياة» إلى أن لغسان كنفاني مقالات عديدة، نشرها با سم مستعار، وهنا أتوجه إليها وإلى كل المهتمين متمنيا أن يتحمسوا لجمع هذه المقالات حتى يتسنى لتراث هذا الكاتب العظيم والعاشـق النبيل أن يكتمل، وأتمنى هنا أيضـا أن تتشـجع غادة السـمان بنشر ر سائلها إلى غ سان ضمن طبعة جديدة من كتاب «ر سائل غ سان كنفاني إلى غادة السـمان» حتى تتجلى الحقيقة كاملة، لا نصـفها الذي يكون – كما قال الدكتور إحسـان عباس – أشد تضليلا من الكذب.

***

يا غسان.. يسألك الآن محمد درويش عن موعد الغداء الذي اتفقتما عليه يوم ٨ يوليو سنة ١٩٧٢ إذ لا أحد ممن قرؤوا لك وعرفوا من أنت يسـتطيع أن يتصـور أو يتخيل أنك قد غبت عنهم منذ ذلك اليوم، أنا واحد من هؤلاء،والدليل أني أريد أن أشـكرك الآن من كل قلبي على الليلة التي قضيت خلالها سهرة مطولة وممتعة معك.



بعد الرحيل المأساوي لتوفيق زياد

رحل الشاعر الذي ترددت أشعاره على كل الشفاه

كثيرة هي حوادث السـيارات في كل دول العالم.. كثيرة لدرجة دفعت كثيرين من المهتمين لأن ينظروا إليها على اعتبار أنها أصبحت أمرا عاديا يتكرر كل يوم، حتى لو كان الأمر كذلك.. حتى لو أن حوادث السيارات أصبحت أمرا عاديا، فإنها لا تبدو أمرا عاديا بالنسـبة لي، خاصـة إذا وقعت هذه الحوادث لأدباء وكتاب، نترقب منهم المزيد من العطاء الذي يثري الحياة ويروي عطش النفوس المتلهفة للجديد من الإبداع، فإذا بهذا الترقب ينتهي تمام بموت هؤلاء الذين يثرون الحياة.

يوم الثلاثاء ٥ يوليو سنة ١٩٩٤ رحل عن عالمنا شاعر المقاومة الفلسطينية الشهير توفيق زياد في أعقاب حادث مروع لسـيارته، بعد أن كان عائدا من لقاء مع الزعيم الفلسـطيني ياسـر عرفات الذي كان يزور مدينة أريحا، وقد وقع هذا الحادث المروع قرب مستوطنة ميشور أومين التي تقع على طريق يصل أريحا بالقدس.

قبل الحدث المروع الذي أودى بحياة توفيق زياد، أتذكر حادثا مماثلا أودى بحياة كاتب قاص وروائع رائع وكبير، هو الكاتب يحيى الطاهر عبد الله، وقع ذلك الحادث على طريق القاهرة – الواحات يوم ٩ أبريل عام ١٩٨١م، وقيل وقتها إن للصـهاينة دورا في تدبير حادث السـيارة التي كان يسـتقلها يحيى الطاهر عبد الله، لأنه كان دائم المتابعة والرصد لما كانوا يقومون به في مصر من خلال ما أسموه «معاهد الأبحاث».

وقبل الحادث الذي تعرض له توفيق زياد، والحادث الذي تعرض له – من قبله- يحيى الطاهر عبد الله، وقع حادث مروع في السـتينيات، وبالتحديد يوم ٤ يناير عام ١٩٦٠م، وأودى ذلك الحادث بحياة الكاتب الفرنسـي الكبير ألبير كامي، حيث ذهبت حياته عبثا، مثلما كانت كتاباته تشـير إلى أن الحياة ذاتها عبث في عبث،وما زلت أتذكر ما كتبه الدكتور عبد الرحمن بدوي – في كتابه «دراسـات في الفلسـفة الوجودية – عن موت ألبير كامي، حيث قال: «.. اصـطدمت السـيارة في انحرافها، لتفادي عربة نقل، بشـجرة دلب، فمات ثاني أصـغر حاصـل على جائزة نوبل للآداب، مات لفوره دون «تمرد» ولا «مقاومة».. مات ميتة «لا معقولة» ذلك الذي رأى أن كل ما في الوجود «لا معقول» وإن لم ينقطع رجاؤه في الإنسان».

ذات ليلة، من ليالي سنة ١٩٩٢، كنت أ شارك بالحضور في مهرجان أدبي في القاهرة، عند باب إحدى قاعات دار الأوبرا المصـرية، اسـتوقفني الشـاعر الرائد الكبير بلند الحيدري، قائلا لي بلهجته المحببة: «آن الأوان لأن تتعرف بشـاعر تحبه، لكنك لا تعرفه».. وعلى الفور أشار إلى إنسان، كان بجواره وقال: «.. أقدم لك توفيق زياد».

أخيرا، هذا هو توفيق زياد، أخيرا أتهيأ لأصـافح شـاعر المقاومة الفلسـطينية الذي أحفظ عددا من قصـائده عن ظهر قلب، أخذنا نتبادل أحاديث تلقائية سـريعة، ونحن نغادر دار الأوبرا في اتجاه فندقي شـبرد وسـمير اميس وعلى مرأى من النيل الجميل والجليل، شدتني في توفيق زياد بـ ساطته الرائعة، ولفت نظري ميله إلى الدعابة من خلال اصـطياده للمفارقات في الحياة والتعليق عليها بصـورة سـاخرة، لكنها ليسـت جارحة. رجوته أن يسمح لي بإجراء حوار معه عندما نصل الفندق الذي يقيم فيه، أشار إلى زوجته التي كانت معه قائلا: .. وأنا أيضـا أتمنى إجراء هذا الحوار.. ولكن اسـألها.. اسـأل زوجتي.. إننا سـنغادر القاهرة بعد عدة سـاعات، ولم نرتب أغراضـنا حتى الآن، على أي حال، فإن الأيام بيننا، وإذا كنا قد التقينا على أرض مصر الحبيبة، فإنني أتصور أنك تتطلع إلى زيارة فلسـطين.. فليكن اللقاء هناك، وأرجو أن يكون قريبا... ومد توفيق زياد يده ليصـافحني، فتصـافحنا ثم تعانقنا على أمل اللقاء... اللقاء الذي لن يتحقق أبدا، بعد أن تكفل الحادث المروع الذي تعرض له بإلغاء الأمل في اللقاء.

الكتابة عن توفيق زياد ليست عملية سهلة، فضلا عن أنها شائكة في بعض تفاصيلها. لكن هناك معادلة قديمة كانت دائما تقفز إلى ذهني، منذ بدأت أنا وغيري نتعرف على شعر المقاومة الفلسطينية في أعقاب كارثة الخامس من يونيو – حزيران عام ١٩٦٧م.

قبل هذا التاريخ، كنا جميعا بالطبع نعرف الشـاعرة الفلسـطينية الكبيرة فدوى طوقان، بحكم أنها شـاعرة رائدة، وأن تجربتها في الشـعر أقدم من تجارب من اصـطلحنا على تسـميتهم بشـعراء المقاومة الفلسـطينية. بعد هذا التاريخ – الخامس من يونيو حزيران ١٩٦٧م – بدأنا نتعرف على ثلاثة أ سماء، كانت جديدة علينا، محمود درويش – سميح القاسـم – توفيق زياد. وقبل أني مر عامان، كنت أقتني عددا كبيرا من دواوين هؤلاء الشعراء الثلاثة، مع المتابعة الدقيقة لهؤلاء.. بدأت تتشكل في ذهني المعادلة التي قفزت إلى ذهني من جديد وأنا أتذكر توفيق زياد.

تتمثل هذه المعادلة في أن محمود درويش أكثر هؤلاء الشعراء الثلاثة وأكبرهم موهبة فنية، لكنه – في نفس الوقت – أقلهم التزاما سيا سيا، أما سميح القا سم فإنه ا ستطاع أن يوازن بين فنه الشعري والتزامه السياسي، في حين أن توفيق زياد أكثر هؤلاء الشعراء الثلاثة وأكبرهم التزاما سيا سيا، لكن موهبته الفنية لا ترقى إلى مستوى محمود درويش وسميح القاسم.

هل هذه المعادلة القديمة التي قفزت إلى ذهني من جديد، معادلة صحيحة؟.. أعتقد أنها كذلك في إطارها العام العريض. لكني كنت أتصور أن محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد من أبناء جيل واحد، وقد جاء هذا التصور نتيجة اقتران هذه الأسماء الشعرية ببعضها في توقيت زمني وا حد، هو ما بعد الخامس من يونيو – حزيران ١٩٧٦م... الآن أستطيع القول إن هذا التصور ليس صحيحا، صحيح أن محمود درويش وسميح القاسم من أبناء جيل واحد، فالأول ولد عام ١٩٤١م وبالتحديد يوم ١٣ مارس من ذلك العام، والثاني – سميح – ولد عام ١٩٣٩م، الأول من قرية «البروة» والثاني من قرية «الرامة».. عامان لا أكثر يفصلان بين محمود درويش و سميح القا سم، أما توفيق زياد فقد ولد قبلهما في مدينة النا صرة، حيث سبقهما بعدة سنوات، وإن كنت لا أعرف على وجه التحديد سوى أنه ولد يوم ٧ مايو عام ١٩٢٩، ومن هنا فإنه أقدم منهما تجربة في الفن وخبرة في السياسة.

الدرا سة الأولى التي صدرت عن شعر المقاومة الفلسطينية وتتضمن كذلك نماذج شعرية وقصصية،هي درا سة الكاتب الفنان العظيم غسان كنفاني، صدرت هذه الدراسة عام ١٩٦٦م، لكنها لم تحقق انتشارها الواسع إلا بعد الخامس من يونيو – حزيران عام ١٩٦٧م، ومن النماذج الشعرية التي تضمنتها درا سة غسان كنفاني قصيدة «المستحيل» الشهيرة التي كتبها توفيق زياد عام ١٩٦٥م.. ومطلعها:

أهون ألف مرة

أن تدخلوا الفيل بثقب إبرة

وأن تصيدوا السمك المشوي في المجرة

أن تحرثوا البحر

أن تنطقوا التمساح

أهون ألف مرة

من أن تميتوا باضطهادكم وميض فكره

ولعل كثيرين ممن تابعوا تلك المرحلة فيما بعد أن يتذكروا أن هذه القصيدة كانت من بين القصائد القليلة التي غناها الشيخ إمام عيسى لغير أحمد فؤاد نجم،فضلا عن أن فرقة «الطريق» العراقية قد غنت هذه القصيدة، ربما أثناء الحصار الصهيوني لبيروت العربية يونيو – حزيران عام ١٩٨٢م.

بعد دراسة غسان كنفاني، صدرت دراسة أخرى متكاملة وهامة للناقد الكبير رجاء النقاش، صدرت هذه الدراسة في يوليو عام ١٩٦٩م بعنوان «محمود درويش شاعر الأرض المحتلة»، وإذا كان الناقد الكبير قد خصص دراسته لشاعر واحد من شعراء المقاومة، فإنه لم يغفل – في نفس الوقت – دراسة سميح القاسم وتوفيق زياد في ثنايا فصول دراسته.

يتذكر الذين تابعوا مرحلة ظهور شعر المقاومة الفلسطينية، قضية نقدية كان الناقد د. غالي شكري قد أثارها وقتها، تتمثل هذه القضية في السؤال التالي: هل الشعر الذي يأتينا من الأرض الفلسطينية المحتلة شعر مقاومة أم شعر معارضة؟.. كان رأي غالي شكري – وقتها ولا أدري إن كان تغير فيما بعد أم لا – أن هذا الشعر ليس شعر مقاومة، وإنما هو شعر معارضة من داخل النظام، لأن أصحاب هذا الشعر لا يقاومون – وهم في الداخل – الاحتلال الصهيوني لأرض وطنهم، وإنما يعارضون سياسة النظام الصهيوني «في إسرائيل» لكي يتم رفع الظلم عن العرب الذين يعيشون على أرضها، وفضلا عن هذا

فإن هؤلاء الشعراء يحملون جوازات سفر «إسرائيلية». وقد تصدى لتفنيد هذا الرأي الظالم كثيرون من النقاد والأدباء والصحفيين في ذلك الوقت.

من بين الانتقادات التي وجهت إلى شعر توفيق زياد على وجه الخصوص ما قاله الشاعر الفلسطيني د. عز الدين المناصرة، حيث قال: «.. إن التصاق توفيق زياد بالجماهير يجعله خادما لها، يقدم لها ما تطلبه لا ما يريده الشاعر لجماهيره، وعندما يقدم الشاعر ما تطلبه الجماهير وليس ما يريده هو للجماهير فإن الشعر يصبح خادما للشاعر وليس خادما للجماهير، لأنه يجري مع الأحداث ولا يساهم فيها بل يصفها وصفا خارجيا يساعد على الكسل العقلي رغم قوته الظاهرية..».

جاء هذا الانتقاد في ثنايا الدراسة التي كتبها عز الدين المناصرة باعتبارها مقدمة لديوان توفيق زياد، والواقع أن هذا الانتقاد يذكرنا بالمثل المصري «اللي ايده في الميه مش زي اللي ايده في النار».. فعز الدين المناصرة لم يكابد الحياة اليومية بكل صعوباتها وتحدياتها ومشاقها داخل كيان «إسرائيل»، وإنما كان يتفرج على ما يجري في الداخل، بينما هو في الخارج، وفضلا عن هذا فإن الشاعر الذي يتجاوب مع الناس ويصور أحلامها وتطلعاتها وعذاباتها يظل شاعرا له دوره في الحياة وله تأثيره على مجرياتها، وهو بالطبع غير الشاعر الذي يتصور أن الناس لا تفهم وأنه الوحيد الذي يفهم، فيندفع إلى التعالي على مواطنيه وناسه وأهله.

على كل حال، فإن توفيق زياد – من خلال فهمه الخاص لمهمة الشعر ومزج هذه المهمة بالنضال السياسي – قد استطاع – حتى باعتراف الذين ينتقدونه – أن يكون شاعرا جماهيريا، بحيث إن أشعاره كانت تتردد على كل الشفاه العربية، سواء شفاه الذين يعيشون داخل الأرض الفلسطينية المحتلة أو خارجها.

توفيق زياد، شاعر أحبته الناس وأحب الناس، وكرس شعره – بصرف النظر عن تفاوت مستواه الفني – لخدمة قضية وطنه، وإذا كان قد رحل عن عالمنا، نتيجة حادث السيارة المروع، فإن شعره سيظل وثيقة فنية وتاريخية هامة من وثائق نضال الإنسان العربي – الفلسطيني ضد القوى الصهيونية التي جثمت على أرض فلسطين، وأعلنت قيام دولتها في ١٥ مايو عام ١٩٤٨م.. وهكذا فإننا سنبقى نذكر توفيق زياد.. شاعرا ومناضلا على الرغم من رحيله المأساوي عن عالمنا.



محمود درويش..شاعر عالمي
رغم أنف جائزة نوبل!
لماذا حكم بالإعدام على عصافير بلا أجنحة ؟!

يمكنني أن أعلن عن فرحي أمام الآخرين، خصوصاً إذا كان هذا الفرح جماعياً وليس فردياً، لكني - في المواقف المؤلمة - أحاول أن أضبط مشاعري وألاَّ أجهش بالبكاء أمام من يتصادف وجودي معهم، حتى لو كانوا من أحب الأصدقاء، وأعترف الآن بأن محاولاتي لضبط انفعالاتي قد فشلت تماماً حين تلقيت نبأ رحيل محمود درويش عن عالمنا مساء السبت ٩ أغسطس - آب ٢٠٠٨.

أتذكر تماماً ما جرى في ذلك المساء الفاجع، وهو ما سجلته فيما بعد.. كنت أجوب شوارع القاهرة التي أعشقها، و بدافع الحنين إلى ما كان، فإني اقتربت من مقهى ريش العريق، والذي كنت أنعم فيه - أنا وأبناء جيلي - بلقاءات جميلة مع نجيب محفوظ - العملاق، ومع شاعرين عربيين كبيرين، هما عبدالوهاب البياتي ومحمد الفيتوري.. حين اقتربت من المقهى لمحت يداً تلوح وتشير لي داعية إياي للدخول.. دخلت.. وجدت أمامي أحد أصدقائي القدامى - الكاتب والشاعر خيري منصور.. تعانقنا، وفي لحظات العناق - وبصوت متهدج ملتاع - قال لي خيري: البقية في حياتك .. لم أصدقه، ويبدو أنه هو كذلك لم يكن يصدق ما قاله.. لحظة أمل شاحب تعلقنا بها، كما يحاول الغريق أن يتعلق بأي شيء يراه طافياً أمامه، فقد ذكرت إحدى القنوات الفضائية - العربية أن النبض ما يزال يسري في عروق الغالي محمود درويش، لكن اللحظة التي تعلقنا بها لم تكن سوى وهم، وكنا - خيري وأنا - نحاول التشبث بهذا الوهم وأن نجسده حقيقة تغمر قلبينا بالطمأنينة!.

رجاء النقاش و صلاح عبدالصبور كانا من الأصدقاء الرائعين لمحمود درويش، وفي بيت كل منهما أتيح لي أن أقترب من عالم محمود درويش الإنسان - لا الشاعر، وقد رحل رجاء النقاش عن عالمنا، وغاب - جسدياً - عن أحبابه يوم الجمعة ٨ فبراير - شباط ٢٠٠٨ وقبل غيابه كان محمود درويش قد وجه إليه رسالة رائعة، يقول فيها:

كنتَ وما زلتَ أخي الذي لم تلده أمي.. منذ جئت إلى مصــر، باحثاً عن أفق، وجدتُ في كنفك حرارة البيت وحنان العائلة، أخذتَ بيدي، وأدخلتني في قلب القاهرة الإنســاني والثقافي، فعلمتني كيف أأتلف، وكيف اختلف، وكيف أكون أنا وســواي في آن واحد، وكنتَ من قبل قد ســاعدت جناحي على الطيران التدريجي، فعرَّفتَ قراءك عليَّ وعلى زملائي القابعين خلف الأسوار.. .. أما ما لم يتنبه إليه أحد، فيتمثل في أن مراسم تشييع محمود درويش في رام الله كانت يوم الأربعاء ١٣ أغسطس ٢٠٠٨ وهو نفس اليوم الذي رحل فيه صلاح عبدالصبور عن عالمنا قبل ثمانٍ وعشرين سنة، أي يوم ١٣ أغسطس سنة ١٩٨٠.. أهي مجرد مصادفة، أم أن هؤلاء الثلاثة الكبار الذين أحببتهم قد شاءوا – دون أن يقصدوا – أن يتلاقوا في قلبي بعدما عزَّ اللقاء ؟!.

أقفز الآن من ســنة ٢٠٠٨ عائداً إلى ســنة ١٩٧١ ففي شــهر فبراير من تلك الســنة كانت المفاجأة الكبيرة التي وقعت في حياتنا الأدبية، فقد وصــل محمود درويش إلى القاهرة للإقامة بها تحت تأثير الإرهاب الإســرائيلي العنيف، ورغبة منه في أن يعلن للعالم كل ما يعرفه عن آلام العرب في الأرض المحتلة.. وقد كانت للمفاجأة الكبيرة – كما يقول رجاء النقاش في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه محمود درويش شــاعر الأرض المحتلة – أصــداء واســعة لا في الأرض العربية الرحبة وحدها، وإنما في داخل أرض فلسطين المحتلة منذ سنة ١٩٤٨ وعلى سبيل المثال، فإن الحزب الشيوعي هناك أصدر قراراً جاء فيه .. تقرر سكرتارية منطقة حيفا للحزب الشيوعي.. فصل محمود درويش من الحزب.. ولم يهتم الشاعر العظيم وقتها بمسألة فصله، لكن الذين فصلوه هم الذين دعوه – فيما بعد – وبالتحديد يوم الأحد ١٥ يوليو – تموز سنة ٢٠٠٧ لكي يحيي أمسية شــعرية، كانت رائعة بكل المقاييس، مما دفعني للكتابة عنها في جريدة «الراية القطرية» بعد يومين بالضبط، وكانت عناوين ما كتبته بالنص:

قلبي اندفع مسافراً إليه وهو في حيفا العربية – محمود درويش يعيدنا إلى فلسطين بعد أن كنا فقدنا اليقين – علم فلسطين سقط في غزة ليرتفع في حيفا! – نعم يا حبيبي.. على هذه الأرض ما يستحق الحياة .. .

في نفس اليوم الذي أعلن فيه عن وصـول محمود درويش إلى القاهرة، كلفني أسـتاذي و صديقي العظيم صلاح عبدالصبور بالذهاب إليه، وأتذكر أني ذهبت إليه في إحدى الشقق بحي جاردن سـيتي في القاهرة، و قد وقعت لي - وقتها - مفاجأة لكنها محرجة، ذلك أني اندفعت لأعانق الكاتب السوري الكبير ياسين رفاعية على أساس أنه محمود درويش، فإذا به يضحك ضحكة هادئة، ويشير بيده: هذا هو محمود أما أنا فا سمي يا سين رفاعية.. وفيما يتعلق بإحدى الصور التذكارية التي أعتز بها فإنها ترجع إلى شهر مايو سنة ١٩٧١ أمام مسرح الطليعة في القاهرة، وكان وقتها يعرض مسرحية ليلى والمجنون لصلاح عبدالصبور الذي دعا محمود درويش لحضـور أحد عروضـها، وكانت معنا الراحلة - فيما بعد - سـميحة غالب زوجة صلاح عبدالصبور، وها أنذا أعود الآن إلى هذه الصورة التي أتأملها، وأتذكر أن محمود درويش كان قد جاء مرتدياً قميصـاً خفيفاً، فقال لصـلاح عبدالصـبور مداعباً: أنا وحدي الذي لا أرتدي بدلة كاملة ولا كرافتة .. أنتم أحرار.. أما أنا فإن الحرارة تضـايقني، ولهذا جئت مرتدياً قميصاً.. وأنا كذلك حر!!.

قبل أن تتكرر لقاءاتي مع محمود درويش، كنت قد عرفته شـاعراً كبيراً من خلال دواوينه التي حرصـت على اقتنائها ابتداء من سـنة ١٩٦٨ وأتذكر - بفخر وفرح - أني ا ستطعت الحـصول على بعض دواوين محمود درويش و سميح القا سم و سالم جبران وتوفيق زياد، وهي دواوين مطبوعة في مدينتي عكا و حيفا العربيتين الفلسـطينيتين والمحتلتين منذ سـنة ١٩٤٨، وقد حرصـت أن أصـطحب هذه الدواوين من مكتبتي في القاهرة إلى مكتبتي في ا لدو حة، لكي تظل أ مامي، وأعود إليها بين حين وآخر، لكي أطمئن نفسـي بأنها ما تزال معي دون أن تختفي أو تضـيع، ومن هذه الدواوين أوراق الزيتون لمحمود درويش في طبعته الثانية - تموز ١٩٦٨ - دار الجليل للطباعة والنشـر - عكا، أما الطبعة الأولى فإني لم أحصـل عليها، لكنها صـدرت في تموز سـنة ١٩٦٤ عن دار الكتب المختارة في حيفا.

أوراق الزيتون هو الديوان الثاني لمحمود درويش، أما ديوانه الأول فهو بعنوان عصافير بلا أجنحة وقد حكم عليه صاحبه بالإعدام دون شفقة، فلماذا أعدمه؟!

السر في هذا أن محمود درويش كان قد تسرع عندما أصدر هذا الديوان سنة ١٩٦٠ أي عندما كان عمره تسع عشرة سنة، ولم يكن ناضجاً فكرياً ولا شعرياً بطبيعة الحال، وقارئ هذا الديوان – وعندي منه أكثر من نسخة – يستطيع أن يعرف على الفور كم كان محمود درويش – الفتى المراهق – يحاول تقليد نزار قباني بكتابة قصائد مثيرة عن النساء وسحرهن وكيدهن، وكان لا بد أن يطلب محمود درويش – بعد نضجه الفني والإنساني – من جميع الناشرين ألا يقوموا بطبع عصافير بلا أجنحة فضلاً عن أنه أسقطه نهائياً من قائمة دواوينه في طبعاتها المختلفة، وربما لم يلتفت أحد من النقاد والدارسين لهذا الديوان باستثناء رجاء النقاش، حيث قال في كتابه الجميل عنه – ص ١٢٢ من الطبعة الثانية – إننا نجد معظم ديوانه الأول عصافير بلا أجنحة مكتوباً بالشكل التقليدي.. وأما صاحب عصافير بلا أجنحة فإنه يقول عنه .. إنه ديوان لا يستحق الوقوف أمامه.. كنت في سنتي الدراسية الأخيرة، وكان الديوان تعبيراً عن محاولات غير متبلورة.. .

دون شفقة، أعدم محمود درويش عصافير بلا أجنحة فلماذا يستطيع شاعر أن يقوم بهذا الفعل؟.. بكل بساطة، أقول إنه كان يدرك تمام الإدراك أن في أعماقه شاعراً عظيماً، لكنه لم يتشكل بعد، وفيما بعد ومن خلال مراحل فنية متعاقبة، تمكن شاعر عصافير بلا أجنحة أن يصبح – أولاً – أكبر شاعر من شعراء المقاومة الفلسطينية ومع إصراره على الإخلاص للشعر، فإنه تمكن من الانطلاق من مرحلة كونه مجرد شاعر مقاومة ضد المحتل العنصري لوطنه إلى مرحلة، تحقق له فيها أن يصبح شاعراً إنسانياً شاملاً، حتى وإن كان ينطلق من واقع أرضه الفلسطينية، وهذا ما يجعلني أقول بأعلى الصوت إنه شاعر عالمي رغم أنف جائزة نوبل للآداب التي لم تمنح له، والحق أن ما مر به عطاؤه الشعري من مراحل فنية متعاقبة لم يكن بالأمر الهين اللين، وهذا ما يجعلني أقف أمام هذا العطاء الشعري مسحوراً ومبهوراً بقدرة صاحبه الفائقة على تجاوز ما سبق، وهي قدرة لا يستطيعها إلا الشاعر العظيم والمخلص في آن واحد لفن الشعر.



محمود درويش .
من فلسطين إلى الآفاق الرحبة استطاع الإفلات من نزار قباني ولم يقع في أسر لوركا!

في الحياة، كما في الفن.. هناك من يجودون بالعطاء باستمرار، لكن منهم من هم شحيحون وبخلاء.. الطيب صالح نموذج للروائي الكبير الذي يبخل بالعطاء الروائي، وعلى النقيض فإن نجيب محفوظ ظل روائياً عظيماً يتجدد كالبحر فتتجدد معه الحياة.. الأمر ذاته ينطبق بالطبع على الشعراء، فهناك من كتبوا ويكتبون بغزارة، لكن عطاءهم الشعري سطحي وهزيل، من هؤلاء- على سبيل المثال- الدكتور أحمد زكي أبو شادي الذي أصدر خلال حياته ما يزيد على عشرين ديواناً، ومع هذا فإننا لا نتذكر مما كتبه إلا قصائد قليلة رائعة، وهناك من يكتبون أقل القليل، لكن عطاءهم الشعري- برغم قلته- يظل متجدداً، بحيث يستطيع التواصل مع كل جيل من القراء والمتلقين، والمثال الساطع هنا هو أمل دنقل.. وغير هؤلاء وأولئك، هناك شعراء كبار كتبوا وأبدعوا بغزارة وبعمق في آن واحد، والمثال المشرق لهؤلاء هو محمود درويش. تتجلى عظمة محمود درويش الشعرية في كونه شاعراً ظل يتجاوز ذاته باستمرار، فالجديد عنده ليس اجتراراً ولا تكراراً للقديم الذي سبق أن قدمه، وإنما يمثل إضافة حقيقية لرصيده الشعري الضخم وللشعر العربي، بل والعالمي بصورة عامة. ولعلنا نتذكر أننا جميعاً قد عرفناه وأحببناه منذ ستينيات القرن العشرين وبالتحديد بعد نكسة يونيو- حزيران ١٩٦٧، وأطلق النقاد وقتها مصطلح شعراء المقاومة الفلسطينية على عطائه وعطاء رفاقه، ابتداء من معلمهم وأستاذهم توفيق زياد إلى سميح القاسم وراشد حسين و سالم جبران وحنا أبو حنا، وقد أضاءت قصائد هؤلاء سماء الأرض العربية، وبددت الكثير من ظلمات النكسة وأجوائها الكئيبة، وكانوا - جميعاً- تقدميين يساريين ملتزمين، لكن منهم من أخلص للسياسة أكثر من إخلاصه للشعر، فظل يكرر نفسه شعرياً، وكان منهم من حاول أن يوازن بين السياسة والشعر، أما محمود درويش فإنه كان يرى أن وجوده يتمثل في كونه شاعراً، وأن الشعر وحده يستطيع أن يتحمل أعباء رسالته الإنسانية إلى سواه.

لو أننا نظرنا- كما قلت من قبل- إلى الديوان الأول لمحمود درويش، وهو ديوان عصافير بلا أجنحة الذي أصدره عندما كان عمره تسع عشرة سنة، فإننا نرى أمامنا شاباً مراهقاً، يحاول تقليد نزار قباني تقليداً فجأة أعمى في قصائد ذلك الديوان، بل حتى في المقدمة التي تتصـــدره، حيث نجد لغة نزار قباني النثرية طاغية تماماً على تلك المقدمة. ومن هنا، فإن محمود درويش حكم بالإعدام على عصـافير بلا أجنحة وأهمله تماماً من قائمة دواوينه الشـعرية، لكن عطاءه الشـعري- فيما بعد- وبالذات خلال المرحلة الأخيرة، ظل متماهياً ومنسـجماً مع عطاء الشـاعر الأسـباني الشـهير والشـهيد فيديريكو جارثيا لوركا، تماماً مثلما أعجب كثيرون من رواد الشـعر الحر بما أبدعه لوركا، ومن هؤلاء الرواد الكبار بدر شاكر السياب و صلاح عبدالصبور وعبدالوهاب البياتي، لكن إعجاب هؤلاء بلوركا توقف عند حدود معينة، أما محمود درويش الذي تمكن- بوعيه ونضـجه- من الإفلات من تأثير نزار قباني، فإنه اسـتطاع كذلك أن يفلت من شـباك فيديريكو جارثيا ليوركا، محاولاً ألا يقع في أسـره، فكأنه كان يحاول- عندما اكتمال نضجه- أن يعارض لوركا، مع إدراكه العميق بأنه لا يريد أن يصبح نسخة متكررة منه، وهكذا ظل إعجابه به قائماً وواضـحاً، دون أن يسـلمه هذا الإعجاب إلى مصـيدة الأسر وكمائنه القاسية.

ولكي لا يكون كلامي نظرياً فحسـب، فإني أتصـور أن المقارنة بين تأثير لوركا على محمود درويش قبل اكتمال النضـج يتضـح في قصـائد عديدة من ديوان عاشـق من فلسـطين وبالذات القصـائد التي تحمل عنوان أزهار الدم وهنا نتذكر أن أزهار الدم هو عنوان لمسـرحية شـعرية للوركا، أما اكتمال النضـج عند محمود درويش فإنه يتمثل في قصـائد المجلد الضـخم الأعمال الجديدة حيث يشـعر القارىء المتمهل أن لوركا قد أنصهر في أعماق محمود درويش، لكن هذا الانصهار لم يمنع محمود درويش من الحفاظ على استقلاله الفني دون استسلام لسحر الشاعر الأسباني الشهير والشهيد، وهنا أشـير - على وجه التحديد- إلى قصـيدتين رائعتين، أولاهما بعنوان الكمنجات والثانية بعنوان تمارين أولى على جيتار أسبانية وفيها يقول:

جيتارتان

تتبادلان موشحاً

وتقطعان

بحرير يأسهما رخام غيابنا

عن بابنا..

وترقصان السنديان

... الماء يبكي والحصى والزعفران

والريح تبكي...

لم يعد غدنا لنا..

والظل يبكي خلف هيستريا حصان

مسه وترٌ، وضاق به المدى

بين المدى والهاويه

فاختار قوس العنفوان...

انطلق محمود درويش من أرض فلسطين بخطوات واثقة تتمثل في أوراق الزيتون و عاشق من فلسطين ومن أرض فلسطين كان لابد لرؤية الشاعر العظيم أن تتسع، ولروحه العبقرية أن ترفرف فوق الأرض العربية كلها، إلى أن اكتمل النضج تماماً، وهنا نستطيع الإ شارة إلى الشاعر العالمي وليس مجرد الفلسطيني- العربي محمود درويش الذي انطلق من المحلية إلى الإنسانية جمعاء، لترفرف ابداعاته الرائعة في الآفاق الرحبة التي لم يصل إليها إلا بالإخلاص للشعر وقدرته الفائقة على تجاوز ما سبق، دون تلكؤ أو تكاسل أو استسلام لما كان قد تحقق بالفعل.

أتوقف الآن عند القصيدة المطولة جدارية محمود درويش التي صدرت في طبعتها الأولى يونيو سنة ٢٠٠٠، وتتجلى فيها كل روعة ا ستدعاء الإنسان لأ شواقه في لحظات مواجهة القادم المجهول الذي يتهدد كل الناس وكل الكائنات الحية، وإن كان الإنسان وحده هو القادر على تصوير تلك اللحظات الحاسمة والصعبة. ذكرتني الجدارية – القمة بقصة قصيرة رائعة، كنت قد قرأتها لأول مرة في الستينيات من القرن العشرين وهي لكاتبنا العظيم نجيب محفوظ الذي اختار أن يسميها ضد مجهول لكن هناك فارقا مهما، يتمثل في أن محمود درويش قد عاش لحظات مواجهة القادم المجهول بنفسه، أما نجيب محفوظ فقد عاش نفس التجربة، ولكن من خلال التمثيل الواعي والعميق.

وبعيداً عن قصة ضد مجهول فإن جدارية محمود درويش جعلتني أستعيد عوالم شعرائنا العرب القدامى والمحدثين، وهم يصورون مواجهة الإنسان للمصير المحتوم، وهكذا استعدت – أولاً – القصيدة الخالدة لأبي العلاء المعري.

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي

نوح باك ولا ترنم شاد

وشبيه صوت النَّعِّي إذا..

قيسَ بصوت البشير في كل نادِ

وا ستعدت كذلك تجارب أبي القا سم الشابي ومحمد عبد المعطي الهمشري وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري وصلاح عبد الصبور، خاصة في قصيدته الرائعة شذرات من حكاية متكررة وحزينة التي يتضمنها ديوانه السادس الإبحار في الذاكرة ، وفيها يقول:

أشتفُّ حضورك في صحراء الوقت

استشعر وقعك في صخر الصمت

تعروني البهجة

ثم يفاجئني كالمطر المتقطع

حس الخوف من الموت

.. يومي عريان

يومي أقسى عريا من جذع الشجره

فلأحفر في ماضي الأزمان

فلعلِّي ألقي بعض الأعشاب النضره

أو بعض الأوراق الخَضِره

واأسفاه - نَقَّر فيها عصفور النسيان

أَبعدْ عن البستان

أَبعدْ هذا الشرير عن البستان

تطل علينا قصيدة جدارية لمحمود درويش بعد ديوانيه الحافلين بالشعر بكل معنى الكلمة، وهما لماذا تركت الحصان وحيدا و سرير الغريبة وإذا كان البطل المهيمن على قصائد هذين الديوانين - بصفة عامة - هو المكان، فإن البطل المهيمن على جدارية هو الزمان الذي يكاد يكون مطلقا وجارفا بعنفوانه كل الأشياء، حتى المكان ذاته.

الرغبة في العودة إلى زمان الأمس ملاذ يحتمي فيه الخائف من زمان الغد، لأن الغد فيه مواجهة للقادم المجهول الذي يحاول الإنسـان - الكائن الحي أن يهرب منه أو أن يتحداه وليكن ما يكون.

يقول محمود درويش:

في كل ريخ تعبث امرأة بشاعرها

- خذ الجهةَ التي أهديتني

الجهة التي انكسرت وهاتِ أنوثتي

لم يبق لي إلا التأمل في تجاعيد البحيرة..

خذ غدي عني

وهاتِ الأمس، واتركنا معاً

لاشيء، بعدك، سوف يرحل أو يعود

... قال الصدى

لا شيء يرجع غير ماضي الأقوياء

على مسلات المدى.

(ذهبية آثارهم.. ذهبية).. ورسائل الضعفاء للغدِ أعطنا خبز الكفاف، وحاضرا أقوى فليس لنا التقمص والحلول ولا الخلود وإذا كانت الحياة - كما رآها شكسبير - مسرحية كبيرة، فإن محمود درويش يتساءل عما إذا كان قد قرأ المسرحية قبل العرض أم أنها قد فرضت فرضا عليه:

وأنا الغريب. تعبت من درب الحليب

إلى الحبيب.. تعبت من صفتي.

يضيق الشكل. يتسع الكلام. أفيض عن حاجات مفردتي. وأنظر نحو نفسي في المرايا: هل أنا هو؟

هل أؤدي جيداً دوري من الفصل الأخير وهل قرأت المسرحية قبل هذا العرض أم فُرضتْ عليَّ؟

وهل أنا هو من يؤدي الدور أم أن الضحية غيرت أقوالها لتعيش ما بعد الحداثة، بعدما انحرف المؤلف عن سياق النص وانصرف الممثل والشهود؟... صعب تماماً أن نجتزيء سطوراً أو فقرات من جدارية للاستشهاد، فالقصيدة - القمة تستعصي على التجزئة، إنها كائن خرافي جميل، لا نملك إلا أن ننظر إليه - مجتمعا ومكتملا - ونحن في حالة انبهار!

محمود درويش
من الالتزام الحزبي إلى الانتماء العربي !
لماذا انتصر للأكراد ضد القومية العربية في البداية؟

هل يولد العبقري عبقريا ... أم أن العبقرية لا تتجلى ولا يمكن أن يتألق صاحبها ويتفوق على سواه إلا عبر مراحل النضج التي يجتازها على امتداد حياته ؟ هذا هو السؤال الذي أبادر بطرحه في أجواء الذكرى الثانية لغياب الشاعر الفلسطيني – العربي – العالمي محمود درويش، حيث غاب هذا الشاعر العظيم عن محبيه وعن الحياة يوم التاسع من أغسطس سنة ٢٠٠٨ مخلفا وراءه ثروة أدبية لا تقدر بثمن ، لا على صعيد الشعر وحده ، بل على صعيد الشعر والنثر معا .

الإجابة على هذا السؤال لن تكون سهلة بطبيعة الحال ، لو شئنا أن نتحدث عن العبقرية والعباقرة في مختلف الفنون ، وليس هذا ما أقصده ، فكل ما في الأمر أني أود أن أتحدث عن شعرائنا العرب الكبار والعظماء – قبل سطوع نجم محمود درويش – لكي نعرف هل كانت بدايات هؤلاء توحي أو تؤكد أنهم سيصبحون كبارا وعظماء أم أن هذه البدايات لم تكن تتيح لنا أن نعرف ما استطاع هؤلاء أن يحققوه فيما بعد ؟

هنا لا بد من أن نضرب أمثلة ملموسة وواضحة ، لكي نهتدي إلى طريق الصواب حين نحاول الإجابة ، فلو أننا نظرنا على سبيل المثال إلى بدايات بدر شاكر السياب ، فإننا سنتذكر أنه قد أصدر ديوانه الأول – أزهار ذابلة – سنة ١٩٤٧ وكان عمره وقتها إحدى وعشرين سنة ، ومن يقرأ هذا الديوان لن يجد فيه ما يوحي بأن صاحبه سيكون شاعرا عظيما ، ولهذا السبب لم يشأ الشاعر أن يختار منه سوى ست قصائد لا أكثر حين أصدر مختارات منه فيما بعد ، أما صلاح عبد الصبور فإن ديوانه الأول – الناس في بلادي – قد صدر عندما كان صاحبه في السابعة والعشرين من عمره ، وكان ديوانا مثيرا لاهتمام الساحة الأدبية العربية كلها .

ماذا عن محمود درويش ؟

لقد تسرع هذا الشاعر العظيم حين أصدر ديوانه الأول – عصافير بلا أجنحة – سنة ١٩٦٠ وكان وقتها شابا مراهقا في التاسعة عشرة من عمره ، ويبدو أنه قد ندم أشد الندم فيما بعد على تسرعه هذا ، مما دفعه لأن يحكم بالإعدام على هذا الديوان – كما سبق لي أن أوضحت في أكثر من مقال – بمعنى أنه قام بإلغاء هذا الديوان نهائيا من قائمة دواوينه ، التي تبدأ بديوانه الثاني – أوراق الزيتون – ولكن على أساس أنه الديوان الأول وليس الثاني ، وقد صدر أوراق الزيتون في طبعته الأولى سنة ١٩٦٤ عن دار الكتب المختارة في مدينة حيفا ، أما طبعته الثانية فقد صدرت في مدينة عكا عن دار الجليل للطباعة والنشر في تموز – يوليو سنة ١٩٦٨ وهي الطبعة التي أعتز بأن عندي نسخة منها، وقد قام محمود درويش فيما بعد بحذف ثلاث قصائد من كل الطبعات التالية من هذا الديوان ، وهي التي أسميها قصائده المجهولة ، لأن كل النقاد والأدباء العرب لا يعرفونها باستثناء قليلين جدا ، منهم الشاعر الكبير يوسف الخطيب ، ولم يكن مدهشا لي أن الذين اهتموا أشد الاهتمام بهذه القصائد الثلاث المحذوفة هم أدباء وباحثون من الأكراد ، لأنهم وجدوا أن شاعرا عربيا هو محمود درويش لا يكتفي بمجرد التعاطف العميق مع القضية الكردية ، وإنما يهاجم القومية العربية ذاتها رغم كونه فلسطينيا عربيا !

القصائد الثلاث المجهولة التي أتحدث عنها للمرة الأولى هي قصائد كردستان – تحيا العروبة – شهرزاد وهي تحتل سبع صفحات- من ص ١٠٠ إلى ص ١٠٧ – من الطبعة الثانية لديوان أوراق الزيتون وهي الطبعة التي أعتز- كما قلت - باقتناء نسخة منها . ومما يقوله محمود درويش في القصيدة الثانية التي سماها تحيا العروبة :

هل خر مهرك يا صلاح الدين ؟

هل هوت البيارق ؟

هل صار سيفك مارق ؟

في أرض كردستان ، حيث الرعب يسهر والحرائق

الموت للعمال إن قالوا : لنا ثمن العذاب !

الموت للزراع إن قالوا : لنا ثمر التراب !

الموت للأطفال إن قالوا : لنا نور الكتاب !

الموت للأكراد إن قالوا : لنا حق التنفس والحياة !

ونقول بعد الآن : فلتحيا العروبة !

مري إذن في أرض كردستان مري يا عروبة !

هذا حصاد الصيف هلا تبصرين ؟

لن تبصري ..

إن كنت من ثقب المدافع تنظرين

يا أمتي

هجمت على تاريخك الإنسان أشباه الرجال

باسم العروبة .. يستباح الدم .. تحكمك النعال

باسم العروبة يطعن التاريخ في شطآن دجلة والفرات !!

وما يلبث محمود درويش أن ينطلق مندداً بمن تسببوا في نظره – وفتها – في إهدار دماء الأكراد ، وذلك في قصيدته شهر زاد :

يا شهر زاد

صدئت أساطير البطولة في لياليك الملاح

والذكريات البيض والمهر الذي ركب الرياح

والحب والأمجاد والسيف الذي مل الكفاح

عار على بغداد

ما فيها مباح

إلا دم الأكراد في المذياع في صحف الصباح

لماذا كتب محمود درويش هذه القصــائد ؟ ولماذا قام بحذفها بعد ذلك ، وكأنه يريد أن يتبرأ منها ومن مضمونها ؟ .. أ ستطيع القول بثقة إنه قد كتبها عندما كان أ سيرا مقيدا لانتمائه السـياســي إلى الحزب الشـيوعي الإسـرائيلي الذي ينظر للقضـية الفلسـطينية باعتبارها مجرد صــراع طبقي ولهذا ينبغي على العمال الكادحين من اليهود والعرب أن يثوروا ضــد الرأسـماليين الجبابرة سـواء أكانوا من اليهود أم العرب ، لكي تتحقق العدالة ، وينعم الجميع بالأمن والأمان ! ويبدو أن الشــاعر كان يريد – بدوره – أن يطبق هذه النظرة الخاطئة على القضــية الكردية ، فالعمال والمزارعون الأكراد مظلومون وواقعون تحت وطأة الجبروت العربي الجائر ، ومن هنا نسـتطيع أن ندرك سـبب اهتمام الأدباء والباحثين الأكراد بهذه القصائد الثلاث وكأنهم يريدون القول : وشهد شاهد من أهلها!!

لكننا لو راجعنا صــفحات التاريخ فلا بد أن نتذكر أن الأكراد قد قاموا بحركة تمرد انفصالية بقيادة الملا مصطفى البرزاني ضد الحكومة المركزية في بغداد في سبتمبر سنة ١٩٦١ أي خلال حكم الزعيم عبد الكريم قاســم ، وكان هدفهم إقامة دولة كردية على أرض شمال العراق ، وقد استعانوا وقتها بشاه إيران ، وإذا كان محمود درويش قد كتب قصــائده الثلاث سـنة ١٩٦٤ كما ذكرت وليس سـنة ١٩٦٥ كما يذكر الباحث الكردي سـيامند إبراهيم ، فإن الانعزاليين والانفصــاليين قد احتفوا بها ، وليس أدل على هذا من قيام مجلة شـعر اللبنانية والمعروفة بعدائها للقومية العربية بل للعروبة بنشـر إحدى هذه القصائد بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ وذلك في سياق الشماتة ، ولكنها حذفت من القصيدة إشارة الشاعر إلى أرض كردستان لكي تكسبها بعدا أشمل وأكبر .

هكذا كان الالتزام السياسي بالحزب الشيوعي الإسرائيلي هو ما دفع محمود درويش لكتابة ما كتب ، أما انتماؤه العربي فهو الذي دفعه – فيما بعد – لحذف تلك القصــائد الثلاث من جميع الطبعات التي تلت الطبعتين الأولى والثانية ، وكأنه كان يكرر تجربة الشاعر الرائد الكبير بدر شاكر السياب حين ابتعد عن الحزب الشيوعي العراقي ، لكي يعود – على حد تعبيره – إلى حضــن أمته العربية ، لكن انتماء محمود درويش لأمته العربية فيما بعد لم يسعد بطبيعة الحال دعاة الانعزالية ، ولكي نتأكد من هذا يكفي أن نقرأ

ما قالته مليكة مزان – وهي شاعرة وصفت نفسها بأنها أمازيغية متمردة – حيث قالت بالنص : إن محمود درويش قد ضيع عمره في الدفاع عن ثقافة عروبية استعمارية استغرقت قرونا لاكتساح أوطان الآخرين !!

أخيرا فإني لم أكن أنوي أن أتناول ما تناولته بشأن انتصار محمود درويش للأكراد في مرحلة مبكرة من عمره ، لولا أن كثيرين من الأدباء والباحثين الأكراد قد تناولوا هذه القضية من خلال وجهة نظرهم ، وكان لا بد من عرض وجهة نظري التي لم تبتعد عن حقائق التاريخ ، ولا بد هنا أن أتساءل : ماذا لو كان محمود درويش قد ظل أسيرا مقيدا بما يراه الحزب الشيوعي الإسرائيلي ؟ أعتقد أنه كان سيصبح ناطقا باسم هذا الحزب ، لكن عبقريته الشعرية وروحه الإنسانية هما اللتان أبعدتاه عن هذا المآل ، حيث أصبح شاعرا فلسطينيا – عربيا – عالميا بكل المقاييس ، وتبقى التحية من القلب لما خلفه هذا الشاعر العظيم من ثروة أدبية لا على صعيد الشعر وحده ، بل على صعيد الشعر والنثر معا .



ناجي العلي في حوار معه بالدوحة
حنظلة هو الأيقونة التي تحميني من السقوط

لم أكن أتصور أن للزمن الأسود أظافر قاسية يمكن أن يخدش بها ملامح الوجوه إلى هذا الحد... إلا عندما التقيت برسام الكاريكاتير ذائع الصيت... ناجي العلي.

كنت – ومازلت- أحد المعجبين المفتونين برسومه الكاريكاتيرية التي تنضح بالمرارة. لأنها تصور – ببساطة – واقعنا العربي المتردي... وعندما التقيت به أدركت أن نبع المرارة الذي تستقي منه رسومه الكاريكاتيرية ليس وليد الواقع العربي المتردي فحسب، وإنما وليد المعاناة الإنسانية الحادة والمرهقة التي أثقلت على روح ناجي العلي فأكسبتها مرارة وحرارة في نفس الوقت.

ببساطة أسرة أبعد ما تكون عن الحذلقة التي يصطنعها كثيرون من المرموقين وغير المرموقين على السواء... روى لي ناجي العلي كيف بدأت رحلته مع الحياة ومع الفن.

كانت البداية عام ١٩٣٦م عندما شهدت قرية الشجرة تفتح عينيه للنور لأول مرة... وشب الصبي الفلسطيني في تلك القرية التي تتبع قضاء طبرية... وعندما وقعت الطامة الكبرى... وحلت بنا نكبة ١٩٤٨م أصبح ناجي العلي من سكان عين الحلوة... أما المدرسية الأساسية التي أفاد منها كثيرا فكانت مدرسة الحياة، لأنه لم يكمل إلا المرحلة الابتدائية، ثم عمل مهنيا حيث اشتغل ميكانيكيا... ثم عمل بزراعة البساتين... ورغم هذه الشواغل فقد كان الرسم شاغله الأساسي.

يقول ناجي العلي... في مرحلة تشكيل وعيي السياسي والإنساني كنت أفتش عن لغة تحمل كل همومي... وكنت أتصور أني سأكون فنانا تشكيليا، فهيأت نفسي للالتحاق بأكاديمية الفنون الجميلة ببيروت، لكنني سجنت عدة مرات خلال السنة الأولى التي قضيتها بها... وفي مطلع الستينيات عندما كنت مسجونا رسمت على جدران السجن... وبعد خروجي عبرت برسومي الكثيرة في المخيم عن واقعنا... وذات مرة أخذ غسان كنفاني مجموعة منها وفاجأني بأنه قام بنشرها في مجلة «الحرية» التي كانت تحت إشرافه.

عندما عملت بالكويت كنت أفكر في جمع النقود التي تتيح لي الانطلاق بعد ذلك إلى الدراسة من جديد... عملت في «الطليعة» الكويتية... منذ عام ١٩٦٣م... وكانت

رسومي خلال تلك الفترة رسوما للقصائد التي تنشر بالمجلة... بعدها شعرت بأنني أريد أن أعبر عن نفسي وعن واقعي بشكل بارز فبدأت أرسم الكاريكاتير... كنت أرسم مرة في الأسبوع... ثم انتقلت إلى رسم صفحة فصفحتين كاملتين حافلتين بالكاريكاتير.

انتقلت بعد هذا للعمل اليومي بدلا من الأسبوعي... حيث عملت في «السياسة» بجانب «الطليعة»... وباختصار فإن شبابي قضيته في الصحافة الكويتية... وقد تركت الكويت منذ عام ١٩٧٤م للعمل في جريدة «السفير» البيروتية وها أنذا أعمل في «السفير» وأرسل إلى «الوطن» بالكويت و«الخليج» بالإمارات.

قلت لناجي العلي... ماذا عن بداياتك مع الكاريكاتير... ومن الذين أفدت منهم وأنت تقطع خطواتك الأولى؟

في الحقيقة إن الكاريكاتير لم يكن موجودا إلا في مصر... وقد لفت نظري في البداية فريق روز اليوسف وصباح الخير... أحسست أن هؤلاء يلعبون دورهم بمهارة واقتدار... تابعت الرسامين المخضرمين... زهدي... عبد السميع... صاروخان... وفي تلك الفترة كان من الجدد... صلاح جاهين... وكان رجائي الذي خسرته الصحافة العربية واتجه إلى اليابان ومنها إلى أستراليا... والحق أنه لابد لكل فنان من أن يتأثر بالسابقين عليه، لسبب بسيط.. أنه لا يوجد فنان يأتي من العدم... ومن يدعي غير هذا يكون - في نظري - مدعيا!

وماذا عن الموضوعات والقضايا التي تتعرض لها في رسومك؟

في البدايات... كنت أرسم كل الأشياء... لكن رسمي ليس رسما ترفيهيا... فأنا أتناول دائما هموم المواطن العربي... وبالتالي فإن رسومي تدخل إلى السياسة إن لم يكن من الباب فمن الشباك... مثلا... عندما أتحدث عن غلاء الأسعار... فهذا بالطبع سياسة! ... لست أدغدغ مشاعر الناس... ففي ذهني قضية مركزية هي محور كل عطائي... إنها القضية الفلسطينية بمعناها الإنساني.

ماذا تقصد بعبارة القضية الفلسطينية بمعناها الإنساني؟

إن فلسطين عندي من المحيط إلى الخليج... وليست من رفح إلى الناقورة.

وماذا عن شخصية الطفل الفلسطيني المرتق الثياب والذي يعطي ظهره للناس في رسومك الكاريكاتيرية؟

كنت أعيش في مجتمع استهلاكي عندما رسمت شخصية الطفل الفلسطيني... ووقتها كنت أخاف من السقوط ومن أن أغوص في هذا المجتمع الاستهلاكي... ومن هنا فإنني رسمت هذا الطفل باعتباره «أيقونة» تحفظ روحي... وتذكرني بفلسطين... الطفل تعبير ذاتي عني... لأني خرجت من فلسطين... وأنا في عمر الطفل الذي يبدو في رسومي... كنت أرسمه لكي أتذكر موقعي الحقيقي... ولكيلا أتوه.

وهذا الطفل ليس فلسطينيا فحسب... إنه إنسان... كنت أرسمه أثناء حرب فيتنام فألبسه طاقية الفيتناميين... أرسمه يواجه الأمريكان... كنت أحاول أن أحدد له موقعا في كل مناسبة... وهو رمز الضمير... وشاهد يقظ... وهو صعلوك... وهو ممثل للإحساس الجيد في كل نفس تطمح للخير وتطمح للعدالة وتطمح للحرية... وقد اخترته طفلا لتحديد أن الطفولة مرتبطة بالعفوية... مرتبطة بصدق الإحساس.

هناك فنانون ونقاد يقولون إن الفن التشكيل يتوجه للصفوة أو للنخبة فحسب... فما رأيك أنت؟

لست أعد نفسي رسام كاريكاتير... إنني أرى نفسي مواطنا عربيا يحاول التعبير عن قضايا الناس... ويوميا لا أنسى أني أريد الوصول إليهم... ولهذا أستخدم كلمة أو جملة لتصل الفكرة للناس... لأن مهمتي تبشيرية وتحريضية... أحيانا أشعر أني بحاجة لأن أؤذن في الناس... كما أشعر بالخجل إذا حاولت أن أستعرض عضلاتي الذهنية على القارئ العادي.

ما الفارق بين مهمة الكاريكاتير ومهمة اللوحة الفنية؟

إني مقتنع بدور الكاريكاتير... ذلك لأن له مهمة خطيرة... وليس معنى هذا أنني غير مقدر للفن التشكيلي... لكنني أطالب بأن تكون له هو الآخر مهمة... وأن يصل إلى الناس من خلالها وينمي عندهم الإحساس الجيد... لأن الفن الذي يعزل نفسه عن الحياة فن مرفوض في تقديري... وعلى الفنان أن يكون ملتزما بقضية وأن يكون موقفه واضحا لا متميعا... الفن يجب أن تكون له وظيفة مرتبطة بقضايا الجماهير حتى يستطيع أن يلاقي تجاوبا حميما.

وما المعوقات التي تقف في وجه الكاريكاتير؟

غياب الديمقراطية... فالكاريكاتير لا ينمو إلا في مناخ ديمقراطي والساحة العربية فيها بعض الواحات... وهناك مواهب شابة وجادة حتى من خلال هذا الواقع غير المقبول... وهناك فنانون ظهروا من خلال الصحافة في الخليج العربي والمغرب العربي وسوريا... رسامو الكاريكاتير أصبح لهم وجود قوي ومؤثر في الصحافة العربية... ولكن يظل الرسام دائما في حالة معاناة... لأنه لا يوجد وضع مثالي.

هل تذكر أسماء؟

هناك علي فرزات من سوريا وهناك مصطفى المشلاوي وعلي عبيد من تونس... والعربي الصبان من المغرب... وهناك محمد زواوي من ليبيا... وفي مصر كثيرون بطبيعة الحال... وبالمناسبة فقد لاحظت أن الليثي عمل في صحافة الخليج زمنا... ولكن كان يمكن أن يموت لو استمر خارج مصر... لأنه مثل السمكة التي إن خرجت من الماء فإنها تكون محكومة بالموت.

هناك جرائد كثيرة تتهافت عليك... وتريد أن تخصها برسومك الكاريكاتيرية... فماذا أنت قائل؟

أرفض رفضا مطلقا أن أعمل أو أرسم لأية جريدة صادرة عن أي نظام سياسي عربي... فلست أريد ولا أحب أن أتقيد بنظام معين، لأن قضيتي هي الإنسان... لا النظام... ورصيدي الوحيد هو القارئ العربي.

يا ناجي العلي.. الآن وقد رحلت وحدك
ماذا يمكن للقتلة الجهلة
أن يرتكبوه ضدك ؟!

الآن.. وقد رحلت وحدك..

ماذا يملك القتلة – الجهلة أن يفعلوه ضدك؟.. لو أن الجهة التي دفعت لهم وحرضتهم على قتلك طلبت منهم أن يفعلوا ضدك شيئا آخر غير القتل، فلا شك أن مهمة هؤلاء القتلة – الجهلة ستكون صعبة، إن لم تكن مستحيلة.

إنهم لن يستطيعوا أبدا وأد الذاكرة العربية التي تحفظ رسومك الكاريكاتيرية التي كنت تدين فيها أساليب القمع والمنع، وكنت تبشر من خلالها بالمستقبل الآتي، أو كما تقول افتتاحية الزميلة «الخليج» يوم استشهادك: «... يا ابن عواصم الغد ومدن الغد ومصانع الغد والحكايات التي تكتب في أرحام الأرض عن مستقبل كنت أنت أحد المبشرين به...» ألست أنت الذي قلت:«... هل يستطيعون رمي التاريخ والجغرافيا إلى المزبلة؟!».

إنهم لن يستطيعوا أبدا يا ناجي وأد الذاكرة العربية، ولن يستطيعوا أن يداهموا بيوت البسطاء في مخيم «عين الحلوة» وفي أي بيت يضم تحت سقفه البسطاء من المحيط إلى الخليج، لكي يحرقوا أو يمزقوا أو يقتلوا رسومك التي كانت تصور معاناة هؤلاء البسطاء في حاضرهم وتطلعاتهم إلى أيام مقبلة بالبشريات والخيرات والانتصارات.

المأجورون القتلة.. دائما عقولهم تبدو فارغة، لأنهم جهلة... ولهذا ستبقى أنت حيا في الذاكرة العربية، وفي قلوب البسطاء وفي توجهات الشرفاء على الرغم من غيابك الجسدي، وسيبقون هم موتى على الرغم من أنهم يسيرون على الأرض.

ستنهض أنت يا ناجي – كما قال محمد جاسم الصقر في الزميلة «القبس» – «لأنك بشرت المواطن العربي بـ.. لا.. ولأنك كنت صاحب براءة اختراع الـ... لا ... في عصر الإيجاب، فلم تكن تساوم أو تهادن، فقد كنت في حالة حرب مستمرة مع الظلم والظلام.

المأجورون والقتلة لا يذكرهم أحد يا ناجي.. الشهداء وحدهم دفاعا عن الرأي وعن الفكر وعن الوطن... هم ا لذين ينورون في ذاكرة كل إنســان يحب الحق ويسـعى لاسـترداده إذا ما ضـاع... إن التاريخ هو الذي يقول هذا دائما... كلنا نتذكر الفيلسـوف الإغريقي «سقراط» الذي أجبروه على أن يتجرع كأس السم، لكن من منكم يتذكر أسماء القضـاة الذين حاكموه؟ وكلنا نتذكر «جاليليو» الذي أثبت في زمانه أن الأرض التي نحيا عليها كروية، لكن هل يتذكر أحد منكم أسـماء الذين وضـعوه على «الخازوق» إلى أن مات، لأنه رفض أن يقول غير ما اعتقده... رفض أن يقول: إن الأرض مسـطحة كما كانوا يقولون.

كانت جريمتك – في نظرهم – أنك متشدد.

أعندما يرفض الإنسـان أن يتنازل عن سـعيه الجاد من أجل اسـتعادة وطنه ممن اغتصبوه.. يسمون هذا الإنسان متشددا.. ألم يتذكر أحد أن التنازل ولو لمرة واحدة يقود دائما إلى المزيد تلو المزيد من التنازلات... أو كما قال المتنبي:

مـن يـهـن يســهـل الـهـوان عـلـيـه

مــا لــجــرح بــمــيــت إيــلام

لم يكن أمامك من مـ سعى إلا أن تحاول بكل طاقاتك وإمكانياتك أن تجاهد كي تعود فلسـطين عربية كما كانت.. وكنت ترى الصـهاينة.. وهم يبطشـون بأهلك في الداخل وينسفون بيوتهم أمام أعينهم، وكنت ترى الصهاينة وهم يغيرون بقنابلهم على المخيمات التي يسـكن فيها البسـطاء في لبنان. وكنت ترى الخلافات العربية – العربية وهي تملأ الأجواء بدخان أسـود كثيف يحجب الرؤية عن الجميع.. وكنت ترى من يتاجرون بالدم... ومن يهادنون العدو... وكنت تعرف أن العرب البـسطاء- الـشرفاء يحاولون أن يقفوا في وجه هذه الأوبئة الطوفانية.. وكان لابد أن تقف مع البسـطاء – الشـرفاء ضـد الآخرين.. ولم يكن لديك من طاقات وإمكانيات إلا ريشة.

ســخرت ريشــتك... ســلاحك الذي تملكه... لكي تكون في صــف البســطاء – الشرفاء... ولكي تنبه من يسهل الهوان عليهم إلى مذلة الهوان كي تتحرك ضمائرهم... لكن «الريشــة» كانت مخيفة... كانت مرعبة... فكان لابد أن يأتي القتلة – الجهلة إلى صاحب الريشة حتى يحاوروا الريشة بالرصاص!!

هل كنت تملك أن تصــمت... هل كنت تملك أن تكون محايدا؟... هل كان بمقدورك أن تزيف... أن ترسم الأشياء مزخرفة وهي قبيحة... إن ما أحسستبه أحس به كثيرون قبلك... وكثيرون من أبناء جيلك... ألم يقل برتولت بريخت في زمن ازدهار ألمانيا النازية:

الذي ما زال يضحك

لم يسمع بعد بالنبأ الرهيب

أي زمن هذا؟

الحديث عن الأشجار يوشك أن يكون جريمة

لأنه يعني الصمت على جرائم أشد هولا

ألم يقل أمل دنقل عندما رأى من يزخرفون الأشــياء القبيحة وهم منطلقون للزخرفة أكثر:

لا تصالح ولو منحوك الذهب

أترى حين أفقأ عينك

ثم أثبت جوهرتين مكانهما

هل ترى؟!

هي أشياء لا تشترى

لا تصالح على الدم.. حتى بدم

لا تصالح ولو قيل رأس برأس

أكل الرؤوس سواء؟

أقلب الغريب كقلب أخيك؟

أعيناه عينا أخيك؟

وهل تتساوى يد.. سيفها كان لك

بيد سيفها أثكلك؟؟

كانت جريمتك يا ناجي أنك متشدد!!

لم أعرفك إلا لأيام معدودات، لكني قبلها كنت أتابعك مع من يتابعونك... وبعدها ظللت أتابعك مع من ظلوا يتابعونك.

أتذكر تلك الأيام.

عندما قدمت إلى الدوحة ضمن من قدموا من الفنانين والشعراء والكتاب الفلسطينيين لإقامة الأسبوع الثقافي الفلسطيني... كان هذا في مايو ١٩٨٢م... قبل اجتياح العدو الصهيوني للبنان.

أتذكر أني سعيت إليك حتى أحملك على الحديث للراية... وأقول أحملك على الحديث... لأني عرفت منك ومن أصدقائك أنك لا تحب الحوارات الصحفية. وتفضل عليها أن تمسك دائما بريشتك... فهي سلاحك الذي تقول من خلاله ما تود أن تقول.

نجحت في أن أحملك على الحديث... وكان الحوار الذي أجريته معك والذي نشر يوم الثلاثاء ١١ مايو ١٩٨٢م، وكتبت وقتها مع الحوار في العمود الذي كنت أكتبه بعنوان «الفن موقف»:

«.. لقد أعجبني حقا ما قاله لي ناجي العلي... الفنان العربي - الفلسطيني... الملتزم بقضايا المواطن العربي أينما كان... لقد قال ناجي العلي: «إن فلسطين عندي من المحيط إلى الخليج... وليست من رفح إلى الناقورة..» فالفنان هنا يؤكد عروبته بعمق

وبصـــدق... في زمن كثر فيه المر تدون ود عاة الفر قة والانفصـــال من مختلف الاتجاهات..».

والآن وقد رحلت... أسألك: هل أنت مرتاح برقدتك في مقبرة بروك وود الإسلامية القريبة من لندن؟... إنك كنت قد أو صيت بأن ترقد في ثرى مخيم «عين الحلوة»... هذا الثرى الذي عرفته قدماك طيلة سنوات و سنوات منذ أن كنت في العا شرة من عمرك... حيث تعلمت هناك من البسطاء ومن الحياة ومن شهيد سبقك إلى الا ستشهاد... غسان كنفاني.

كنت أتمنى أن تنفذ و صيتك حتى تستريح... لكني أ شعر بأنك ستستريح ذات يوم عندما ينقلونك إلى ثرى قرية «الشجرة» التي شهدت مولدك عام ١٩٣٨م، كما شهدت يوم ١٣ يوليو ١٩٤٨م استشـهاد عبد الرحيم محمود وهو يواجه الدخلاء الصـهاينة ويهتف:

سأحمل روحي على راحتي

وألقي بها في مهاوي الردى

فأما حياة تسر الصديق

وأما ممات يغيظ العدى

ستأتي أجيال جديدة أكثر صلابة. وستواجه العدو إلى أن تنتزع الحق والأرض... وسينقلك بعض أبناء هذه الأجيال الجديدة إلى قرية «الشجرة» بعد أن تصير حرة... وقتها سترفرف روحك هناك سعيدة مستبشرة.



إميل حبيبي.. أحببته وأعرف أنه حبيب عدوي !
من حيفا أطل على الوجود وإلى ترابها عاد

كثيرة هي اللحظات العادية التي لا نهتم بها ولا تؤثر فينا، أما اللحظات القليلة التي تخرج من إطار العادي والمألوف فإنها تظل عالقة في الذاكرة ومتشبثة بها، سواء أكان ما عرفناه أو أحسسنا به خلالها فرحا أو حزنا، أملا أو يأسا. من تلك اللحظات القليلة لحظة استماعي بالمصادفة لخبر رحيل الكاتب العربي – الفلسطيني الكبير إميل حبيبي، خاصة أن الخبر قد اقترن باسم الشاعر الكبير محمود درويش الذي سمحت له سلطات الكيان الصهيوني بزيارة حيفا لإلقاء نظرة وداع أخيرة على صديقه وأستاذه الراحل إميل حبيبي.

هزني الخبر من الأعماق، تشتت ذهني، ضباب من الأسى لف الأجواء من حولي استغرقت في التفكير. تنبهت إلى أنني أفكر في محمود درويش – الحي أكثر مما أفكر في إميل حبيبي – الراحل. قلت لنفسي: يا لها من لحظة صعبة وخصبة في آن واحد، تلك اللحظة التي نزل فيها محمود درويش من فوق صهوة كبريائه، ليكتب لسلطات الكيان الصهيوني، طالبا السماح له بزيارة «حيفا» كي يشارك في تشييع صديقه وأستاذه الراحل إلى مثواه الأخير. هي لحظة صعبة، لأنها تتيح للكيان الصهيوني أن يكشف مفاتن ديمقراطيته وإنسانيته، مع أن نفس هذا الكيان كان قد رفض طلب محمود درويش عندما أراد أن يشارك في تشييع أمه الراحلة التي كان يحبها كثيرا وكتب عنها أجمل القصائد التي يغني بعضها الفنان الملتزم مارسيل خليفة. إذا كانت اللحظة صعبة، فإنها أيضا خصبة. لحظة خصبة لأنها ربما تتيح للشعر الكامن في قمقم الروح عند محمود درويش أن ينطلق من القمقم إلى فضاءاتنا المترقبة لعطاء الشاعر الكبير.

إني لأترقب حقا ما يمكن أن يكتبه محمود درويش بعد أن يعايش تجربة زيارته لحيفا التي هجرها وابتعد عنها ولم يعد يراها منذ فبراير عام ١٩٧١ عندما أعلن لجوءه إلى مصر العربية، ولم يعد بالتالي «مواطنا إسرائيليا»، بزيارة محمود درويش لحيفا يتحقق لسميح القاسم أمل كان يراوده عام ١٩٨٨م، حين كتب إليه في إحدى الرسائل المتبادلة بينهما عن احتمال أن يلتقي به «هناك» في لندن، قائلا: «وصلتني الدعوة للإسهام في مهرجان

الشـعر العربي ا لذي ينظ مه أخو نا ر ياض الريس في ل ندن. أرجو أن أتمكن من الم شاركة، وآمل أن نلتقي هناك أو هناك.. أو هناك.. إلى أن نتمكن أخيرا من اللقاء هنا.. وهنا. وهنا. أخوك سميح القاسم – حيفا – ١٢/ ٦/ ١٩٨٨م..».

آه من حيفا، ومن شـوقي إلى حيفا. أحيانا يطاردني حلم في الصـحو وفي المنام، أراني فيه وأنا أتجول بكل حرية وحيوية في شـوارع وأزقة حيفا العربية، لكن الواقع يسـخر من هذا الحلم، فحيفا التي أحببتها واقعة في أسـر الأجنبي الغريب منذ عام ١٩٤٨م. بالطبع فإني لم أزر حيفا، لكني أ ستطيع أن أ صف لكم شوارعها وأزقتها من خلال ما قرأته عنها وكأني قد زرتها مرارا، بل عشـت فيها سـنوات من عمري. حين يجرفني الحنين الحزين إلى حيفا أتخفف منه بالعودة إلى قراءة رواية «عائد إلى حيفا» للشهيد غسان كنفاني وكتاب «ذاكرة للنسيان» لمحمود درويش وكتابات سميح القاسم وإميل حبيبي، ومعهما فدوى طوقان عنها.

في كتابه الذي لا أمل من إعادة قراءته، كتاب «ذاكرة للنسيان» يصور محمود درويش حيفا صورة مذهلة ورائعة تظل ساطعة في ذاكرة قارئها.. يقول: «... الحمامة هي حيفا.. لأن جبل الكرمل المنبثق عن صـعود البحر إلى السـماء وعن هبوط السـماء إلى البحر، يرسـم معجزة: أعني عنقا مطوقة بقبلة مجبولة من حجر وشـجر، أعني حيفا، تتقدمها شهوة حارة في شكل منقار ملون يشهد على أن في مقدور موجة جامحة في أن تتحجر من الأزل إلى الأبد، لأن الأمر كذلك فإن حيفا تشبه الحمامة، وكل حمامة تشبه حيفا..».

ولأن حلمي بحيفا حلم مستحيل، فلا أقل من أن أتطلع بشوق إلى لقاء سميح القاسم مع محمود درويش في حيفا، وإن كان الموت – موت إميل حبيبي – هو ا لذي أ تاح للشـاعرين الكبيرين والصـديقين الحميمين إمكانية أن يتلاقيا «هنا» في حيفا، وليس «هناك» في لندن أو باريس أو غيرهما من المدن الغربية الغريبة.

حتى حين ابتعد عن محمود درويش، لأتحدث عن إميل حبيبي، فإن حيفا – الحمامة تظل ببيننا، ففي يوم من أيام عام ١٩٢٢ فتح إميل حبيبي عينيه للنور أول مرة في حيفا التي أطل على الوجود منها، وفي ظهر يوم الجمعة ٣ مايو ١٩٩٦م عاد إميل حبيبي ليرقد في تربتها العربية، حيث كان قد أوصى قبل أن تغادر الروح الجسد بأن يدفن في حيفا وأن يكتب على شاهد قبره «إميل حبيبي باق في حيفا».

من عام ١٩٢٢ إلى عام ١٩٩٦ رحلة حياة امتدت أربعة وسبعين عاما، عاشها إميل حبيبي،وعايش خلالها متغيرات وتقلبات عديدة، أبرزها قيام دولة الكيان الصهيوني وإعلانها في ١٥ مايو عام ١٩٤٨، لكن المتغيرات والتقلبات لم تستطع أن تزحزح من تشبث إميل حبيبي بالأرض التي ولد فوقها ثم احتضنته أعماقها، حتى بعد أن غير الغرباء القادمون بالقوة إليها اسمها من «فلسطين» إلى «إسرائيل» وأصبح إميل حبيبي – بقوة الأمر الواقع – «مواطنا إسرائيليا».

كان يمكن لي ولغيري، وبعد المتغيرات السياسية منذ اتفاق أوسلو أن نلتقي هنا في «الدوحة» مع إميل حبيبي، لو كان د. محمد عبد الرحيم كافود وناصر محمد العثمان قد استطاعا أن يحققا رغبته في زيارة الدوحة عندما التقيا به في القاهرة منذ نحو عامين، حيث أكد لي د. محمد عبد الرحيم كافود أول أمس أن إميل حبيبي قد أعلن له رغبته في زيارة الدوحة.. إذا كنت قد خسرت هذا اللقاء، فالعزاء أننا نستطيع أن نلتقي بأي كاتب مهما يكن بعيدا من خلال قراءة ما أبدعه من عطاء. لهذا فإني أستطيع القول إني قد التقيت مرارا مع إميل حبيبي دون أن أراه وجها لوجه، وكان اللقاء الأول مع «سداسية الأيام الستة» التي حار النقاد في توصيفها. هل هي قصص قصيرة أم رواية؟!.. ثم كان اللقاء الثاني مع «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل»... وتتابعت اللقاءات مع «لكع بن لكع» و«أخطية»... ومع مقالاته العديدة التي كان ينشرها في «اليوم السابع». وقد كنت أحسب أني التقيت مع كل أعمال إميل حبيبي لكنني اكتشفت بعد قراءة ما كتب عنه خلال الأيام القليلة الماضية أن هناك أعمالا أدبية وغير أدبية لا أعرف عنها شيئا، وقد صدرت كلها خلال عقد التسعينيات، وهي «خرافية سرايا بنت الغول» ١٩٩١ ومسرحية «أم الروبابيكا» ١٩٩٢ و«نحو عالم بلا أقفاص» عام ١٩٩٣، كما اكتشفت أن لإميل حبيبي بحثا تاريخيا عن مجزرة كفر قاسم التي ارتكبها جيش الاحتلال الصهيوني عام ١٩٦٥، وهي المجزرة التي كتب عنها سميح القاسم ومحمود درويش قصائد عديدة، من بينها قصيدة «ليد ظلت تقاوم» لسميح القاسم، والتي تؤدي مقاطع منها بصورة رائعة فرقة «الطريق» العراقية، ومنها:

يوم قالوا: سقطوا قتلى وجرحى ما بكيت

قلت: فوج آخر يمضي ومن بيت لبيت

يوم قالوا: سقطوا قتلى وجرحى

صحت والأدمع في عيني: مرحى مرحى

يوم قالوا.. ما بكيت

وأنا يا كفر قاسم

أنا لا أنشد الموت.. ولكن

ليد ظلت تقاوم

والذي في القلب في القلب..

ومن جيل لجيل

أملأ الدنيا هتافا لا يساوم

كفر قاسم.. كفر قاسم

دمك المهدور ما زال وما زلنا نقاوم

حين صدر أول عمل أدبي لإميل حبيبي وهو « سداسية الأيام الستة» عام ١٩٦٨ أي بعد نكسة يونيو – حزيران ١٩٦٧ بقليل، تضارب النقاد وتباينت آراؤهم حوله،هل هو مجموعة قصصية أم رواية؟.. وهذا ما أبرزه الصديق د. أحمد أبو مطر في كتابه المهم والقيم «الرواية في الأدب الفلسطيني» حيث قال (ص٢٦٠) «... لم يثر عمل أدبي من الخلاف حول شكله الفني ما أثارته « سداسية الأيام الستة» وهو خلاف يثار أيضا حول أعمال مشابهة مثل «أم سعد» و«عن الرجال والبنادق» لغسان كنفاني و«صور هدامة» ليوسف الخطيب و«مقهى الباشورة» لخليل السواحري، إلا أن الخلاف عند تطبيقه تركز على السداسية بشكل أساسي». ومن بين الآراء المتضاربة التي أوردها د. أحمد أبو مطر رأي رجاء النقاش «.. هي رواية قصيرة كتبها المؤلف على شكل ست لوحات أو

ست قصص قصيرة لكل منها عنوان خاص، ويربط بينها الجو العام..»، ورأي د. عز الدين إسماعيل الذي يرى أن السداسية «.. عمل قصصي قد نسميه قصة أو مجموعة من ست لوحات قصصية، ولكنه ليس بحال من الأحوال رواية..». وتتصدر كل قصة مقاطع ذات مغزى، من بينها ما تغنيه فيروز عن الغربة في الوطن.

أما رواية «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» فإنه كادت أن تحظى بإجماع النقاد والدارسين على التأثير، وقد كتب عنها د. علي الراعي فصلا كاملا من فصول كتابه العظيم «الرواية في الوطن العربي» وفي خاتمة هذا الفصل (ص٢١٧) يؤكد د. علي الراعي «.. أن شخصية سعيد أبي النحس المتشائل بكل نواحي ضعفها، بكل ما فيها من هرج واستخذاء، بكل ما تقع فيه من ورطات مضحكة تؤمن لهذه الرواية الأخاذة شيئا ثمينا لكل عمل فني سياسي، تضمن له أن لا يسقط بين شقي الرحى المألوفة – الخطابة الرنانة من جهة وتزييف الواقع وتمجيده من جهة أخرى، إن «المتشائل» عمل إنساني دافئ ونقد كبير القلب، وهي لهذا فن عظيم».

إميل حبيبي كاتب مبدع فذ، لكنه – في نفس الوقت – كاتب مقل، شأنه في هذا شأن الساخر الحكيم – الطيب صالح، ربما يرجع سبب قلة عطاء إميل حبيبي – من ناحية الكم – إلى أنه لم يمارس الكتابة الأدبية إلا متأخرا، وبالتحديد بعد نكسة يونيو – حزيران ١٩٦٧، فقد كانت السياسة شاغله الشاغل وهمه الأساسي واليومي، فقبل أن يقيم الكيان العنصر الاستيطاني دولته فوق أرض فلسطين كان إميل حبيبي – ومنذ عام ١٩٤٠ – عضوا نشيطا في الحزب الشيوعي الفلسطيني، الذي أصبح فيما بعد عام ١٩٤٨ الحزب الشيوعي الإسرائيلي «راكاح»، كما أنه ظل سنوات طويلة أحد الأعضاء العرب في «الكنيست».

هناك مثقفون وكتاب عرب لم يعايشوا الواقع المحيط بهم معايشة حميمة دافئة، لأنهم يستعلون على هذا الواقع، ولم تنخدش إصبع من أصابع أحدهم ولم يحسوا بوقع السياط على ظهورهم ولم يبت أحدهم ولو ليلة واحدة في زنزانة من الزنازين الرطبة القذرة، ومع هذا يحلو لأمثال هؤلاء المثقفين والكتاب العرب أن ينتقدوا «هذا» وأن «يدينوا» ذلك وأن «يتهموا» آخر غير هذا وغير ذاك بأقسى الاتهامات وأبسطها عندهم تهمة«الخيانة»

ولم يسلم إميل حبيبي من هؤلاء الذين لم يعايشوا الواقع معايشة حميمية دافئة، فقد «انتقدوه» و«أدانوه» و«اتهموه» في جلسات «تنظيرهم» للكون وأموره أو في كتاباتهم المغتربة عن واقع الحياة ذاته.

الواقع يقول إن إميل حبيبي إنسان عربي الروح والأعماق لكنه أيضا «إسرائيلي» المظهر والجنسية، ولها ليس عجيبا أن يحمل جواز سفر «إسرائيليا» شأنه في هذا شأن سميح القاسم و سالم جبران، و شأن محمود درويش قبل عام ١٩٧١. وهؤلاء الشعراء والأدباء هم أفراد من الأقلية العربية الفلسطينية الذين قاوموا جميعا محاولات تهجيرهم بعيدا عن أرض فلسطين. وكان على هؤلاء جميعا إما أن يذوبوا في المجتمع «الإسرائيلي» وإما أن يذيبوا هذا المجتمع فيهم، لكن ما حدث أنهم لم يذوبوا ولم يذيبوا، فظلت عروبتهم في أعماقهم، واكتسى السطح الخارجي بالمظهر «الإسرائيلي»، ولو عدنا إلى التاريخ فإن هؤلاء الإخوة العرب الفلسطينيين يذكروننا بمسلمي الأندلس بعد سقوطها، فقد كان عليهم أن يتنصروا وكانت محاكم التفتيش تقتل منهم من تقتل لمجرد الشك في نياتهم، وقد استطاع كثيرون م هؤلاء أن يظلوا على إسلامهم في السر وفي الخفاء. وهم الذين يعرفون با سم «الموريسكيين». وإذا نظرنا إلى العرب – الشوام الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية منذ أكثر من قرن، فإننا نعرف أن من بينهم «شعراء المهجر»، وكان شعراء المهجر يكتبون قصائد الحنين إلى أوطانهم وإلى الشرق العربي بصفة عامة بلغة فصحى سلسلة وجذابة، ولكن ماذا عن أبناء شعراء المهجر وأبناء سواهم ممن ولدوا في الولايات المتحدة الأمريكية ولم يولدوا في أوطانهم العربية؟.. بعد أن كان من الآباء شعراء يكتبون بلغتنا الفصحى، أصبح معظم الأبناء لا يعرف الفصحى ولا حتى اللهجة العامية، فهؤلاء ذابوا تماما في المجتمع الأمريكي، وارتبطت مصالحهم بمصالحه، وتعانقت تطلعاتهم مع تطلعاته. حين ننظر إلى أوضاع مسلمي الأندلس بعد سقوطها وننظر إلى أوضاع المهاجرين العرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية والأمريكتين، نجد أن أوضاع عرب فلسطين – ١٩٤٨ متشابهة معهم، لكن عرب فلسطين – ١٩٤٨ يبدون أكثر صمودا، فهم لم يذوبوا وإن كانوا بالطبع لم يستطيعوا أن يذيبوا، فكلهم على سبيل المثال يتحدثون ويكتبون باللغة العربية، ولكنهم – في نفس الوقت – يتحدثون كذلك باللغة العبرية، بل إن منهم من يكتبون بالعبرية.

ومن ناحية أخرى.. ما الذي دفع كثيرين من عرب فلسطين – ١٩٤٨ لأن يدخلوا الحزب الشيوعي «الإسرائيلي»؟.. ما الذي دفع محمود درويش – المسلم وسميح القاسم – الدرزي وإميل حبيبي – المسيحي لأن يدخلوا هذا الحزب؟.. قد يكون السبب اختياريا في الظاهر، لكنه – في الواقع – سبب اضطراري، فقد تكفل هذا الحزب بالدفاع عن حقوق المضطهدين والذين يعانون من التمييز في المجتمع، وكل هؤلاء المضطهدين والذين يعانون من التمييز في المجتمع هم من عرب فلسطين – ١٩٤٨.

من هذا المنطلق.. رحب إميل حبيبي بجائزة الإبداع الفلسطيني التي تسلمها في القاهرة من ياسر عرفات، ولم يرفض بل رحب أيضا بجائزة الإبداع «الإسرائيلي» ورأى أن حصوله على تلك الجائزة التي تسلمها من «إسحاق شامير» بمثابة اعتراف بقيمة الثقافة العربية وبقدرة مبدعيها أن يصلوا إلى أعماق الآخرين. ومن نفس المنطلق يبدو إميل حبيبي.. حبيبي.. وحبيب عدوي التاريخي في نفس الوقت.

إن الكاتب الراحل كان ينظر إلى واقعه على ضوء ظروفه هو وليس بشروطنا نحن العرب البعيدين عن التفاعلات والتداخلات والتناقضات داخل المجتمع «الإسرائيلي» وفي تقديري أن اختلاف زوايا الرؤية بينه وبيننا هو سبب هجوم بعض المثقفين والكتاب العرب الذين ينصبون أنفسهم قضاة على الآخرين، مع أن الأجدر بقسم من هؤلاء هو أن يحاكموا أنفسهم أولا!

لعلنا نتذكر ما قاله سميح القاسم في مستهل أمسيته الشعرية التي دعاه لإحيائها في الدوحة نادي الجسرة الثقافي، لقد ذكر سميح القاسم أن عرب فلسطين – ١٩٤٨ متهمون من «العرب» ومن «الإسرائيليين» في نفس الوقت، فالعرب خارج فلسطين المحتلة يتهمونهم بالخيانة و«الإسرائيليون» يتهمونهم بأنهم جواسيس، ولا شك أن هذه الاتهامات باطلة، بل ملفقة.

رغم أن إميل حبيبي انغمس سنوات طويلة في العمل السياسي من خلال حزب ينتمي إليه، إلا أن الفنان فيه انطلق ذات يوم بنصيحة للأدباء وللمبدعين الآخرين من الفنانين بأن يبدعوا عطاءهم من وحي ضمائرهم وليس من خلال توجيهات أحزاب ينتمون إليها، حيث رأى أن الأفضل لهؤلاء ألا يحبسوا أنفسهم في أقفاص أحزاب سياسية.

هل هذا تناقض من تناقضات إميل حبيبي؟.. فليكن.. إن تناقض المتشائل – كما قال محمود درويش – هو مرآة من مرايا تناقضاتنا نحن العرب.

ولد إميل حبيبي في حيفا التي عشقها.. وها قد آن لعاشق حيفا – العربية أن يرقد في أعماق تربتها.. ربما يطلع ذات يوم عشبا عربيا بريا رافضا أن يذوب، ومدركا أنه لن يستطيع أن يذيب!



إدوارد سعيد .. شاعر فنان لا يتجلى إلا (خارج المكان)

جنسيته الأمريكية لم تمنع روحه الفلسطينية أن تظل حية

في كتابه الجميل «حياتي في الشعر» يؤكد أستاذي صلاح عبد الصبور «أن صدق الإنسان مع نفسه» هو الذي يعصمه من التفاهة والسطحية، وهما العدو اللدود للحياة« وفي تقديري أن هذا الصدق مع النفس يتجلى، على أجمل وجه، في نموذج المفكر الكبير الدكتور إدوارد سعيد الذي رحل عن عالمنا يوم الخميس ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٣ في نيويورك البعيدة عن القدس التي كان قد ولد فيها يوم ١ نوفمبر سنة ١٩٣٥.

لو أن إدوارد سعيد لم يكن صادقا مع نفسه،لكان قد أصبح واحدا من التافهين السطحيين الذين يكذبون على أنفسهم قبل أن يكذبوا على سواهم من الآخرين، وما أكثر هؤلاء الآخرين ا لذين يتلونون تلون الحر باء بسر عة البهلوان، ويتحولون في كل المنا سبات إلى ملكيين أكثر من الملك نفسه، حتى لو كانت هذه المنا سبات متعار ضة، بل متناقضة، حيث نرى هؤلاء التافهين السطحيين، ممن يتصورون – زورا – أنهم من الكتاب والمفكرين يصبحون أمريكيين أكثر من أي رئيس أمريكي، بل أن منهم من يتحولون إلى صهاينة إذا تلاقوا مع الصهاينة.

على نقيض هؤلاء الذين تجمعهم التفاهة والسطحية وإن اختلفت جوازات سفرهم التي يحملونها،ظل إدوارد سعيد – على امتداد سنوات حياته- صادقا مع نفسه، وهذا ما ألزمه بأن يحمل القدس في قلبه، رغم بعده المكاني عنها، ورغم كل ما جرى له من تحولات في طبيعة العمل أو مناخ الأرض التي مارس فيها ما مارسه من عمل، كان والد إدوارد سعيد ممن يحملون الجنسية الأمريكية، وكذلك كان هو، لكن جنسيته الأمريكية لم تستطع أن تمنع روحه الفلسطينية من أن تظل متوهجة وفياضة بالحيوية.

الصدق مع النفس كان المنارة الهادية التي اهتدى بها إدوارد سعيد في رحلته الجادة والمضنية، سعيا للتغلغل في قلب الأشياء، وبحثا عن الجوهر المكنون، بعيدا عن المظاهر البراقة المبهرجة، وهكذا امتزج الصدق الفطري التلقائي مع العمق المكتسب من خلال الخبرات الإنسانية بصورتيها المباشرة وغير المباشرة، ومع امتزاج الصدق

والعمق تشكلت شخصية المفكر الجاد والمسؤول، الذي يعرف معنى الفكر، ويعرف في نفس الوقت أن هذا الفكر يظل قاصرا إذا ارتضى أن يطل على الحياة من خلال البرج العاجي، وهذا ما يميز إدوارد سعيد ومعه قلائل من الباحثين الأكاديميين عن سواهم الكثيرين ممن يغلقون نوافذ الشمس أمام أرواحهم، قانعين بتخصصات دقيقة، مفيدة بالطبع، لكنها ليست كافية للتأثير في مجريات الحياة، ولو أن إدوارد سعيد قد ارتضى لنفسه أن يكون واحدا من هؤلاء الأكاديميين الكثيرين القانعين بتخصصاتهم، لما كان العالم بأسره قد عرفه، ولما كان لكلمته أن تحقق تأثيرها العميق في عقول وقلوب الكثيرين في الشرق وفي الغرب، ولدى الأصدقاء والأعداء على حد سواء.

«خارج المكان: مذكرات شخصية»، هو الكتاب الذي أصدره إدوارد سعيد باللغة الإنجليزية، سنة ١٩٩٩ في نيويورك ويمثل هذا الكتاب سيرة ذاتية غير مكتملة، حيث يفتش إدوارد سعيد عن طفولته في القدس، ويتأمل سنوات حياته في القاهرة، إلى أن يتوقف عن البوح في منتصف الستينيات من القرن العشرين الغارب، بعد أن حصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد.

سهرت سهرة انفرادية مطولة كي أقرأ «خارج المكان» بالكامل، الذي ترجمته إلى لغتنا العربية منى أنيس، ومن خلال ما قرأته أستطيع القول مطمئنا أن إدوارد سعيد شاعر فنان جميل عذب الروح، لكنه لا يتجلى بالطبع في دراساته الأكاديمية، وإنما يتجلى الشاعر فيه «خارج المكان».

من المفارقات التي قد تدفع إلى الضحك أو إلى البكاء ما يرويه إدوارد سعيد عن احتفاله بعدي ميلاده الثاني عشر في منزل العائلة في القدس سنة ١٩٤٧، فقد أخذ أبناء عمومته الأكبر عمرا منه يحدثونه عن شؤم تاريخ ميلاده الذي يتطابق مع نفس يوم ذكرى وعد بلفور المشؤوم حيث «أعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق».

ويعترف إدوارد سعيد بكل تلقائية و شجاعة – أنه لم يكن يحب اسمه «إدوارد» وهو الاسم الذي اختاره له والداه، وفي هذا السياق يقول: «إن الشعور الطاغي الذي كان يتملكني دائما هو أن شيئا ما ينقصني ويدفع بي خارج المكان، وهكذا انقضت من عمري خمسون سنة قبل أن أعتاد على اسم «ادوارد».. ذلك الاسم الإنجليزي السخيف الذي تم إقحامه عنوة على اسم عائلتي العربي الواضح..».

رحل إدوارد سعيد مع والديه وإخوته إلى القاهرة في ديسمبر ١٩٤٧، وتشرح منى أنيس ما جرى بعد ذلك من خلال تلخيصها لبعض فصول «خارج المكان» حيث تقول إن أفرادا من العائلة والعشرات من المعارف والأصدقاء لحقوا بأسرة إدوارد سعيد وتوجهوا إلى القاهرة بعد شهور قليلة بعد أن «أجبروا على ترك ديارهم في القدس و صفد وحيفا، وتحولوا بين عشية وضحاها إلى لاجئين بلا بيت أو وطن، وفي القلب من كل هؤلاء الأقارب والمعارف الذين وفدوا إلى القاهرة عشية النكبة، وفي أعقابها نجد العمة الثرية «نبيهة» شقيقة وديع سعيد – والد إدوارد – والتي أقام هو وأولاده في منزلها الأنيق في القدس الغربية طيلة عام ١٩٤٧..».

وعن عمته يقول إدوارد سعيد في «خارج المكان» – نقلا عن ترجمة منى أنيس – «.. لم تكن عمتي نبيهة لتسمح لأحد منا بنسيان بؤس القضية الفلسطينية، كان تأتي لتناول الغداء معنا كل يوم جمعة.. تحكي لنا بالتفصيل عن كل ما قامت به طيلة الأسبوع من زيارات لعائلات اللاجئين في شبرا، ومن تردد دائم على المكاتب الحكومية المصرية، حيث تقوم بمطاردة المسؤولين عن إصدار تصاريح العمل والإقامة لهؤلاء اللاجئين، كما كانت تحكي لنا عن مساعيها المستمرة مع جميع المنظمات الخيرية، بحثا عن إعانات مالية للمحتاجين..».

ما الذي دفع إدوارد سعيد وهو يكتب «خارج المكان» سنة ١٩٩٩ أن يتذكر وقائع روتها له عمته سنة ١٩٤٧ عن أناس لم يعد لهم وطن، بعد أن تحولوا إلى لاجئين؟.. إنه الصدق مع النفس، الذي أبقى الانتماء لفلسطين حيا في قلبه، وفي تصوري أن حكايات عمته «نبيهة» سنة ١٩٤٧ هي التي دفعته – عاطفيا وعقليا – لأن يهاجم اتفاقيات أو سلو هجوما عنيفا وحادا، لأن تلك الاتفاقيات لم تشر من قريب أو بعيد إلى مشكلة اللاجئين، ومن المعروف أن إدوارد سعيد أخذ يطالب سنة ١٩٩٤ باستقالة الرئيس الفلسطيني – الرمز ياسر عرفات، بل إنه وصفه بأنه «بيتان الإسرائيليين» في إشارة إلى الماريشال الفرنسي هنري بيتان الذي تعاون مع ألمانيا النازية بقيادة ادولف هتلر خلال الحرب العالمية الثانية، رغم أن ألمانيا كانت تحتل وقتها وطنه فرنسا،ومن نيويورك الأمريكية انطلقت صيحة إدوارد سعيد، لتؤكد أن اتفاقيات أو سلو بين الكيان الصهيوني ومنظمة التحرير الفلسطينية هي أداة استسلام للعرب أمام الكيان الصهيوني والولايات المتحدة الأمريكية.

من قلب نيويورك الأمريكية، انطلقت صيحة إدوارد سعيد ضد اتفاقيات أوسلو، وبدلا من أن تواجه القيادة الفلسطينية تلك الصيحة الصادرة من قلب إنسان لا يستطيع أحد أن يشك أو يشكك في صدقه ونبله، صدرت عن القيادة الفلسطينية زوابع من الانفعالات المتشنجة، كان أعجبها وأغربها قرار مصادرة كتب إدوارد سعيد من الضفة الغربية وقطاع غزة، وهكذا لم يعد المفكر الفلسطيني العالمي الكبير إدوارد سعيد يواجه الصهاينة وحدهم بثاقب فكره وعمق تحليله، وإنما أصبح أيضا يواجه عقليات بعض الساسة الفلسطينيين الذين توهموا – وقتها – أن الطريق إلى الجنة يمر بأوسلو، وإن من يهاجم اتفاقياتها لا بد أن يكون من الشياطين لا من المفكرين، وحول هذه النقطة بالذات، أتذكر أني كتبت مقالا – وقتها – بعنوان «إدوارد سعيد بين نارين» ومن المفارقات أيضا أن الذين صادروا كتب المفكر الفلسطيني العالمي الكبير، لم يستطيعوا أن يهاجموا الشاعر الكبير نزار قباني الذي كتب قصيدته الشهيرة «المهرولون» قائلا فيها:

تركوا علبة سردين بأيدينا

تسمى «غزة»..

عظمة يابسة تدعى «أريحا»

فندقا يدعى فلسطين بلا سقف ولا أعمدة

تركونا جسدا دون عظام

ويدا دون أصابع

بعد هذا الغزل السري في أوسلو

خرجنا عاقرين

وهبونا وطنا أصغر من حبة قمح

وطنا نبلعه من غير ماء

كحبوب الأسبرين

ما تفيد الهرولة؟

ما تفيد الهرولة..؟

عندما يبقى ضمير الشعب حيا

كفتيل القنبلة

لن تساوي كل توقيعات أوسلو خردلة!

من المفارقات التي تدعو كذلك للضحك أو للبكاء على حد سواء أن الرئيس الفلسطيني – الرمز ياسر عرفات قد حصل على جائزة نوبل للسلام، مناصفة مع الإرهابي الصهيوني مناحم بيجين، بعد أن جرى ما جرى في أوسلو، و هاهو الآن الإرهابي الصهيوني أرييل شارون يقرر طرد ياسر عرفات بعد أن اتهمه هو وسواه من الصهاينة بأنه إرهابي،وأعتقد الآن أن الكرة في ملعب هيئة جائزة نوبل، لنعرف رأيها فيما إذا كان ياسر عرفات جديرا بأن يحصل على جائزة نوبل للسلام، أم أنه من الضروري سحب تلك الجائزة منه، طالما أنه إرهابي!

بعيدا عن تقلبات السياسة، فإني أعترف بأني قد تأثرت أعمق التأثر بما قاله الرئيسي الفلسطيني – الرمز ياسر عرفات عقب تلقيه نبأ رحيل المفكر الفلسطيني العالمي إدوارد سعيد، حيث قال: «.. لقد خسرت الإنسانية برحيله عبقرية بارزة، كان لها إسهام غني وواسع في جميع مجالات الثقافة والفكر والإبداع، واحتل موقعا مرموقا كمدافع عن حقوق الإنسان وعن القيم الإنسانية الرفيعة وكل ما هو مستنير وحر في تاريخ الفكر الإنساني..».

هل ابتعدت عن السياسة؟.. بالطبع لا.. فالسياسة تتدخل وتتغلغل حتى في تفاصيل حياتنا اليومية وجزئياتها، وحتى كتب إدوارد سعيد ودراساته الأكاديمية، فإنها تعكس الرؤية السياسية لصاحبها المفكر الكبير، وهو يواجه ما يواجهه، خائضا خضم التاريخ وجغرافيا الأماكن القريبة والبعيدة وباحثا عن جوهر الإنسان.

للمفكر الفلسطيني العالمي الكبير دراسات عديدة كلها مهمة، لكن أشهرها هو كتاب «الاستشراق» الذي كتبه بالإنجليزية وترجم إلى ست وعشرين لغة، من بينها لغتنا العربية وله «تعقيبات على الاستشراق» الذي ترجمه وقدم له صبحي حديدي، وله «الثقافة والإمبريالية» الذي ترجمه وقدم له كمال أبو ديب وهناك كتاب، أعتقد أنه ملفق أو مختلق، بعنوان «الواقع الفلسطيني – الماضي والحاضر والمستقبل» وهو كتاب صغير، ومع هذا فإن دار النشر التي أصدرته تقول - على الغلاف – أنه من تأليف «إدوارد سعيد وإبراهيم أبو لغد و جانيت أبو لغد ومحمد حلاج وإيليا رزيق» ويقع هذا الكتاب في (١١٧) صفحة من القطع الصغير، ولا يستطيع قارئه أن يميز بين ما كتبه الذين قالت دار النشر أنهم قد كتبوه، كما لا يستطيع أن يعرف ما إذا كان الذين كتبوه قد اتفقوا فيما بينهم على جهد جماعي، أم أن الأمر كله مخترع من جانب دار النشر؟!

علينا أن ننسى هذا الكتاب الملفق أو المختلق، لكي أشير إلى كتاب على جانب عظيم من الأهمية، وصاحبه شاعر بالفعل، وله عدة دواوين، وهو الكاتب والشاعر خيري منصور، أما الكتاب ذاته فهو بعنوان «الاستشراق والوعي السالب».

يتناول الفصل الثاني من كتاب خيري منصور مقارنة مضنية وجادة بين كتاب «آراء غربية في مسائل شرقية» لعمر فاخوري وكتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد، وقد صدر الكتاب الأول قبل ستين سنة من صدور الكتاب الثاني، ويرى خيري منصور أن القارئ لهذين الكتابين «.. لا يعدم فرصة القبض على أكثر من قاسم مشترك بينهما،بالغرم من البون بينهما منهجيا ومعرفيا. فاخوري سنة ١٩٢٥ كان يقف على الجانب الآخر من «جنة» طه حسين مثلا، وكان يقرأ جهود الاستشراق على أنها تأويلات قبل أي شيء آخر، لأن جهلهم بالحقيقة حال دون شفائهم من داء الأحكام السابقة..« وينطلق خيري منصور ليقول إن عمر فاخوري كان على وعي مبكر بمسألة إعادة خلق الآخر على غرار «الأنا».. وهذا ما سيقوله إدوارد سعيد بعد ستين سنة ولكن بشكل آخر.

من الصـعب بالطبع تناول أفكار إدوارد سـعيد حول الاسـتشـراق، ولا حتى عرض المقارنة التي أوضـحها خيري منصـور بينه وبين عمر فاخوري، فهذا أمر يتطلب جهدا كبيرا، لا تتحمله طبيعة الكتابة المتعجلة عن رحيل مفكر كبير، ولهذا فإني – في الخاتمة – أعود إلى «خارج المكان» حيث نتعرف على عوالم المفكر الفلسـطيني العالمي الكبير، منذ عالم الطفولة، إلى عالم ضياع وطن بأ سره، وعالم التغلغل في جوهر الأ شياء، وإن كان هذا التغلغل «خارج المكان» وربما أيضـا بسـببه. أن القدس عند إدوارد سـعيد رمز لاغتراب الروح عن المكان الذي أحبته، و تأتي القاهرة عنده لتكون دواء القلب المجروح بفعل الاغتراب، أما نيويورك فإنه يظل فيها دون أن يكون فيها.. فهو مغترب فيها، لكنه مقيم على أرضها، وهناك واقعة شخصية يرويها إدوارد سعيد، تتعلق بحرمانه من زيارة القاهرة على امتداد خمس عشـرة سـنة، وهذا ما جعله في «خارج المكان» يقول بالحرف الواحد «.. لقد حرمت ١٥ سـنة من زيارة المدينة الوحيدة في العالم التي كنت أحس بشكل أو بآخر بعدم الغربة فيها..».

لم تمنع الجنسـية الأمريكية التي يحملها إدوارد سـعيد روحه الفلسـطينية من أن تظل حية، والحق أن إدوارد سعيد لا يتجلى شاعرا إلا «خارج المكان» وإذا كان إدوارد سعيد المفكر – الشـاعر – الإنسـان قد غاب يوم ٢٥ سـبتمبر سـنة ٢٠٠٣، فإن قبس فكره وعذوبة شعره وصدق إنسانيته كلها لم تغب.. ولن تغيب.



خواطر مبعثرة حول رحيل الشاعر
عاصفة الصحراء ظلمته وقبلها ظلمته الإقليمية الثقافية

محمد الفايز

خبر صغير، نشرته جريدة «صوت الكويت» في عددها الصادر يوم ٢٧ مارس (آذار) ١٩٩١م، وعلى الرغم من أن الخبر صغير، بل ربما لأنه صغير، فإنه هزني من الأعماق. يشير الخبر الصغير إلى رحيل شاعر عربي كبير عن عالمنا هو الشاعر محمد الفايز. ويقول الخبر إن الشاعر الكبير قد رحل عن عالمنا «.. بعد صراع مع المرض استمر لفترة بسبب عدم توفر العناية الصحية في الكويت نتيجة الغزو الصدامي لها. وقد وافت شاعرنا الكبير المنية ثاني يوم التحرير...».

هذا الخبر الصغير، هزني من الأعماق، لأن محمد الفايز لم يحصل – في تقديري – طوال حياته على حقه الذي يستحقه من النقاد العرب، كما أننا لم نسمع عن رحيله عن عالمنا إلا من خلال هذا الخبر الصغير، بينما المفروض أن يحصل على حقه الذي يستحقه من النقاد بعد مماته، طالما أنه لم يحصل عليه خلال حياته.

بعد أن فرغت من قراءة الخبر الصغير، تذكرت – على الفور – كاتبين عربيين كبيرين، رغم أن الصلة بينهما وبين محمد الفايز تبدو بعيدة أو مبتورة. هذان الكاتبان اللذان تذكرتهما على الفور هما مصطفى لطفي المنفلوطي ود. طه حسين.

كلنا أو على الأقل الجيل المسن منا، نتذكر «نظرات» المنفلوطي و«عبراته» كما نتذكر تعريبه لعدد من الروايات من الفرنسية التي اشتهرت بين القراء العرب بسبب تعريبه لها، ومن بينها «الفضيلة» أو «بول وفرجيني» لبرناردين دي سان بيير، و«في سبيل التاج» لفرانسوا كوبيه، و«الشاعر أو سيرانودي برجراك» لأدمون روستان، و«ماجدولين أو تحت ظلال الزيزفون» لألفونس كار.

لكن كثيرين منا قد لا يتذكرون أن مصطفى لطفي المنفلوطي قد رحل عن عالمنا ذات يوم من عام ١٩٢٤م، ولست أذكر اليوم على وجه التحديد، وحين هممت بأن أحدده من خلال «الموسوعة العربية الميسرة» وكتاب د. شوقي ضيف «الأدب العربي المعاصر في مصر» اكتشفت أن المصدرين لم يحددا هذا اليوم.

المهم فيما يتعلق بنا الآن، أن المنفلوطي رحل عن عالمنا في يوم مشــهود من أيام مصر العربية، ففي ذلك اليوم من عام ١٩٢٤م جرت محاولة لاغتيال شخصية سياسية جماهيرية كان لها ثقلها الكبير، وأعني سعد «باشا» زغلول، وكان لابد أن تنقلب الدنيا في مصــر خلال ذلك اليوم، وخلال ذلك اليوم نفســه توفي المنفلوطي، فلم تجد جنازته مشيعين لها، وهذا ما أبرزه «أمير الشعراء» أحمد شوقي في مرثيته التي استهلها قائلا:

اختــرت يــوم الــهــول يــوم وداع

ونعاك في عصــف الرياح الناعي

هتف النعاة ضــحى فأوصــد دونهم

جـرح الـرئـيـس مـنـافـذ الأســمـاع

ومن الطريف أن شوقي في تلك المرثية طلب أو تمنى من المنفلوطي أن يؤجل وفاته لما بعد حادث إطلاق الرصاص على سعد زغلول:

ما ضــر لو صــبرت ركابك ســاعة

كيف الوقوف إذا أهاب الداعي؟

وهكذا تكفل ما وقع لسعد زغلول في ذلك اليوم بألا تجد جنازة المنفلوطي مشيعين لها، وهذا ما جرى فيما يتعلق بمحمد الفايز الذي اختار يوم الهول يوم وداع، فالدنيا كلها كانت مشغولة بحدث عالمي ضخم ومؤثر هو تحرير الكويت من قبضة الاستعمار العراقي، وهكذا فإن «عاصــفة الصــحراء» تكون – دون أن تدري – قد ظلمت شــاعر الكويت الكبير الذي رحل عن عالمنا في ثاني يوم من أيام تحرير الكويت، أي يوم السابع والعشرين من فبراير ١٩٩١م.

أما الكاتب العربي الثاني الذي تذكرته فور قراءتي للخبر الصــغير الناعي لمحمد الفايز، فهو- كما قلت – د. طه حســين، عميد الأدب العربي وقاهر الظلام. رحل د. طه حسين عن عالمنا يوم السابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩٧٣م، وكأنه لم يشأن أن يرحل عن عالمنا إلا بعد أن شهد حرب السادس من أكتوبر المجيدة التي عبرت خلالها قوات مصر العربية أضخم حاجز مائي في التاريخ وهو قناة السويس، واقتحمت خط

بارليف الحصـــين. وكذلك محمد الفايز فإنه رحل بعد أن عاش يوما كاملا من أيام الكويت عقب تحريرها من الاستعمار الذي كان جاثما فوق صدرها.

ومما أود الإشــارة إليه الآن أني قد تذكرت محمد الفايز على وجه التحديد يوم تحرير الكويت دون أن أكون على علم بأنه قد رحل عن عالمنا في اليوم التالي ليوم التحرير.

قلت في هذا المقال بالنص:

«... شـــادي الخليج صــوت كويتي قوي آســر... هذا ما كنت أحس به تجاهه منذ سنوات طويلة، لكن صوته الذي تردد من الإذاعات الخليجية في أعقاب تحرير الكويت من مغتصــبيها كان له مذاق متميز وخاص، كان صــوت شــادي الخليج يتغلغل في كياني وهو يترنم بسطور من قصيدة الشاعر الكويتي محمد الفايز، الذي قرأت معظم دواوينه، لكن ديوانه الأول «مذكرات بحار» يظل هو الآخر ذا مذاق متميز وخاص، وما يترنم به شادي الخليج مقتطفات من هذا الديوان.

كان محمد الفايز يصــور معاناة الإنســان في الكويت وفي دول الخليج العربية قبل مرحلة ظهور الذهب الأسود، حيث كان الرجال ينطلقون في شهور الصيف من كل عام للغوص، بحثا عن اللؤلؤ. و كأنما كان محمد الفايز يتنبأ بما حدث منذ الثاني من أغسـطس (آب) الأسـود حتى صـبيحة يوم تحرير الكويت، حيث ظل الكويتيون خارج الوطن خلال شـهور صـيف عام ١٩٩٠م إلى شــهر فبراير عام ١٩٩١م، وها هي العودة المظفرة تهل بعد أن أشــرقت شــمس الحرية على الكويت، لتزيح القهر الذي كان قد تغلغل في النفوس.

وها هو شادي الخليج يترنم بقوة آسرة وصوته يتغلغل في كياني:

ها نحن عدنا ننشد «الهولو» على ظهر السفينة

من رحلة الصيف الحزينة

ها نحن عدنا للمدينة...»

هذا ما قلته بالنص، دون أن أكون على علم بأن محمد الفايز قد رحل عن عالمنا في اليوم التالي ليوم التحرير.

وقلت إن عاصفة الصحراء قد ظلمت محمد الفايز، مثلما ظلم المنفلوطي إطلاق الرصاص على سعد زغلول عام ١٩٢٤م، وينبغي أن أقول الآن أن الروح الإقليمية المهيمنة على الساحة الثقافية العربية كانت قد ظلمت محمد الفايز خلال حياته، وهكذا لم يحصل على حقه الذي كان يستحقه من النقاد العرب.

على أن ظلم الروح الإقليمية المهيمنة على الساحة الثقافية العربية للشاعر محمد الفايز هو ظلم لا ينطبق عليه وحده، ولهذا فإن الحكم بالظلم ليس تخصيصيا، وإنما هو حكم تعميمي يندرج في إطاره كثيرون من الشعراء والأدباء والفنانين العرب لأسباب عديدة مختلفة.

لقد فرضت الروح الإقليمية المهيمنة على الساحة الثقافية العربية أن يركز النقاد العرب معظم اهتماماتهم على أدباء و شعراء وفناني الأقطار العربية التي ينتمون إليها ومن غيرها، ولهذا فإن النقاد العرب في مصر و سوريا والعراق لم يكتبوا عن محمد الفايز لأنه شاعر عربي من الكويت، ربما لم يسمع كثيرون منهم – مع الأسف الشديد – باسمه.

كما أن الشعراء والأدباء والفنانين العرب الذين ينتمون إلى دول أطراف الوطن العربي معروفون – كأسماء على أحسن تقدير – في دول قلب الوطن العربي، لكن إبداعاتهم تظل مجهولة أو معروفة معرفة يسيرة سطحية في تلك الدول التي تمثل القلب. ولعل المثال الواضح الذي يعرفه كثيرون الآن هو مثال المطرب عبد الله الرويشد الذي ظل يغني طيلة سنوات في الكويت وبعض دول الخليج العربي، إلى أن أشركه شاعر العامية المصرية الكبير عبد الرحمن الأبنودي في «الليلة المحمدية»، فغنى ضمنها «اللهم لا اعتراض» وبعدها مباشرة أصبح اسمه يتردد على كل لسان في مصر وخارجها، لدرجة أن شريط «اللهم لا اعتراض» باع في مصر وحدها ما يزيد عن خمسة ملايين شريط كاسيت.

وإذا رجعنا إلى الثلاثينيات من هذا القرن فإننا نجد أن أبا القاسم الشابي – من تونس – لم يكن يمكن أن يحقق ما حققه من شهرة ضخمة خلال حياته القصيرة لو أنه لم يكن قد نشر مجموعة من قصائده في مصر، حيث اهتمت مجلة «أبولو» التي كان يصدرها د. أحمد زكي أبو شادي بنشر قصائد عديدة للشابي، من بينها قصيدته الشهيرة «صلوات في هيكل الحب».

وفيما يتعلق بالروح الإقليمية المهيمنة على الساحة الثقافية العربية، فإن تلك الروح فرضت على النقاد والباحثين المعاصرين دون وعي منهم أن يصفوا الأدب الذي يدرسونه بأنه «أدب مصري» أو «أدب عراقي» أو «أدب سوري» أو «أدب كويتي» أو «أدب مغربي» أو «أدب قطري».. وهكذا.. بينما كان النقاد والباحثون العرب السابقون على هؤلاء يتحدثون عن «الأدب العربي في مصر» أو «الأدب العربي في العراق» أو «الأدب العربي في سوريا»... وهكذا.

ما بين عام ١٩٣٢ وعام ١٩٩١ (فبراير – شباط) قصة عمر، وخلال قصة العمر كانت هناك رحلة مع الشعر، ولست أعرف الكثير عن قصة عمر الشاعر الكبير محمد الفايز، لكن رحلته مع الشعر تستحق مقالا مستفيضا، بعد تلك الخواطر المبعثرة التي أثارها في نفسي نبأ رحيله عن عالمنا في اليوم التالي ليوم تحرير الكويت الغالية، وأتمنى أن يكتب النقاد العرب عن محمد الفايز بعد أن ظلمته الروح الإقليمية المهيمنة على الساحة الثقافية العربية خلال حياته، و سأحاول – من ناحيتي – أن أركز فيما سيأتي على العطاء الشعري للشاعر الراحل، بعد تلك الخواطر المبعثرة.



الشاعر محمد الفايز
بين الشكل الجديد وغواص ما قبل النفط في الخليج العربي

حين كتبت «خواطر مبعثرة حول رحيل الشـاعر الكبير محمد الفايز» في اليوم التالي مباشـرة ليوم تحرير الكويت ، اختتمت ما كتبت بأني لسـت أعرف الكثير عن قصـة عمر الشاعر الراحل، لكن رحلته مع الشعر تستحق مقالا مستفيضا.

والحق أن ما أعرفه فيما يتعلق بحياة محمد الفايز لا يتعدى كونه شـذرات قليلة، مسـتمدة من الكتابات القليلة التي كتبت عنه وعن شـعره، ومن بينها ما كتبته د. نورية الرومي في دراسـتها عن «الحركة الشـعرية في الخليج العربي بين التقليد والتطور» حيث تقول عنه – ص٤٦٣ – «ولد الشـاعر محمد الفايز العلي في العراق ١٩٣٢، وانتقل إلى الكويت عام ١٩٥٦م، يعد من أبرز شـعراء الكويت المعاصـرين، نشـر في الصـحف والمجلات الثقافية والأدبية، وهو عضو رابطة الأدباء في الكويت، ويشرف على البرامج الثقافية في محطة إذاعة وتلفزيون الكويت..».

فإذا تذكرنا أن محمد الفايز قد رحل عن عالمنا في اليوم التالي ليوم تحرير الكويت، أي يوم ٢٧ فبراير عام ١٩٩١م، فإن هذا يعني أن الشاعر الكبير قد عاش في العراق أربعا وعشـرين سـنة من ١٩٣٢ حتى ١٩٥٦م، وعاش في الكويت خمسـا وأربعين سـنة من ١٩٥٦ حتى ١٩٩١م. وهذا يعني أن الشـاعر الكبير قد تفتح وعيه على الحياة والناس في العراق، كما يؤكد أنه عاش بداياته الشـعرية والأدبية في السـاحة الثقافية بالعراق، وربما يكون قد تعرف بأدباء وشعراء عديدين هناك.

وعلى ضـوء هذا فإن من حقي أن أبدي اندهاشـي ممن كتبوا عن شـعر محمد الفايز دون أن يشيروا ولو إشارة عابرة إلى استفادته وتأثراته بشعراء العراق. وعلى سبيل المثال فإن الدكتورة نورية الرومي قد كتبت في دراسـتها التي أشـرت إليها عن ديوان «مذكرات بحار»دون أن تشـير لا من بعيد ولا من قريب إلى تأثر محمد الفايز – كما أتصـور – بالشاعرين الكبيرين بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي.

من بين ما اختارته الباحثة من «مذكرات بحار» لكي تحلله وتفسره، تلك السطور التي يقول فيها محمد الفايز:

أمسكت «مفلقة» المحار
في الفجر مرتجفا لتكتمل القلادة
في عنق جارية تنام على وسادة
بإزارك البحري يعبق، والبحار
مملوءة دررا سيملكه سواي؟

ولو أن الباحثة كانت قد قرأت «أزهار ذابلة» الديوان الأول لبدر شاكر السياب لكانت قد أدركت على الفور أن محمد الفايز قد استفاد من السياب، وخاصة في قصيدته «السائلة السوداء» حيث يقول السياب:

شرق يبيع لمغرب جشع
خالي الجوانح فارغ البال
ومتوجان تهاديا، دررا
غواصهن دفين أسمال

وفي تقديري أن محمد الفايز نفسه قد أكد على صلته بالسياب في الطبعة الأولى من «مذكرات بحار»، حيث اختار أن يجمع في الصفحة الأخيرة من صفحات هذا الديوان كلمات قالها عنه شعراء وأدباء عرب، هم – وفقا لترتيب محمد الفايز – بدر شاكر السياب وفاروق شوشة ويوسف الخال ومحمود الحوت. وإذا كان الذي يعنينا هنا هو السياب فإن الكلمة التي كتبها عن محمد الفايز (ص٧٤) هي بالنص: «يعتبر محمد الفايز من الشعراء الطليعيين القلائل الذين عرفتهم منذ خمس عشرة سنة»... ولنا أن نلتفت هنا إلى كلمة «عرفتهم» للدلالة على أن هناك صلة كانت تربط ما بين الفايز والسياب.

والحقيقة أني لا أقصد مطلقا أن ألوم د. نورية الرومي، خصوصا إذا عرفنا أنها ليست وحدها من الباحثين الذين كتبوا أبحاثهم ودراساتهم في ظل هيمنة الروح الإقليمية على الساحة الثقافية العربية والتي أشرت إلى بعض مظاهرها فيما كتبته من قبل عن محمد الفايز.

إن علينا – على سبيل المثال – أن نتوقف أمام عناوين بعض الباحثين العرب لنرى هيمنة تلك الروح الإقليمية عليهم بحسن نية منهم، فالدكتور علوي الهاشمي – من البحرين – له دراسة مطولة بعنوان «ماقالت النخلة للبحر – الشعر المعاصر في البحرين» وعلى الرغم من أن الباحث درس وحلل حياة الغوص في البحر وانعكاسها على الشعر، وهي حياة عايشها كل الخليجيين في البحرين وسواها، فإنه لم يقدم في دراسته – ولو نموذجا واحدا- ولو بقصد المقارنة من نماذج الشعراء العرب الخليجيين غير البحرينيين. والدكتور محمد عبد الرحيم كافود – من قطر – له دراسة مطولة بعنوان «الأدب القطري الحديث»، والدكتورة نور سلمان – من الجزائر – لها دراسة ضخمة بعنوان «الأدب الجزائري»، والشاعر الكبير عبد الله البردوني – من اليمن – له دراسة كبيرة بعنوان «رحلة في الشعر اليمني». والباحث علي حداد – من العراق – له دراسة مستفيضة بعنوان «أثر التراث في الشعر العراقي الحديث»، والدكتور خليفة الوقيان – من الكويت – له دراسة كبيرة بعنوان «القضية العربية في الشعر الكويتي».

وقد يقول قائل: إن هؤلاء الباحثين قصدوا أن يحددوا الأقطار العربية التي يدرسون نتاج أدبائها وشعرائها دون أن تكون هناك تلك الروح الإقليمية التي تتحدث عنها. ولمثل هذا القائل أقول: إن الباحثين العرب من الأجيال السابقة على هؤلاء الباحثين كانوا يختارون عناوين دراساتهم بصورة أدق، وبشكل يؤكد أن الأدب العربي كل لا يتجزأ وإن تعددت بيئاته وأقطاره. وعلى سبيل المثال فإن الدكتور شوقي ضيف – من مصر – كتب «الأدب العربي المعاصر في مصر»، والدكتور عمر الدقاق – من سوريا – كتب «فنون الأدب المعاصر في سورية»، والدكتور كامل السوافيري – من فلسطين – كتب «الأدب العربي المعاصر في فلسطين».

في تقديري أن هذه القضية تتطلب دراسة ممن لا يزالون متشبثين بالعروبة بالرغم من المحنة التي ابتليت بها منذ الانقسام الهائل في الروح العربية عقب الاستعمار العراقي للكويت وما بعد تحرير الكويت من قبضته. والشرط الوحيد لموضوعية الدراسة ألا يتبادل الباحثون العرب الاتهامات، مثلما يحدث على الصعيد السياسي.

وأعود إلى محمد الفايز الذي أرى أني قد ابتعدت عنه وإن كان عذري أن الأدب لا ينفصل عن السياسة وكذلك السياسة لا تنفصل عن الأدب.

خلال حياته أصدر محمد الفايز سبعة دواوين هي – وفقا لترتيب صدورها – «مذكرات بحار»، «النور من الداخل»، «الطين والشمس»، «رسوم النغم المفكر»، «بقايا الألواح»، «لبنان والنواحي الأخرى»، و«ذاكرة الآفاق».

وقد أشار الشاعر على أغلفة بعض هذه الدواوين إلى أنه سيصدر قريبا «حداء الهودج»، و«خلاخيل الفيروز»، و«كتابات فوق الأبواب القديمة»، ولست أعر فما إذا كانت هذه الدواوين قد صدرت بالفعل أم لا؟

ومن ناحية أخرى فإن الدكتورة نورية الرومي أشارت في دراستها ضمن التعريف بالشاعر (ص٤٦٣) إلى أن محمد الفايز قد أصدر «الأرض والتفاح» قصص قصيرة و«خالد بن الوليد» ملحمة شعرية، وهي تقول إنها لم تطلع عليهما. وبدوري أقول: .. ولا أنا.

أما الباحث أحمد قبش فإنه يقول في كتابه التسجيلي «تاريخ الشعر العربي الحديث»، معرفا بمحمد الفايز: «شاعر من الكويت له ديوان شعر باسم «الطين والشمس» وله ديوان آخر باسم«قصائد من الخليج» وله ديوان آخر باسم «مذكرات بحار». (ص٢٠٩). ويذكر الباحث في الصفحة السابقة من كتابه (ص٢٠٨) أن هناك شاعرا عربيا آخر من تونس اسمه هو أيضا «محمد الفايز»، ولكن المهم هنا أن أحمد قبش قد ذكر أن لمحمد الفايز – الكويتي – ديوانا بعنوان «قصائد من الخليج» ولست أدري من أين استقى الباحث هذه المعلومة، خاصة أن محمد الفايز نفسه لم يذكر أن له ديوانا بهذا الاسم.

قرأت دواوين محمد الفايز السبعة، وإن كان ما أقتنيه منها في مكتبتي الخاصة خمسة دواوين فحسب، هي «مذكرات بحار» و«الطين والشمس»، وقد طبع هذان الديوانان في «مطبعة حكومة الكويت» وديوان «رسوم النغم المفكر» والذي طبع في نفس المطبعة و«لبنان والنواحي الأخرى» و«ذاكرة الآفاق» وقد صدر هذان الديوانان عن «شركة الربيعان للنشر والتوزيع». ومن هنا يجب الاعتراف بأن الحديث عن شعر محمد الفايز هنا سيكون حديثا مبتورا أو غير متكامل.

فيما يتعلق بالشكل الفني لبناء القصيدة العربية المعاصرة منذ عام ١٩٤٧م حتى الآن. فإن هناك ثلاثة أشكال فنية لهذا البناء، أولها الشكل المتوارث عن القصيدة العربية القديمة أو ما يسميه بعضنا الشكل العمودي أو يسميه آخرون للانتقاص منه الشكر المتحجر. وهناك شكل الشعر الحر، حيث يختار الشاعر أن يبني المعمار الموسيقي لقصيدته من خلال تكرار التفعيلة العروضية دون الالتزام بعدد ثابت منها يكرره في البيت كما هو الشأن في الشعر المتوارث. وهكذا فقد يصبح السطر الشعري في الشعر الحر مكونا من تفعيلة واحدة، وقد تتكرر التفعيلة على امتداد عدة صفحات دون توقف كما نجد فيما يطلق عليه بعض النقاد والباحثين اسم القصيدة المدورة، أما الشكل الثالث فهو ما أرفضه ويرفضه آخرون غيري. وهو ما يسمى بقصيدة النثر.



غازي القصيبي ..
شاعر كبير جرفته دوامة الرواية!
التقينا على طريق الحب.. والفضل يرجع لمبدع الأطلال

صباح الأحد ١٥ أغسطس ٢٠١٠ خرجت متمهلا من شرنقة النوم ، وشرعت في ممارسة طقوسي اليومية التي أستهلها – عادة – بفتح جهاز الكمبيوتر ، لمتابعة الرسائل الواردة لي ، وعلى الفور تعلقت عيناي – بلهفة وألم – بعنوان رسالة تنعى الدكتور غازي القصيبي وزير العمل والشؤون الاجتماعية بالمملكة العربية السعودية . قرأت الرسالة ، متمنيا لو أنها كانت كاذبة أو غير دقيقة ، لكن ما تابعته بعد ذلك من مقالات مبثوثة على مواقع الإنترنت أكد لي أن ما أتمنى أن يكون كذبا ليس كذلك وإنما هو حقيقة ، لا تقبل الاختلاف بشأن ما تقرره وتؤكده .

جال بذهني وأنا مستسلم للحزن بيتان ، كنت أحفظهما منذ أن كنت طالبا جامعيا ، وهما من شعر أحد شعراء العصر العباسي ، هو أبو العتاهية :

الموت لا والدا يبقي ولا ولدا

ولا صغيرا ولا شيخا ولا أحدا

للموت فينا سهام غير مخطئة

من فاته اليوم سهم لم يفته غدا

كان لا بد من أن أتابع وقائع الحقيقة التي تمنيتها كذبا ، وهكذا اندفعت لمتابعة النشرات الإخبارية لكل من الجزيرة والعربية ، وإذا بهاتين القناتين الفضائيتين الشهيرتين تبثان الخبر – الحقيقة ، لكن الخبر أضاف إلى الحزن الذي تغلغل في أعماقي شعورا غامرا بالأسف ، فالفقيد الذي رحل عن عالمنا هو الدكتور غازي القصيبي وزير العمل والذي كان – خلال حياته العملية والوظيفية – سفيرا للمملكة لدى المنامة ثم لدى لندن وسواهما ، إلى أن أصبح وزيرا للكهرباء والماء ثم وزيرا للصحة ، وفي خاتمة الخبر – كما بثته القناتان – إشارة سريعة بل متسرعة إلى الفقيد الراحل باعتباره أديبا متنوع العطاء !

أعترف بأني تململت أثناء متابعتي لما بثته القناتان ، وتساءلت بدهشة ممزوجة بالأسف : هل قام الإعلام بإعدام العطاء الجوهري للدكتور غازي القصيبي ، هذا العطاء المتمثل فيما أبدعه على امتداد حياته في الشعر وفي الرواية ، فضلا عما كتبه في ميدان النقد الأدبي وفي ميادين الفكر الحر الجريء ؟ ! ماذا يهم أمثالي من عشاق الأدب إن كان الدكتور غازي القصيبي وزيرا أو خفيرا .. صاحب جاه وسلطان أو إنسانا من البسطاء ؟ ما يهم أمثالي أنه شاعر عربي كبير ، وروائي مبدع ومقتدر ، و صاحب مواقف فكرية ، قد نختلف أو نتفق حولها وحول ما تثيره . ولكن ماذا لو أن الدكتور غازي القصيبي لم يكن قد تقلد أية مناصب مرموقة ؟ أعتقد أن الإعلام لم يكن سيهتم بأن يبث خبر غيابه ورحيله عن عالمنا في نشرات أخباره إلا على استحياء !

بعيدا عن كل المناصب المرموقة التي أسندت إليه ، بل بعيدا حتى عن نشأته وطفولته ودراسته الجامعية ، دون إنكار لأهميتها في تكوينه الأدبي والفكري ، فإننا لا بد أن نتحدث عنه أولا باعتباره شاعرا عربيا كبيرا ، حتى وإن كانت الرواية قد استهوته وجذبته إلى أن جرفته دوامتها التي لا تكف عن الدوران .

في العشرين من عمره ، أصدر الشاعر الراحل الكبير سنة ١٩٦٠ ديوانه الأول – أ شعار من جزائر اللؤلؤ – وكان لا بد أن تظهر في هذا الديوان تأثرات صاحبه بال شعراء العرب الذين أعجب بهم ، ومن هؤلاء إيليا أبو ماضي وإبراهيم العريض وعلي محمود طه وأمين نخلة ، وعن الظروف القاسية والصعبة التي عاشها الشاعر وانعكست بظلالها على قصائد أشعار من جزائر اللؤلؤ يقول غازي القصيبي : لقد ولدت في أحضان بيئة نفسية حزينة ، قبل أن أولد بشهور توفي جدي لوالدتي في ظروف كئيبة تركت ظلها القائم على المنزل ، وبعد ولادتي في الأحساء بتسعة أشهر توفيت أمي على أثر إصابتها بالتيفود ، وكانت – رحمها الله – في التاسعة والعشرين ، وعلى إثر وفاتها تكفلت بتربيتي جدتي لوالدتي وكانت في حالة نفسية بالغة الكآبة بعد فقد زوجها ثم ابنتها الوحيدة وانتقالها من المجتمع الذي ألفته وأحبته في الحجاز إلى مجتمع جديد غير مألوف في الأحساء ثم في البحرين ، وكان والدي مشغولا بأعماله التجارية الواسعة وشؤون عائلته الكبيرة ولم تكن طبيعة العلاقات العائلية أيامها تتيح للأب أن يلعب دورا في تنشئة أولاده ، ومن هنا فإن مهمة تربيتي قد تركت نهائيا في يد جدتي التي قامت بها خير قيام .

ويتحدث الشـاعر الراحل الكبير عما جرى له من تغيرات ، عندما انطلق إلى القاهرة للدراسة فيها ، فيقول إن الانتقال إليها كان صدمة حضارية بالمعنى الصحيح ، فقد كانت القاهرة أيامها مركز الثقل السـياسـي والثقافي والعلمي في العالم العربي ، وكانت تموج بتيارات فكرية شـتى : تيار القومية العربية الجديد الذي بدأ الرئيس جمال عبد الناصـر يتبناه ويفر ضه على الـ شعب المـ صري ، والتيارات الحزبية في العالم العربي وأهمها حزب البعث وحركة القوميين العرب ، وفيما يتعلق بالشعر ، كان هناك صراع عنيف بين أنصار الشـعر التقليدي وفي مقدمتهم الأسـتاذ عباس محمود العقاد وبين جيل من الشـعراء الشباب ، كان ألمعهم في ذلك الوقت صلاح عبد الصبور .

بعد تجربة الديوان الأول توالت دواوين الـ شاعر الراحل الكبير : قطرات من ظمأ – معركة بلا راية – أبيات غزل – أنت الرياض – الحمى .. وسـواها من الدواوين التي صـدرت فيما بعد مجتمعة في الأعمال الشـعرية الكاملة سـنة ١٩٨٧ .. وفي تقديري أن صـاحب كل هذه الأعمال الشـعرية المتميزة لم يكن ممن ينحازون لشـكل شـعري على حـساب سواه من الأ شكال ، فقد كان يكتب القـ صيدة العمودية المتوارثة بنفس البراعة التي كانت تتجلى في قـصائد الـشعر الحر عنده ويتـسم شعره بـصورة عامة بالحرص على المو سيقى التي بتـصورها أ سا سا لكل شعر جميل وأ صيل . ومن قـصائده العديدة التي أحبها قصيدة بعنوان – فيم العناء – وفيها يقول :

جميع المطارات عندي سواء

جميع الفنادق عندي سواء

وكل ارتحال قبيل الشروق

وبعد المساء

سواء

وكل الوجوه

تطاردني عند كل وداع

تلاحقني عند كل لقاء
سواء
ففيم العناء ؟
أفيق مع الفجر .. أشرب شاي الصباح
أسير إلى غابة الأمس واليوم
حيث تسيل الدماء
أصافح نفس الأيادي المليئة بالعطر
والمكر .. ألمح نفس الرياء
ونفس الخداع ونفس الغباء
ففيم العناء ؟
وحين أغيب
وراء المغيب
يقولون كان عنيدا
وكان يقول القصيدا
وكان يحاول شيئا جديدا
وراح .. وخلف هذا الوجودا
كما كان فبل غبيا بليدا
ففيم العناء ؟
ففيم العناء ؟

إذا كنا جميعا قد عرفنا غازي القصيبي باعتباره شاعرا عربيا في بداية الأمر ، فإن الرواية قد جرفته فيما بعد ، حيث أصدر أولى رواياته بعنوان شقة الحرية ، وهي رواية تتناول مرحلة انتقال صاحبها للإقامة في القاهرة كما سبق أن ذكرت ، ثم تتابعت من بعدها روايات عديدة ، من بينها العصفورية وأبو شلاخ البر مائي والجنية ، وهنا أتساءل : هل

أدرك الشاعر أن الشعر قد فقد مكانته التي كانت له من قبل ، ففضل أن يلجأ لفن أدبي آخر ، لكي يعبر عما يجول بخاطره أو يحدد به مواقفه من الحياة والناس بشكل عام ؟ وبالطبع فإن الإجابة على هذا التساؤل تتطلب دراسة متمهلة ، لا تتسع لها هذه السطور .

***

ربما يكون من العجيب أو الغريب أن أقول إني لم ألتق – ولو مرة واحدة – مع الدكتور غازي القصيبي ، ومع هذا فإن ما بيننا أعمق بكثير من اللقاءات الإنسانية العابرة والسريعة والتي قد تتسم بالمجاملات ، وهكذا أستطيع القول إن ما بيننا كان علاقة روحية جميلة ، وعلى سبيل المثال فإني تلقيت منه نسخة مهداة لي من ديوانه الشهير معركة بلا راية سنة ١٩٧١ وهي السنة التي صدر خلالها هذا الديوان عن دار الكتب في بيروت .، وقد تسلمت نسختي وقتها من الصديق الكاتب السعودي عبد الله الماجد والذي تحول فيما بعد إلى صاحب دار نشر هي دار المريخ ، ومن جانبي فإني أرسلت له عن طريق نفس الصديق ديواني – أحب أن أقول لا – ودراستي – اتجاهات الشعر الحر – لكن علاقتنا الروحية توثقت وتعمقت بعد أن أرسلت له نسخة من الأعمال الشعرية الكاملة للدكتور إبراهيم ناجي ، وهي الأعمال التي قمت بتحقيقها وكتبت لها مقدمة مستفيضة ، وصدرت عن المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة سنة ١٩٩٦ وكان الشاعر الراحل الكبير – وقتها – سفيرا للمملكة العربية السعودية لدى بريطانيا ، ويقيم في لندن ، وبعد ثلاث سنوات – أي سنة ١٩٩٩ – تلقيت من الدكتور غازي القصيبي كتابا ممتعا بعنوان – مع ناجي .. ومعها – وهو كتاب لا يضم مختارات من شعر إبراهيم ناجي كما ذكر بعض الذين يكتبون على مواقع الإنترنت ، ومن بينهم من كتبوا عن الشاعر الراحل الكبير باعتبار أنهم من متابعي عطائه الأدبي بشكل دقيق ، فلو أن هؤلاء – سامحهم الله – قد قلبوا صفحات هذا الكتاب ما كانوا قد كتبوا عنه بغير علم ولا متابعة !

مع ناجي .. ومعها – كتاب صــدر للدكتور غازي القصــيبي عن المؤســســة العربية للدراسات والنشر في بيروت سنة ١٩٩٩ .. وهو كتاب حب عميق لشاعر عربي رقيق ، لم يحظ في حياته بما يســتحقه من حفاوة وتكريم ، وقد اعتمد كاتبه اعتمادا أســاســيا على المقدمة المســتفيضــة لمجلد الأعمال الشــعرية للدكتور إبراهيم ناجي ، وقد ســعدت سعادة غامرة حين تلقيت هذا الكتاب الذي كتبه صاحبه ، لأن الدكتور غازي القصيبي كتب على صــفحته الأولى إهداء خطيا لي ، مؤكدا أنه قد كتب كتابه هذا بعد أن عرف أعماق ناجي معرفة أعمق وأشمل عندما قرأ ما كنت قد كتبته عنه .

الكتاب يتحدث عن ناجي ، لكن صاحبه يوجه كلامه فيه إلى حبيبة ، ربما تكون حبيبة خيالية أو شــخصــية حقيقية ، وهو يقول لها – صــفحة ٣٥ – كثير من الباحثين يرون أن ناجي كان يتنقل بقلبه الظامئ وشعره المحترق من نجمة إلى نجمة ، إلا أن الشاعر حسن توفيق ، وهو عاشق كبير من عشاق ناجي يذهب عكس هذا المذهب ، ويؤمن أن ناجي لم يحب إلا امرأة واحدة .. واحدة فقط . وتبدو خاتمة هذا الكتاب مؤثرة ورقيقة حقا ، حين يشــرح الشــاعر الراحل الكبير كيف أن حبيبة ناجي لم تحزن عليه عندما رحل عن دنيانا يوم ٢٤ مارس ســنة ١٩٥٣ ، إيمانا منها بأنه لم يمت ، فكل ما حدث من وجهة نظر قلبها أن ذهب ولم يترك عنوانا له ، وهنا يقول غازي القصيبي لحبيبته الخيالية أو الحقيقية : عندما أذهب أنا ولا أترك عنوانا هل ســتقولين : نم نومة هانئة أيها الأمير الحلو ؟! لا أطمع في هذا .. يكفي أن تقولي عني ما قاله ناجي عن نفسه :

فراشــة حائمة

على الجمال والصــبا

تعرضــت فاحترقت

أغنية على الربى

هكذا التقينا – الشــاعر الكبير غازي القصــيبي وأنا – على طريق الحب .. والفضــل يرجع لشــاعر الأطلال إبراهيم ناجي ، ويبقى أن أقول إن الشــاعر الراحل الكبير كان بالفعل فراشــة حائمة على الجمال والصــبا ، ولا بد أن كثيرين من الباحثين المتمهلين سيهتمون بعطائه الجوهري الذي تغافل عنه الإعلام !



معروف رفيق..
شاعر قدير يعرف الطريق رغم مرارة الجرح
عذابات فلسطين وطموحات
قطر تتجسد فيما أبدعه

بعد أيام قلائل من اختتام مهرجان الدوحة الثقافي الرابع لأنشــطته وفعالياته في أبريل ســنة ٢٠٠٥، جاءني صــوته عبر التليفون: «هذه المرة ســأســافر إلى ألمانيا لاســتكمال العلاج، أعرف أنك ســتســألني عن مقالات جديدة، لكني أكلمك الآن لكي أعتذر لك عن عدم الكتابة..». كان صوته هادئا ورصينا، لكني لم أستطع أن أبعد عني أشباح الظنون الســوداء عقب انتهاء المكالمة، فقد اعتدت من قبل، وعلى امتداد أكثر من ســنتين، أن يتصــل بي قبل رحلاته العلاجية المتلاحقة إلى الرياض، متســائلا عما لديَّ من مقالاته التي لم تنشر بعد، وواعدا بأن يرسل لي المزيد، وفي كثير من الأحيان، كنت أفاجأ به، قادما بنفســه إلى البيت الذي أســكن فيه، لكي يســلمني الجديد مما كتبه لعموده الأســبوعي «محطات». وهو العمود الذي ينشــر في الصــفحة الثقافية بجريدة الراية القطرية هكذا كانت مكالمة ما قبل ســفره إلى ألمانيا، هي المرة الوحيدة التي يعتذر فيها الصــديق والشــاعر المبدع القدير معروف رفيق عن عدم الكتابة، وكانت هذه المرة الوحيدة هي الأخيرة في نفس الوقت.

خلال فترات مرضــه، ظل معروف رفيق، يتحامل على نفســه، وهو ينطلق متحمســا للمشــاركة في أمســية شــعرية، أو حضــور إحدى الفعاليات والأنشــطة والمحاضــرات المتنوعة، ما بين ثقافية وفنية ودينية، وكأنه كان يحس بأن المرض يبتعد عنه كلما التقى مع الناس الذين يحبهم ويحبونه، ويتبادل معهم وجهات النظر بشــأن ما يجري على الأرض العربية، وخاصة في فلسطين من وقائع وأحداث، وكان يجد فيما تحققه قطر من منجزات وطموحات ما يخفف عن روحه وقع إحساسها بعذابات فلسطين.

ليس غريبا لدى أصدقاء معروف رفيق ولدى متابعي عطائه الشعري، أن يكون له من بين دواوينه التي أصدرها ديوانان، أحدهما بعنوان «فلسطين الجرح والطريق»، وثانيهما بعنوان «قطر.. على شفة الوتر» ويضاف إلى هذين الديوانين ديوان متكامل بعنوان

«القدس قضيتي» حيث تؤكد قصائد هذه الدواوين على أمرين، أولهما: إن معروف رفيق يرى بالقلب فلسطين البعيدة عن العين، وهو يعيش في قطر التي تحاول أن تعيد الحق الفلسطيني لأصحابه بالقول وبالفعل وبالمساندة المعنوية والمادية التي تكفل لهذا الحق الضائع أن يستعيد وجوده القوي والمؤثر. أما الأمر الثاني الذي تؤكده قصائد هذه الدواوين الثلاثة، فيتمثل في أن العروبة والإسلام يتناغمان ويتكاملان دون انفصام أو انفصال.

في ديوانه «فلسطين – الجرح والطريق» قصائد جميلة ومؤثرة، يتعانق فيها ما هو ذاتي بما هو عام، وما هو عربي بما هو إسلامي، ومنذ البداية نجد شاعرنا المبدع والقدير معروف رفيق يهدي هذا الديوان «إلى الذين اكتووا بنار الصهاينة فلم يجدوا للرد على نيرانهم سوى الحجارة.. وإلى المغتربين بأجسامهم بينما قلوبهم وعيونهم تتلفت إلى القدس من بعيد.. وإلى الذين يحفرون طريق العودة بأظافرهم أينما كانوا.. وإلى كل أم تضع وليدها وتنوي أن تعلمه «ألف باء» العودة.. وإلى عشاق فلسطين..».

وتتصدر ديوان «قطر.. على شفة الوتر» مقدمتان، أولاهما وهي التي تعنيني الآن، كتبها الصديق الغالي والإعلامي المستنير الذي فقدناه – الأستاذ عبد الرحمن بن سيف المعضادي – حيث يقول: «.. لقد جاء هذا الديوان ليترجم أشواق الشاعر معروف رفيق إلى وطنه الثاني قطر، بعد أن أصدر ثلاث مجموعات، كانت الأولى مجموعة «ابتهالات» والثانية « صرخة مسلم» والثالثة «فلسطين والجرح والطريق».. هذا التسلسل في ترجمة الأشواق، أشواق الشاعر إلى خالقه سبحانه وتعالى، ثم إلى وطنه الأول فلسطين والأردن، ثم إلى وطنه الثاني قطر، أقول: إنه تسلسل منطقي وينسجم مع شخصية الشاعر كما عرفتها، إنه مسلم يعتز بدينه، عربي يعتز بعروبته، إنسان يعيش أشواق الإنسان في كل مكان..».

وأعتقد هنا أن ما أشار إليه الراحل الغالي عبد الرحمن بن سيف المعضادي يؤكد ما قلته من أن العروبة والإسلام يتناغمان ويتكاملان عند معروف رفيق، دون انفصام أو انفصال.

لم يحدثني معروف رفيق عن شروعه في كتابة سيرة حياته، لكني أتذكر أن أحد أبنائه.. طراد أو مراد أو مروان.. قد حدثني عن شروع أبيه في كتابة تلك السيرة منذ نحو ثلاث سنوات، وفي هذه الحالة فإني أتمنى من الأبناء جميعا أن يهتموا بنشرها ولو على نفقتهم الخاصة إذا كانت قد اكتملت، أما الأمنية التي حدثني عنها الصديق الشاعر المبدع والقدير عدة مرات، فتتمثل في إصدار أعماله الشعرية الكاملة في مجلد واحد، وإذا كانت هذه الأمنية لم تتحقق خلال حياة معروف رفيق، فإن أبناءه وبما أعهده فيهم من وفاء، مطالبون بأن يحققوا هذه الأمنية بعد غياب الأب – الشاعر، وحبذا لو ساعدهم المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث في تحقيق ما لم يقدر لمعروف رفيق أن يحققه خلال حياته.

لم يكن عشق الشعر، تذوقا وإبداعا، حكرا على معروف رفيق في دائرة عائلته الكبيرة، فكما قدمت هذه العائلة الفلسطينية العربية قرابين من الشهداء، فإنها قدمت كذلك كثيرين من الشعراء، ويكفي أن نشير هنا إلى الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود واحدا ممن لم يجودوا لفلسطين بالكلمة وحدها، وإنما بالكلمة والروح معا، حيث استشهد في معركة «الشجرة» سنة ١٩٤٨، وكان قد تنبأ باستشهاده وهو يواجه المحتلين الصهاينة، حيث قال في إحدى قصائده الشهيرة:

سأحمل روحي على راحتي

وألقي بها في مهاوي الردى

فإما حياة تسر الصديق

وإما ممات يغيظ العدى

ونفس الشريف لها غايتان

ورود المنايا ونيل المنى

لعمرك إني أرى مصرعي

ولـكـن أغـذ إلـيـه الـخـطـى

أرى مصرعي دون حقي السليب

ودون بـلادي هـو الـمـبـتـغـى

وإلى جانب «العم» الشـهيد – عبد الرحيم محمود – فإن لمعروف رفيق أخا شـاعرا مبدعا، لم يقدر لي أن ألتقي معه، لكني قرأت له قصـائد عديدة، كما أتيح لي أن أقرأ ديوانه «أحلام الدائرة الصغيرة» الذي صدر سنة ١٩٨٤ في مدينة «الناصرة» بفلسطين المحتلة، ويتضمن هذا الديوان قصائد عديدة، يمتزج فيها الشعر بالفكر، فضلا عن قصيدة يحدد فيها الشاعر أديب رفيق محمود تصوره للشعر ذاته:

لم أقل الشعر على أعتاب البسطار الرابض

فوق صدور الشعب الجائع للخبز وللحرية

قد كرست الشعر لشعبي

إذ قبلت حديد السيف

لم أخف الجوع ولم أخش الحتف

لم أقل الشعر ليذهب أدراج الريح

كغبار.. أو ورق ج

في فصل الغربة، ذات مساء غامض

أديب رفيق محمود شاعر ينا ضل وهو متشبث بالأرض الفلسطينية، ومعروف رفيق محمود شاعر قدر له أن ينا ضل وهو فوق أرض عربية لكنها ليست فلسطينية، وإن ظل يرى فلسطين بالقلب وبالروح، ولو شئنا أن نقارن بين الشاعرين – الأخوين، لابد لنا أن نتحدث عن الظروف الاجتماعية والإنسـانية التي شـب في إطارها هذا وذاك، لكن هذا ليس بالطبع ما أقصده الآن.

من «عنبتا» – فلسطين إلى «الدوحة» – قطر، بداية الرحلة وخاتمتها، سنة ١٩٣٥ شهدت «عنبتا» ميلاد «معروف رفيق الشيخ محمود الفقهاء»، ويوم أمس – الثلاثاء ١٠ مايو سنة ٢٠٠٥ شهدت «الدوحة» احتضان الأرض لجسد الشاعر، بعد أن رحل عن عالمنا في الليلة السابقة، وهو يستكمل رحلته العلاجية في ألمانيا، وما بين عنبتا والدوحة عاش معروف رفيق سبعين سنة، حافلة بكل ما يعترض مسيرة الإنسان من إخفاقات وبكل ما يصاحبها من نجاحات وطموحات.

فيما يتعلق بالشعر، فإن معروف رفيق أصدر في بداية رحلته الشعرية « صرخة مسلم على مشارف القرن الخامس عشر الهجري»، وكان قد كتب هذه «الصرخة» – القصيدة سنة ١٩٨٠، وكنت واحدا ممن استمعوا إليها وقتها، لكنه لم ينشرها إلا سنة ١٩٨٥، وقد أصدر قبلها بسنة واحدة مجموعة «ابتهالات»، وفي نفس السنة التي شهدت صدور «صرخة مسلم» أصدر معروف رفيق ديوانه الرائع «فلسطين – الجرح والطريق» ثم أصدر «قطر على شفة الوتر» سنة ١٩٨٧ و«القدس قصيدتي» سنة ١٩٩٨ و«علمني كيف أحبك» سنة ٢٠٠٢ وهو الديوان الذي صدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، وآخر ما أصدره الشاعر الذي فقدناه – شاعرا وصديقا وإنسانا.

من الكتب التي تؤكد أن العروبة والإسلام يتناغمان في فكر معروف رفيق، وليس في قصائده وحدها، ذلك الكتاب الجميل الذي أصدره سنة ١٩٨٥ بعنوان «بذور الكرامة» وقد جمع – عبر صفحاته – قصائد مختارة لعدد من شعرائنا العرب، لكنها كلها تصور حدثا إنسانيا واحدا، هو استشهاد الفدائية اللبنانية الشابة سناء محيدلي، وقد كتب معروف رفيق دراسة متأنية لهذه القصائد ولفكرة الجهاد والاستشهاد، وأشار إلى أن «فلسطين قضية عربية إسلامية عالمية» كما قام بتحليل قصيدة عمر أبي ريشة عن «جان دارك» ثم انطلق لدراسة ما تعرضت له «جميلة بوحيرد» المناضلة الجزائرية على أيدي السجانين الفرنسيين، ومن خلال هذه الدراسة المتأنية اختار معروف رفيق ما اختاره من قصائد عن « سناء محيدلي» وهي قصائد للشعراء محمد مهيب جبر – سليم سعيد – حسن توفيق – فيليب صليبا – عبد السلام جاد الله – سعاد الصباح – حسن علي حامد – علي بن سعود آل ثاني – عبد الرحمن المعاودة – سالم سعيد العجمي – أحمد فؤاد نجم –

عمر بهاء الدين الأميري – وليد مكتبي – خالد فوزي – كمال يلي – معروف رفيق – خالد أبو لوز – عارف دليلة – غازي القصيبي – محمد الزغاري – مانع سعيد العتيبة، ومما يقوله معروف رفيق:

برزت كالسنا علينا «سناء»
فليالي الجنوب منها ضياء
قفزت كالشهاب في عتمة اليأس
.. فضاء المدى وهل الرجاء
نسفت نفسها بخمسين علجا
من جنود صهيون جل الفداء
والرجال الرجال باتوا حيارى
أين فرساننا وأين المضاء
فجرت في قلوبنا الصمت كبرا
فعلى نفسنا لا عليها البكاء
أيقظت في مواتنا الروح لما
هدنا العجز واستطال العناء

وليس كتاب «بذور الكرامة» هو الكتاب النثري الوحيد الذي أصدره معروف رفيق، فقد أصدر كتابا آخر بعنوان «في الأمن والسلامة» كما أن له العديد من المخطوطات النثرية التي لم يقدر له أن يصدرها، من بينها «رسائل غير عادية» و«تأملات ومحطات» و«بوح الكلمات».

وحين أعود إلى معروف رفيق الشاعر المبدع القدير – أقول إنه لم يكن ممن يتعصبون لشكل شعري ضد سواه، فقد كانت قصائده تتوالى بالشكلين – المتوارث العمودي، والحر المتدفق، وإن كانت الغلبة عنده للشكل الأول، ربما بحكم طبيعته وبحكم الأجواء المحافظة التي كانت تسود المجتمع في قطر ومعه الحياة الثقافية والأدبية

بأسرها، حيث ما يزال كثيرون إلى الآن لا يطربون إلا لإيقاعات القصيدة العربية ذات النهج المتوارث والقافية الموحدة، ومن نماذج القصيدة ذات النهج المتوارث عند معروف رفيق قصيدته الجميلة «وفلسطين دائما في خيالي» والتي يرسم فيها صورا ومشاهد لطفولته التي قضاها في «عنبتا» حيث بداية الرحلة مع الحياة.

في بلادي على سفوح الجبال
صغت شبابتي بفيء الدوالي
أشربت ريشتي بكأس الأماني
وفؤادي سقته كأس الليالي
للجمال النقي نقش بقلبي
عفرته الدما تلوح حيالي
فحديثي عن الجمال خليط
من بهاء الربا ووقع النضال
قريتي في طفولتي وشبابي
نزلت مهجتي بدنيا ارتحالي
سهلها والربا شريط توالي
قد تجلى بذكرياتي الغوالي
هي في القلب جرح عميق
وهي في العين نور بدا لي

الأرض العربية تحتضن الآن جسد الشاعر المبدع القدير معروف رفيق، وإذا كانت هذه الأرض ليست أرض فلسطين، فإنها أرض قطر التي أحبها بكل ما في قلبه من صدق، وإذا كانت هذه الأرض تحتضنه، فإنه يسكن في كل قلب من قلوب أقربائه وأصدقائه وعشاق الشعر العربي، ويبقى أن يتذكر الأبناء «طراد» و«مراد» و«مروان» أن الأب الشاعر لم يستطع أن يحقق خلال حياته أمنية إصدار أعماله الشعرية، وأعتقد أن وفاء الأبناء سيتكفل بتحقيق هذه الأمنية، ولو بعد غياب معروف رفيق – الشاعر المبدع القدير.

عبد الرحمن المعاودة
كان بركان غضب.. على ما آل إليه حال العرب

أعرف ما كان شعراؤنا العرب القدامى يعرفونه ويؤكدون عليه في قصائدهم الخالدة من بعدهم، أعرف ما عرفه المتنبي. وبما صوره لمعاصريه ولكل الأجيال من بعدهم «نحن بنو الموتى فما بالنا.. نعاف ما لابد من شربه؟..» وأعرف ما عرفه أبو العلاء المعري من أن «رقدة الموت ضجعة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد».. وأعرف ما عرفه أبو العتاهية من أن «الموت لا والدا يبقي ولا ولدا.. ولا صغيرا ولا شيخا ولا أحدا..».

أعرف ما عرفه شعراؤنا القدامى.. لكن هذه المعرفة تظل معرفة عقلية، لا تمنع العين من أن تدمع، ولا تمنع القلب من أن يتفجع كلما رحل عن عالمنا شاعر عربي أحبه.. وهذا ما كان عندما تلقيت نبأ رحيل الشاعر الكبير عبد الرحمن بن جاسم المعاودة عن عالمنا. كنت أتابع وأراجع عدة أخبار متفرقة، وإذا من بينها نبأ رحيل الشاعر الكبير، وإذا بالعين تدمع، وإذا بالقلب يتفجع، وإذا بي أتصل بالصديق الناقد والكاتب د.محمد عبد الرحيم كافود لأخبره بالنبأ، فوجدت أنه قد سبقني بمعرفتي عن طريق الكاتب القدير ناصر محمد العثمان الذي يحب عبد الرحمن بن جاسم المعاودة حبا عميقا، وكان دائما يتابع بقلق بالغ حالته الصحية إذا ما داهمه مرض أو أرهقته علة.

في المحرق – بالبحرين شهدت عينا شاعرنا الكبير النور لأول مرة أواخر عام ١٩١١م أو أوائل عام ١٩١٢، فتاريخ ميلاده – كما أكد هو لي عدة مرات – غير موثق أو محدد بدقة... وفي لندن – عاصمة الضباب أغمض شاعرنا عينيه إلى الأبد.. وعاد الجسد إلى الدوحة أمس ليستريح من أعباء الحياة و شواغلها ولينام في حضن ترابها بعد « سهاد العيش».

***

عاش عبد الرحمن بن جاسم المعاودة مرحلة الطفولة مثلما عاشها أبناء جيله في منطقة الخليج العربي.. طفولة عادية في بيت عربي محافظ متشبث بالتقاليد والأعراف المتوارثة.. وفي السادسة من عمره – شأنه شأن أبناء جيله – انطلق إلى «الكتاب» حيث حفظ القرآن الكريم ووعى أسرار القراءة والكتابة، والتحق بعد «الكتاب» بمدرسة «الهداية الخليفية» في المحرق بالبحرين، حيث أكمل بها تعليمه الذي كان يعادل الثانوية العامة دون أن تكون هناك شهادة موثقة بذلك كما ذكر لي فيما بعد. ومن البحرين كانت له رحلة دراسية إلى لبنان، حيث أرسل في بعثة تعليمية إلى الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٤٧م، وإذا كان عبد الرحمن بن جاسم المعاودة لم يكمل تعليمه هناك رغم أنه قضى في بيروت أكثر من عامين، إلا أن معايشته للحياة في بيروت كانت بمثابة نقلة مختلفة الإيقاع عن إيقاع الحياة التي عاشها في البحرين، ففي بيروت تفتح وعيه العربي، وأدرك ما يعانيه أبناء العروبة وما يتهددهم من أخطار، وأحس بعمق مأساة فلسطين العربية، ورأى كيف تسلل «الثعلب» الصهيوني – على حد تسميته – إلى الأرض المقدسة، وفي بيروت تفتح وعيه الأدبي والتقى هناك مع «شاعر القطرين» خليل مطران ومع «شاعر النيل» حافظ إبراهيم، وفي بيروت أيضا كان لابد – لكي أن يكتسب لغة أخرى غير لغته العربية العريقة، لأن الدراسة في الجامعة الأمريكية كانت باللغة الإنجليزية، لكن الرحلة لم تكتمل لأسباب متعددة، من بينها عدم اطمئنان شاعرنا الكبير إلى المدرسين الأجانب ووقوع مصادمات واحتجاجات من جانبه وجانب بعض زملائه ضد إدارة الجامعة الأمريكية، وهي مصادمات واحتجاجات نبعت من إحساسه العربي القومي بأن الأجانب لا يريدون خيرا لأبناء العروبة، وإنما يريدون أن يوجهوهم إلى ما يخدم المصلحة الأجنبية.

عندما أعيد عبد الرحمن جاسم المعاودة من لبنان إلى البحرين لم يشأ أن يعيش مقيدا في إطار دائرة المعارف، فأنشأ بجهده الذاتي مدرسة أهلية، وعلى الرغم من أنه لم يكن ميسور الحال، فإنه كان يعلم كثيرين من تلاميذ تلك المدرسة بالمجان، كما كان كثيرون من زملائه بالمدرسة يتضامنون معه في نشر رسالة التعليم بالمجان، لدرجة أنهم كانوا يتنازلون عن أجورهم، وكانت «مدرسة الإصلاح» بمثابة بؤرة ثورية تنطلق منها شرارات

الغضب ضد المستعمرين الأجانب، وكان شعر عبد الرحمن جاسم المعاودة في تلك المرحلة ذاتها شعرا ثائرا ومتمردا على كثير من الأوضاع الجائرة على المستويين السياسي والاجتماعي، كما كانت مسرحياته الشعرية التي تقدمها المدرسة في احتفالاتها السنوية دعوة مخلصة للتخلص من القيود التي تكبل العرب في حاضرهم، من خلال استلهام النماذج المشرقة والمضيئة من صفحات التاريخ العربي القديم، ولعل عناوين تلك المسرحيات أن تكون خير شاهد على هذا، فمنها مسرحية «عبد الرحمن الداخل» و«سيف الدولة بن حمدان» ومسرحية «يوم ذي قار» ومسرحية «المستعصم بالله».

والإصلاح يتطلب تغيير الواقع أو الدعوة إلى تغييره، والإصلاح على هذا النحو لابد أن يجابه قوى عديدة لا تريد للواقع أن يتغير، ولهذا كان على عبد الرحمن جاسم المعاودة أن يواجه تلك القوى طالما أن الإصلاح هو هدفه النبيل الذي يسعى لأن يبلغه، ومن مدرسة الإصلاح إلى مطبعة الحبرين التي كان المعاودة قد اشتراها مع آخرين من أصدقائه كانت هناك جولة أخرى مع الحياة من خلال الموقف الجاد والمسئول ومن خلال السعي الحثيث للارتقاء والنهوض، وكان لابد أن يلقى عنتا وتعسفا ممن يرتضون بالواقع مهما تكن سلبياته وأوجه القصور الواضحة فيه، وفي محاولة من محاولات الابتعاد عن المواجهة انطلق المعاودة إلى الهند، بحثا عن عمل، لكنه لم يوفق في مسعاه، فعاد إلى أرض أمته العربية من جديد، حيث استقر في دوحة قطر العربية منذ الخمسينيات، وطاب له العيش فيها وكان من أصدقائه الشاعر الكبير أحمد بن يوسف الجابر.

***

لعبد الرحمن بن جاسم المعاودة عطاء شعري ثري وغزير، يتمثل في قصائده التي تضمها دواوينه «ديوان المعاودة» عام ١٩٤٢ و«لسان الحال» عام ١٩٥٢ و«القطريات» عام ١٩٥٧م و«دوحة البلابل» عام ١٩٦٠، كما يتمثل هذا العطاء في قصائد أخرى عديدة ما تزال متفرقة على صفحات المجلات والجرائد الخليجية بصورة عامة والقطرية بصورة خاصة، كما أن بعضها ما يزال عند أصدقائه ومحبيه والحق أن هذا العطاء الشعري الثري والغزير يترقب من يجمعه لكي يتسنى له أن يصدر في مجلد واحد يحفظه

من الضياع والاندثار. وإني لأتذكر هنا أن الأستاذ ناصر محمد العثمان كان قد كتب في أحد أعداد «الراية» عام ١٩٨٠ أو عام ١٩٨١ – لا أتذكر على وجه التحديد – مناشدا إدارة الثقافة والفنون أن تقوم بطبع دواوين المعاودة في مجلد واحد، وهي الدواوين التي كان الشاعر الكبير قد سلمها بالفعل لإدارة الثقافة والفنون لكي تضطلع بهذه المهمة الجليلة، لكنني كنت أعلم وقتها أن هناك عوائق تحول بين إدارة الثقافة والفنون وبين قيامها بهذه المهمة الجليلة، وفي تصوري أن أجواء الاستنارة الفكرية التي نحيا في عالمها الآن يمكنها أن تسقط تلك العوائق، وأنه إذا كانت قطر العربية قد احتضنت المعاودة في حياته، فإنها لن تضن عليه بطبع أعماله الشعرية بعد مماته، بعيدا عن الحساسيات التي قد تنشأ نتيجة لطبيعة موضوعات بعض القصائد.

***

يشكل «المدح» ملمحا أساسيا وبارزا في شعر عبد الرحمن بن جاسم المعاودة، لكننا حين نتعمق قراءة شعر المدح قراءة بعيدة عن السطح الخارجي، فإننا نكتشف أن القيم والفضائل الإنسانية والمثل الرفيعة تتجلى في ثنايا هذا الشعر، وفضلا عن هذا فإن في شعر عبد الرحمن بن جاسم المعاودة ظاهرة جديرة بالتقدير والإعجاب، تتمثل في عدم وجود أي تناقض أو تعارض بين الإسلام – الدين وبين العروبة – الانتماء في هذا العطاء الشعري، فإذا كان هناك من تصوروا أو مازالوا يتصورون أن هناك تعارضا بين الإسلام والعروبة، فإن الشاعر الكبير أدرك – كما هو واضح من شعره – أن الإسلام والعروبة يتعانقان في مزيج جميل، وأن من أسباب قوتنا أن يكون لدينا هذا المزيج الجميل، لا أن نفصل الإسلام عن العروبة أو العروبة عن الإسلام.

صور عبد الرحمن بن جاسم المعاودة مشاعر الانتماء العربية الصادقة في قصائد عديدة من شعره، فله قصائد مؤثرة ورائعة عن فلسطين، وله قصائد يتضامن فيها مع مصر العربية عندما حاولت قوى «العدوان الثلاثي» – الصهيوني – الإنجليزي – الفرنسي أن تقهر إرادتها الوطنية ونزعتها التحررية عام ١٩٥٦م، وله قصائد تشي بمدى فرحته العميقة بقيام «الجمهورية العربية المتحدة» أول دولة للوحدة العربية في تاريخ

العرب الحديث عام ١٩٥٨م، بل إن له قصـــيدة يحيي فيها المواطن العربي الأول شــكري القوتلي، وله قصــيدة يشـيد فيها بالزعيم العربي الخالد جمال عبد الناصــر، وله قصـيدة تعكس فرحته بقيام باكسـتان المسـلمة وقصـيدة أخرى يشـيد فيها بمؤسـسـها وقائدها الأول محمد علي جناح، وله قصـائد إسـلامية كان يلقيها في المناسـبات الدينية مثل إطلالة شـــهر رمضـــان ومطلع الســـنة الهجرية، ولم تكن هذه القصـــائد تقليدية في مضـــمونها كما يبدو للوهلة الأولى وإنما كانت بمثابة حفز للهمم لكي تتجاوز ســـلبيات الحاضــر من خلال إطلالتها على ما كان لها من تاريخ عريق في الماضــي، وكانت هذه النقطة بالذات محل دراسة نقدية متأنية، كان الدكتور محمد عبد الرحيم كافود قد عكف عليها، وهي دراسة بعنوان «شعر المعاودة بين معاناة الحاضر واستلهام الماضي»، وقد صدرت هذه الدراسة مستقلة في هيئة مستخرج من حولية كلية الإنسانيات عام ١٩٨٧م، ثم ضمها د. كافود – فيما بعد – ضمن فصول دراسته التي أسماها «دراسات في الشعر العربي المعاصر في الخليج» والتي صدرت عام ١٩٩٤م. ويرى د. كافود في دراسته أن المنطقة العربية الخليجية «... كانت معدة في أوائل هذا القرن إلى التفاعل مع الأحداث العربية والقضـــايا القوية. ويأتي الشـــعر مواكبا لهذه النزعة القوية والوطنية ومعبرا عنها ويلعب شعراء الصحوة أو الإحياء في المنطقة دورا فعالا في دعوتهم للتحرر وإلى الوحدة والاهتمام بالقضـــايا العربية.. وقد كان في مقدمة هؤلاء عبد الرحمن المعاودة وصـــقر الشبيب وخالد الفرج وفهد العسكر وغيرهم ممن تغنوا بالقضايا الوطنية والقومية، وهم يحملون همومها ويعبرون عن آمالها وطموحاتها ويســـتحثون قومهم على الاتحاد ونبذ الخلافات والأخذ بأسباب القوة في مواجهة عدوهم...».

وبالطبع فإن أغراض الشعر وموضوعاته تبدو متنوعة ومتعددة في عطاء الشاعر الكبير الراحل، فإلى جانب المدح والشعر الوطني والشعر الإسلامي نجد قصائد الرثاء وقصائد التأمل في الحياة وجدواها وقصـائد الفكاهة والمداعبات، فضـلا عن اسـتلهام الشـاعر لأجواء عمر الخيام في رباعياته التي كان يترجمها له نثرا أحد أصـــدقائه، ثم يقوم هو بصياغتها شعرا نظرا لأنه لم يكن يعرف اللغة الفارسية التي كتب بها الخيام رباعياته،

وهذا ما عرفته من الشاعر الكبير نفسه، وهذا ما أوضحه كذلك الصديق الناقد الكبير د.يوسف حسين بكار في كتابه المهم «الأوهام في كتابات العرب عن الخياط» - ص١٣٠.

كان المعاودة متنوع العطاء، وعلينا أن ننظر إلى عطائه الشعري نظرة منصفة أمينة على ضوء ظروف الشاعر الكبير وعلى ضوء ثقافته العربية الخالصة، ولهذا أجدني مختلفا مع الصديق الشاعر والناقد المرموق د. علوي الهاشمي حين حاول في دراسته «ما قالته النخلة للبحر» أن يطبق مفاهيم الحداثة على شاعرنا الكبير الراحل.

على صعيد ثقافة المعاودة فإنه كان يرى – وهذا الرأي مسجل عندي بصوته – أن الثقافة العربية وافية وكافية وحدها لتكوين الأديب والشاعر العربي، ومن ناحيته فإنه ذكر لي أن ركائز من ثقافته قد استندت إلى كتاب «الأغاني» للأصفهاني وكتابي «نفح الطيب» و«الكامل» إلى جانب كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ. أما الشعر فقد كان مثله الأعلى فيه شاعر العرب الأكبر المتنبي، وإن كنت قد لاحظت من خلال قراءتي لعطائه الشعري أنه ينظر بإعجاب شديد إلى أمير الشعراء أحمد شوقي، وفيما يتعلق بمسرحه الشعري فإنه صرح لي بأنه لم يقرأ شيئا عن فن كتابة المسرح، وإنما قرأ مسرحات شوقي قراءة متذوقة ومتأنية، كما قرأ بعض مسرحيات عزيز أباظة، ولا ينسى الشاعر الكبير الراحل أن يذكر من قدامى شعرائنا العرب أبا تمام، أما أبو العلاء المعري فله فيه رأي آخر، مؤداه أنه شاعر فلسفة.

كان عبد الرحمن بن جاسم المعاودة يرى أن الوحدة العربية هي الأمل الباقي لكي يستعيد العرب ما كان لهم من ماض جميل وعريق، لكنه كان يغضب أشد الغضب عندما يجد أن الممارسات السياسية العربية تسهم في تقويض هذا الأمل الباقي، ويبدو أن «الجامعة العربية» قد خيبت أمل شاعرنا الكبير الراحل منذ بداية نشأتها عام ١٩٤٥م، ومن قصائده التي تغنى فيها بالوحدة العربية قصيدة جميلة يقول فيها:

مجد لنا قد ناطح الجوزاء	فزكا وطاب وعطر الأرجاء
تلك المآثر للجدود وإنها	تجلو عن الماضي السعيد غشاء
سل عنه بغداد الرشيد وجلقا	والقيروان وسائل الزهراء
أسلافنا عرفوا الوفاق ووحدوا	باسم العروبة والحنيف لواء
وبنوا صروح المكرمات عتيدة	وسموا و نالوا العزة العصماء
وغدت حضارتهم منارا ساطعا	تضفي على تلك العصور
بهاء ياليت شعري والأماني جمة	هل يستجيب لنا الزمان نداء
فنرى بلاد العرب كلا شاملا	من فاس حتى القدس فالزوراء

هكذا كان الشاعر الكبير الراحل يرى الأمل في توحد العرب وكان يرى أن العروبة والإسلام جوهران متلازمان متعانقان في مزيج جميل.. ولهذا فإنه كان يتحول إلى بركان غضب على ما آل إليه حال العرب.



علي بن سعود آل ثاني
بين اليأس والأمل بين الأندلس إلى فلسطين

ذات يوم من أيام عام ١٩٣٢ شــهدت «أم صــلال محمد» ميلاد طفل بهي الطلعة – قدر له – فيما بعد – أن يصــبح واحدا من رجال الأعمال المرموقين في قطر، وأن يكون شاعرا أ صيلا ممن عرفتهم الـ ساحة الأدبية في قطر و شقيقاتها دول الخليج العربية، وإذا كان أهله وذووه قد فرحوا به في ذلك اليوم البعيد غير المحدد من أيام عام ١٩٣٢، فإن جميع الذين عرفوه باعتباره رجل أعمال وباعتباره شــاعرا قد أحســوا بالخســارة الهائلة عندما تلقوا خبر رحيله عن عالمنا يوم الاثنين ٥ يوليو ١٩٩٩ بينما كان يزور دمشــق ، إحدى المدن العربية التي عشــقها بغير حدود، وهكذا قدر الله للشــيخ الشــاعر علي بن سعود آل ثاني أن يعيش ما يقرب من سبع و ستين سنة، أسهم خلالها بكل ما استطاع أن يقدمه من عطاء جميل، لا يصدر إلا من إنسان أصيل.

حين يتلقى أي منا نبأ رحيل إنسان عزيز عليه أو قريب من قلبه في شكل مفاجأة، فإنه لا شك يشعر بألم الفقد المفاجئ والفاجع، فيصاب بالذهول وتنتابه الحسرة بل الحسرات، وهذا ما جرى لي مســاء يوم أمس الأول، عندما أخبرني الزميل بابكر عيســى – مدير تحرير جريدة الراية بنبأ رحيل الشاعر الأ صيل الشيخ علي بن سعود آل ثاني، حيث حا صرني ذهول قائم لم أســتطع تحت وطأته أن أتفوه بأي كلمة، وإن كانت خيالاتي قد حملتني مع الصــمت الحزين إلى سنوات مـ ضت وانقـ ضت منذ أن عرفت وأحببت الـ شاعر الأ صيل الذي فقدته الساحة الأدبية والثقافية في قطر.

ذات مســاء، لا أســتطيع أن أحدده الآن على وجه الدقة، لكنني أتذكر أنه مســاء من أماســي عام ١٩٨٣، جاء الأســتاذ ناصــر محمد العثمان رئيس تحرير الراية إلى مكتبه في المنطقة الصــناعية، واســتدعاني لأمر عاجل، حيث ســلمني قصــيدتين، حرص على أن يخفي ا سم صاحبهما عني، قائلا: اقرأ هاتين القـ صيدتين، وقل لي رأيك فيهما.. وعدت إلى مكتبي لأقرأ، وأدركت على الفور أني أقرأ لشاعر أصيل متشبث بتراثنا العربي العريق، محاولا أن يحذو حذوه وأن يترســم خطاه، وكان هذا رأيي الذي قلته للأســتاذ ناصــر محمد العثمان، ومنه عرفت قصــة هاتين القصــيدتين.. قال لي إنه قادم لتوه من إحدى زياراته لصديقه الشيخ علي بن سعود آل ثاني في منزله بالغرافة، حيث أطلعه على قصائد

من شعره بقصد أن يتعرف على رأيه لويس بقصد أن ينشر بعضا منها في الراية، لأنه يكتب ما يكتب استجابة لمتعة روحية ذاتية دون اهتمام بأمر النشر.

طلب مني الأستاذ ناصر محمد العثمان أن أكتب مقدمة موجزة، لكي تنشر مع القصيدتين اللتين تسلمتهما منه، وهذا ما كان، حيث نشرت القصيدتان معا في صفحة «الأسبوع الثقافي» وبعدها كان لابد من اللقاء مع الشيخ علي بن سعود آل ثاني صاحب القصيدتين اللتين كانتا أولى القصائد التي ينشرها بعد أن حثه رئيس التحرير على ضرورة نشر شعره حتى يتعرف على الآراء المتنوعة التي قد يبديها الآخرون.

ومثلما كان إحساسي – بعد قراءة القصيدتين لأول مرة – بأني أمام شاعر أصيل متشبث بتراثنا العربي العريق، فلذلك كان إحساسي خلال زيارتي الأولى عام ١٩٨٣ – للشيخ علي بن سعود آل ثاني، فالواقع أني لم أدخل بيته، وإنما دخلت إلى خيمة منصوبة داخل البيت في الغرافة، وكانت هناك عدة غزلان تتقافز بالقرب منها بكل طلاقة ورشاقة، ويبدو أن المضيف قد أدرك أن الضيف مندهش، فبادرني قائلا وهو يبتسم ابتسامة تلقائية حلوة: إني لا أحب أجواء البيت، وإنما أفضل أن أقضي وقت استجمامي أو كتابتي للشعر أو لقاءاتي مع ضيوفي الأعزاء في قلب هذه الخيمة.. ألا توحي لك هذه الخيمة بالأجواء العربية وببساطة الحياة؟.. قلت له على الفور: إن قصائدك تؤكد تشبثك بتراثنا العربي العريق، كما أن حياتك – على ما يبدو – يطلب لها أن تستعيد ما كان من قرون غابرة، أيام أن كان شعراؤنا العرب القدامى يحيون في مضارب قبائلهم ويكتبون الشعر لكي يذودوا به عن الحياض، حيث كانت كل قبيلة تفاخر غيرها من القبائل بشعرائها وفرسانها «وجرح اللسان كجرح اليد».

ست عشرة سنة مرت على اللقاء الأول مع الشاعر الشيخ علي بن سعود آل ثاني في قلب الخيمة العربية الجميلة التي ما زلت أذكر ألوان الوسائد التي كانت موزعة في جنباتها وما زلت أذكر طعم «القهوة العربية» التي شربت منها ليلتها عدة مرات، لأني لم أكن أتقن هز يدي علامة الاكتفاء بما شربت.

منذ ذلك اللقاء الأول أصبحت قصائد الشيخ علي بن سعود آل ثاني تتوافد على الراية، بمعدل قصيدة أو قصيدتين كل أسبوع وكان الشاعر الأصيل يتصل بي أحيانا سائلا عن رأيي أو ليدعوني إلى زيارته في الخيمة أو في مكتبه بشركة التأمين القطرية. وهكذا كانت لي معه جلسات عديدة متنوعة، كان محور أحاديثنا خلالها هو الشعر العربي، وكان هو يفرح فرحا طفوليا عندما أذكره بقصيدة من روائع شعراء ما قبل الإسلام، لكنه كان يصمت متضايقا إذا ما حدثته عن روائع شعرائنا العربي الذين جاؤوا بعد أمير الشعراء أحمد شوقي، ولم يكن يستثني سوى محمد مهدي الجواهري وإن كان يأخذ عليه أن شعره فيه عنف، كما كان يستثني بعض الذين قرأ لهم قراءات عابرة أو استمع إلى بعض قصائدهم التي يرددها المطربون الكبار أمثال إيليا أبي ماضي في «الطلاسم» التي غناها أو غنى مقاطع منها محمد عبد الوهاب ثم غناها من بعده عبد الحليم حافظ، وأمثال محمود حسن إسماعيل في «النيل الخالد» وإبراهيم ناجي في «الأطلال».. لكن الشيخ علي كان يبدي نفوره وأحيانا استيائه إذا حدثته عن مشاهير ورواد حركة الشعر الحر، قائلا لي بحسم: لقد انتهى الشعر العظيم مع رحيل أمير الشعراء عن عالمنا.

***

إذا كان الأستاذ ناصر محمد العثمان أول من حث و شجع شاعرنا الأصيل الشيخ علي على نشر قصائده، بعد أن كان يبقيها حبيسة أوراقه الخاصة، فإني أستطيع القول إني كنت أول من حثوه على إصدار ديوان، يضم مجموعة منتقاة من قصائده، وقد صدر هذا الديوان بالفعل عام ١٩٨٦ بعنوان «في غدير الذكريات – الجزء الأول». وقد ارتجل الشاعر الشيخ علي بن سعود آل ثاني بيتا من البحر الطويل، ضمنه في الإهداء الذي كتبه لي في نسخة هذا الديوان الذي أعتز به:

إلى الحسن المصدوق أهدي قصائدي

إلى الحسن التوفيق أعطي قريضيا

... بعد أن قرأت «في غدير الذكريات» كتبت عنه مقالا نقديا، كنت أتصور أنه سيغضب صاحب الديوان مني، ولكني فوجئت به يتصل تليفونيا ليشكرني من أعماق قلبه على ما كتبته، واختتم المكالمة وهو يردد المقولة التراثية الشهيرة «رحم الله امرأً

أهدى إليّ عيوبي»، والحق أن الـ شيخ علي قد كبر في نظري بعد تلك المكالمة رغم أنه قبلها لم يكن صـغيرا، وقلت لنفسـي: لو أنني كتبت مثل هذا النقد عن ديوان لأحد الذين يتصورون أنهم شعراء، بينما هم في الحقيقة أدعياء لكان قد قلب الدنيا على رأسي، وربما لو استطاع لأقام القيامة ضدي، وهنا أقول بكل وضوح أن من ميزات الشاعر الشيخ علي ابن سعود آل ثاني تواضع الإنسان الجميل وبساطة الفنان الذي لا يتقعر ولا يتكلف ولا يتعسـف، لقد كان محبا للحياة وعاشـقا لها، كما كان ذا ذاكرة قوية فيما يتعلق بحفظ روائع شعرائنا العرب القدامى، وبالذات في ع صر ما قبل الإ سلام الذي يـ سميه بعـ ضنا العصـر الجاهلي دون أن يكون كذلك، وكان يعرف – في قرارة نفسـه – أن «للناس فيما يعشقون مذاهب».

في عام ١٩٩٣، وخلال عدة لقاءات مع شـاعرنا الأصـيل كان يحدثني عن رغبته في إصدار عدة دواوين دفعة واحدة، وقال لي إنه اختارني لكي أكتب مقدمة لواحد منها، وأنه اختار الدكتور يوسف القرضاوي لكي يكتب مقدمة لديوان آخر منها، ولأسباب متعددة لا مجال للحديث عنها الآن، فإن الشـاعر الشـيخ علي بن سـعود آل ثاني قد حقق رغبته بالفعل، لكنه قام بنفسه بكتابة مقدمة موجزة لكل ديوان من تلك الدواوين التي صدرت عام ١٩٩٤، وهي دواوين «فلسـطين المجاهدة» و«مسـرح الأوهام» و«حمامة ورقاء» و«سراب الحالمات» والجزء الثاني من «في غدير الذكريات».

كنت واحدا ممن كتبوا عن هذه الدواوين بالتفـ صيل عندما صدرت، ووقتها أ شرت إلى أن شاعرنا الأ صيل قد اغترف من تراثنا العريق بعد أن ائتلف مع شعرائه الكبار ومع المختارات التي اختيرت لكل منهم في أمهات الكتب التراثية العربية. والواقع أن الشـيخ علي بن سعود آل ثاني يتمثل أثناء كتابته قصائد تراثية مما سبق أن أعجب بها واستقرت في وجدانه، وهكذا فأن قصـائد من إبداعه الخاص لابد أن تذكرنا بهذه القصـائد التراثية في الوزن وفي القافية، وإن كان ما تطرحه قصـائده يختلف بالطبع عما طرحته القصـائد التراثية، فكأنه – في هذه الحالة – يصـب قضـايا معاصـرة من قضـايا زماننا في قوالب محكمة قديمة.

سأكتفي الآن بإيراد أمثلة سريعة لمدى تعلق شاعرنا الأصيل بتراث أمته العريق والذي يمتد عبر الزمان السحيق منذ قرون وقرون.

في قصيدة «فلسطين والجهاد» وهي إحدى قصائد ديوان «فلسطين المجاهدة» يصور الشاعر الشيخ علي بن سعود أجواء الانتفاضة الفلسطينية البطولية التي أقضت مضاجع قادة الكيان العنصري الصهيوني.. يقول:

ألاَقصِّى بعلمك وأخبرينا — أعاجيب الظلام وحدثينا

بما صنع الجحود غداة أمس — بأهل الحق يظلمهم مهينا

وأهل الفخر من طفل وكهل — يسوم الخسف قوما ثابتينا

جهاد الراجمين لخصم سوء — يفجون الرؤوس مثابرينا

ومن مطلع هذه القصيدة، فإننا نستدعي من الذاكرة قصيدة عمرو بن كلثوم:

ألا هبي بصحنك وأصبحينا — ولا تبقي خمور الأندرينا

مشعشعة كأن الحص فيها — إذا ما الماء خالطها سخينا

ويستهل الشاعر الشيخ علي بن سعود آل ثاني إحدى قصائد ديوانه «مسرح الأوهام» قائلا:

لكل صرح إذا ما عز أركان — يسمو له بصحيح العلم برهان

وهنا نتذكر القصيدة الرائعة التي تكاد تعد مرثية للأندلس كلها قبل سقوطها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان — فلا يغر بطول العمر إنسان

على الرغم من أن شاعرنا الشيخ علي بن سعود آل ثاني كان أكبر شعراء قطر عمرا بعد أن رحل قبله كل من الشاعرين أحمد يوسف الجابر وعبد الرحمن المعاودة، فإن الشعراء الشباب الذين يصغرونه عمرا قد بدؤوا مسيرتهم الشعرية قبله، وذلك لأنه – كما قلت – لم يكن يهتم بنشر الشعر إلا منذ عام ١٩٨٣ بعد حث الأستاذ ناصر محمد العثمان له على نشر قصائده، وهكذا فإن هناك آخرين سبقوه بحكم أنهم نشروا قصائدهم في مراحل مبكرة، بينما لم يكن هو يهتم بهذا الأمر.

والشــعر في قطر ليس ثابتا على صــورة واحدة، وإنما تموج فيه تيارات متداخلة، قد يطغى تيار منها على غيره خلال فترة من الفترات، لكنه لا يســتطيع مهما يكن طغيانه أن يلغي غيره من التيارات الأخرى، ففي الســاحة الشــعرية القطرية نســتطيع أن نتتبع تيار القصيدة العمودية التي تنحو منحى الشكل الكلاسيكي المتوارث لشعرنا العربي منذ أقدم عصــوره، ونســتطيع أن نتتبع تيار الشــعراء بل نســتطيع أن نتتبع كذلك ما يســمى بقصيدة النثر.

وإذا كان من الشعراء من ينحاز لشكل فني دون سواه، ومنهم من يتسامح مع مختلف الأشــكال الفنية، فإننا نســتطيع أن نتعرف على هذا من خلال دواوين شــعراء قطر. وعلى سبيل المثال، فإن الشاعر الشيخ علي بن سعود آل ثاني ينحاز تماما – كما أشرت من قبل – للشكل الكلاسيكي المتوارث لشعرنا العربي القديم، وتبدو قصائد عديدة من قصائد دواوينه مسايرة لقصائد تراثية معروفة ومشهورة، أما الشاعر الشيخ مبارك بن سيف آل ثاني فإنه على الرغم من كونه رائدا للشعر الحر في قطر، ثم للمسرحية الشعرية فيما بعد، إلا أنه يكتب القصيدة العربية بشكلها المتوارث الكلاسيكي، كما يكتب القصيدة العربية ذات المقطوعات المختلفة اتفاقية، بل إن مســرحيته الشــعرية «الفجر الآتي» تتعانق فيها أشكال فنية متنوعة.

وينطلق الشاعر الدكتور حسن النعمة انطلاقة رحبة في آفاق الشعر من خلال موهبته الفنية الكبيرة من ناحية ومن خلال ثقافة الموسوعية الضخمة والشاملة من ناحية أخرى، لكنه فيما يتعلق ببناء القصــيدة عنده لا يحاول الخروج بعيدا عن دائرة التراث العريق، فضــلا عن تميزه بنفس ملحمي هدار، مثلما لاحظ كثيرون في قصــيدته التي نشــرها منذ فترة قريبة تحية لسيد الشهداء الإمام الحسين بن علي كرمه الله.

أما الشاعر محمد بن خليفة العطية، فإنه بدأ مسيرته الشعرية منحازا للنهج المتوارث للقصــيدة العربية، ثم انطلق إلى المزاوجة بين هذا النهج وبين نهج قصــيدة الشــعر الحر، ويجمع الشــاعر علي ميرزا محمود بين القديم والحديث في شــعره، وإن كنت ألاحظ أنه لا يولي الشعر اهتماما كبيرا بحكم كونه فنانا متنوعا ممن يحبون أن يسيروا في دروب عدة فنون وليس في درب فن واحد.

ومن الأصوات الشعرية المتميزة في قطر، على صعيد المرأة – الشاعرة، نستطيع أن نسمع أصوات كل من: حصة العوضي، د. زكية مال الله، سعاد الكواري. ولكل شاعرة منهن عالمها الشعري الخاص.

أستطيع الآن القول أننا قد فقدنا تيارا مهما كان يتدفق بالشاعرية والعطاء منذ أن تلقينا جميعا النبأ الفاجع والموجع، نبأ رحيل الشيخ علي بن سعود آل ثاني – الشاعر العاشق للتراث، والإنسان الذي أجمع على حبه كل الذين عرفوه عن قرب في مختلف مجالات وميادين أنشطته المتنوعة.

ولأني أعرف أن الشيخ علي بن سعود آل ثاني كان غزير العطاء الشعري،فإني أتمنى، بل أطالب أبناءه الأعزاء بأن يهتموا – مستقبلا – بجمع ما لم يهتم هو خلال حياته بجمعه من شعره، حتى يتسنى للأجيال المقبلة أن تتعرف على الأعمال الشعرية الكاملة للراحل الكريم الشاعر الشيخ علي بن سعود آل ثاني.



عشر دقائق مع نزار قباني
لغة النار العاشقة.. تسري في كتاباته.. شعرًا ونثرًا

أحس كلما أعدت قراءة نزار قباني القديم، وكلما قرأت نزار قباني الجديد، أن لغة النار العاشقة تسري في كتاباته كلها سواء جاءت هذه الكتابات شعرا أو جاءت نثرا.

هناك شعراء لا يثيرون وجدان القارئ لأن الفكر قبل الشعر يشغلهم أو لأن قدراتهم وملكاتهم الشعرية قاصرة أو محدودة وهناك شعراء يشتعلون حبا وعاطفة وتوهجا إنسانيا وهم في مراحل شبابهم فإذا كبروا وأوغلوا في العمر يتحول الحب عندهم إلى فتور، وتبرد العاطفة، ويخمد التوهج الإنساني الذي كان يبدو متوهجا ومتأججا في أعماقهم أيام الشباب.

قليلون من شعرائنا هم الذين حافظوا ويحافظون على تجدد الشعلة وتوهجها الدائم في أعماقهم على امتداد العمر.. نزار قباني واحد من هؤلاء القليلين بل القليلين جدا جدا ممن استطاعوا أن يبقوا على الشعلة مشتعلة منذ بداياته الشعرية وحتى الآن، وفي الشعر الذي يصور فيه المرأة من منظوره الخاص،وكذلك في الشعر الذي ينتقد فيه سلبياتنا ونقائصنا العربية على الصعيد السياسي وكما في الشعر.. شعر المرأة وشعر السياسة.. فكذلك الحال في النثر، منذ بداياته وحتى الآن.

نزار قباني أخلص للشعر فأخلص الشعر له.. هو لا يتصنع لا يفتعل.. لا يتكلف.. هو عفوي كالأطفال، تلقائي كمن يحبون الصراحة حتى لو كانت مؤلمة أو جارحة أو قاسية وهو لا يفتعل وإنما ينفعل.. ينفعل بما يشغله ويترجم هذا الانفعال على الورق في هيئة قصيدة أوفي صورة مقالة أو خاطرة، لهذا – وكما أوضح هو – (ص٢٠١ – المجلد الثامن من الأعمال الكاملة) أسقط الحدود بين الشعر والنثر وفي الشعر والنثر وعلى امتداد العمر – كما قلت – ظلت لغة النار العاشقة تسري دون أن تهمد أو تخمد، لأنها دائما تتجدد فتتوقد.

في لندن – التي زرتها لثلاثة أيام منذ نحو شهر – التقيت مع شاعر كبير من رواد الشعر الحر هو بلند الحيدري، ومع شاعر متميز يكرس شعره للسخرية السوداء من أوضاعنا وأحوالنا هو أحمد مطر. أشاد كل منهما بالشاعر الكبير نزار قباني الذي حاولت أن ألتقي به هنا لكنه – كما علمت فيما بعد – لم يكن في لندن وإنما كان في مهرجان القيروان بتونس.. اتصلت هاتفيا بابنة الشاعر – هدباء – لكن جهاز التليفون كان مثبتا على الـ Answer machine فلم أشأ أن

أترك أية رسالة، لأني كنت أود الحديث مع شاعر وليس مع آلة صماء،لا ينبض قلبها إلا بالكهرباء.. اكتفيت من نزار قباني في لندن بشـراء ديوانه الجديد (خمسـون عاما في مديح النسـاء) والذي لاحظت أنه غالي الثمن – عشـرة جنيهات إسـترلينية – وقال لي أمين العيسى المسؤول عن مكتبة الساقي أنه يوافقني على الملاحظة، ومع هذا دفعت.. وأخذ!

سـعيي المقصـود في لندن للقاء نزار قباني لم يتحقق.. المصـادفة وحدها أسـهمت في لقائي معه يوم أمس الأول – الخميس، عندما كان يتهيأ للخروج من فندق شـيراتون حيث يقيم.. مكثت معه.. أو بتعبير آخر أدق.. وقفت معه ما يقرب من عشـر دقائق.. كانت معي نسـخة ديوانه الجديد.. أطلعته عليها وأنا أقول له أنها غالية الثمن.. ابتسـم وأخذ النسخة، حيث كتب عليها إهداء بخطه الأنيق.. وقال لي: الآن أصبحت هذه النسخة بمائة جنيه إسـترليني.. فزايدت عليه وقلت: بل أنها أصـبحت لا تقدر بثمن.. أعددت على الفور سـلاحًا آخر، أخرجت «الكاميرا» من غمدها وأشرعتها.. ضحك وهو يقول: صور.. قلت: نعم.. أريد صـورا جديدة لك وأنت في الدوحة.. قال بلهجة حاسـمة: لا تصـورني وحدي.. صـورني مع البحر.. تذكرت طارق بن زياد.. البحر وراءكم والعدو أمامكم.. رددتها بصـوت خفيض بعد أن حرفتها.. البحر وراءنا والشعر أمامنا!

من الشعراء من يحبون أن يريحوا حناجرهم وأن يصوموا عن الكلام، حتى لو كان مباحا، لكي يتهيؤوا لأمسـياتهم الشـعرية.. من هؤلاء أذكر محمود درويش الذي يحب أن يرتاح وأن يصمت أربعا وعشرين ساعة قبل أن يبدأ أمسية شعرية.. عرفت أخيرا أن نزار قباني هو أيضا ممن يصومون عن الكلام لكي يتهيؤون لما هم مقبلون عليه في مواجهة الجمهور.

قلت له.. يا للمصادفة.. لقد سعيت لأن ألتقي بك في لندن،فإذا بآلة ترد علي... والآن ها أنت أمامي.. قال: ليسـت هناك أسـئلة.. قلت: أعرف.. ولهذا لن أطرح ولو سـؤالا واحدا.. ضحك وهو ينظر إلى نسخة ديوانه الجديد.. وقال: هل تعرف أن ناشرين كثيرين يسرقون شعري ويعيدون طباعته دون علمي.. وضحك أكثر وهو يقول:

مسروق.. يا ولدي.. مسروق!

... ليست هناك أسئلة.. أعرف.. ومنذ البدء لم تكن عندي أسئلة.. لماذا؟.. لأن ضيف نادي الجسرة الثقافي – شاعرنا الكبير نزار قباني .. كتاب مفتوح أمامي.. وطالما أني أقرأ فإن الأسئلة التي تنبثق لابد أن تجد أجوبة لها.. ونزار قباني كتاب مفتوح أمامي منذ بدأت أقرأ له، إلى أن أصبحت المجلدات الثمانية التي تضم أعماله الكاملة موجودة في مكتبتي.. وبالمناسبة فإنني قلت له إنني أفتقد كتابا جميلا بعنوان: «الكتابة عمل انقلابي» لأنه لم يضم هذا الكتاب إلى مجلد من تلك المجلدات.. ولست أدري سر غياب هذا الكتاب بعيدا عن المجلدات الثمانية مجتمعة.. «الكتابة عمل انقلابي» كتاب قرأته وقت صدوره.. أظن عام ١٩٧٣ أو ١٩٧٤.. لا أتذكر على وجه التحديد.. وقد أبكاني هذا الكتاب حقا حين قرأت ضمن ما يحوه من مقالات، أربع مقالات عن الشاب الرائع الجميل الذي كنت قد التقيت معه مرة واحدة وحيدة في معرض الكتاب الأول بالقاهرة وكن وقتها مع ابن جيلي.. الشاعر الكبير الراحل أمل دنقل.. الشاب الرائع الجميل الذي أبكتني المقالات الدافئة والاسيانة المكتوبة عنه هو «توفيق نزار قباني».. وإذا كنت أفتقد كتاب «الكتابة عمل انقلابي» الآن.. فإني أحاول أن أستعيض عنه – مؤقتا – بقصيدة «إلى الأمير الدمشقي توفيق قباني – ١٩٤٩ – ٤٩٧٣».. وهي قصيدة من روائع شعر الرثاء الذي ينبع كل حرف منه من أعمق أعماق القلب وهي تذكرني بصدق ابن الرومي في رثائه لابنه محمد..

يقول نزار قباني عن توفيق نزار قباني:

أشيلك، يا ولدي، فوق ظهري
كمئذنة كسرت قطعتين..
وشعرك حقل من القمح تحت المطر
ورأسك في راحتي وردة دمشقية وبقايا قمر
أواجه موتك وحدي
وأجمع كل ثيابك وحدي
وألثم قمصانك العاطرات
ورسمك فوق جواز السفر

وأصرخ مثل المجانين وحدي

وكل الوجوه أمامي نحاس

وكل العيون أماي حجر

فكيف أقاوم سيف الزمان؟

وسيفي انكسر

....

توفيق

إن جسور الزمالك ترقب كل صباح خطا

وأن الحمام الدمشقي يحمل تحت جناحيه دفء هواك

فيا قرة العين.. كيف وجدت الحياة هناك؟

فهل ستفرك فينا قليلا؟

وترجع في آخر الصيف حتى نراك..

أتوفيق...

إني جبان أمام رثائك..

فارحم أباك...

بنفس هذه الحرارة في الرثاء، يكتب نزار قباني في الحب وعن المرأة وفي السياسة وعن أو ضاعنا ومآزقنا القومية.. فليختلف من يختلفون.. وليختصم من يختصمون مع الشاعر الكبير.. لكن عليهم أن يتذكروا أنه شاعر صادق مع نفسه، وأن الصدق مع النفس أهم مفاتيح الصدق مع الآخرين..



نزار قباني بين قضية المرأة
ودوامات السياسة

الأزهار تتفتح في الربيع وفي الربيع ترتدي الأرض ثيابها الخضـراء الجديدة، وتبدو مستبشرة و سعيدة. وفي الربيع.. في أحد بيوت دمشق الجميلة ولد طفل عربي، قدر له- فيما بعد – أن يشغل الدنيا وأن يكون ملء السمع والبصر، وأن تجوب شهرته آفاق عالمنا العربي من أقصاه إلى أقصاه. هذا الطفل العربي الذي شهدت دمشق العربية الجميلة مولده يوم ٢١ مارس – آذار عام ١٩٢٣، هو الشاعر العربي الكبير نزار قباني.

من هنا يقول نزار قباني إنه قد ولد على سرير أخضر، حيث فصل الاخضرار والازدهار، لكن هذه الخضرة الربيعية لم تكن وحدها سيدة الموقف، فقد كانت المقاومة الشعبية السورية ضد الانتداب الفرنسي هي أيضا في أوجها، ويحدثنا الشاعر الكبير بنفسه عن أجواء تل المقاومة فيقول: «.. كان حي الشاغور، حيث كنا نسكن، معقلا من معاقل المقاومة، وكان زعماء الأحياء الدمشقية من تجار ومهنيين وأ صحاب حوانيت، يمولون الحركة الوطنية ويقودونها من حوانيتهم وبيوتهم. أبي توفيق القباني، كان واحدا من أولئك الرجال، وكان بيننا واحدا من تلك البيوت، ويا طالما جلست في ساحة الدار الشرقية الفسيحة، أستمع بشغف طفولي غامر، إلى الزعماء السياسيين السوريين يقفون في إيوان منزلنا ويخطبون في ألوف الناس، مطالبين بمقاومة الاحتلال الفرنسي، ومحرضين الشعب على الثورة منأجل الحرية..

نزار قباني يطل الآن على الدنيا من شرفة السبعين، هو الآن في الثانية والسبعين من عمره، ما بين ٢١ مارس ١٩٢٣ وبين عام ١٩٩٥م الذي نعايشه، توقف الشاعر في محطات عديدة متعددة، وخاض تجارب حلوة وأخرى مرة، وجاب معظم أقطار ودول العالم، وعرفه الناس جميعا، سواء من أولئك المتذوقين لشعر نا العربي، أم من الجمهور العريض المتنوع الاهتمامات والميول، ولهذا فإن من حقه أن يقول ما سبق لعمر بن أبي ربيعة – في العصر الأموي – أن قاله عن نفسه: « قد عرفنني.. و هل يخفى القمر؟!»، وإذا كان المختلفون يختلفون ويختصم المختصمون حوله وحول شعره، فإن نقطة الالتقاء والاتفاق الجوهرية بينهم، تكمن في إدراكهم جميعا أنهم أمام شاعر عربي جماهيري بكل المقاييس والمعايير، أما لماذا يختلف المختلفون ويختصم المختصمون حوله وحول شعره، فهذا أمر راجع إلى

الزاوية التي بها ينظرون إلى الحياة ذاتها، وتنعكس – وبالتالي – على آرائهم ومواقفهم في الحياة ومن الحياة. فهناك من يحبونه كل الحب باعتباره ثائرا على التقاليد الجامدة، ومقابل هؤلاء فإن هناك من يعادونه أشد العداوة باعتباره هادما للموروث الذي يودون الحفاظ عليه دون أن يجددوا فيه، وهناك من يعجبون به إعجابا شديدا، لأنه هاجم أو هجا نظاما من الأنظمة العربية، وفي نفس الوقت فإن هناك من يضيقون به أشد الضيق، لأنهم لا يريدون منه أن يهاجم هذا النظام أو أن يهجوه، ويبدو لي أن نزار قباني سعيد دائما باختلاف المختلفين واختصام المختصمين حوله وحول شعره، وأتذكر أنه قال منذ عدة سنوات صحيفة عربية إنه يهتم بالمدح الشديد والهجوم العنيف، أما المدح الخافت أو الهجوم الفاتر، فإنه لا يهتم بهما، لأنهما يدلان على فتور العاطفة لا على تأججها.

لماذا يبدو نزار قباني سعيدا دائما باختلاف المختفين واختصام المختصمين حوله وحول شعره؟!

في تقديري أن هذا يرجع إلى أمرين، ينبثق كل منهما من الآخر. فهو – شأنه في هذا شأن أي شاعر وفنان يهتم بأن يجد صدى لما يقوله، وأن يحس برد الفعل تجاه فن الشاعر والفنان هو الذي يقتله، لأنه يشعره بأن كلمته التي أبدعها لم تجد صدى لها وفعله الذي قام به لم يقابله رد فعل ممن يتوجه لهم، ومن هنا فإن رد فعل القراء والمستمعين وكذلك الأجهزة والجهات المعنية هو أمر يهم نزار قباني، سواء أكان رد الفعل هذا في صورة مدائح تكال له أو في هيئة شتائم تتوالى عليه. هذا هو الأمر الأول، ومنه ينبثق الأمر الثاني والذي يتمثل في أن رد الفعل يسهم بصورة مستمرة في ازدياد ر صيد الشاعر الكبير من الشهرة الجماهيرية التي يم يحققها غير قليلين من شعرائنا العرب على امتداد الزمان والمكان العربيين.

***

الشعراء العرب الكبار الذين استطاعوا أن يقوموا بأكبر انقلاب في تاريخ الشعر العربي، وهم رواد حركة الشعر الحر في وطننا العربي، ينتمون جميعا إلى جيل عربي واحد.. ففي العام الذي ولد فيه نزار قباني – عام ١٩٢٣ – ولدت الشاعرة العربية – العراقية الكبيرة نازل الملائكة، وبعدهما – نزار ونازك – شهد عام ١٩٢٦ ميلاد الشعراء الكبار بدر شاكر السياب وبلند الحيدري وعبد الوهاب البياتي، أما عام ١٩٢٩ فقد شهد

ميلاد الشاعرة المبدعة لميعة عباس عمارة، وقبل هؤلاء جميعا كانت الشاعرة العربية الفلسطينية الكبيرة فدوى طوقان قد ولدت عام ١٩١٩، وبعد هؤلاء جميعا ولد الشاعر العربي المصري العظيم صلاح عبد الصبور الذي حلت بالأمس ذكرى ميلاده الرابعة والستون، حيث شهدت مدينة الزقازيق مولده يوم ٣ مايو عام ١٩٣١.

عايش هؤلاء الشعراء العرب الكبار حدثين سياسيين كبيرين، أحدهما حدث على المستوى العالمي، وثانيهما حدث على المستوى القومي، وإذا كان هذان الحدثان السياسيان الكبيران قد أسهما في تغيير أشياء عديدة وهدم مسلمات لم يكن أحد يتصور أنها يمكن أن تتهدم، وفي حدوث تغييرات جوهرية على مختلف المستويات، فإن هذين الحدثين قد أثرا أعمق تأثير في وجدان شعرائنا العرب الكبار، ومن بينهم شاعرنا الكبير نزار قباني، الذي يصل الدوحة اليوم بدعوة من نادي الجسرة الثقافي، لإحياء أمسية شعرية في السابعة من مساء بعد غد – السبت.

يتمثل الحدثان السياسيان الكبيران في اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية وفي قيام كيان عنصري فوق أرض دولة عربية، امتدت الحرب العالمية الثانية عبر سنوات كاملة من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤٥، وخلفت وراءها ما يزيد عن أربعين مليون قتيل، كما ارتكبت خلالها جرائم ومذابح وحشية، وكانت خاتمتها خاتمة مأساوية إنسانية، حين قامت الولايات المتحدة الأمريكية بإلقاء قنبلتين ذريتين على مدينتي هيروشيما ونجازاكي في أغسطس عام ١٩٤٥، وحتى الآن فإن من بقي من الناجين اليابانيين مازالوا يعانون من التشوهات والأمراض العصبية وحالات الاختلال العقلي.. وهكذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الوحيدة في العالم كله، التي قامت باستخدام القنبلة الذرية، وهي نفسها التي تحاول استثناء الكيان الصهيوني من التوقيع على معاهدة الحد من الأسلحة النووي، على اعتبار أن الكيان كيان متحضر، لكنه محاط بجيران من العرب المتوحشين الهمج!!

أما الحدث السياسي الكبير – على المستوى القومي –فيتمثل في قيام الكيان الصهيوني بإعلان دولته العنصرية في ١٥ مايو – المشؤوم عام ١٩٤٨، والذي سمي فيما بعد «عام النكبة»، وقد قام هذا الكيان على أرض فلسطين العربية بعد المجازر الوحشية التي قامت بها عصاباته المسلحة ضد أبناء فلسطين وبعد تشريد الألوف منهم، بعيدا عن الأرض التي ولدوا تحت ظلال زيتونها، وبعد عجز الأنظمة العربية وقتها عن التصدي لهذا الكيان العنصري. وبطبيعة الحال فإن الحرب العالمية الثانية – على المستوى

العالمي – قد بدأت عام ١٩٣٩، ثم خمدت نيرانها عام ١٩٤٥، أما الكيان الصهيوني فقد أعلن دولته عام ١٩٤٨ دون أن تكون هناك نهاية وشيكة لهذا الكيان.

وإذا كان شعراؤنا الكبار من رواد حركة الشعر الحر قد نشؤوا وشبوا في ظلال الرومانسية، فإن تفتح وعيهم السياسي والاجتماعي وهم في مطلب الشباب المبكر على الآثار المدمرة للحرب العالمية الثانية، هو الذي أسهم بدرجة كبيرة في خروجهم التدريجي – وبدرجات متفاوتة من شاعر لآخر – عن الرومانسية التي نشؤوا وشبوا في ظلالها، فقد كان الشعراء المؤثرون والسابقون لهؤلاء الرواد غارقين في الرومانسية، وكان علي محمود طه – مثلا – يطيب له أن يتنزه بجندوله في قنوات فينسيا بإيطاليا في الوقت الذي كانت فيه جيوش هتلر النازية تحتل النمسا وتشيكوسلوفاكيا، وتحرق الناس وهم أحياء.. ولهذا يقول الناقد الكبير الراحل د. لويس عوض عن هذه المرحلة من مراحل الشعر العربي: «.. البارود يلطخ وجه الأرض والمجزرة البشرية تعجن بالدم الساخن رمال طبرق والعلمين وثلوج سمولنسك وستالينجراد.. وعلى أمواج الأثير وفي أنهار الصحف اختلط الهدير بالهدير: كذب.. كذب.. كذب.. وربما بصيص من رجاء. لقد أصبح واضحا أن الكذب تجاوز عالم السياسة ودخل عالم الأدب. لقد تم الطلاق البائن بين الأدب والحياة.. لقد أفلست الرومانسية...».

ومن هنا كان على الشعراء الجدد الشبان وقتها أن يعيدوا لعالم الأدب صدقه الذي فقده، وأن يحاولوا التخلص من الرومانسية المجنحة بعيدا عن الواقع، وأن ينزلوا إلى هذا الواقع بكل متغيراته وتناقضاته، حتى يستطيعوا أن يصوروا الحياة من حولهم بصدق وبعمق. وهكذا بدأت حركة الشعر الحر التي لقيت معارضة شديدة وقتها، وتهجم عليها المتهجمون وتهكم عليها المتهكمون، لكنها ظلت تواصل سيرها دون أن تتلاشى، لأنها كانت الأكثر تعبيرا عن واقع الحياة.

منذ ديوان «قالت لي السمراء» عام ١٩٤٤ وحتى ديوان «خمسون عاما في مديح النساء» عام ١٩٩٤، كانت لشاعرنا العربي الكبير نزار قباني مسيرة حافلة وشاملة مع فن الشعر الذي أخلص له إخلاصا نادرا، فأعطاه الشعر – بدوره – عطاء شعريا خصبا وغزيرا، فما بين أول ديوان لنزار قباني وهو «قالت لي السمراء» وبين أحدث ما صدر له وهو ديوان «خمسون عاما في مديح النساء» دواوين عديدة تمثل حلقات متدفقة في مسيرته الشعرية ومراحل تطور هذه المسيرة فنيا وفكريا.

ما بين أول ما صدر عام ١٩٤٤ وأحدث ما صدر عام ١٩٩٤ تتالت دواوين شاعرنا الكبير نزار قباني.. «طفولة نهد» عام ١٩٤٨، «سامبا» القصيدة المطولة عام ١٩٤٩، «أنت لي» عام ١٩٥٠، «الرسم بالكلمات» عام ١٩٦٦، «يوميات امرأة لا مبالية» عام ١٩٦٨، «قصائد متوحشة» عام ١٩٧٠، «كتاب الحب» نفس العام ١٩٧٠، «أشعار خارجة على القانون» عام ١٩٧٢، «أحبك.. أحبك.. والبقية تأتي» عام ١٩٧٨، «إلى بيروت الأنثى مع حبي» عام ١٩٧٨، «١٠٠ رسالة حب» عام ١٩٧٠، «كل عام وأنت حبيبتي» عام ١٩٧٨، «أشهد أن لا امرأة إلا أنت» عام ١٩٧٩، «هكذا كتب تاريخ النساء» عام ١٩٨١، «قصيدة بلقيس» عام ١٩٨٢، «الحب لا يقف عند الضوء الأحمر» عام ١٩٨٥، «سيبقى الحب سيدي» عام ١٩٨٧، «الأوراق السرية لعا شق قرمطي» عام ١٩٨٨، «لا غالب إلا الحب» عام ١٩٩٠ «هل تسمعين صهيل أحزاني» عام ١٩٩١، «أنا رجل واحد وأنت قبيلة من النساء» عام ١٩٩٣، ثم أخيرا وليس آخرا ديوان «خمسون عاما في مديح النساء».

هذا في الشعر.. وبتعبير أدق.. فإن هذا هو ما أصدره نزار قباني في شعر الحب، لأن له دواوين أخرى عديدة في الشعر السياسي وله أيضا كتاباته النثرية التي صدرت في عدد من الكتب، حصيلة شعر الحب و شعر السياسة والنثر.. أصدرها الشاعر مكتملة في ثمانية مجلدات كبيرة، المجلدات الأول والثاني والرابع والخامس أسماها «الأعمال الشعرية الكاملة» والمجلدان الثالث والسادس أسماهما «الأعمال السياسية الكاملة» أما المجلدان السابع والثامن فقد أسماهما «الأعمال النثرية الكاملة».

وفي تقديري – وأرجو ألا يغضب مني شاعرنا الكبير – أن التقسيم الأدق لهذه المجلدات كان من الأوفق أن ينحصر في الأعمال الشعرية الكاملة والأعمال النثرية الكاملة، لأن ما يسميه ب«الأعمال السياسية الكاملة» يندرج في الشعر ولأن الأدب بصورة عامة يندرج ما بين شعر ونثر سواء أكان الشعر شعر حب أم شعرا سياسيا فهو – في الحالتين – شعر، وكذلك الحال مع النثر، فهو يظل نثرا سواء كتبنا به رواية أو مسرحية نثرية أو مقالة أو قصة قصيرة أو خاطرة.

على أي حال يمكننا القول إن لكل شاعر أصيل قضيته الجوهرية التي يتبناها ويكرس لها إبداعه الشعري، وكانت القضية الجوهرية التي تبناها شاعرنا الكبير نزار قباني هي قضية المرأة إلى ما قبل نكسة يونيو – حزيران عام ١٩٦٧، وبعد هذه النكسة أصبحت القضية الجوهرية

الثانية والتي لم تكن جديدة تماما على الشاعر هي قضايا السياسة في عالمنا العربي وكانت فاتحة الاهتمام بهذه القضية الجوهرية الثانية قصيدة «هوامش على دفتر النكسة»، لكن تبني نزار قباني لقضايا السياسة لم يلغ تبنيه لقضيته الجوهرية الأولى.. قضية المرأة، وهكذا ظل شاعرنا الكبير يزاوج بين القضيتين منذ نكسة يونيو – حزيران عام ١٩٦٧ وحتى الآن.

سئل نزار قباني: هل من الصحيح أن الرجل عندما يكون مغطى بالنساء، يشعر أكثر بعجزه عن امتلاك امرأة واحدة؟

ردا على هذا السؤال أجاب: الجيش الألماني احتل أوروبا كلها خلال الحرب العالمية الثانية ولم يحتل منها شيئا.. إن وفرة النساء في حياة رجل ما، تجعله كتاجر «الخردة» لا يحس بتفاصيل بضاعته وقد تفعل امرأة واحدة في رجل ما لا تفعله الزلازل في القشرة الأرضية وكما لا يمكن للرجل السوري أن يلبس عشرة قمصان على جسده، فليس في وسعه أن يلبس عشر نساء معا.. لأن الحرارة الجماعية لا تدفئ..».

وفي معرض آخر من أحاديثه عن المرأة في المجتمع العربي، يقول إن الرجل يتباهى كالديك بريشه المنفوش، مع أنه ليس أحسن حالا من دجاجاته!!

وفي أمسيته الشعرية بالسودان قال نزار قباني: «إن مشكلة العالم العربي الأول هي مشكلة علاقة الكاتب بشهريار.. وشهريار هذا هو وراء كل مصائب العالم العربي..».

وفيما يتعلق بالحدود الفاصلة بين الشعر والنثر في الكتابة يؤكد نزار قباني «.. إن مشكلتي الكبرى عندما أكتب، هي سقوط الحدود بين الشعر.. والنثر.. وفي أنني في نثري السياسي لا أستطيع أن أكون إلا شاعرا..».

والحقيقة أن الكاتب حين يكون شاعرا فإن عاطفته هي التي تطغى على منطقه، لأنه في هذه الحالة يصور ما يود أن يصوره وأن يعبر عنه من خلال العاطفة الجياشة والمتوقدة.. أما الكاتب – الناثر فإن منطقه هو الذي يطغى على عاطفته.. ولكن عندما يكون الإنسان شاعرا وكاتبا في آن واحد، فإن الأمر في هذه الحالة يتطلب التوازن الدقيق حتى لا يخسر الشعر لصالح النثر أو العكس، وقد استطاع نزار قباني أن يحافظ على هذا التوازن الدقيق لكن عاطفته تتغلب على منطقه حتى في النثر الذي يكتبه، أما النثر الذي

يقوله في معرض الإجابة على أ سئلة كثيرين من النقاد أو الـصحفيين، فإنني ألاحظ أن الغلبة في هذه الحالة تكون للمنطق لا.. للعاطفة.

***

أثر رواد الشـعر الحر في عالمنا العربي ومنهم شـاعرنا الكبير نزار قباني في الشـعراء الذين جاءوا من بعدهم بدرجات متفاوتة، فمنا من أحب نازك الملائكة، ومنا من أحب بدر شـارك السياب وبلند الحيدري، ومنا من أحب صلاح عبد الصبور ومنا من أحب نزار قباني.

أيام صـباي.. في المرحلة الثانوية.. كانت مكتبة مدرسـتي «روض الفرج الثانوية» والتي كان ا سمها «مدر سة الأمير فاروق» قبل ثورة الزعيم الخالد جمال عبد النا صر عام ١٩٥٢، تقتني بانتظام مجلة «الآداب... التي كانت أهم منبر على الإطلاق لنشـر العشـر الحر والدفاع عنه وعن قضـيته.. وكنت أحرص كل الحرص على قراءة هذه المجلة التي أسـسـها ورأس تحريرها الكاتب والناقد اللبناني الكبير د. سـهيل إدريس.. ومن خلال صفحات هذه المجلة أتيح لي التعرف على خليل حاوي – بدر شاكر السياب – سليمان العيسـى – بلند الحيدري – نزار قباني.. لكن نزار قباني وحده كان هو القادر وقتها على دغدغة مشاعر المراهقة عندي في تلك المرحلة من العمر.

وذات مرة أقنعت مدرس اللغة العربية بأن يقرأ نماذج من الشـعر الحر الذي كانت تنشـره مجلة «الآداب» فأبدى اقتناعه على مضـض، ثم طلب مني أن أشـتري له ديوانا لنازك الملائكة وديوا نا لنزار قباني لكي يقرأ الشـعر الحر.. وفي اليوم التالي قال لي: سـأحتفظ بديوان نزار قباني، أما ديوان نازك الملائكة فعليك أن تعيده إلى البائع.. وحين تـصورت أن البائع قد يـضربني لو طلبت منه إعادة الديوان وا سترداد النقود فإنني بدافع الخوف احتفظت بالديوان الذي كنت أمتلك نسـخة أخرى منه، وهكذا خسـرت وقتها خمسـة وثلاثين قرشـا مصـريا أو ربما أربعين قرشـا.. وكنت مغتاظا لأن هذا المبلغ كان كفيلا بأن أقتني ديوانا آخر أضمه لمكتبتي الوليدة.

وفي مرحلة الجامعة.. كنت أحرص على قراءة كل جديد يصدر لنزار قباني.. لكن مشاعري نحوه كانت تبدو متذبذبة ومتأرجحة.. أحيانا أتحمس له تحمسـا مفرطا.. وفي أحيان أخرى أتصوره عدوا من الأعداء!! لكني – كما قلت – كنت في الحالتين أحرص على ألا يفوتني

ديوان جديد له كما كنت أ سعى وراء كل مجلة تن شر له ق صيدة من ق صائده.. وأتذكر هنا أنني مازلت أحتفظ بالعدد الثامن من مجلة «العربي» الكويتية التي كان يرأس تحريرها الدكتور أحمد زكي، لأن هذا العدد كان يضم قصيدة لنزار قباني هي قصيدة «عندما تمطر فيروزا».

عام ١٩٦٨ .. أي بعد النكسة.. عقد في القاهرة مؤتمر الأدباء العرب (لا أذكر رقم هذا المؤتمر الآن..).. وعبر أيام انعقاد ذلك المؤتمر أتيح لي أن ألتقي للمرة الأولى والأخيرة مع الشاعر العربي – اللبناني الكبير خليل حاوي.. ومع الشاعر العربي – العراقي الكبير بلند الحيدري الذي ما زالت صداقتي معه ممتدة إلى يومنا هذا.. كما أتيح لي أن ألتقي مع الشاعر العربي – السوري الكبير نزار قباني، وكان معي وقتها زميل من زملاء الدراسة الجامعة هو الآن الدكتور سمير بدوان قطامي أ ستاذ الأدب العربي بالجامعة الأردنية- عمان، وكذلك الـ شاعر عز الدين المناصرة والدكتور يوسف حسين بكار رئيس قسم اللغة العربية بجامعة اليرموك بالأردن الآن والدكتور عبد الجليل حـ سن الأ ستاذ بالجامعة الأردنية وقد رجونا من نزار قباني أن يعطينا نسخة من قصيدته الجديدة وقتها وهي قصيدة «شعراء الأرض المحتلة»، فطلب منا أن نقوم بتـ صويرها بخط يده، ومازلت بالطبع أحتفظ بها عندي ضمن ما أحتفظ به من قـ صائد لكثيرين من الشعراء العرب الكبار.



محمود حسن إسماعيل
شاعر عبقري يحيا
في ذاكرة الشعراء والعشاق

في مطلع صباي، كانت قصائد شعراء جماعة أبولو مكونا أساسيا من المكونات التي شكلت عالمي الشعري الذي عشت وأخلصت له بغير حدود. من هنا أستطيع القول إني كنت أسهر وأتفاعل وأبكي أحيانا مع القصائد التي كنت أتذوقها والتي أبدعها شعراء هذه الجماعة بصورة عامة، لكنني كنت أقترب للإعادة والاستزادة من بعض هذه القصائد دون بعض آخر منها، تماما مثلما يفضل محبو الورود والأزهار عدة ورود دون سواها التي ربما لا تقل جمالا ورقة عن غيرها، ولكنها أذواقنا التي تتشكل دون أن ندري – بصورة عقلية حاسمة – كيف تشكلت وكيف جعلتنا نحب هذه الوردة حبا جارفا، بينما تمر بوردة غيرها مرور الكرام ودون اهتمام.

مع شعراء أبولو في صباي وفي مرحلة الدراسة الجامعية عشت، وسهرت، وطربت، وبكيت، لكنني أتوقف عند كل من إبراهيم ناجي ومحمد عبد المعطي الهمشري وصالح جودت وحسن كامل الصيرفي وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل، لأقول إني كنت أذوب مع رقة ناجي وأشعر أنه الأقرب إلى قلبي، ولم يكن عندي تفسير لهذا الذوبان إلى أن قرأت ما قاله عنه الناقد الكبير الدكتور محمد مندور حيث أشار إلى «.. أن طبع ناجي قد تحكم في نتاجه الشعري، وجارى هذا الطبع على سجيته، بل غذاه بمطالعاته في الآداب الغربية، فتميز بالطابع الوجداني وبالحب المثالي وأشواق الروح، وهذا شعر يلقى أكبر الاستجابة في نفوس الشبان المحرومين رغم تفتحهم للحياة..».

ومقابل ذوبان روحي في عالم إبراهيم ناجي، فإن لم أكن أميل إلى الكثير من قصائد علي محمود طه، بل كنت أنفر منها وأحس بأنها هابطة أو سطحية أو مبتذلة، خاصة أن صاحبها كان حريصا على أن يقدم نفسه في صورة معشوق النساء اللواتي يقعن في غرامه من النظرة الأولى رغم أنهن أوروبيات ممن يذكر أنه كان يلتقي معهن خلال رحلاته الصيفية إلى أوروبا، وفيما بعد وجدت نفسي أطرب طربا شديدا عندما كتب صلاح عبد الصبور عن شعراء أبولو، وذكر أنه حاول التقرب بعلي محمود طه عن قرب، حيث ذهب إليه في مقهى «جروبي» عدة مرات، مكتفيا بالنظر إليه من بعيد، وكان انطباع صلاح عبد

الصبور عنه انطباعا سلبيا «.. هيئته ليست هيئة شاعر، ولكنها هيئة عين من الأعيان» وحين سألت أستاذي صلاح عبد الصبور عن وصفه هذا قال لي وهو يضحك: لقد تصورت أنه أحد تجار القطن الذين جمعوا ثروات طائلة بعد الحرب العالمية الثانية.

ما بين تعلقي الجارف بإبراهيم ناجي ونفوري الشديد من علي محمود طه كانت مشاعري تتأرجح – تعلقا أو نفورا – تجاه شعراء أبولو، أما محمود حسن إسماعيل فإني كنت أحبه حبا شديدا، لكن هذا الحب كان ممزوجا بالرهبة وربما بالخوف، وذلك لأني كنت أشعر أني أواجه ماردا عملاقا لا أستطيع أن أتغلغل تماما في أعماقه بدافع الرهبة أو الخوف.. كنت أتعامل مع قصائد ناجي كما هو كان ناجي صديقا رقيقا من أصدقاء العمر، يستطيع أن يعبر عن مشاعري بصورة أجمل وأحلى وأقدر من قدرتي أنا على التعبير عن تلك المشاعر.. وكنت أتعامل مع قصائد محمود حسن إسماعيل كما لو كان صديقا كبيرا يوجهني أو يرشدني دون أن أستطيع استيعاب كل توجيهاته وإرشاداته، وفيما بعد ومع بداية عام ١٩٦٥ الذي أنهيت فيه دراستي الجامعية أصبح محمود حسن إسماعيل نفسه يعتبرني من أقرب أصدقائه من جيل الشباب.

بعد التخرج من الجامعة عام ١٩٦٥ كنت أثابر على زيارة محمود حسن إسماعيل في مكتبه بالإذاعة المصرية، حيث كان يشغل منصب المستشار الثقافي لها، وكان كثيرون ممن يعملون معه وهم أكبر سنا مني بالطبع يرهبونه ويحرصون على تنفيذ تعليماته بكل دقة، ولذا فإن منهم من كان يحسدني أو يغبطني أو يحاول التقرب مني باعتباري صديقا للشاعر العظيم محمود حسن إسماعيل، وكان زميلتي في الدراسة والتي تعمل مع هذا الشاعر العظيم مديحة إبراهيم رفعت تسعد حقا بما كانت تلاحظه من حب محمود حسن إسماعيل لي وهو الذي يرهبه العاملون معه.

أحلى الأوقات التي كنت أبدو فيها طائرا محلقا في فضاء الفخر والنشوة كانت تتمثل في الفترة التي أرافق فيها محمود حسن إسماعيل داخل «الأتوبيس النهري» من أمام مبنى التلفزيون في ماسبيرو إلى قرب كوبري الجامعة حيث ننزل معا، ثم أرافقه مشيا على الأقدام إلى أن يصل إلى شارع يافع بن يزيد الذي يقيم في إحدى بناياته، وكان بيت أستاذي الرائع الدكتور يوسف خليف قريبا جدا من بيت محمود حسن إسماعيل، وهكذا كنت

أ سمح لنف سي أن أزور أ ستاذي دون موعد م سبق، لكي أحدثه عن الـ شاعر العظيم الذي كنت أرافقه والذي كان يحبه أعمق الحب، رغم أنهما لم يكونا يلتقيان إلا نادرا وبالمصادفة وحدها.

وكان محمود حسن إسماعيل لا يسمح لأحد أن يزوره أبدا في بيته، حيث كان يلتقي مع أ صدقائه في أم سيات عديدة في مقهى « سان سو سي» القريب من البيت، ولهذا فإني أعتبر نفسـي محظوظا حقا عندما سـمح لي بزيارته مرة واحدة، لكي يوقع من الهيئة المصرية للتأليف والترجمة والنشر عقد إصدار ديوان جديد هو ديوان «صلاة ورفض» إن لم تخني الذاكرة، وفي اليوم التالي طلبت مني أسـتاذتي العظيمة سـهير القلماوي أن أروي لها تفاصيل زيارتي التي كانت حدثا استثنائيا نادرا في نظرها وفي نظر أستاذي صلاح عبد الصـبور، وفيما بعد.. وهنا في الدوحة.. أجد الدكتور البارع الدكتور إسـماعيل محمود حسن إسماعيل يضحك من أعماق قلبه حين أعيد على مسامعه تفاصيل زيارتي الفريدة لبيت أبيه العظيم، مؤكدا لي أن أصـدقاءه لم يكونوا يجرؤون على دخول البيت مهما تكن الأسباب، وذكر لي أسماء بعض هؤلاء الأصدقاء من الكبار والمشاهير.

لمحمود حسن إ سماعيل مجموعة كبيرة من القصائد التي غناها كبار المطربين وفي مقدمتهم أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، وهي قصائد وطنية وو صفية أ سهمت إ سهاما حقيقيا في تعبئة الوجدان الجماعي العربي من المحيط إلى الخليج خلال عهد الزعيم الخالد جمال عبد النا صر، ومن هذه القصائد بل الروائع الخالدة قصيدة «دعاء الشرق» التي لحنها وغناها محمد عبد الوهاب عام ١٩٥٤، ومطلعها:

يا سـماء الشـرق طوفي بالضـياء

وانشري شمسك في كل سماء

ذكـريـه.. واذكـري أيـامـه

بهدي الحق و نور الأنبياء

كانت الدنيا ظلاما حوله

وهو يهدي بخطاه الحائرينا

أرضه لم تعرف القيد ولا

خفضت إلا لباريها الجبينا

كيف يمشي في ثراها غاصب

يملأ الأفق جراحا وأنينا

كيف من جناتها يجني المنى

ونرى في ظلها كالغرباء؟

ومن تلك الروائع التي ربما لا يعرفها كثيرون وخاصة من أبناء الجيل الجديد قصيدة «ربى الفيحاء» التي تغنيها خالدة الصوت أم كلثوم بنبرات يمتزج فيها الفرح بالفخر والإحساس العميق بالعزة والكرامة، وقد كتب محمود حسن إسماعيل هذه القصيدة في فبراير عام ١٩٥٨ «... وفجر الوحدة العربية يشرق من جديد يدوي نفيره في سماء العالم كله، معلنا وحدة مصر وسوريا ومولد الجمهورية العربية المتحدة..».

وفق الله على النور خطانا

والتقت في موكب النصر يدانا

وحدت شمس الضحى أعلامنا

وانبرت في الشرق تحيي المهرجانا

لا تسل عنا ولا كيف لقانا

واسأل التاريخ عنا والزمانا

أما الرائعة التي أعشقها عشقا بغير حدود، فهي قصيدة «النهر الخالد» التي يغنيها بكل روعة الغناء والأداء محمد عبد الوهاب، والحق أن هذه القصيدة تذكرني كلما أسمعها بتلك الأوقات الحلوة، بل أحلى الأوقات التي كنت خلالها أرافق الشاعر العظيم

محمود حســن إســماعيل في الأتوبيس النهري كما أشــرت من قبل، ومنذ عدة أيام وخلال سهرة جميلة، استمع الأصدقاء أسامة توفيق مستشار السفارة المصرية وإبراهيم قماس نائب السفير الجزائري الأستاذ شريف شريقي والدكتور إسماعيل محمود حسن إسـماعيل والإعلامي عبد القادر دعميش.. اسـتمعوا إلى هذه الرائعة فاسـتعاد كل منهم أحاسيسه التي لا تنفد تجاه النهر الخالد، أما أنا فإن طربي يتضاعف ويتكثف عندما يغني عبد الوهاب:

سمعت في شطك الجميل

ما قالت الريح للنخيل

يســبح الطير أم يغني

ويشــرح الحب للخميل

وأغصــن تلك أم صــبايا

شــربن من خمرة الأصــيل

***

إذا كنت واحدا من عشاق محمود حسن إسماعيل، فإن أبناء الجيل الذي تعلمت منه الكثير، وهم رواد حركة الشــعر الحر في وطننا العربي الكبير قد اعترفوا جميعا بفضــل محمود حســن إســماعيل عليهم وبأنه كان مكونا من مكوناتهم الشـعرية خلال بداياتهم وتحسسهم للطريق إلى فن الشعر.. وأتذكر هنا ما قاله بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري وصلاح عبد الصبور ومحمد الفيتوري عن تأثراتهم بهذا الشــاعر العظيم، كما أتذكر ما قاله كثيرون من أبناء جيلي – ممن يكبرونني قليلا أو ممن هم يصـغرونني قليلا – من عشـقهم لمحمود حسـن إسـماعيل، ابتداء من فاروق شوشة ومرورا بمحمد إبراهيم أبو سنة وانطلاقا إلى أمل دنقل الذي كتب مرثية رائعة عن أستاذه وأستاذنا محمود حسن إسماعيل، وفيها يقول:

واحد من جنودك – يا أيها الشعر

كل الأحبة يرتحلون

تتغرب في الأرض..

نصبح أغربة في التأبين..

ننعى زهور البساتين..

لا تتوقف في صحف اليوم إلا أمام العناوين

نقرؤها دون أن يطرف الجفن

سرعان ما نفتح الصفحات قبل الأخيرة

ندخل فيها نجالس أحرفها

فتعود لنا ألفة الأصدقاء وذكرى الوجوه

.. من هنا نستطيع القول – رغم غياب محمود حسن إسماعيل منذ يوم ٢٥ أبريل عام ١٩٧٧ وهو في الكويت – إن هذا الشاعر العظيم، بل العبقري ما يزال حيا متجددا في ذاكرة الشعراء وفي قلوب العشاق، ومن بينهم ابنته الإذاعية القديرة سلوان محمود التي كتبت مقدمة ممتازة عن أبيها وعن طقوسه التي كان يمارسها عندما يتهيأ لكتابة قصيدة جديدة، ثم عندما يناديها لتسعد هي بأنها المستمعة الأولى للعطاء الجديد.. تقول سلوان محمود: «.. كنت طفلته الأولى لا أدرك معنى ما أسمع وما يكتب.. إلا أن حوارا غامضا ولغة مشتركة جمعتني به.. حينما كان ينقل أحزانه وأشواقه ورؤاه إلى عقلي وقلبي الصغير.. و صاحبني هذا الإحساس المسيطر وكبرت وكبر معي.. صبية يافعة اختارت أن تدرس الفن لتؤكد تواصلا من الفهم الثري لمعنى الفكر والإبداع.. فما كانت قصيدة جديدة له إلا ويوقظني من نومي ويطلب مني أن أسمعه.. وأسمع.. وأنتشي.. لنبرات صوته الذي يكسوه الشجن والذي ورثته منه.. وأنفعل لصدق الأداء وتدفق العاطفة وعمق الوجود.. وإنني نقطة في محور يضم شيئا عظيما كبيرا أو يضمه شئ عظيم كبير..».

مقدمة سـلوان محمود الممتازة كانت اسـتهلالا لمختاراتها التي صـدرت ضـمن سلسلة «الروائع» من مكتبة الأسرة التي تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب، وقد اختارت الإذاعية القديرة إحدى وعشرين قصيدة من قصائد محمود حسن إسماعيل، وراعت في اختيارها أن تمثل معظم الدواوين التي أصـدرها خلال حياته إلى جانب الديوان الذي صـدر بعد غيابه منذ عام ١٩٧٧،والحق أني قد اسـتمتعت بهذه القصـائد المختارة بكل دقة، لكني تألمت في بعض الأحيان بسبب أخطاء مطبعية، أدى بعضها إلى اختلال الوزن (ص٣٩ – مثلا) بينما البيت الذي أقصـده صـحيح تماما في طبعة الديوان الذي اختارت منه سـلوان محمود قصـيدة «من لهيب الحرمان»، وإذا نظرنا إلى فهرس القصـائد سـنجد إن آخر قصـيدة فيه هي «هكذا أتمنى» بينما هي – وكما نعرف جميعا – «هكذا أغني».

***

هناك مقالات وكتب ودراسات عديدة صدرت عن محمود حسن إسماعيل، ولكني حتى الآن أقول إنه ما من أحد من النقاد والدارسـين اسـتطاع أن يدرس هذا الشـاعر العظيم العبقري دراسة شاملة، وذلك راجع – في تقديري – إلى أن النقاد والدارسين قد أصـبحوا يكتبون عن الإبداعات التي لا تتطلب منهم جهودا مضـنية بحكم سـهولتها، وهذا ما لا يستطيعون أن يجدوه عند محمود حسن إسماعيل الذي يتطلب من يقف على دراسته أن يكون صبورا وأن يضحي بكل جهده حتى يتسنى له أن يقدم دراسة شاملة تليق بقدر هذا الشـاعر العظيم العبقري، وأعتقد أن هذا الذي أقوله يتفق تماما مع رأي أستاذي الكبير فاروق خورشيد الذي أكد لي أن عبقرية محمود حسن إسماعيل تفترض فيمن يتصدى لدراستها أن يكون موسوعيا من جهة وأن يكون متفرغا لها من جهة ثانية، وهذا ما لا يمكن أن يتحقق في هذا الزمان الذي تسـوده الزخارف والمغريات وكل ما يغري الكسالى على أن يكونوا سطحيين، ليست لهم أبعاد ولا أعماق.

في ديوانه الأول الذي صدر في يناير عام ١٩٣٥، انطلق محمود حسن إسماعيل من «أغاني الكوخ» في قرية «النخيلة» بصعيد مصر، إلى «هكذا أغني» و«الملك» و«أين المفر» الذي يضم قصيدة من أعظم قصائد شعرنا العربي، وهي قصيدة «من أغاني الرق» التي تتطلب وحدها – إذا كان لدينا نقادا – دراسة شاملة متكاملة، وفيها يقول العظيم العبقري:

ألقيتني بين شباك العذاب

وقلت لي: عن

وكل ما يشجي حنين الرباب

ضيعته مني

هذاجناحي صارخ لا يجاب

في ظلمة السجن

ونشوتي صارت بقايا سراب

في حانة الجن

أواه يا فني

لو لم أعش كالناس فوق التراب

وأتذكر هنا أن محمود حسن إسماعيل كان يحدثني بحب شديد عن الناقد الكبير الراحل أنور المعداوي الذي كتب مقالا ممتازا في أحد أعداد مجلة «الرسالة» عام ١٩٤٧ بعد صدور ديوان «أين المفر؟»، بعد هذا الديوان الرائع والحافل بالروائع نلتقي مع دواوين «نار وأصفاد» و«قاب قوسين» و«لابد» و«التائهون» و«صلاة ورفض» و«هدير البرزخ» و«صوت من الله» و«نهر الحقيقة» و«موسيقى من السر» ثم مع «رياح المغيب».

والمتأمل المتذوق لقصائد ما بعد «أين المفر» يستطيع أن يدرك كيف أن الشاعر العظيم العبقري الذي انطلق من «أغاني الكوخ» قد عاش بقلبه وعقله قضايا أمته العربية

وطموحات أبنائها وهموم وآلامهم، وكيف أنه وقف وقفة مارد جبار ضـد الصـهاينة القراصـنة الذين جثموا ومازالوا يجثمون على تراب أرض فلسـطين العربية، وإلى جانب معايشة محمود حسن إسماعيل لقضايا أمته – أمتنا العربية، فإنه استطاع – بكل جمال وجلال – أن يغني أعمق الغناء للإنسان في كل أرض وزمان، وكأنه شاعر الإنسانية كلها وإن كانت لغته التي يكتب بها هي اللغة العربية، وهنا أتذكر أن قصيدته المطولة «السلام الذي أعرف» قد لاقت استحسـانا كبيرا عندما ترجمت إلى اللغة الإنجليزية، خاصـة أنها كانت قد وزعت في أحد المؤتمرات الدولية بعد ترجمتها إلى تلك اللغة العالمية، وأعود في الخاتمة إلى الشاعر العظيم العبقري – أستاذ الأجيال، وهو يقول:

أن تسل في الشعر عني

هكذا كنت أغني

أن تشأ فاسمع نشيدي

أو تشأ فارحل ودعني

وإذا أشجاك همس

من صداه.. لا تلمني

ما أنا إلا كظل

لشعوري.. فاعف عني



شكري محمد عياد

كل الأنهار تجري إلى البحر .. والبحر ليس بملآن

ذهب الذين تحبهم ..
وبقيت كالسيف فردا

مع غياب الكاتب المو سوعي الجليل أ ستاذي الدكتور شكري محمد عياد في يوليو عام ١٩٩٩، ظل وجهه المضـيء يطاردني، معه تجمعت وجوه أسـاتذتي الأجلاء الذين تشرفت بأن تلقيت العلم على أيديهم، في كلية الآداب، جامعة القاهرة، قسم اللغة العربية، فالحق أنه كان لي ولأبناء دفعتي (دفعة ١٩٦٥) أسـاتذة رائعون من الكبار المرموقين ومن الشبان الجادين.. كان من أكبر الذين تلقينا العلم على أيديهم الأ ستاذ مصطفى السقا أ ستاذ النحو و صاحب «مختار الشعر الجاهلي» بجزئيه الكبيرين، والدكتور خليل ناجي مكتشف العديد من معالم حضارة اليمن القديمة، أما أصغر الذين تلقينا العلم على أيديهم فهما الدكتور عبد المحسـن طه بدر صـاحب «الأديب والواقع» و«نجيب محفوظ» و«تطور الشـعر» و«تطور الرواية» والدكتورة نبيلة إبراهيم التي كانت – وقتها – تعلمنا فن الترجمة، وهي – فيما بعد – الأستاذة المرموقة في ميدان الأدب الشعبي.

وبين الكبار عمرا والصغار – وقتها – كان لنا أساتذة أجلاء.. الدكتورة سهير القلماوي التي كان أبناء دفعتي يرهبونها وهي تتحدث بوقار واتزان، لكنها كانت تعاملني معاملة خاصة تصل إلى حد التدليل بحكم نظرتها لي باعتباري شـاعرا يبدأ خطواته الصـعبة ويسـتحق في نظرها التشجيع بل التدليل.. والدكتور شوقي ضيف العملاق بدراساته الشاملة والمتنوعة التي تؤلف وحدها مكتبة متكاملة في أدبنا العربي، القديم منه والحديث.. والدكتور شـكري محمد عياد الذي كان يبدو لنا زاهدا أقرب إلى المتصوفة، مبتعدا عن البهارج والأ ضواء، و سابحا بكل ما أوتي من طاقة وجهد في بحار المعرفة.. والدكتور يوسف خليف صاحب «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي» وصاحب ديوان «نداء القمم» الذي يبدو في العديد من قصائده عاشقا نبيلا لصوت أ سمهان التي عايشها في مقتبل حياته.. والدكتور حسين نصار الذي كان يخجلنا – نحن الطلبة – بتوا ضعه الإنساني المشع بالدفء والحنان، وهو العالم الباحث الكبير، أطال الله عمره، وأسعدنا بالمزيد من عطائه، وإلى جانب كل هؤلاء لابد أن أذكر أستاذين، كان كل منهما

يبدأ شق طريقه العلمي إلى أن أصبحا مرموقين مؤثرين في مجال تخصص كل منهما، وهما الدكتور عبد المنعم تليمة، والدكتور أحمد مرسي.

إذا كان كثيرون من هؤلاء الأساتذة الأجلاء قد غابوا على امتداد السنوات الماضية، وكان الدكتور شكري محمد عياد أحدث هؤلاء الذين غابوا، فإني أصبحت أشعر بالوحشة وبلوعة الفقد، وأصبح بيت شعري يتردد على لساني مرة بعد مرة، لأنه يصور – خير تصوير – هذا الشعور بالوحشة وبلوعة الفقد، وقد نسيت – بكل أسف – اسم الشاعر العربي القديم صاحب البيت الذي أردده باستمرار:

ذهب الذين تحبهم   وبقيت كالسيف فردا

أشرت – من قبل – إلى أن أستاذي الدكتور شكري محمد عياد كان يبدو لنا زاهدا أقرب إلى المتصوفة، لكنه – في الحقيقة – لم يسلم مني، فقد أطلقت عليه اسما «حركيا» يعرفه أبناء دفعتي، حيث كنا نراه في أغلب الأحيان واضعا على رأسه قبعة من الطراز الذي كان يرتديه توفيق الحكيم، وهو طراز أقرب أيضا إلى القبعات التي كان يرتديها سائقو القطارات البخارية في مصر، ولهذا سميته سرا « سائق قطار المعرفة» بينما كان زملائي وزميلاتي يلقبون الدكتورة سهير القلماوي بما كنت أشعر تجاهه بالفخر وما زلت أشعر تجاهه بالاعتزاز، حيث كانوا يلقبونها «أم أو ماما حسن توفيق».

كنت وما زلت أشعر بالرهبة أمام الكتب التي يتحدث عبر صفحاتها أصحابها عن المعرفة، وكيف أنها ليست لهوا أو تسلية، وإنما رحلة حياة كاملة، إذا كان الإنسان حقا يود السعي في طريقها الشاق المرهق والممتع، وهكذا كان وجه أستاذي الدكتور شكري محمد عياد يتراءى متجسدا أمامي كلما عدت إلى قراءة «سفر الجامعة» الذي يقول فيه سليمان الحكيم « كل الأنهار تجري إلى البحر، والبحر ليس بملآن.. إلى المكان الذي جرت منه الأنهار إلى هناك تذهب راجعة.. كل الكلام يقصر.. لا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل.. العين لا تشبع من النظر والأذن لا تمتلئ من السمع»، ويضيف سليمان الحكيم «أن في كثرة الحكمة كثرة الغم والذي يزيد علما يزيد حزنا».

على الرغم من أن في كثرة الحكمة كثرة الغم، وهو معنى اتكأ عليه أستاذي الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور في العديد من قصائده، وأستاذي الكاتب الكبير فاروق خور شيد في بعض قـ صـ صه القـ صيرة، فإن الدكتور شكري محمد عياد برغم كل ثقافته الموسوعية ومعرفته العميقة المتنوعة كان يميل إلى الدعابة دون ابتذال بطبيعة الحال، كما كان خفيف الظل إلى أقصى حد في ملتقيات الجمعية الأدبية المصرية وفي مكتب الأستاذ فاروق خورشيد حيث يتجمع الأصدقاء كل يوم ثلاثاء. ويمكنني القول بكل اطمئنان: أن البساطة والعمق يتجليان في إنسان جميل ونبيل هو شكري محمد عياد، لكني أتصور أنه قد ترك إرثا عظيما، لكنه إرث ثقيل، لكل من يريدون أن يدرسوا عطاءه العلمي والأدبي. وإذا كان من الصعب أن يحيط ا لدارس بكل هذا العطاء العلمي والأدبي إحاطة متأنية مستوعبة وبعيدة عن التسرع، فما بالنا بمقال عبر جريدة؟.. هل يكفي مقال أو حتى عدة مقالات للإحاطة بما قدمه شكري محمد عياد من عطاء في مجال الدراسات العلمية وفي مجال الترجمة وفي فن القصة القصيرة وفن الشعر؟

ويا ليت الكتاب التكريمي الذي أعده الصديق الدكتور أحمد الهواري بعنوان «شكري عياد – جسور ومقاربات ثقافية» كان قد اهتم أكثر وبشكل أعمق بعطاء أستاذنا، خاصة أنه كان قد أبدى لي عدة ملاحظات سلبية تتعلق بمحتوى هذا الكتاب خلال مكالمة تليفونية منذ سنة، كانت الأخيرة بكل أسف، ووعدته خلالها بزيارته، لكني كنت على وشك العودة إلى الدوحة في أواخر أيام أجازتي السنوية القاهرية.

لكني – إنصافا للدكتور أحمد الهواري الذي يسبقني بدفعة دراسية واحدة والذي يخلص من كل قلبه لأ ستاذنا الجليل، أقول إن ما كتبه في تقديمه لكتاب « شكري عياد – جسور ومقاربات» ليس تقديما، بقدر ما هو دراسة جادة، لكنها بالطبع لم تحط بكل عوالم شكري عياد، وهي عوالم – كما أعرف ويعرف – متنوعة وعميقة في آن واحد.

ولأني لن أستطيع – في هذه العجالة اللاهثة – أن أحصر عطاء أستاذنا الجليل، فسأكتفي – مرغما – بالإشارة إلى قليل من كثير، إلى قطرات من بحر.. في ميدان الدراسات الأدبية أذكر «البطل في الأدب والأساطير» و«طاغور شاعر الحب والسلام» و«القصة القصة في مصر – دراسة في تأصيل فن أدبي» و«دائرة الإبداع» و«بين الفلسفة والنقد» و«المذاهب الأدبية

والنقدية عند العرب والغربيين».. وفي ميدان الترجمة أذكر «ملاحظات نحو تعريف الثقافة» لـــ ت. س. إليوت و«الكاتب وعالمه» لتشارلس مورجان و«المقامر» لدستوفسكي و«دخان» لتورجنيف و«البيت والعالم» لطاغور و«اعترافات منتصف الليل» لجورج ديهامل.

.. أما في القصة القصيرة فقد كتب أستاذنا الجليل عدة مجموعات قصصية، من بينها «ميلاد جديد» و«طريق الجامعة» و«زوجتي الرقيقة الجميلة» و«رباعيات» و«كهف الأخبار».

أما فن الشعر، فإن الدكتور شكري محمد عياد كان يحرص أن يخفي قصائده عنا – نحن تلاميذه – لكن أساتذة آخرين منهم الدكتور يوسف خليف كانوا يحرضونني أن أطلب منه أن يطلعني على قصـــائده، وعلى الرغم من اســتجابتي لهذا التحريض عدة مرات فإنه كان يتملص ويتخلص من إلحاحي بأدب وخجل، وقد اختتم الدكتور شــكري محمد عياد كتابه الجميل الذي يتناول ســيرته الذاتية ورحلته مع المعرفة، وهو كتاب «العيش على الحافة» بسـبع قصـائد، اختار لها عنوان «انفجارات» وأشـار إلى أنه كتب هذه القصـائد ما بين عامي ١٩٤٠ و١٩٤٣، أي قبل أن نولد نحن تلاميذه من أبناء دفعة عام ١٩٦٥، وربما لهذا السبب فإنه لم يشـأ أن يطلعني على تلك القصـــائد أو غيرها عندما كنت ألح عليه أن يطلعني عليها، وهكذا يكون قد أخفى عنا قصـــائده الجميلة، بينما أعلن عن فنه القصـــصـــي الذي كتب في إطاره عدة مجموعات جميلة ورائعة، وهناك دراســة جادة عن فنه القصـــصـــي كتبها الدكتور محمد مصــطفى هدارة ضـــمن الكتاب التكريمي الذي أشــرت إليه من قبل، وهي بعنوان «شكري عياد في واحة الإبداع القصصي».

مما شرفني به أستاذي الغالي أنه كتب عن شعري دراسة، نشرها في مجلة «الهلال» عندما فزت بجائزة الدولة التشـجيعية في الشـعر عام ١٩٩١، وكان عنوان هذه الدراســة «حسن توفيق – شاعر عذري معاصر» وقد علمت أنه ضم هذه الدراسة إلى دراسات أخرى عن الشـعر، وأصـدرها في كتاب، لم يتح لي حتى الآن الحصـول على نسـخة منه، وحتى لو حصلت على نسخة فيما بعد، فكيف أستطيع – بعد أن فات الأوان – أن أنطلق إلى أستاذي الجليل شاكرا فضله؟

في كتابه الجميل الممتع «العيش على الحافة» يصور شكري محمد عياد حيرته وتردده تجاه كتابة سيرته الذاتية، فيقول: «.. أكتب أو لا أكتب؟.. رنت هذه العبارة في أذني، مثيرة تلك العبارة المشهورة التي لا أدري متى سيكف الكتاب وغير الكتاب عن استعمالها: أكون أو لا أكون. كأنما تراكمت على هذه العبارة كل هموم البشر، وأنا لا أريد أن أبلبس خواطري هذه أثواب التراجيديا، أنا أريد أن أحادثك، صديقي القارئ، حديثا حميما، أريد أن أنفض حياتي أمامك، وأنا أول من يعرف أنها حياة تافهة، لعلي أحاول أن أجعل منها شيئا مهما للكتابة. أهذا هو السبب في السؤال الذي يطل برأسه في رأسه قلما حاولت أن أمسك بالقلم، لأدخل في مشروع الكتابة من جديد؟..».

قلت من قبل أن التواضع الجميل كان سمة من سمات أستاذي الجليل.. ولعلكم تلاحظون معي هذا التواضع الذي يتجلى في الفقرة التي اقتطفتها من «العيش على الحافة» أما القارئ المتابع لعطاء شكري محمد عياد فإنه – بكل بساطة – سيرفض هذا التواضع من صاحبه صاحب الثقافة الموسوعية الضخمة والعطاء العلمي الذي تعلم منه كثيرون من الدارسين، والعطاء الفني الذي استمتع به كثيرون من المتذوقين لفن القصة القصيرة.

وماذا بعد...؟ ماذا بعد غيابك يا أستاذي الجليل؟

لا أملك إلا أن أردد بيت الشاعر العربي القديم الذي يحزنني أني قد نسيته اسمه..

ذهب الذين تحبهم   وبقيت كالسيف فردا



ماهر حسن فهمي ..
وما زال نهر الزمن يتدفق..في انتظار أن نراه جميعًا

كنا – د. محمد عبد الرحيم كافود وأنا – قد اتفقنا على موعد للقاء، لكني فوجئت بمكالمة تليفونية منه في ساعة متأخرة من الليل، أحسست في بداية المكالمة أن د. محمد عبد الرحيم كافود يكاد أن يتلعثم، أحسست أنه يريد أن يقول شيئا ولا يعرف كيف يقوله. وقبل أن تنتهي المكالمة وجدته يقول: لقد سمعت نبأ مؤسفا يتعلق بالدكتور ماهر حسن فهمي، ظللت غير مصدق لما قيل، صباح يوم السبت الماضي، اتصلت بالدكتور جابر عصفور، وسألته عما إذا كان هناك شئ ما يتعلق بالدكتور ماهر حسن فهمي، في البداية قال إنه لم يسمع عنه شيئا، وفجأة نبهه أحد ممن كانوا في مكتبه إلى خبر في جريدة «الأهرام» ظللت أغالب أحزاني في صمت، إلى أن جاء اليوم التالي، فهرعت لشراء عدد السبت من «الأهرام» وبعينين دامعتين قرأت: «... توفي إلى رحمة الله إثر حادث أليم الدكتور ماهر حسن فهمي نائب رئيس جامعة عين شمس سابقا وعميد كلية الآداب بجامعة قطر سابقا».

***

أستاذي د. ماهر..

كنت معتادا مع غيري أن نقرأ ما تكتبه على صفحات الجرائد والمجلات «بقلم: د.ماهر حسن فهمي».. وهاهي المرة الأولى التي أقرا فيها اسمك.. لا كاتبا، بل مكتوبا عنك.. أحس الآن أني تائه وضائع ومشتت الأفكار. على امتداد سنوات عرفتك وأحببتك. في لقاءاتنا كنت أحب أن أستمع إليك، وكنت تحب أن أتكلم، كنت أ؛ب أن أستمع لأني أريد دائما أن أتعلم من أستاذ جليل، يعلم ويعلم، لكنك كنت تحب أن تشرفني بصداقتي لك فتطلب مني أن أتكلم، وكنت أقول لك – في أحيان كثيرة – في حضرة الأستاذ العالم المعلم، لابد للتلميذ أن يستمع ليتعلم.

كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها بك ذات يوم من أيام عام ١٩٦٩، وكانت آخر مرة ذات يوم من أيام شـــهر نوفمبر عام ١٩٩٥م. المرة الأولى كانت في القاهرة، والأخيرة كانت في الكويت، و ما بين اللقاءين الأول والأخير كانت هناك لقاءات كثيرة مفيدة وخصبة لي بفضلك.

ذات يوم من أيام عام ١٩٦٩م، قال لي أ ستاذي الشاعر العظيم صلاح عبد الصبور، وكان وقتها مديرا للنشر بالهيئة العامة للكتاب وكنت أعمل معه، أن الدكتور ماهر حسن فهمي سيزورنا اليوم ليسلمك مخطوطة كتاب جديد له. كان د. ماهر – وقتها – يقضي إجازته السـنوية في القاهرة، لأنه كان معارا لجامعة بغداد، أما مخطوطة كتابه الذي تسلمته منه فكانت مخطوطة كتابه عن الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي، الانطباع الأول الذي يرتسـم في ذهني عمن ألتقي بهم لأول مرة يبدو مهما وفي معظم الأحيان فإنه لا يخيب. الانطباع الأول عن د. ماهر أنه رجل بشـوش، محب للآخرين، وأن وقاره «الأكاديمي» ليس من ذلك الطراز المترفع المتغطرس والمتعالي على الآخرين. هذا ما قلته لصـلاح عبد الصـبور وقتها بعد انصـراف د. ماهر. وفيما بعد أدركت أن الذين يمارسون الفن – ولو في السر – من «الأكاديميين» هم الذين تبدو أرواحهم متفتحة على الآخرين ومحبة لهم، حتى لو كان الآخرون بمثابة تلاميذ لهم وليسـوا أندادا لهم، ود. ماهر حسن فهمي هو واحد من هؤلاء القلائل النادرين.

آخر لقاء كان يوم الخميس ٩ نوفمبر عام ١٩٩٥م في مطار الكويت حيث كان يستعد للعودة إلى القاهرة، وكنت أسـتعد للعودة إلى الدوحة بعد أن اختتم مهرجان عبد العزيز سـعود البابطين فعالياته واحتفالاته بصـدور «معجم البابطين للشـعراء العرب المعاصـرين». كان حريصـا على أن يسـألني عن المراحل التي قطعتها فيما يتعلق بإنجاز «الأعمال الشعرية الكاملة» للشاعر العظيم والرقيق إبراهيم ناجي، وكان حريصا على أن يحملني تحياته لكل الأدباء والشعراء الذين كان يلتقي بهم هنا في قطر، ووعدته أن يكون اللقاء في القاهرة خلال شهر مارس المقبل أثناء الاحتفال الذي سيقام بمناسبة صدور «الأعمال الشـعرية الكاملة» لإبراهيم ناجي. لكن هذا اللقاء المقبل الذي كنت أترقبه بشوق وشغف لن يتحقق لي. فواحسرتاه.

***

خلال السنوات العديدة التي قضاها د. ماهر حسن فهمي هنا في قطر، باعتباره أستاذا ورئيسا لقسم اللغة العربية بجامعة قطر، وعميدا لكلية الإنسانيات، كان يسعى بكل حب وتواضع للتعرف على النتاج الأدبي الجديد للشعراء والأدباء من أبناء قطر، والنتاج الأدبي الجديد للشعراء والأدباء من أبناء الجاليات العربية. لهذا كنت أحس بالفرح يتملكني وأنا متوجه للقائه ومعي كتاب جديد لأحد هؤلاء الشعراء والأدباء. وكنت ألاحظ دائما أن روح الفنان فيه تتغلب على روح الناقد، فكان إذا أحب العمل الأدبي الجديد، يبادر إلى الاتصال بي، قائلا: تعال.. خذ مقالي عن كتاب فلان أو كتاب فلانة، وكان إذا لم يعجبه العمل الأدبي الجديد يلوذ بالصمت، قائلا إنه لا يستطيع أن يكتب عن عمل لم يحبه.

من الشعراء والأدباء الذين كتب عنهم د. ماهر حسن فهمي لأنه أحب كتاباتهم.. الشاعر الشيخ مبارك بن سيف آل ثاني – الشاعر محمد بن خليفة العطية – الكاتبة القاصة حصة العوضي – الشاعرة د.زكية مال الله – الكاتب القاص حسن رشيد – الكاتبة القاصة والروائية ليلى الأطرش – الكاتبة الرائدة شعاع خليفة – الكاتبة الروائية الرائدة دلال خليفة. ولم يكتف د. ماهر بالكتابة عن النتاج الأدبي الجديد لهؤلاء، وإنما كان يحب أن يثير قضايا فكرية وأدبية وثقافية من واقع متابعاته لما يدور في الساحة الأدبية العربية الكبيرة والساحة الأدبية هنا في قطر. وإلى جانب هذا فإنه كان يتحمس للسؤال عن الأدباء الشبان، كلما قرأ قصة قصيرة أو قصيدة لواحد منهم، بل إنه كان يتطوع بأن يقدم بعض أعمال هؤلاء، موجها لمسيرتهم الأدبية حتى يتسنى لهم أن يتفوقوا وأن يتألقوا. ومن الأمانة هنا أن أذكر كيف كان د. ماهر – بعد عودته إلى القاهرة – يكتب لي سائلا عن النتاج الأدبي الجديد الصادر هنا، وكنت أرسله له بالبريد أحيانا أو مع صديقه الذي كان يحبه كثيرا – د. محمد عبد الرحيم كافود – عندما يزور القاهرة، وكنت أ سعد بما أتلقاه منه من كتابات نقدية تدور حول هذا النتاج الأدبي الذي تلقاه.

***

لأستاذنا الجليل والإنسان النبيل د. ماهر حسن فهمي دراسات عديدة متعمقة، كلها تشكل إضافة لمكتبة الدراسات النقدية على امتداد الساحة الثقافية العربية بأسرها. تتشعب هذه الدراسات العديدة المتعمقة، فهي ليست محصور في قطر عربي معين، وهي ليست محددة بزمان عربي معين، فمن هذه الدراسات ما يتعلق بالأدب العربي في مصر، ومنها يتعلق بالأدب العربي في العراق وفي سوريا، ومنها ما يتعلق بالأدب العربي في أقطار الخليج العربي، ويبدو لي أن رحلات د. ماهر حسن فهمي إلى كثير من الأقطار العربية،بل ربما إلى كل تلك الأقطار، هي التي أكسبته بعدا عربيا شاملا، لا يتعصب ولا يتحزب إلا للنتاج الأدبي العربي الأصيل، أيا كان مصدر هذا النتاج، وأيا كان القطر العربي الذي ينتمي إليه صاحب هذا النتاج الأدبي.

كما تمتد هذه الدراسات العديدة المتعمقة عبر الزمان العربي، فمنها دراسات تتعلق بقضايا وظواهر في العصر الجاهلي، ومنها ما يتعلق بقضايا وظواهر في العصر العباسي، ومنها ما يتعلق ببدايات النهضة الأدبية الحديثة، ومنها ما يتعلق بأحدث التيارات الأدبية والفكرية الراهنة.

من هذه الدراسات التي أشير إليها هنا لا على سبيل الحصر، وإنما على سبيل المثال، دراسة د. ماهر حسن فهمي عن «المذاهب النقدية» ودراسته عن «تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج» ودراسته «قضايا في الأدب والنقد – رؤية عربية، وقفة خليجية» ودراسته عن «شوقي – شعره الإسلامي»، ودراسته المقارنة بين «عمر بن أبي ربيعة ونزار قباني» ودراسته عن «محمد توفيق البكري» ودراسته عن «السيرة – تاريخ وفن»، ودراسته «الصوت والصدى – دراسة فنية في شعر المتنبي» والتي يتصدرها إهداء رقيق للسيدة الجليلة زوجته سهام عبد اللطيف.. «إلى رفيقة حياتي، التي قاسمتني الدمعة والبسمة، في رحلتي الطويلة الشاقة، وأسعدها أن تراني أكتب عن أبي الطيب، إلى زوجتي أهدي هذا الكتاب..».

في مقدمته لدراسته الفنية عن المتنبي يقول د. ماهر: «.. قصة البحث عن الخلود من أمتع القصص الإنسانية، نجدها في التراث الإنساني منذ «إيزيس وأوزوريس» في التاريخ الفرعوني، و«ملحمة جلجامش» في التراث البابلي، «تناسخ الأرواح» في الفلسفة الهندية،

و«ذو القرنين» في النثر العربي كما ذكرها وهب بن منبه في كتاب «التيجان»، وقصة أبي الطيب المتنبي قصة الصراع من أجل البقاء، من أجل اجتياز حاجز الزمان وحاجز المكان، لكي يكتب له الخلود عن طريق خلود شعره، أليس القائل:

فشرق حتى ليس للشرق مشرق ... وغرب حتى ليس للغرب مغرب

إذا قلته لم يمتنع من وصوله ... جدار معلى أو خباء مطنب

لقد استطاع المتنبي أن يجتاز حاجز الزمان، فبرغم مرور ألف سنة على وفاته لم يزل ملء سمع الزمان، واستطاع أن يجتاز حاجز المكان فاسمه يتردد على لسان كل عربي في المشرق والمغرب، بل كل مهتم بالأدب العربي من غير العرب».

***

هناك كتاب رائع وممتع كان د. ماهر قد حدث د. محمد عبد الرحيم كافود عنه عندما كان يعمل على إنجازه، وكان قد سلمني نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة منه بعد أن أتم إنجازه. الكتاب بعنوان «وما زال نهر الزمن يتدفق – سيرة حياة أستاذ في الجامعة».. كان الأستاذ الجليل والإنسان النبيل قد طلب مني أن أقوم بمهمة تهيئة هذا الكتاب للصدور من خلال جمعه وتصحيحه من الأخطاء الطباعية. والحق أن بالي لن يرتاح الآن إلا بعد أن يتحقق طلب د. ماهر حسن فهمي بشأن صدور هذا الكتاب. وقد اتفق معي د. محمد عبد الرحيم كافود أن أحاول – أولا إصداره ضمن إصدارات «الهيئة المصرية العامة للكتاب» التي يرأسها الناقد والكاتب المرموق د. سمير سرحان، فإن لم أوفق في المحاولة، فلنحاول أن ننشره هنا في قطر.

«ومازال نهر الزمن يتدفق».. كتاب رائع وممتع، لكنني اندهشت حقا حين قرأته، فوجدت أن الصفحة الأولى منه والتي يسرد فيها د. ماهر بدايات تفتح عينيه على الحياة يوم ٣ سبتمبر عام ١٩٢٨م، لم يرد فيها ذكر للحياة بصورة مفصلة – كما كنت أتوقع – وإنما ورد فيها ذكر الموت بصورة أكبر من ذكر الحياة، حيث تحدث د. ماهر عن مشهد الموت الذي رآه في طفولته، متمثلا في موت إحدى أخواته الصغيرات.

يقول د. ماهر: «... كانت لي شقيقة صغيرة اسمها سميرة، أكملت عامها الأول، وكانت أكثرنا مرحا وصخبا وأحبنا إلى أبي، فإذا شاكسها واحد منها وأثار غضبها أمسكت بالمسطرة وجرت وراءه ونختبئ منها ونحن نكتم ضحكنا.. مرضت ذات يوم وقالت الجارات إنه «تسنين»، ويبدو أنها كانت نزلة معوية، لأن المرض حين اشتد بها لم يكن يستقر في معدتها حتى الماء، وحين جاء الطبيب بعد بضعة أيام، قال: لقد تأخرتم. فبكت أمي، وكتب الطبيب لأبي دواء، ولكن الابنة كانت قد فاضت روحها. أذكر حين حملها أبي لدفنها، أني كنت أكثر إخوتي ذهولا حتى ظنت بعض النسوة أني في حالة إغماء فأخذني أبي إلى المقهى لأنشغل بالناس وحركة الحياة، ولم أكن أدري من معاني الموت إلا الفقد والفراق الأبدي. ولكن الغريب أني ظللت أشم رائحة الموت ربما إلى يومنا هذا، فلم أكن أدخل دارا أو شارعا حتى أقول هناك شخص مات. فيقول الناس نعم هنا فلان مات اليوم. وربما يرجع ذلك إلى أن الميت يغسل بالزعفران فلا أكاد أشمه حتى أتذكر شقيقتي، وارتبطت في ذهني رائحته بالموت..».



الشاعر الكبير كمال نشأت
تأثر بمن سبق وأثر فيمن لحق

حين أنطلق للكتابة عن شاعر عربي، لا أعرفه على الصعيد الإنساني، تبدو الكتابة سهلة ومتحررة من تشابك العلاقات الإنسانية ومشاعر الحب أو النفور، أما حين أشرع في الكتابة عن شاعر عرفته عن قرب، و شهدته في مواقف إنسانية متنوعة، فإن الأمر يبدو صعبا، وتتعمق الصعوبة وتتأكد حين أكتب عن أحد أساتذتي الشعراء الكبار ممن أتيح لي أن ألتقي معهم أيام أن كنت شابا في مقتبل العمر.

هأنذا أواجه ما هو صعب حقا، لأني أكتب عن أساتذتي، الأول الشاعر الكبير الدكتور كمال نشأت، والذي كنت واحدا من تلاميذه الصغار خلال المرحلة الثانوية بمدرسة روض الفرج الثانوية – «الأمير فاروق سابقا»، وما زلت إلى الآن أتواصل وأتفاعل مع أستاذي الأول، وأستمع إلى آرائه وملاحظاته وتوجيهاته فيما يتعلق بالشعر من ناحية، وما يتعلق بخبرات الحياة من ناحية ثانية،ولم يستطع البعد المكاني- منذ أن أتيت إلى قطر – أن تقف حائلا بين تواصل التلميذ وتفاعله مع أستاذه الأول الكبير.

سنة ١٩٥١ – أصدر الدكتور كمال نشأت ديوانه الأول «رياح وشموع» وبعد صدوره بعشر سنوات بالضبط، أي سنة ١٩٦١م، حصلت على نسختي من هذا الديوان والتي أعتز بها كل الاعتزاز، لأن صفحاتها الأولى تحمل إهداء رقيقا موجها لي من صاحبه وأستاذ الكبير، وكنت – وقتها – قد فرغت من المرحلة الثانوية، وانطلقت إلى الجامعة، ولكن بعد أن حصلت خلال المرحلة الثانوية على نسخة من الديوان الأول للشاعر الكبير الدكتور إبراهيم ناجي، ديوان «وراء الغمام» الذي كان قد صدر في مايو سنة ١٩٣٤م، وما زلت معتزا بهذه النسخة، وأتفقدها بين حين وآخر، لأنها تحمل إهداء بخط ناجي، والإهداء ليس لي بطبيعة الحال، وإنما لأحد مفتشي وزارة المعارف وقتها – التربية والتعليم الآن- وهو «حضرة صاحب العزة عبد الحميد بك خضر» وقد حصلت على هذه النسخة من حفيد هذا المفتش الراحل، والذي كان زميلا عزيزا من زملاء المرحلة الثانوية، أما «ليالي القاهرة» لناجي، فقد حصلت على نسخة منه، مهداة من مكتبة

مدرسة روض الفرج الثانوية، بعد أن أمر «ناظر» المدرسة الراحل الكريم الأستاذ أحمد محمد قاسم بأن أتسلم هذه النسخة، تشجيعا لي في محاولاتي المبكرة لكتابة الشعر.

خلال زياراتي المتعددة لبيت أستاذي الدكتور كمال نشأت كان يحرص كل الحرص على أن يقرأ لي بصوته روائع من شعر ناجي، ثم يحللها ويتناول ما فيها من صور شعرية بالنقد المشبع بالحب، كما كان يسعدني بقراءة أحدث ما كتب، ويطلعني على أعداد مجلة «الآداب» الشهيرة التي دارت على صفحاتها معركة نقدية كبيرة بين عدد من رواد الشعر الحر في كل من مصر والعراق، وكان من بين الشعراء الكبار الذين حاربوا في تلك المعركة النقدية الكبيرة بدر شاكر السياب، وكاظم جواد، وصلاح عبد الصبور، وفوزي العنتيل، وكمال نشأت، ومما هو مثير في تلك المعركة أن كاظم جواد قد هاجم صلاح عبد الصبور، لأنه استخدم كلمة «الشاي» في إحدى قصائده، فانبرى صلاح عبد الصبور، للرد قائلا لكاظم جواد إن صديقك السياب قد استخدم «الشاي» أيضا في إحدى قصائده، أما شاعر العصر ت. س. إليوت فقد استخدم «ملاعق القهوة» في قصيدته الشهيرة «أغنية العاشق ج. ألفرد برفروك».

حين أعود إلى أستاذي الدكتور كمال نشأت، لابد أن أشير إلى ميلاده في مدينة من أجمل مدن مصر العربية، وهي الإسكندرية، وقد تعلم في هذه المدينة الساحرة، وتخرج في قسم اللغة العربية بجامعة الإسكندرية، وأتيح له وقتها أن يلتقي للمرة الأولى مع الدكتور إبراهيم ناجي خلال زيارته للجامعة لإحياء أمسية شعرية بدعوة من إدارتها، ولم يلتق كمال نشأت بناجي، فحسب وإنما أسمعه العديد من قصائده التي تشكل منها – فيما بعد – ديوان «رياح و شموع» ومع انتقال كمال نشأت من الاسكندرية إلى القاهرة، حصل على الماجستير، ثم الدكتوراه من جامعة عين شمس سنة ١٩٦٥م، وهي نفس السنة التي تخرجت فيها من كلية الآداب بجامعة القاهرة، وقد عمل الدكتور كمال نشأت بعد ذلك مدرسا بكلية الألسن وأكاديمية الفنون في مصر، ثم بالجامعة المستنصرية في العراق، وكلية الآداب بجامعة الكويت إلى أن عاد إلى مصر متفرغا للشعر ونقد الشعر، والإسهام في توجيه الشعراء الجدد الذين يعدونه «أبا روحيا» لهم، وكأن هؤلاء يكررون ما بدأت به من خلال تعلمي على يد الأستاذ الأول والكبير لي.

من هذا المنطلق أقول إن الدكتور كمال نشأت مثال نادر وجميل لأهمية التواصل بين الأجيال، طالما أن حب الشعر يوحد بين الكبير والصغير، فقد تواصل – بصورة جميلة – مع الرومانسيين المثاليين الكبار، وفي مقدمتهم الدكتور إبراهيم ناجي، وتواصل مع أبناء جيله على الرغم من المعارك والمنافسات بين أبناء الجيل الواحد، وهو جيل الريادة في الشعر الحر، كما تواصل مع أبناء الأجيال التالية، ابتداء من أبناء جيلي، حتى أبناء الجيل الجديد الآن.

ولعل إشارة الدكتور كمال نشأت في «معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين ص٢٢٦ – الجزء الرابع» إلى من كتبوا عنه وعن شعره، فقد أشار إلى أن من كتبوا عنه هم: الدكتور محمد مندور، والدكتور محمد مصطفى هدارة، والدكتور عبده بدوي، والدكتور حسن فتح الباب،وسليمان فوزي وفاروق منيب وحسن توفيق، فهذه الأسماء تنتمي إلى أجيال متلاحقة، من بينها من جيل الأساتذة الدكتور محمد مندور، ومن بينها من جيله هو الدكتور عبده بدوي والدكتور حسن فتح الباب، ومن بينها من جيل تلاميذه كاتب هذه السطور.

يندمج الشعراء بحكم إحساسهم العميق بالموسيقى – مع الأصوات الجميلة، وهنا أشير على وجه التحديد إلى صوت أم كلثوم وصوت أسمهان، لكن غرق أسمهان المأساوي يوم ١٤ يوليو سنة ١٩٤٤م، مس قلوب الشعراء الذين عايشوا هذه المأساة بحكم أعمارهم، ومن بينهم الدكتور عبد القادر القط، والدكتور يوسف خليفة، كما مس قلوب الشعراء الذين كانوا براعم وقت وقوع مأساة غرق أسمهان، ومن هؤلاء أستاذي الأول الكبير الدكتور كمال نشأت، وهذا ما يتجلى في إحدى قصائد ديوانه الأول «رياح وشموع» وهي قصيدة بعنوان «أسقنيها» والعنوان نفسه هو عنوان إحدى قصائد الأخطل الصغير، والتي غنتها أسمهان ومطلعها:

اسقنيها بأبي أنت وأمي

لا لتجلوا الهم عني.. أنت همي

من خلال «اسقنيها» بصوت أسمهان، يتذكر الدكتور كمال نشأت نشوته بالحب مع إحدى زميلات الدراسة في الإسكندرية، وهي من العراق، وقد كتب الشاعر الكبير قصيدته سنة ١٩٤٦م، أي بعد رحيل أسمهان بسنتين، وبعد أن انطلق هو من الإسكندرية إلى القاهرة:

«اسقنيها».. كلما أسمعها

أسمع الماضي يناديني إليها

اسقنيها.. إنها الكأس التي

حطمت كالقلب ما بين يديها

اسقنيها واسقيني تذكارها

أناحي بالذي رف عليها

«اسقنيها».. كلما أسمعها

أذكر الجلسة في الروض الأنيق

أذكر القلب الذي رددها

أذكر الصوت العراقي الرقيق

وأرى الروح الذي عانقه

روحي اللهفان بالشوق الصدوق

«اسقنيها».. كلما أسمعها

أذكر الشاطئ والموج الغضوب

ولياليـنا التي مرت وفي

خطوها الواني تباشير الغروب

زهرات من فروعي ذبلت

وأمان كن أهداف الخطوب..

أجد نفسي قد استغرقت في الإشارة إلى أجواء بدايات الدكتور كمال نشأت مع الشعر، ولكن لابد هنا أن أشير إلى الدواوين التي تلت «ريح وشموع» حيث أصدر الشاعر الكبير «أنشودة الطريق» سنة ١٩٦١م، و«ماذا يقول الربيع؟» سنة ١٩٦٥م، و«كلمات مهاجرة» سنة ١٩٦٩م، و«أحلى أوقات العمر» سنة ١٩٨١م، و«النجوم متعبة والضحى في انتظار» سنة ١٩٨٨م، و«جرح تنبت الشجر» سنة ١٩٩٧م، و«مسافر.. لا وصول» سنة ٢٠٠٠م، فضلا عن الجديد الذي يترقب أن يرى النور، وقد صدرت للشاعر الكبير عن الهيئة المصرية العامة للكتاب «الأعمال الشعرية» في مجلدين كبيرين، أولهما سنة ١٩٩٧م، والثاني سنة ١٩٩٨م.

من القصائد التي تفيض شجنا و شوقا إلى الوطن قصيدة «العودة» التي كتبها الشاعر الكبير بعد رحلة اغتراب مطولة÷ حافلة بالخبرات، وناضحة في بعض جوانبها بالأحزان. وها هو يخاطب المدينة التي يعود إليها، قائلا بصوت الفارس الذي أرهقه التجوال والترحال، ويود لبعض الوقت أن يستريح:

افتحوا يا أيها الحراس أبواب المدينة

افتحوها إننا معكم ولسنا غرباء

هذه الأسوار لا تحجب عنا دمنا

لا.. ولا هذي السنون الضائعات

بين أنياب الشتات

افتحوا يا أيها الحراس أبواب المدينة

افتحوها لنلاقي أوجه الأصحاب.. أسماء الشوارع

ومصابيح البيوت

عبق الأرض التي خضنا إليها المهلكات

ليتنا لم نهجر الترب الذي تهجع فيه الأمهات

هل جنينا غير جرح الروح والحلم الموات؟

تحية من القلب لمن يسكن دائما في القلب.. أستاذي الأول الشاعر الكبير الدكتور كمال نشأت، متمنيا أن أعود بصور متأنية إلى قراءة «أعماله الشعرية» الرائعة قراءة متمهلة ومتأملة.



سمير سرحان
مثقف كبير عاش دنياه (على مقهى الحياة)
أدى رسالته باقتدار .. فهاجمه الحاقدون والفاشلون الصغار!

«إن من بلغ الأربعين ولم يكره البشر فكأنه لم يعرفهم بعد..» هذا ما قاله «با سكال» — الكاتب والفيلسوف الفرنسي الشهير الذي عاش في القرن السابع عشر الميلادي، وكانت له آراء ثاقبة في الطبيعة البشرية، لكن أبا العلاء المعري العظيم كان قد سبقه بعدة قرون، فأدرك قبله نقائص الناس وعيوبهم، لدرجة أنه عقد مقارنة غريبة بين الإنسان الذي يعد الأفضل وبين الصخرة الصماء، وجاءت النتيجة عنده لصالح الصخرة:

أفضـل من أفضـلهم صـخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

هناك مسلسل كبير، نشارك فيه جميعا إما بالفرجة أو بالمشاركة، حيث يظلم كثيرون من الأقوياء كل من يتأكدون أنهم من الضعفاء، كما يظلم الضعفاء أنفسهم كل من يشعرون أنهم أكثر ضعفا منهم، وفي مجتمعاتنا العربية — بصورة عامة — تتجسد أمامنا جميعا محاولات تشويه الرموز والشخصيات الشهيرة في مختلف المجالات، لكن أحدا لا يجاهر بهذه المحاولات إلا بعد أن يتأكد أن هذه الرموز والشخصيات الشهيرة قد غاب عنها المجد أو غيبها اللحد!

الكاتب الفنان والناقد الكير الدكتور سمير سرحان الذي غاب عن دنيانا عصر يوم الأول من يوليو ٢٠٠٦، كان واحدا من الرموز والشخصيات الشهيرة لا في مصر وحدها بل في سائر أقطار أمتنا العربية، ولأنه كان رئيسا للهيئة المصرية العامة للكتاب على امتداد سنوات عديدة، ولأنه كان يؤدي رسالته باقتدار، ولا ينحاز إلا إلى ما يعتقد أنه الصواب، كان لابد أن يقوم الحاقدون والفاشلون الصغار بتوجيه سهام أحقادهم تجاهه بمناسبة أو بغير مناسبة، وأتذكر أنه قال لي ذات مرة بنبرة ساخرة: أنا لا أشعر باقتراب موعد معرض القاهرة الدولي للكتاب كل سنة إلا إذا بدأت الحملات الصحفية ضدي تتكثف وتتزايد.. وبعد أن أحيل الدكتور سمير سرحان إلى التقاعد لبلوغه السن القانونية، كنت أشعر بمعاناته لا من المرض الذي داهمه، وإنما من الناس الذين كانوا يتزاحمون ويلتفون حوله ويظهرون بمظهر المحبين المخلصين والمساندين الأوفياء، وربما كان من الطبيعي أن ينفض كثيرون بهدوء عن الدكتور سمير سرحان بعد أن أدركوا أنه لم يعد في دائرة الأضواء، ولكن القبح كله يتمثل في أولئك الذين

شجعهم ورعاهم، بل « صنعهم» – على حد تعبيره هو – فإذا بهم ينقلبون ضده ويحاولون تشويه منجزاته الحقيقية متصورين أنهم بهذا الصنيع يتملقون الرئيس الجديد للهيئة المصرية العامة للكتاب، وبالطبع فإن الرئيس الجديد كان أذكى من أولئك، وأزاح كثيرين منهم، ولم يسمح لهم بأن يتملقوه وأن ينافقوه، بعد أن رأى منهم ما رأى، وأدرك أنهم من طراز الذين كانوا يهتفون «مات الملك.. عاش الملك».!

بعيدا عن ألاعيب أولئك، أقول أن الحزن قد استبد بي عندما عرفت خبر رحيل الصديق الكاتب الفنان والناقد الكبير الدكتور سمير سرحان، فقد كنت أتشبث بالأمل في أن يتحقق له الشفاء، ولكن ما أراد الله كان، وهكذا فإن هذا المثقف الكبير المستنير وهو في الخامسة والستين من العمر، بعد أن عاش دنياه «على مقهى الحياة» و شهد « صعود وانهيار إمبراطورية الأخلاق» ورصد «حرب الثقافة» وقدم العديد من الدراسات النقدية المهمة في المسرح، كما كانت له إبداعاته المسرحية المتألقة منذ الستينيات من القرن العشرين الغارب.

«على مقهى الحياة».. كتاب من أجمل وأصدق كتب السيرة الذاتية التي كتبها أدباء ونقاد عرب من أجيال متعاقبة، ابتداء من «الأيام» لطه حسين إلى «أوراق العمر» للويس عوض و«رحلة جبلية.. رحلة صعبة» لفدوى طوقان و« صفحات من حياتي» لجليلة رضا، ونظرا لأن الفنان في أعماق سمير سرحان يزاحم الناقد، فإن «على مقهى الحياة» تتجلى فيه تلقائية من يفكر بقلبه لا بعقله إذا جاز هذا التعبير، وهكذا جاء الكتاب في هيئة فصول متنوعة، لا يجمع بينها إلا أنها مجتمعة، ترسم ملامح من حياة «الفتى» سمير سرحان منذ بدايات طفولته إلى جرأته المبكرة على ارتياد المقاهي التي كان يرتادها الأدباء الكبار والمرموقون، لكي يتحاوروا ويتناقشوا في القضايا الأدبية والفنية التي كانت تشغلهم وتشغل الساحة الثقافية وقتها، ولكن المهم هنا أن «الفتى» قد تنبه إلى وجود هوة عميقة بين هذه المحاورات النقاشات النظرية وبين واقع الحياة التي كان يحياها باعتباره أحد أبناء أسرة فقيرة، فضلا عن أنه أكبر إخوته وعليه تقع مسئولية رعايتهم في حدود ما يستطيع أن يحققه، ويتحدث سمير سرحان بمنتهى الصدق عن هذه الهوة العميقة، كما يشير إلى ضرورة أن يخوض الكاتب المبدع في زحام الناس والحياة، لكي يستطيع أن يبدع أدبا إنسانيا خلاقا، وها هو يقو لبعد أن كان قد قرأ قصة تشيخوف «الأسى» وكان هو قد أصدر – بجرأة كبيرة – مجموعته القصصية الأولى «سبعة أفواه».. يقول: «شعر الفتى ليلتها بعد قراءة قصة تشيخوف أن كل المناقشات النقدية عن الشكل والمضمون

على مقهى عبد الله هي مناقشات عقيمة لا شيء أمام عظمة لحظة الإبداع.. وشعر أيضا بما هو أقسى.. أن مصاحبة الكبار في مقهى عبد الله لا تغني عن التجربة المباشرة في الحياة، فالحياة هي مادة الكاتب والحياة لا تنتظر، أما المناقشـات النقدية فيمكن لها أن تنتظر، ورغم أن الفتى شعر بعد نشر كتابه الأول أنه كبر مائة عام، فقد شعر مع قراءة هذه القصة الرائعة لتشيخوف أنه ما زال صغيرا.. صغيرا..».

أحيانا نكتشف أننا نجمع بين أ شياء متناقضة، لا يجمع بينهما إلا أننا نحبها، وقد تجلى هذا لي عندما عرفت من الدكتور سمير سرحان أنه عجب كل الإعجاب بشاعر البؤس عبد الحميد الديب، وقد حرضـني عدة مرات أن أهتم بجمع قصـائده المتناثرة على صـفحات الجرائد والمجلات خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الما ضي.. سألته وقتها مندهشا: كيف تجمع بين إعجابك العميق بتوفيق الحكيم صـاحب «البرج العاجي» وبين عبد الحميد الديب « شاعر البؤس»؟.. قال ببساطة: إنني أحتضن الحياة بمختلف صورها وبتعدد أوجهها. ومن ناحيتي فإني حاولت حل معضلة الجمع بين شاعر بائس حقا، كان ينام على أر صفة الشوارع ولا يجد القوت ولا الملبس، وبين كاتب من أسـرة ثرية ذات أصـول أرسـتقراطية، فرأيت أن الأول البائس يمثل ا ستسلام الإنسان لواقعه المرير دون محاولة لتحدي هذا الواقع، أما الثاني صـاحب «البرج العاجي» فإنه لم يقنع بالثقافة العربية وحدها فانطلق إلى باريس، وبدلا من أن يدرس القانون منح نفسـه تفرغا على امتداد سـنوات لكي ينهل من الثقافة الغربية عموما والفرنسية خصوصا، إلى أن عاد إلى مصر ليصبح الكاتب المسرحي الرائد والكبير منذ أن قدم «أهل الكهف» و« شهر زاد».. وهكذا فإن سمير سرحان لم يستسلم كما ا ستسلم عبد الحميد الديب لواقعه المرير، وكأنه أخذ منه عبرة أو عظة، وقد تفوق «الفتى» فانطلق إلى الولايات المتحدة حيث حصـل على الدكتوراه من إحدى جامعاتها العريقة، متخصـصـا في الأدب الإنجليزي، وبعدها أ صبح رئيسا لهذا القسم في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وانطلق للإبداع وللنقد، ولكنه لم يصبح أبدا من أ صحاب «البرج العاجي» وإنا خاض مع الخائضين في شعاب الحياة وزحام نا سها، بكل ما فيهم من نبل أو نذالة، ومن حب أو كراهية، ومن قناعة أو جشع، وكان سمير سرحان كان يتمثل بقول شكسبير «ما الحياة إلا مسرح كبير» وهو الذي ترجم له عدة مسرحيات من إبداعه الإنساني الخالد.

إذا كان الدكتور سمير سرحان قد عاش دنياه «على مقهى الحياة» منذ أن كان فتى صغيرا، فإنه فيما بعد قد شهد « صعود وانهيار إمبراطورية الأخلاق» وأقتطف مما قاله في هذا السياق: «..لقد انهارت إمبراطوريات بسبب الانهيار التدريجي لفكرة الأخلاق باعتبارها عاملا حاسما

في الـسلوك الحـضاري الذي يبني المجتمعات.. وأخـشى ما أخـشاه أن يؤدي انهيار الأخلاق والضـمير عند البعض إلى انهيارات أخرى، لابد أن نقف في وجهها قبل أن يفوت الأوان.. ما أحوجنا الآن قبل أي وقت مضى أن نتذكر أن هناك شيئا اسمه الأخلاق.. اسمه الضمير..».

يوم الاثنين ٢٦ يونيو ٢٠٠٦ أعلن وزير الثقافة المصـري فاروق حسـني أسـماء الفائزين بجوائز الدولة، وقد حصـل الدكتور سـمير سـرحان على الجائزة التقديرية التي كان يسـتحقها منذ سـنوات، ولكني هنا أعود إلى ما شـهده من انهيار تدريجي لفكرة الأخلاق!.. لماذا؟.. لأن بعض الحاقدين والفاشلين الصغار قالوا – قبل إعلان أسماء الفائزين – أن سـمير سـرحان بصـحة جيدة، لكنه «يتماوت» حتى تشـفق عليه لجان التحكيم وتمنحه الجائزة!.. بمثل هذا القول يتحقق الانهيار التدريجي للأخلاق، والتي انهارت بانهيارها إمبراطوريات كبرى في التاريخ.

ها هو سـمير سـرحان قد رحل عن عالمنا، وعلى الحاقدين والفاشـلين الصـغار أن يبحثوا عن سـواه من الأحياء المرموقين والناجحين، لكي يسـددوا تجاههم أحقادهم ويلقوا عليهم مسئولية فشلهم!

رحل سـمير سـرحان.. لكنه في كل قلب من القلوب التي تعرف معنى الحب،وتقدر قيمة العطاء الإنساني الجدير بالتقدير.. رحل عاشق الحياة وعاشق المسرح. «وما الحياة إلا مسرح كبير».



أمل دنقل .. الشامخ فوق أنقاض السقوط

سيرة حياته لم تكتب بعد

١ - في سجن الزمان والمكان

لا يتشكل الإنسان، أي إنسان، من الفراغ، وإنما يتشكل في زمان ومكان محددين،وفي إسارهما يواجه ما يواجه، ويتعرض لما يتعرض، ويتفاعل – سلبا أو إيجابا– مع ما حوله ومن حوله، وهذا ما يدفعني إلى الحديث عن الزمان والمكان اللذين عاش فيهما الشاعر الكبير أمل دنقل على امتداد سنوات عمره القصير.

لم تكن سنوات الستينيات من القرن العشرين الغارب سنوات فاترة باهتة الملامح على الصعيدين العربي والعالمي، وإنما كانت سنوات محتدمة وعاصفة. وكانت القاهرة – العاصمة العربية الكبرى – تمتلك قبل تلك السنوات وخلالها إرادة التحدي، وهي تقود – طواعية – جماهير الأمة العربية، وتواجه غوايات ودناءات القوى الأجنبية المتجبرة، متمثلة – على وجه التحديد – في الإمبراطورية الأمريكية الطامعة في أن ترث الأرض وما عليها، حيث بدأت – في السر وفي العلن – تخطط وتنفذ محاولات الالتفاف على حركات التحرر العالمي بصورة عامة، وعلى حركة التحرر العربي بزعامة جمال عبد الناصر، حيث أصبحت هذه الإمبراطورية الأمريكية أشبه بأفعى مرعبة ومتحفزة لابتلاع ما يحلو لها من فرائس و ضحايا، بعضها يحاول أن يقاوم وبعضها يحاول أن يفر ناجيا بجلده، وبعضها لا يستطيع المقاومة ولا الفرار، فيستسلم للمصير المحتوم.

كان لإرادة التحدي قاموسها الحي في قلب كل إنسان عربي، حيث عاش الجميع أجواء التحفز المضاد المناقض لتحفز القوى الأجنبية المتجبرة ، وظلوا يتنفسون – بعمق – معاني «التحرر» و«الكرامة» و«العزة» و«الشموخ» وكان الإنسان العربي – أيا كان القطر الذي ينتمي إليه – يشعر وهو خارج الأرض العربية، وبالذات في أوروبا، بكل هذه المعاني المضيئة، لأنه يجد الآخرين يقابلونه ويتعاملون معه بتقدير واحترام، باعتباره واحدا من ملايين العرب الذين يتزعمهم «ناصر».

وفي تصـوري أن أهم ما يميز سـنوات السـتينيات وما قبلها، عما تلاها من سـنوات السبعينيات وما بعدها، أن الروح الجماعية كانت هي الغالبة، لدرجة أن ظهور أية ملامح للروح الفردية، على طريقة «أنا ومن بعدي الطوفان» كان يقابل بالاسـتهجان والنفور والازدراء، وبالطبع فإن أحدا لا يسـتطيع أن ينفي أن هناك مثقفين قد عزلوا أنفسـهم عن إيقاعات الروح الجماعية، ولجؤوا إلى تغييب وعيهم بصـورة متعددة، وتبدو نماذج هؤلاء المثقفين واضحة وجلية في العوامة النيلية التي رصد ما كان يجري داخلها كاتبنا العملاق نجيب محفوظ في «ثرثرة على النيل».

مقابل هؤلاء، كان المثقفون الجادون والملتزمون، ومعظمهم ممن كانوا على يسـار ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ المجيدة، يحاولون تعبئة الجماهير، كل بالصـورة التي يراها، ويقفون موقف التأييد العاطفي من الثورة، كلما اتخذ الزعيم الخالد جمال عبد الناصـر مواقف أكثر ثورية مما سـبقها من مواقف، لدرجة أن الشـيوعيين – على سـبيل المثال – كانوا يهتفون بحياة عبد الناصـر، وهم في الزنازين والمعتقلات، وحول هذه النقطة بالذات، كان للشاعر العظيم صلاح عبد الصبور تعليق ساخر، كرره مرارا في جلساته وبين أصـدقائه، حيث كان يرى أن هؤلاء الشـيوعيين ينطبق عليهم المثل الشـعبي المصري «القط يحب خناقه»!

تألق الشاعر الكبير أمل دنقل خلال سنوات الستينيات المحتدمة والعاصفة، وكنت ألتقي معه في صـباحات عديدة، وأسـهر معه في ليال بلا حصـر، وكان أبناء جيلنا من الشـعراء العرب أبناء مصـر يعيشـون هذه الأجواء متأرجحين بين الهموم الجماعية الشـاملة وطموحاتهم وأحلامهم وهمومهم وإحباطاتهم الفردية، لكنهم يتفاوتون – فيما بينهم – في هذا التأرجح الواعي والعقلاني عند عدد منهم، وفي هذا التأرجح المزاجي والانتقائي عند آخرين منهم. وحين أحاول هنا أن أحدد المقصود بأبناء جيل أمل دنقل، بصـورة دقيقة أو أقرب إلى الدقة، أقول إنهم أولئك الذين ولدوا قبل الحرب العالمية الثانية بقليل، أوفي أثنائها أو بعدها بقليل أيضـا، وهم الذين سـمعوا بوعي أو دون وعي خلال سـنوات طفولتهم عن مأسـاة اغتصـاب فلسـطين وإقامة دولة الكيان الصـهيوني العنصري يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٨، وهم الذين ظهروا بصورة متميزة عن الشعراء

العرب من رواد حركة الشعر الحر في أعقاب كارثة نكسة يونيو – حزيران سنة ١٩٦٧، وأقول هنا «نكسة» لا «هزيمة» لأن إرادة التحدي الوطنية، على المستويين الشعبي والرسمي في مصر وشقيقاتها العربيات لم تنكسر، على الرغم من كل ما جرى عسكريا على ساحات القتال.

حين أشير إلى الظهور المتميز للشعراء من أبناء جيل أمل دنقل، فهذا لا يعني إطلاقا أنهم قد ألغوا أو طمسوا ملامح رواد الشعر الحر، وإنما يعني أن هناك أصواتا جديدة أثبتت حضورها المتميز على الساحة إلى جانب أصوات الرواد، وبطبيعة الحال فإن الأصوات الجديدة لم تكن كلها في الواقع جديدة بمعنى الكلمة، فهناك من كانوا مجرد أصداء باهتة أو مكررة لأصوات الرواد الذين تفتح وعيهم السياسي والاجتماعي خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، وعلى سبيل المثال فإنه مع انتهاء تلك الحرب سنة ١٩٤٥ كان عمر نازك الملائكة خمسا وعشرين سنة، وكذلك كان عمر نزار قباني، بينما كان كل من بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري في التاسعة عشرة من العمر، وكان عمر لميعة عباس عمارة ست عشرة سنة، وعمر صلاح عبد الصبور أربع عشرة سنة، ويمكننا أن نضيف اثنتين وعشرين سنة إلى أعمار هؤلاء عندما وقعت كارثة نكسة سنة ١٩٦٧، وعلى سبيل المثال فإن أكبر هؤلاء، وهما نازك ونزار، كانا في السابعة والأربعين، بينما كان أصغرهم، وهو صلاح عبد الصبور، في السادسة والثلاثين.

لا تبدو المسافة الزمنية شاسعة بين أصغر شعراء جيل الرواد صلاح عبد الصبور وأكبر شعراء جيل أمل دنقل وهو فاروق شوشة، فالفارق بينهما في العمر خمس سنوات، وأشير هنا إلى أعمار بعض شعراء جيل أمل دنقل – جيل الستينيات عندما وقعت كارثة نكسة سنة ١٩٦٧، فقد كان فاروق شوشة في الحادية والثلاثين من عمره، أما محمد إبراهيم أبو سنة ومحمد فتوح أحمد فقد كانا في الثلاثين، وكان سميح القاسم وفرج مكسيم في الثامنة والعشرين، أما سامي مهدي وعبد الستار سليم وغازي القصيبي فكانوا في السابعة والعشرين، في حين كان أمل دنقل ومعه محمود درويش وخليفة الوقيان وممدوح عدوان و سالم جبران ومحمد حماسة عبد اللطيف في السادسة والعشرين من العمر، بينما كان أحمد سويلم وحسب الشيخ جعفر وسعاد الصباح في الخامسة

والعشرين، وكان أحمد درويش وحامد طاهر وحسن توفيق و سعد مصلوح وعزيزة كاتو وفؤاد طمان ومحمد السيد ندا ومحمد يو سف في الرابعة والعشرين، وكان محمد أبودومة ومريد البرغوثي في الثالثة والعشرين، أما وفاء وجدي ونصار عبد الله فقد كانا في الثانية والعشــرين، كما كان في الحادية والعشــرين من العمر كل من إســماعيل عقاب وآمال الزهاوي ودرويش الأســيوطي وعز الدين المناصــرة وعلوي الهاشــمي ومليكة العاصمي.

ولكي تتكامل جوانب الصورة، لابد من الإشارة إلى جيل لم ينل حظه من الدراسات النقدية، لأن أبناء هذا الجيل قد برزوا إلى الســاحة قبل جيل رواد الشــعر الحر بقليل، ومعظم هؤلاء قد تأثروا تأثرا واضــحا بشــعراء جماعة أبولو، وجاءت حركة الشــعر الحر وما صاحبها من معارك نقدية جادة ومعارك صحفية سطحية لتسهم – دون قصد – في إبعاد الأضواء عن شعراء ذلك الجيل المظلوم، وأذكر منهم عبد الرحمن الخميسي وعبد القادر القط ويوسف خليف وكمال نشأت ومحمد الجيار وسعد درويش، إذ لم يظفر أي شاعر من هؤلاء بدراسة متعمقة تتناول عطاءه الشعري حتى يومنا هذا.

كان رواد حركة الشــعر الحر في مقتبل الشــباب عندما قامت الولايات المتحدة الأمريكية بأكبر الجرائم وأبشعها ضد الإنسانية، حيث ألقت طائرتان أمريكيتان قنبلتين ذريتين على كل من هيروشــيما ونجازاكي اليابانيتين يومي ٦ و٩ أغســطس ســنة ١٩٤٥، ولم يكن العالم بأســره قد عرف شــيئا عن التأثير المرعب لهذا الســلاح التدميري على الإنســان والطبيعة، وخمدت نيران الحرب العالمية الثانية، ليكتب كثيرون من رواد حركة الشعر الحر ضد السلاح الذري والنووي، باعتباره شرا لابد من تجنبه وتجنيب الإنسان آثار ويلاته الفاتكة.

وكان شــعراء جيل الســتينيات، جيل أمل دنقل، في مقتبل الشــباب حين عاشــوا بكل أعصابهم كارثة نكسة يونيو – حزيران ١٩٦٧، وهذا يفسر سر كثرة القصائد التي كتبها أبناء هذا الجيل ومعهم جيل الرواد عن تلك الكارثة التي لم تكســر – كما قلت – إرادة التحدي الوطنية، وإن كانت قد كشــفت اتســاع الهوة بين القول والفعل العربيين، ومن أشهر قصائد الكارثة «هوامش على دفتر النكسة»، لنزار قباني من رواد حركة الشعر الحر،

و«البكاء بين زرقاء اليمامة» لأبرز شعراء جيله أمل دنقل، وقصيدة لعز الدين المناصرة الذي كان يبدي حنقه على النقاد، وربما ما يزال، لأنهم لم يهتموا بإيضاح أن قصيدته أسبق في الكتابة من قصيدة أمل دنقل. وقد صورت هذه القصائد وسواها فداحة ما جرى بصورة حادة، لكنها – في نفس الوقت – أدخلتنا جميعا في نفق مظلم، تطلب تجاوزه وعبوره وقتا طويلا وثقيلا، وهو نفق «جلد الذات» الذي شارك فيه الجميع، وها هو أمل دنقل يفضح ما كان قد رأى بعيني زرقاء اليمامة ويكشف اتساع الهوة ما بين قول وفعل:

أيتها العرافة المقدسة

ماذا تفيد الكلمات البائسة؟

قلت لهم ما قلت عن قوافل الغبار

فاتهموا عينيك يا زرقاء بالبوار!

قلت لهم ما قلت عن مسيرة الأشجار

فاستضحكوا من وهمك الثرثار

وحين فوجئوا بحد السيف قايضوا بنا

والتمسوا النجاة والفرار

ونحن جرحى القلب، جرحى الروح والفم

لم يبق إلا الموت والحطام والدمار

وحدهم شعراء المقاومة الفلسطينية، وهم من أبناء جيل أمل دنقل، هم الذين لم يدخلوا نفق «جلد الذات» وهم وحدهم الذين طالبوا بسرعة إزاحة آثار الكارثة عن النفوس، مبشرين بطائر الرعد الذي لابد سيأتي، وهذا ما نتلمسه بوضوح – في قصائد

توفيق زياد وسـميح القاسـم ومحمود درويش، وها هو محمود درويش يقرأ ميلاد النهار:

إنني أقرأ في عينيك ميلاد النهار

إنني أقرأ أسرار العواصف

لم تشيخي.. لم تخوني.. لم تموتي

إنما غيرت ألوان المعاطف

عندما انهار الأحباء الكبار

وامتشقنا لملاقاة البنادق

باقة من أغنيات وزنابق

ويبدو سميح القاسم أكثر قدرة على التحدي وأكثر صلابة وهو يؤكد:

ضربة البرق التي تنقض في عرض الطريق

تغمر العابر بالضوء، ولو كان الحريق

يذكر القارئ أو لا يذكر القارئ..

لكني، لكي يفهم كل الناس ما قلت، أعيد:

نحن في الخامس من شهر حزيران ولدنا من جديد

٢ - أمل.. سيرة حياة لم تكتب بعد

إذا كان أحمد شـوقي قد أكد أن «الناس صـنفان: موتى في حياتهم.. وآخرون ببطن الأرض أحياء» وإذا كان – من باب المباهاة بالشعر – قد جعل الحبيبة تقول «أنتم الناس أيها الشعراء» فإني أتصور أن الشعراء أنفسهم ينقسمون إلى صنفين، أولهما صنف يقترب في أ سلوب حياته اليومية من الأ سلوب المعروف والمألوف الذي ينتهجه الموظفون في الدوائر الحكومية، فلكل شئ عند كل منهم وقت، ولا ينبغي أبدا أن يتغير الإيقاع المكرر والثابت، فللذهاب إلى العمل وقت، وللانصراف منه وقت، وللجلسة مع الزوجة

والأولاد وقت، وللجلوس في المقهى لبعض الوقت مع من على شاكلته وقت.

وبالطبع فإن الإبداع الشعري لهذا الصنف من الشعراء يتأثر بأسلوب حياتهم، وتتحول القصيدة عند كثيرين منهم إلى نوع من أداء الواجب الوظيفي، وقد كان أمل دنقل يتندر أو يتهكم أو يسخر باستمرار من شعراء هذا الصنف، ويحددهم بالأسماء، وأحيانا يعلن رأيه فيهم وفي قصائدهم أمامهم، دون مراعاة للمجاملات الاجتماعية التقليدية، ودون اهتمام بأن يغضب هؤلاء أو أن تحمر وجوههم مما يوجهه إليهم من تندر أو تهكم أو سخرية.

الصنف الثاني من الشعراء، وفي صدارته أمل دنقل، يحب أن يعيش الحياة – كما يقال – بالطول والعرض والعمق، وإذا كان النهار ملكا للموظفين في الدوائر الحكومية، ومشاعا لكل الذين يكدحون تحت الشمس، فإن الليل – بكل ما فيه وما يحويه – هو المملكة المقدسة التي يتجول تحت سمائها المقمرة أو الشاحبة أو الغائمة كل الشعراء الذين ينتمون إلى هذا الصنف، والذين ينقسمون بدورهم إلى قسمين: قسم الشعراء المستقرين ممن يملكون أو يستأجرون شققا فاخرة أو عادية، وهؤلاء كانوا يقننون علاقتهم مع الليل، فقد تمتد سهراتهم مع أصدقائهم حتى الصباح، وقد ينغلقون على أنفسهم، ولا يسمحون لأصدقائهم باقتحام شققهم وانتزاعهم من خصوصياتهم، أما القسم الثاني فيندرج فيه من يتوحدون مع الليل ويندمجون في أجوائه، وهم يتنقلون من مكان إلى آخر، بل إلى عدة أماكن أخرى خلال الليلة الواحدة، وبطبيعة الحال فإن هؤلاء لم يكونوا مستقرين، ولم تكن في جيوبهم مفاتيح شقق، يدخلونها أو يخرجون منها، كما يحلو لهم، ومن الطبيعي أن تكون حياة هؤلاء أقرب إلى حياة الشعراء الصعاليك خلال العصر الذي يسمونه بالجاهلي، رغم بعد المسافة الزمنية بين هؤلاء وأولئك، فقد كان الشعراء الصعاليك القدامى يأتنسون بوحوش الصحراء، وينفرون – في نفس الوقت – من الناس العاديين المنتظمين في دوائر العلاقات الاجتماعية المقننة وفقا لقانون القبيلة، حيث نسمع صوت أحدهم وهو يؤكد «عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى – وصوت إنسان، فكدت أطير» كما نسمع صوت شاعر آخر منهم وهو يقول لرفيقته «ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم – قليل إذا نام الخلي المسالم؟» فالنوم في الليل حكر على

المســتقرين والمنتظمين في دوائر العلاقات الاجتماعية المقننة، ونقفز من المســافة الزمنية الشــاســعة، لنعود إلى أمل دنقل الذي رأى في الليل، كيف «تثب القطة من داخل صندوق الفضلات»:

أطرق باب صديقي في منتصف الليل

(تثب القطة من داخل صندوق الفضلات)

كل الأبواب العلوية والسفلية تفتح إلا بابه

وأنا أطرق.. أطرق

حتى تصبح قبضتي المحمومة خفاشا يتعلق في بندول!

الليل مملكة مقدســة، يتجول في أرجائها أمل دنقل، وكنت معه أتجول على امتداد ســنوات، ولعل أجمل إهداء خطي منه هو ما كتبه لي عندما أهداني «العهد الآتي» حيث كتب «العزيز حســن توفيق شــاعرا وصــديقا وصــعلوكا عظيما مع تقديري ومحبتي..» وأعترف بأني أشعر بمزيج من النشوة والحسرة حين يذكرني هذا الإهداء بزمان الصعلكة في القاهرة، بمجرد أن يطل الليل، وأعود الآن بحنين دافق إلى شــوارع القاهرة، أعود مع أمل دنقل:

الشوارع في آخر الليل.. آه

أرامل متشحات ينهنهن في عتبات القبور – البيوت

قطرة.. قطرة.. تتساقط أدمعهن مصابيح ذابلة

تتشبث في وجنة الليل.. ثم تموت

الشوارع في آخر الليل.. آه

خيوط من العنكبوت

والمصابيح – تلك الفراشات – عالقة في مخالبها

....

الشوارع في آخر الليل.. آه

أفاع تنام على راحة القمر الأبدي الصموت

هل كنت وحدي الذي تجول في الليل مع أمل دنقل على امتداد سـنوات؟.. بالطبع لا.. فهناك أصـدقاء عديدون كانوا يتجولون معه، ولكن لماذا أطرح هذا السـؤال؟.. أطرحه لأقول إنه ليس للشـاعر الصـعلوك الذي يعيش الحياة بعمق عالم واحد محدد، يمكن أن يحصره أحد في إطاره، وإنما هناك عوالم متعددة لمثل هذا الشاعر، وقد يعرف بعضنا عالما أو عالمين من هذه العوالم، لكنه لا يستطيع أن يزعم بأنه يعرفها جميعها.

هناك كتاب يكتبون عن الشعراء الذين عرفوهم وصادقوهم خلال مرحلة معينة، ومع هذا فإنهم يكتبون عنهم وكأنهم قد عرفوا معرفة اليقين كل شئ يتعلق بهؤلاء الشعراء على امتداد حياتهم بأسـرها، وليس خلال تلك المرحلة المعينة التي ربطتهم خلالها أواصـر صداقة. وأعترف هنا بأن أول من نبهني إلى هذه النقطة هو أستاذي فاروق خورشيد، فقد كان يتحدث عن أخيه وتوأمه الروحي صـلاح عبد الصـبور الذي كان قد تغيب عن سهرتين متتاليتين. وهنا قال فاروق خورشيد لكي يحسم التساؤلات: صلاح ليس ملكا لنا وحدنا.. نحن هنا لا نمثل سـوى عالم واحد من عوالم متعددة لصـلاح عبد الصـبور، وقد نسمع عن بعض هذه العوالم الأخرى، لكننا – بالتأكيد – لا نعرفها.

واهمون أو إنهم يتباهون ويفاخرون هم الكتاب الذين يتصـورون أنهم يعرفون علم اليقين كل كبيرة أو صـغيرة في حياة من عرفوهم وصـادقوهم من الشـعراء الكبار الذين عاشوا حياتهم بعمق، ولم يكن لهم عالم واحد محدد، وإنما مجموعة من العوالم البادية أو الخافية، وأعتقد أنه لا أحد من هؤلاء الكتاب يمكنه أن يزعم أنه قد اسـتطاع أن يكتب سيرة حياة الشاعر الذي صادقه بصورة شاملة ومتكاملة، ما دام لم يعرف – بصورة مباشرة – غير عالم معين من عوالم هذا الشاعر، وخلال مرحلة معينة.

على ضوء هذا فإن سيرة حياة الشاعر لا يمكن أن تكتب بشكل دقيق، إلا من خلال جمع كل ما كتب عنه من جانب من عرفوه وصـادقوه، وبحث أوجه الاتفاق أو الافتراق فيما بين هذه الكتابات، وتحديد ما هو صادق مما هو ملفق.

إذا طبقنا هذا على سيرة حياة أمل دنقل، أستطيع القول بكل وضوح إن هذه السيرة لم تكتب بعد حتى الآن، أما ما كتبه أصدقاؤه ومحبوه، فهو مجرد شهادات، بعضه واف وبعضه مبتور، وبعضها مليء بزهو الكاتب بنفسه من خلال تصوره أنه الوحيد الذي عرف و صادق أمل دنقل، دون أن يدرك أنه قد عرفه و صادقه خلال مرحلة معينة وليس على امتداد كل مراحل حياته.

هناك من عرفوا أمل دنقل خلال طفولته وسنوات صباه في صعيد مصر، ولكن هؤلاء لم يظلوا على تواصل حميم معه بعد غياب زمان الطفولة والصبا وبعد انتقال أمل دنقل من الصعيد إلى كل من القاهرة والإسكندرية والسويس.

وهناك من عرفوا أمل دنقل عن قرب وبصورة حميمة خلال سنوات نضجه الشعري في مطالع الستينيات من القرن العشرين، ولكنهم لم يعرفوه – لأسباب مختلفة – خلال فترة مرضه القاسي، وهناك من توثقت صلتهم معه خلال فترة المرض وحدها، ولم تكن صلتهم معه عميقة قبل تلك الفترة.

كل هؤلاء يمثلون حلقات تتطلب أن تتكامل، لكي تصبح بحق سيرة حياة متكاملة لأمل دنقل، ويأتي السؤال الصعب: من الذي يمكنه أن يقوم بهذا العمل؟ واحد ممن عرفوا أمل؟ أم مجموعة منهم؟ أم واحد أم مجموعة من بين الذين لم يعرفوه على الإطلاق، حيث يعتمد هؤلاء على الكتابات – الشهادات التي كتبها من عرفوه وصادقوه؟

تبقى ملاحظة بشأن الكتابات – الشهادات، حيث يبدو أمل دنقل من خلالها معزولا أو مفصولا بصورة متعسفة عن المناخ الشعري الذي كان يتنفس فيه، كما أن هذه الكتابات – الشهادات لم تحاول، في معظمها، أن تربط بين أمل دنقل وشعراء جيله، وهذا ما يجعله يبدو أشبه بنبات بري وحيد في صحراء.

وفيما يتعلق ببعض الكتابات – الشهادات، أود أن أشيد بالصدق الذي تجلى فيما كتبه الدكتور سلامة آدم، وهو أحد أصدقاء أمل دنقل خلال مرحلة الطفولة والصبا، كما أود أن أعيد الإشادة بما كتبته الكاتبة عبلة الرويني على امتداد صفحات «الجنوبي» الذي كرسته لتناول ما عرفته من بعيد أو ما عايشته عن قرب في حياة زوجها أمل دنقل.

وأتصـور أنه من المهم أن نتعرف على أوجه الاتفاق أو الافتراق فيما يتعلق بليالي القاهرة كما عرفها أمل دنقل، وليس إبراهيم ناجي بطبيعة الحال، وذلك من خلال ماكتبه أحمد عبد المعطي حجازي في كتابه «الشـعر رفيقي» وماكتبه الكاتب الكبير الدكتور جابر عصفور في كتابه «ذاكرة الشعر» وفي هذا السياق، يهمني أن أشير إلى أن أمل دنقل خلال جولاته الليلية كان يفضل أن تكون تلك الجولات بصحبة صديق واحد أو صديقين، وليس بصـحبة حشـد من الأصـدقاء، ومع وجود صـديق واحد يختاره أمل في جولاته الليلية كان يبدو مندمجا ومنسـجما بصـورة أكبر، وربما يرجع هذا إلى أنه كان يريد أن يزيح عن نفسه الإحساس بالوحشة في الليل من خلال الاندماج مع هذا الصديق أو ذاك، ومن باب الوفاء لذكرى شاعرين من شعراء الجيل الذي أسميته بالجيل المظلوم من قبل النقاد، وهما محمد الجيار و سعد درويش، لابد أن أشير إلى روابط الصداقة العميقة التي ربطت كلا منهما مع أمل دنقل، على الرغم من اختلافهما عنه في أسـلوب التعامل مع الحياة، لدرجة أن ماكان يثير دهشة محمد الجيار أو حب الا ستطلاع عند سعد درويش كان يدفع أمل دنقل إلى السـخرية والتهكم خلال الليل وأمام كل منهما دون مداراة أو موراراة، وفي المقابل فإن ما كان يتوقف عنده أمل دنقل متأملا كان يسـتدعي – في نفس الوقت – نظرات مشـبعة بالضـيق أو حتى بالتأفف، لكن الليل بمملكته المقدسـة كان الصديق المشترك للجميع، حيث يجعلهم مقتربين ومغتربين في آن واحد تحت سمائه.
ولعل من الطريف أن أذكر واقعة محددة، حين هاجم الكاتب الكبير رجاء النقاش أمل دنقل الذي كان قد نشـر قصـيدته «سـفر أ.د» حيث كتب رجاء النقاش مقالا في مجلة «المصور» بعنوان «أبيات حادة للشاعر أمل دنقل» فقد أبدى سعد درويش دهشته من عنوان القصيدة، ورأى – مداعبا وساخرا – أنه لم يبق أمام أمل سوى أن يعتنق المسيحية.. أما محمد الجيار فقد رأى أن ما كتبه رجاء النقاش ليس هجوما على أمل، وإنما هو تمجيد شـديد له، وقال لي وهو يشـير إلى عنوان المقال في «المصـور».. أهذا معقول؟.. انظر إلى اسـم أمل وهو مكتوب بهذا البنط العريض.. إن الاسـم يكاد يضـيء، كأنه لافتة ضـوئية على أحد المحلات الكبيرة.. لا.. لا.. هذا المقال ليس ضـد أمل.. وفي الليلة التالية اصطحبني أمل إلى الجيار بعد أن علم مني بتلك الواقعة، وقال له بصوت مرتفع: يا جيار.. سأطلب من رجاء النقاش أن يهاجمك مثلما هاجمني، فما كان من محمد الجيار إلا أن شعت من عينيه نظرات ضراعة، وهو يقول: ياريت!.. ياريت!..

٣ - لمحات خاطفة من حياة عاصفة

أعتز كثيرا بالصـداقات الجميلة التي جمعتني مع كثيرين من شـعرائنا العرب من أبناء مصر وأبناء سواها من شقيقاتها العربيات. ومن الطبيعي أن تتفاوت هذه الصداقات من حيث عمقها وطبيعتها، فمن هؤلاء من تعلمت منهم الكثير وأدين لهم بالفضـل، وأذكر في مقدمة هؤلاء الشـاعر الدكتور كمال نشـأت الذي كان أسـتاذي المباشـر الأول، كما أذكر الإنسـان النادر المثال أسـتاذي صـلاح عبد الصـبور، ومن هؤلاء من هم من أبناء جيلي، وأذكر هنا أمل دنقل ومحمد إبراهيم أبو سـنة وفاروق شـوشـة وبدر توفيق وأحمد سويلم ووفاء وجدي وعزيزة كاتو وفؤاد طمان وآخرين كثيرين، ومن هؤلاء، وهم القلة من الأصـدقاء، من ينتمون إلى الجيل اللاحق، ومنهم حلمي سـالم ورفعت سـلام وأحمد الشهاوي.

ولست أنوي الآن أن أكتب عما ربطني بأمل دنقل، وكيف انجذبت إليه، وكيف تبدو انطباعاتي الشخصية عن طبيعة شخصيته وعن حياتنا المشتركة تحت سقف واحد، وإلا لظللت أكتب وأكتب دون أن أحس أني قد فرغت مما أود أن أكتبه، ولهذا فإني سأعرض هنا بعض اللمحات الخاطفة من حياتنا المشتركة العاصفة.

قال أمل دنقل وكتب عن علاقته بأحمد عبد المعطي حجازي، معتبرا نفسـه تلميذا له، وفسر الدكتور جابر عصفور – فيما بعد – سر الروابط العميقة بين أمل دنقل وأحمد عبد المعطي حجازي. وفيما يتعلق بي فإني أحببت صلاح عبد الصبور بكل صدق وعمق، ومازلت أحبه ربما أعمق من ذي قبل، وهنا أود أن أشير إلى إشاعات عديدة كانت وربما ما زالت تتردد ، وهي أن صـلاح عبد الصـبور لم يكن يحب أمل دنقل ، فالواقع أن هذه الإشـاعات كاذبة، ومما يدل على مسـاندة صـلاح عبد الصـبور لأمل دنقل حكاية نشـر ديوان «البكاء بين يدي زرقاء اليمامة» فقد تراجع نزار قباني عن وعده لأمل بأن ينشـر ديوانه ضمن إصدارات «منشورات نزار قباني»، وهنا بادر صلاح عبد الصبور – بكل حب – لكي يوصـي الدكتور سـهيل إدريس بأن ينشـر الديوان ضـمن إصـدارات «دار الآداب» وهذا ما كان بالفعل، وحين صدر الديوان وتسلم أمل مجموعة من نسخ الهدايا أسـرع إلى صـلاح عبد الصـبور لكي يهديه نسـخة وعليها إهداء بخط يده «إلى الأسـتاذ صلاح عبد الصبور.. لولاه لضعت..» وأقول هنا: إن هذه النسخة المهداة لصلاح عبد الصبور موجودة ضمن مكتبتي.

روى لي أمل دنقل ذات مرة أنه قد دعي إلى وليمة غداء في بيت صلاح عبد الصبور، ضمن مجموعة من المدعوين والمدعوات، وأنه سمع بنفسه السيدة سميحة غالب وهي تهمس في أذن إحدى المدعوات: «هذا أمل دنقل.. تلميذ صلاح».. ووقتها قلت لأمل: وما ذنب صلاح عبد الصبور في هذا الأمر، إذا كان هو شخصيا يؤكد شفاهة وكتابة أنه ليس له تلاميذ؟ وأبدى أمل اقتناعه بما قلت.

اتفقنا – أمل وأنا – أن نقيم في سكن مشترك، وهذا ما كان، حيث استأجرنا شقة مفروشة متواضعة في البيت رقم ٤ بشارع عيسى حمدي سابقا – نجيب محفوظ الآن في حي العجوزة، ومع فرحتنا بأنا أصبحنا نقيم في شقة، أهملنا بعض الوقت زياراتنا الليلية المعتادة لمحمد الجيار الذي كان يقيم في شقة جميلة، تبدو أجواؤها رومانسية، في شارع الفريق عبود، والقريب جدا من شارع عيسى حمدي – نجيب محفوظ، فأخذ الجيار يتهمنا بالعقوق وعدم الوفاء، بينما أخذ سعد درويش يتندر علينا إلى أن عدنا من جديد لنلتقي في شقة محمد الجيار الذي طلب من أمل أن يسمعه إحدى قصائده الجديدة، وكانت قصيدة حادة، فعقد الجيار جبينه علامة على الدهشة، ووجه سؤالا غريبا، يشي بمدى رومانسيته، ومدى ابتعاده عن الواقع السياسي، حيث قال:«هي الموضة إيه دلوقتي يا أمل؟.. نمدح الحكومة.. ولا نهاجم الحكومة؟.. على العموم أنا أيضا كتبت قصيدة أهاجم فيها الحكومة!».. وقد ظللنا جميعا نطلق الضحكات المدوية بعد هذا السؤال، مما دفع الجيار إلى التهديد بإلغاء طعام العشاء إذا لم نتوقف عن الضحك، وسكتنا نحن بالطبع، لكي نلتهم ما لذ وطاب من يدي الجيار.

أشار كثيرون ممن كتبوا عن أمل دنقل إلى حكاية السكن المشترك، ومن هؤلاء الدكتور عبد العزيز المقالح والأخت الراحلة الكريمة عايدة الشريف، وأود الإشارة هنا إلى أنني لست الوحيد الذي أقام مع أمل في شقة مفروشة، فقد أقام أمل مع عدة أصدقاء شعراء لبعض الوقت.

ما يهمني أن أقوله إن صورة أمل دنقل داخل البيت تبدو مختلفة، بل مغايرة لصورته في الخارج، إذ أنه لم يكن بوهيميا على الإطلاق داخل البيت، وكان يرتب غرفته وينظفها على أجمل وجه، بل إنه كان في بعض الأحيان يؤنبني إذا لم يجد غرفتي مرتبة على الوجه الأمثل، كما أنه كان يتعاون معي في الأمور المنزلية كافة، وكان صديقنا الجميل المشترك نصار عبد الله ينطلق لزيارتنا بانتظام، وبمجرد قدومه كان أمل ينبهني أن نصار لم يأت معه بـــ«زيارة» أي كيس فواكه، وهنا نصر – أمل وأنا – على ضرورة خروج نصار مرة ثانية ليشـــتري الفاكهة التي نحددها له، وبعد الحفاوة تبدأ قراءات أي منا لما لديه من جديد، وأذكر أن أمل دنقل قد طالبني بضرورة قراءة محمد الماغوط قراءة متأنية لا متعجلة، ويا ليته ما فعل، لأني اكتشفت أنه قد تأثر به تأثرا واضحا في إحدى قصائده، وفيما بعد كتب رجاء النقاش عن هذه القضـــية. وإلى جانب زيارات د. نصـــار عبد الله لنا، كان لكل منا أصدقاء مشتركون، وأصدقاء غير مشتركين، فالذين يميلون إلى الرومانسية بشكل واضح لم يكونوا يتآلفون مع أمل، ومن ناحيتي فإني لم أكن أندمج مع الذين يميلون إلى الانتقاد الحاد.

كان أمل يســتجيب للنقد الموجه إلى شــعره، إذا أحس أن من ينقدونه يصـــدرون في نقدهم عن نيات حســـنة وطيبة، وأتذكر أن كلا من ســعد درويش ومحمد الجيار ظلا يتهكمان على سطر شعري ورد في إحدى قصائده التي كان قد نشرها في مجلة «المجلة» في ظل رئاسة أستاذنا يحيى حقي لتحريرها، وهذا السطر هو:

أبول في الحفرة

وفيما بعد، حذف أمل هذا السـطر عندما ضــم تلك القصـيدة إلى ديوانه الثاني «تعليق على ما حدث».

اشتملت إحدى قصائد أمل على تضمين لسطر شعري من قصيدة للشاعر عبد المنعم عواد يوسف، وعلى الرغم من أن أمل قد وضع السطر ضمن قوسين، فإن عبد المنعم عواد يوسف ظل يتحدث مرارا عن تضمين أمل لأحد سطوره الشعرية الشهيرة، وهو:

وكما يموت الناس مات

وقرر أمل أن يحذف هذا السطر تماما من قصيدته، عندما صدر ديوانه الأول، وقال لي: يستطيع صديقك عبد المنعم أن يستريح الآن!

في أمسية شعرية أقيمت بدار الأدباء خلال نوفمبر أو ديسمبر ١٩٧٤ على ما أذكر، وكانت أمسية مخصصة لتأبين عميد الأدب العربي طه حسين، ألقى أمل دنقل قصيدته العمودية «لا أبكيه» وألقيت أنا قصيدتي «الفارس الذي رحل» وقد تضمنت انتقادات حادة وواضحة للبهلوانيات السياسية التي انتهجها الرجل الذي حكم مصر بعد غياب الزعيم جمال عبد الناصر، وكان من بين حضور الأمسية يوسف السباعي، وكان وقتها وزيرا للثقافة، وأستاذتي الجليلة الدكتورة سهير القلماوي، وقد انسحب الوزير غاضبا احتجاجا على ما تضمنته قصيدتي، بينما وبختني أستاذتي، وتقبلت توبيخها دون أن أرد ولو بحرف واحد، ولكني فوجئت بأمل دنقل وملك عبد العزيز يشدان من أزري، بل إن أمل أخذ يشيد بقصيدتي أمام الحاضرين الذين تجمعوا حولنا عند مدخل «دار الأدباء».

وإذا كان من الممكن اعتبار قصيدة «لا أبكيه» لأمل وقصيدتي «الفارس الذي رحل» أقرب إلى الشعر السياسي، فإن هناك قصائد عاطفية لأمل ولي، أما الحبيبة فقد كانت واحدة، ولست أود أن أشير إليها في هذا المقام، خصوصا وأني ما زلت أعتز بصداقتها الطويلة، ولكني أود الإشارة إلى إحدى الليالي التي عاد فيها أمل إلى الشقة المفروشة المشتركة، وفتح الباب ليدخل، وقد بدا حزينا وثملا في آن واحد، وقال لي، وكان معي الصديق فتحي عبد الحافظ: «لقد انتهت الحكاية التي تعرفها».. ودون مقدمات أخرج أمل من جيب الجاكيت أوراقا، وجلس ليقرأ قصيدة جديدة.

كأسك!..

حان موعد الإغلاق

لم تبق إلا قطرة أخيرة

كأسك!.. لن تعيدها الأشواق

إذا كانت قصيدة «الكعكة الحجرية» لأمل قد تسببت في إغلاق مجلة « سنابل» وهي – كما نعرف – قصيدة سياسية، فإن القصيدة العاطفية التي أوردت خاتمتها، وهي بعنوان «فصل من قصة حب» كانت قد تسببت في حرج بالغ لرئيس تحرير مجلة «الإذاعة والتلفزيون» – سعيد عثمان وقتها – لأن هذه المجلة يفترض فيها أنها حكومية، وأنها لابد أن تتسم بالوقار، ومع هذا فإنها نشرت قصيدة أمل التي يقول في بداياتها:

لها حقيبة مدلاة ، وشعر غجري

(عرفت عنها القصص الكثيرة)

على أريكة القطار

ضاجعها اثنان

وخلف ساتر الغارات في الميدان.. في الظهيرة

وضاجعتها امرأة على البلاج الذهبي

وجسمها الخارج من محارة البحر مندى باللآلئ الصغيرة

أشدت وما زلت إلى اليوم أشيد بأمل – الإنسان وأمل – الشاعر، لكني أذكر أني قد هاجمته بقدر من القسوة على صفحات مجلة«الإذاعة والتلفزيون» بعد أن أهداني ديوان «مقتل القمر» فقد اعتبرت صدوره نكسة شعرية، لكن أمل لم يغضب على الإطلاق، بل إنه دعاني إلى الغداء في مقهى ريش، وتناقشنا أثناء الطعام، حيث أكدت له أن «مقتل القمر» كان لابد أن تتصدره مقدمة نثرية، تبرر صدوره متأخرا، رغم أنه يضم قصائد مبكرة، وربما لا يعلم كثيرون أن هذا الديوان قد ترجم – فيما بعد – إلى اللغة الإسبانية، حيث قام بترجمة قصائده المستعرب الجليل الدكتور بدرو مارتينيث مونتابث و شاركته في ترجمة بعض القصائد تلميذته الدكتورة كارمن رويث برافو، وإني أعتز بأن مكتبتي تضم نسخة من «مقتل القمر» بالإسبانية، رغم أني لا أعرف منها سوى كلمات التحية في اللقاء وفي الوداع!

حين زرت أمل في المستشفى بصحبة د. علوي الهاشمي سنة ١٩٨٣ نسيت أن آتي له معي بنسخة من ديوانه الذي صدر في ليبيا سنة ١٩٧٨ وليس سنة ١٩٧٤، وهو يضم قصائد مختارة وعنوانه «أحاديث في غرفة مغلقة» وقد عاتبني أمل على هذا النسيان، فوعدته بأن أرسل له تلك النسخة، لكن هذا ما لم يحدث ولن يحدث، لأن أمل – الجسد كان قد غاب بعد زيارتي له بأشهر قلائل.

قد لا يعلم كثيرون أن لأمل دنقل قصيدة منشورة سنة ١٩٦٢ بعنوان «قالت» وهي قصيدة من مقطوعتين متقابلتين أو متضادتين، وما تزال هذه القصيدة غير موجودة ضمن أعماله الشعرية الكاملة، وأعتقد أن من واجبي أن أقدم نصها في ذكراه الحية والمتجددة، مع مراعاة أنها من القصائد المبكرة، وإن كانت تحمل في ثناياها بذور التضاد والتقابل التي نراها بصورة ناضجة ورائعة في روائع أمثل.

قالت: تعال إلي.. واصعد ذلك الدرج الصغير

قلت: الحياة تغلني.. والخطو مضني لا يسير

مهما بلغت.. فلست أبلغ ما بلغت من المسير

درج صغير.. غير أن طريقه.. للامصير

فدعى مكاني للأسي.. ودعي مكانك في الحبور

فالعمر أقصبر من طموحي.. والأماني لن تموت

***

قالت: سأهبط، قلت: ذاك سدى إن تنزلي لي

قالت: سأهبط، قلت: دربك لولبي المستحيل

ما نحن ملتقيان.. رغم توحد الأمل الظليل

.. نزلت تدق على السكون كقلب ناقوس ثقيل

وعيوننا متشابكات في أسى الماضي الطويل

تخطو إلي.. وخطوها ما ضل يوما عن سبيلي

وبكى العناق وأجهشت في ديرنا نار الصموت

قبل أن أتوجه للمرة الأولى إلى قطر للعمل في جريدة «الراية» ابتداء من ٦ أبريل سنة ١٩٧٩ كان لي لقاء مطول مع أمل، وقد ظللنا نتمشى في شوارع القاهرة دون أن نشعر بالإرهاق، وحين وصلنا إلى شارع نوبار أمسك أمل ذراعي، وأخذ يقرأ من الذاكرة رائعته الخالدة «لا تصالح» وأخذت قشعريرة النشوة بالشعر الساحر تسري في وجداني وأنا أستمع إلى هذه القصيدة التي لم تكن قد اكتملت تماما، فطلبت منه أن يسمعني إياها مرة ثانية، وهنا اشترط علي أن «أرشوه» بكوب من الشاي، وهكذا انطلقنا إلى مقهى في ميدان السيدة زينب. وخلال سنة ١٩٨٤ أهداني أحد أصدقائي اليمنيين شريط كاسيت، وفيه يلقي أمل «لا تصالح» في بيروت احتفالا بالذكرى السادسة عشرة لانطلاق الثورة الفلسطينية، ويضم الشريط قصيدة لسعدي يوسف وقصيدة «بيروت» لمحمود درويش.

الكتابة عن صديق رائع وشاعر كبير أمر مرهق وممتع في آن واحد، وقد آن لي أن أتوقف حتى لا أطيل أكثر مما أطلت، ولكني لن أبتعد عن أمل، بل سأشرع حالا في الاستماع إلى «لا تصالح» بصوته:

لا تصالح.. ولو منحوك الذهب

أترى.. حين أفقأ عينيك..

ثم أثبت جوهرتين مكانهما

هل ترى؟

هي أشياء لا تشترى



صلاح الدين حافظ
والتجربة التي زلزلت أعماقه

لأبي البقاء الرندي -الأندلسـي قصـيدة شـهيرة في رثاء الأندلس، قبل طرد العرب والمسلمين منها بما يقرب من قرن كامل من الزمان، لكن حدس الشاعر دفعه لأن يتنبأ بما جرى وكأنه كان يقرأ ما في الغيب، ومما قاله أبو البقاء الرندي هذا البيت المؤثر الذي يجري مجرى الحكمة الخالدة

هي الأمور، كما عاينتها، دولٌ

مَنْ ســرَّه زمنٌ ســاءته أزمانُ

وإذا كان الكائن البشـري يتعرض -على امتداد حياته- لتجارب مختلفة، منها ما يبهجه ومنها ما يُدمي قلبه ويزلزل كيانه، فإني أتصـور أن تجربة فقد الأب للابن هي من أقسـى التجارب الإنسـانية، ومن أشـدها إيلاماً للنفس، فالمنطق المعتاد في الحياة أن يرحل الكبير قبل الصـغير، لا أن يرحل الصـغير قبل الكبير، فكيف إذا كان الصـغير ابنا غاليا يقصيه عن الحياة موت مفاجىء أو حادث مروع؟

لم أكن أعلم أن الصـديق الجميل الكاتب الكبير صـلاح الدين حافظ قد فقد ابنه إيهاب نتيجة لموت مفاجىء، إلا بعد أن أخبرني عميد الصـحافة القطرية الأسـتاذ ناصـر محمد العثمان بهذا النبأ الفاجع والموجع منذ فترة قريبة، ومنذ أن علمت أدركت مدى عنف الزلزال الذي يواجهه صـلاح الدين حافظ، وتمنيت من أعماق القلب أن يصـمد عاشـق الحياة في وجه هذا الزلزال رغم قوته وقسـوته، فهذا ما كان قد جرى مع صديق عزيز آخر هو الأستاذ مصطفى لبيب الذي كان قد فقد ابنه أحمد لكنه برغم كل الأحزان، اسـتطاع أن يصـمد، حتى وإن تغير عنده مذاق الحياة، لكن ما كنت أتمناه لم يتحقق، وهكذا رحل عن عالمنا – يوم ١٦ نوفمبر ٢٠٠٨- صـلاح الدين حافظ بعد أن زهَّده غياب ابنه إيهاب في الحياة كلها.

أصـدقاء كثيرون ممن أتيح لهم أن يلتقوا مع صـلاح الدين حافظ رغم محاولاته للانكفاء على الذات بعدغياب إيهاب أخبروني أنه كان يردد أبياتا من إحدى قصائد ابن

الرومي في رثاء الإبن، وأنا – شخصياً– تذكرت هذه القصيدة عندما أخبرني الأ ستاذ ناصر محمد العثمان برحيل الابن إيهاب ولوعة الأب الحنون صلاح الدين حافظ، وها أنذا أعود الآن إلى ابن الرومي، وكأني أحاول أن أخفف من حزني المضـاعف على الابن والأب معا، حيث يقول الشاعر العباسي ضمن أبيات مرثيته الرائعة لابنه

طواه الردى عني فأضـحى مزاره

بعيداً على قرب قريبا على بعد

لقد أنجزتْ فيه المنايا وعيدها

وأخلفت الآمالُ ما كان من وعدِ

لقد قلَّ بين المهد واللحد لبثه

فلم ينسَ عهد المهد إذ ضُـمَّ في اللحدِ

بـودَّي أني كـنـت قَـدْ مـتُّ قـبـلـه

وأن المنايا دونه صـمدت صـمدي

ولكنَّ ربي شـاء غير مشـيئتي

وللربّ إمضـاء المشـيئة لا العبد

أعترف الآن بأني لسـت قادراً علي جمع شـتات خواطري، لكن أقرب هذه الخواطر يعود إلى سـنة ١٩٨١، حيث تسـلم صـلاح الدين حافظ مهام وأعباء مدير تحرير الراية اعتبارا من يوم ١٠ مايو سنة ١٩٨١ أي بعد سنتين بالضبط من صدور العدد الأول من الراية – ١٠ مايو ١٩٧٩ – وهكذا أ صبح صلاح الدين حافظ ثاني مدير لتحرير الراية، بعد مدير التحرير المؤسـس الكاتب الكبير رجاء النقاش، أما رئيس التحرير المؤسـس فكان الأ ستاذ نا صر محمد العثمان الذي ربطته صداقة عميقة لم تنقطع جذورها أبدا مع صلاح الدين حافظ الذي ظل يعمل – بكل إخلاص وتفانٍ ومثابرة – حتى يوم ٣٠ أبريل سـنة ١٩٨٥، حيث اسـتقال من الراية وعاد من جديد إلى جريدة الأهرام – بيته الدافئ الأول.

مما أتذكره الآن أن صـلاح الدين حافظ كان يكتب عمودا يوميا في جريدة الراية بعنوان «مغزى الأحداث» وقد ظل مثابرا على كتابته طيلة عمله مديرا لتحرير الراية، ولم يكن يعتذر عن عدم كتابته إلا لأسباب قهرية واضطرارية، منها ما قد يلم بالإنسان من مرض، ومنها ما يتعلق بالسفر في مهمات صحفية مطولة، وأسلوب صلاح الدين حافظ أسلوب يتميز بالبساطة والعمق والجمال، وليس فيه تقعر أو تحذلق، وكان يأتي إلى مبنى الراية في المنطقة الصناعية – وقتها – في السادسة من مساء كل يوم، وبعد أن يحيينا في الصالة الكبيرة التي كانت تضم مختلف أقسام الراية، كان يتوجه الى مكتبه لفترة لا تتجاوز ثلث ساعة، يعود بعدها إلينا، حاملاً عمود مغزى الأحداث ولأنه كان محبا للشعر وعاشقا لفن القصة القصيرة، فإنه كان يحرص على أن يختتم هذا العمود ببيت شعر يعكس أجواء الموضوع الذي تناوله أو بكلمة بليغة فيها من الحكمة ما فيها، وفيها من المغزى ما يظل ماثلا أمام قارئه الذي كان يترقب هذا العمود بكل شغف مع إطلالة كل صباح.

هكذا قدر لقدامى أسرة تحرير الراية أن يتفاعلوا على امتداد سنوات مع صلاح الدين حافظ، لكنني كنت الوحيد الذي عرفته عن قرب قبل مجيئه الى قطر، وتسلمه أعباء مهمة مدير تحرير الراية، فقد كان يحرص على حضور الندوات التي كان يعقدها – في بيته الرحب – الكاتب الكبير فاروق خورشيد، حيث يتآلف الأصدقاء الكبار، ومنهم صلاح عبدالصبور والدكتور عبدالغفار مكاوي والدكتور حسين نصار والدكتور شكري محمد عياد وسواهم من أعضاء الجمعية الأدبية المصرية في ذلك الوقت.

لصلاح الدين حافظ كتب مهمة عديدة، من بينها عرب بلا غضب و تهافت السلام – المصير العربي في ظل الهيمنة الإسرائيلية وكراهية تحت الجلد – إسرائيل عقدة العلاقات العربية الأمريكية وحرية الصحافة وبالطبع فإن هذه الكتب العديدة تتطلب وقفة متأنية ومتمهلة أمامها وليس هذا أوانها الآن، لكن ما أود أن أختم به هذه السطور الحزينة هو القول – دون أي تردد – أن الكاتب الكبير صلاح الدين حافظ ظل مدافعاً صلبا على امتداد حياته الصحفية والفكرية عن شرف الكلمة وعن حرية الرأي حتى النهاية، وقد واجه كثيرا من المتاعب والمضايقات، من بينها منع نشر بعض مقالاته

في الأهرام ذاتها، لأنه رفض تماما أن يغير جلده كما فعل كثيرون، وظل وجهه العربي مشرقا كما ظل قلبه مؤمنا بأن الآتي سيكون أفضل من الحاضر.

صلاح الدين حافظ.. لا أقول: وداعا.. كيف أقولها وأنت في القلب؟!.



رحلة حب مع رجاء النقاش
قبل عودته إلى القاهرة

قبل مغادرته الدوحة، عائدا إلى القاهرة، رفض رجاء النقاش عروض أصدقائه ومحبيه الكثيرين بأن يقيموا له حفلات تكريم، تقديرا لما بذله من جهد وعطاء.. كان رفضه نبيلا وجميلا، اقتنع به أصدقاؤه ومحبوه اقتناعا عقليا. لكنهم لم يقتنعوا به وجدانيا، فقد أكد الكاتب والناقد الكبير أن ما بذله من جهد وعطاء في هذه الأرض الطيبة هو واجبه الذي يتحتم أن يؤديه بصدق وبإخلاص، وأن تأدية الواجب لا تتطلب إقامة حفلات تكريم، وأن شأنه في هذا شأن كل مواطن عربي يؤدي واجبه وفقا لإمكانياته وموقعه تجاه أمته العربية، في سبيل الارتقاء بها للحاق بركب العصر الذي نحيا في إطاره.

وكما رفض رجاء النقاش عروض أصدقائه ومحبيه الكثيرين، فإنه رفض كذلك إجراء أحاديث صحفية معه قبل عودته إلى القاهرة، مؤكدا أن صلاته الروحية مع أبناء هذا الجزء العزيز من أجزاء الوطن العربي.. قطر.. أوثق وأعمق من أن يغيرها السفر.. لقد كانت هذه الصلات الروحية قائمة وباقية في القرب، وستظل كذلك في البعد، بل إنها ربما تزداد عمقا، لأن البعد يخلق أحاسيس الشوق والوجد.

لا أفخر بصداقتي الطويلة لرجاء النقاش، لمجرد أنه صديق أثير، ولا أحس بانتمائي الصادق تجاهه لمجرد أنه كاتب وناقد كبير.. إنني أفخر به وأنتمي له،لأنه واحد من القلائل الذين تعلمت منهم الكثير... وكان مما تعلمته منه أن الكاتب العربي – مهما يكن مستوى موهبته ومهما يكن حجمه – عليه دين كبير، ينبغي أن يؤديه لأمته العربية التي ينتمي إليها، ويطيب لي هنا أن أذكر القراء الأعزاء بأن رجاء النقاش – قبل أن يأتي للدوحة منذ سبع سنوات – خاض في مصر معركة فكرية هامة، وكانت نتيجة المعركة كما أثبتت الأيام فيما بعد لصالحه تماما.. لقد أشهر سيفه الواثق.. سيف القلم في وجوه من نادوا بأن مصر فرعونية، وفي وجوه من رأوا أن تكون مصر العربية محايدة في العالم العربي!!.. في أعقاب «كامب ديفيد» ظهرت أصوات تنادي بهذا،وكان لابد من التصدي لها، خاصة أنها أصوات لكتاب كبار مرموقين، لهم تأثيرهم ولهم ثقلهم.. وكان من بين هذه الأصوات توفيق الحكيم، د. حسين فوزي، د. لويس عوض.

أ شهر رجاء النقاش سيفه الواثق ضد كتابات هذه الوجوه داخل مصر نفسها وليس خارجها.. ويستطيع القراء أن يتعرفوا على هذه المعركة الفكرية الهامة التي تتعلق بأمر قومي مصيري، من خلال كتابه «الانعزاليون في مصر» وهو الكتاب الذي يضم مقالات رجاء النقاش ضد ما ادعته تلك الأصوات.

يقول رجاء النقاش: «... المصريون لا يمكن أن يكونوا أبدا مثل الهنود الحمر، هؤلاء الذين وجدوا سعادتهم في العزلة والابتعاد عما يجري في العالم، قانعين بالنعيم الذي كانوا يعيشون فيه، فانتهى أمرهم بهجوم حضاري عنيف،هب عليهم كالصاعقة من أوروبا، فاقتلعهم من أرضهم وأحل محلهم شعوبا جديدة، ذلك موقف لا يمكن أن يحمي زرعا ولا ثمرا ولا بشرا، ولا يمكن أن يؤدي إلى نتائج حضارية سليمة، والتاريخ واضح أمامنا كل الوضوح، فإما أن تنتمي مصر وتعرف مكانها ورسالتها ودورها الكبير، وإما أن تنطوي وتنعزل فتضع نفسها في طريق مسدود ليس بعده إلا الضياع». [ص١٩٠ – من «الانعزاليون في مصر»]. وقد أثبتت السنوات التي تلت هذه المعركة الفكرية الهامة التي خاضها رجاء النقاش أن الشعب العربي في مصر قد اختار الطريق الأول.. طريقه الحقيقي.. طريق أن تنتمي مصر وتعرف مكانها ورسالتها ودورها الكبير.

وأعود بالذاكرة إلى الوراء.. أعود لأكثر من عشرين سنة، لأرى كل التفاصيل حية تكاد تنطق وتتحرك أمامي.. عرفت الكاتب والناقد الكبير رجاء النقاش، منذ أن كان القلب صبيا، ولم تكن النصال قد تكسرت على النصال فيه.. كنت – وقتها – في بداية حياتي الجامعية طالبا بقسم اللغة العربية بكلية آداب القاهرة.. عندما طلب مني أحمد بهجت أن أتوجه للقاء رجاء النقاش في مكتبه بدار الهلال.. حسبت لذلك اللقاء ألف حساب، فأنا مطالب بأن أتوجه لمن أتابع مع كل زملائي في الدراسة مقالاته النقدية والفكرية بكل الشغف والتلهف.. وحينما تم اللقاء الذي كلفني خلاله بأن أجمع مجموعة مقالات لأحد كبار الكتاب كي تصدر في «كتاب الهلال» أحسست بأن رهبتي لم تكن في محلها، إذ لمست الشفافية والعذوبة والرغبة المتحمسة في مساندة الأدباء الشبان، وتقديم يد العون لهم وهم يشقون طريقهم وسط الزحام الأدبي الهائل الذي تتصارع فيه الأجيال، ويرفض فيه الجيل القديم إتاحة الفرصة لظهور أجيال جديدة... وحينما تم اللقاء ذهبت إلى زملائي في الجامعة في اليوم التالي مفاخرا ومباهيا بأنني التقيت بالكاتب والناقد الكبير الذي نتابع مقالاته بكل الشغف والتلهف.

لم يكن رجاء النقاش يضــن على أحد من أبناء جيلي بمد يد المســاعدة له وســط الزحام الأدبي الهائل.. حتى الذين اشتهروا بالشراسة والذين لم يسلم منهم.. كان كريما معهم.. كان ينشر قصائدهم أو قصصهم القصيرة أو مقالاتهم النقدية في المجلات التي يرأس تحريرها، وكان يتحمس لهم عند النا شرين في لبنان لكي يتـ سنى لهؤلاء الأدباء الجدد وقتها أن يقدموا أصواتهم الجديدة ويفرضوا وجودهم الأدبي.. وكان مثله الأعلى في مديد المساندة للأجيال الجديدة يتمثل في ناقدين كبيرين راحلين: د. محمد مندور، وأنور المعداوي.

ومنذ أن كانت حركة الشــعر الحر في وطننا العربي تخوض معاركها لتثبيت أقدامها على الســاحة الأدبية العربية في الخمســينيات دخل رجاء النقاش هذه المعارك، وتبقى مقدمته الرائعة المســتفيضــة لديوان أحمد عبد المعطي حجازي،مدينة بلا قلب، والتي كتبها من العلامات النقدية المتميزة.

يقول رجاء النقاش: «.. إن أحمد عبد المعطي حجازي واحد من أبناء المدرســة الحديثة في الـ شعر.. إنه ليس مبتكر هذه الطريقة الفنية الجديدة، فهذه الطريقة في حقيقتها هي أســلوب صــنعه كفاح أكثر من جيل واحد. حيث كان الجميع يبحثون عن أســلم طرائق الأداء الفني للتعبير عما في نفوسهم من أشياء جديدة...». [ص٥٧ من المقدمة].. ولم يكن رجاء النقاش في تحمسه للشعر الحر ممن يتصورون أن هذا الشكل الفني لابد أن يلغي تماما دور القصــيدة العربية على النحو المتوارث الذي نعرفه جميعا مثلما كانت تدعو نازك الملائكة وقتها.. إنه يقول عن الشكل الفني الجديد «... إن هذا الشكل سيصبح الشكل الرئيسي للشعر العربي خلال مدة طويلة لما فيه من عناصر تجعله أكثر استيعابا لروح عـ صرنا من الـ شكل القديم، على أن الفكرة التي كانت ترى أن الـ شكل الجديد معناه القـ ضاء المطلق على الـ شكل القديم الـ شعري.. هذه الفكرة لم تعد صحيحة ولا صائبة، إن الـ شكل الجديد لا يمنع بقاء الشــكل القديم، بل إننا نجد أن القصــيدة الجديدة تلجأ أحيانا إلى الاستعانة في بنائها بالشكل القديم». [ص٧٦ من المقدمة].

ولم تمنع خصــومة الراحل الكبير عباس محمود العقاد للحركة الأدبية الحديثة من أن يكتب عنه رجاء النقاش كتابا نقديا هاما، اعتمد فيه روح الموضــوعية التي تســلح فيها بالإنصاف.. فبين ما للعقاد وما عليه من خلال كتاباته السياسية التي لم يهتم أحد بجمعها ولم يهتم العقاد نفسه خلال حياته بجمعها، وهاهو رجاء النقاش يعلق في كتابه على عدم جمع

كتابات العقاد السياسية قائلا: «... لقد كان يسيطر على نفسي إحساس كبير وأنا أقوم بإعداد هذه الدراسة.. هذا الإحساس هو أن الكاتب لا يمكن أن يفلت من كلمة كتبها وتركها وراءه.. إن ما كتبه الكاتب في أية لحظة من لحظات حياته هو قيد عليه، وصوت يقف دائما ليحاسبه أو يدافع عنه... ومن هنا فإن الكتابة مسؤولية وعبء وضمير.. ولا يجوز للكاتب أن يتصور يوما أن ذاكرة الناس سوف تنسى بعض ما كتبه أو سوف تنظر إليه بغير اهتمام.. إن الكتابة ليس مياها تتبخر بمرور الأيام، وليست دخانا يتبدد في الهواء... كل كلمة تطارد كاتبها وتمسك بخناقه وتجري وراءه، وتطالب بالحساب الصحيح والجزاء العادل...». [ص١٠-١١ من كتاب «عباس محمود العقاد بين اليمين واليسار»].

وبطبيعة الحال فإن الكاتب والناقد الكبير رجاء النقاش - بحكم توجهه العربي العميق - لم يهتم فحسب بأدباء وشعراء القطر العربي الذي ينتمي إليه، فله دراسات عديدة وكثيرة عن شعراء وأدباء عرب من أقطار عربية أخرى غير مصر.. لعل أقدم كتبه في هذا المجال أن يكون كتاب «أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة» - من تونس.. كما أنه كان أول من بشر بالطيب الصالح - من السودان باعتباره كاتبا روائيا كبيرا، حيث كتب يقول إن «الطيب صالح عبقرية روائية جديدة» [راجع كتاب «أدباء معاصرون» ص١٠٠ وما بعدها]. كما كتب عن بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي ونازك الملائكة من العراق.. وكتب أهم دراسة عن محمود درويش وزملائه من شعراء المقاومة الفلسطينية الذين احتضن عطاءهم الشعري وقدمهم للقراء العرب أجمعين، فضلا عن دراسته الكبيرة التي خصصها لفدوى طوقان - من فلسطين، وأسماها «صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر».



مع رجاء النقاش في رحلة حب جديدة

شـــارعان من شـــوارع حي المهندســـين بالقاهرة، كنت أحس بالنشـــوة تغمرني، وأنا أنطلق إليهما.. الشـــارع الأول شـــارع شـــهاب، حيث يقع بيت أســـتاذي الشـــاعر العظيم صلاح عبد الصبور، والشارع الثاني شارع الصفا، حيث يقع بيت أستاذي الكاتب الكبير رجاء النقاش..

كان هذا خلال منتصف الستينيات وأواخر السبعينيات من القرن العشرين الغارب.. في هذين البيتين أتيح لي أن أنعم بصـــفاء المحبة، وأن ألتقي مع كثيرين من الأدباء والشعراء والفنانين العرب وغير العرب الذين كانوا يزورون مصر، أو يقيمون في أرضها الطيبة.

كان صلاح عبد الصبور يحب أن يناديني بـ «يا ابني».. وكنت دائما أرفض، مؤكدا أنه أخي وليس أبي، وكان رجاء النقاش يناديني بـــــ «يا أخي» وكنت أفرح بهذا النداء، فقد كنت فعلا أخا محبا له، وكان أفراد أســـرته الكريمة وإخوته يتعاملون معي على هذا الأســـاس.. أخ واحد له لم ألتق معه نهائيا، لأنه يقيم في الولايات المتحدة منذ أكثر من أربعين ســـنة، ويعمل هناك في مجال الإخراج الســـينمائي هو عطاء.. أما أخوه وحيد النقاش فقد عرفته وأحببته في بدايات تكويني، وكان كاتبا ومترجما وإنســـانا رائعا، ومن ترجماته المعروفة رواية «صـــمت البحر» للكاتب الفرنســـي فيركور، وفيها صـــور بطولية للمقاومة الفرنســـية ضـــد الاحتلال النازي خلال الحرب العالمية الثانية، وكذلك مســـرحية يرما الشـعرية للشـاعر الأسـباني العظيم فيديريكو جارثيا لوركا، وكان وحيد النقاش ينقح لي قصـــائدي المبكرة بكل رقة وحنو، وبكل أســـف فإن الموت اختطفه قبل أن يناقش رســـالة الدكتوراه من جامعة السوربون الشهيرة بباريس بأسبوع واحد، وأما فكري النقاش فهو تقريبا في مثل عمري، متعه الله بالصـــحة والعافية، وأما بهاء النقاش فقد كان شـــابا رائعا ومعيدا في معهد الســـينما بالقاهرة، لكن الموت اختطفه كذلك ســـنة ١٩٨٦م على ما أذكر في حادثة مروعة على طريق مصر الاسكندرية الصحراوي، وأما الأصغر عاصم النقاش فإنه إنسان رقيق محب للفن وللحياة، وتبقى الأختان فريدة النقاش الكبيرة، وأمينة النقاش الصـــغيرة، وهما مشاكستان ومتمردتان ضد كل ما يعوق حركة التقدم في مصر وفي شقيقاتها العربيات،

وكلتاهما في حزب التجمع التقدمي الوحدوي، وقد تعرضتا للاعتقال وللسجن مرات عديدة في عصر من حكم مصر بعد غياب الزعيم العربي الخالد جمال عبد الناصر.

في مركز أجا بمحافظة الدقهلية الشهيرة بما أنجبته من سياسيين مرموقين، من شيوعيين ومن إخوان مسلمين على حد سواء، وبما أهدته للعرب أجمعين متمثلا في خالدة الصوت أم كلثوم.. في هذا المركز مركز أجا ولد الطفل محمد رجاء عبد المؤمن النقاش يوم ٣ سبتمبر أيلول سنة ١٩٣٤، وكان أبوه عبد المؤمن النقاش شاعرا أ صيلا يميل إلى الكلا سيكية في معظم الأحيان ويجنح إلى الروماذ سية أحيانا، وكان واحدا ممن يقتنون مجلة الرسالة الأسبوعية الشهيرة التي كانت قد بدأت صدورها قبل ميلاد ابنه بنحو سنتين لا أكثر.

من القرية ومن حياة الريف، انطلق الشاب العاشق للأدب والفن محمد رجاء عبد المؤمن النقاش إلى القاهرة بكل أضوائها وضوضائها، حيث تخرج من قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٥٦م فكان له شرف أن يكون أحد أساتذته هو عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، ولكن الطالب الجامعي رجاء النقاش لم يكن من أبناء الموسرين والأثرياء، ولهذا تكفل بإعالة نفسه خلال سنوات الدراسة، وهو أمر دفعه لأن يعمل في الصحافة، وهو ما يزال يتلقى العلم في الجامعة حيث عمل محررا أدبيا في مجلة روز اليو سف واحتضنه وقتها إحسان عبد القدوس، وبعد تخرجه من الجامعة، تنقل ما بين أخبار اليوم والجمهورية وكانت مقالاته الأدبية والنقدية تبهر أبناء جيلي بجمال أسلوبها وطلاوته وحلاوته، وبفضل هذا الأسلوب البعيد تماما عن التقعر والتكلف، تحققت لرجاء النقاش شهرة واسعة، وهو ما يزال شابا، يناطح الكبار من الأدباء، ويزاحمهم، ولأن الساحة الأدبية والثقافية وقتها لم تكن ساحة ضغائن وأحقاد، كما هي الحال الآن في معظم الأحيان، فإن الكبار الذين زاحمهم رجاء النقاش أحبوه واحتضنوه ورعوا موهبته الصاعدة خير رعاية، وكان من هؤلاء ناقدان كبيران هما الدكتور محمد مندور والأستاذ أنور المعداوي.

ما سر جمال أ سلوب رجاء النقاش؟.. الـ سر يكمن بـ ساطة – في أنه من أبناء جيل عربي عاشــق للمعرفة ومحب للقراءة، الآن لدينا كتاب كثيرون لا يقرؤون.. وربما كانوا يعرفون أســماء أدباء عالميين وعرب، لكنهم يكتفون من المعرفة بالأســماء لا أكثر ولا أقل. حين نسأل رجاء النقاش عن الينابيع الثقافية والأدبية التي استقى منها ما استقى، والتي أسهمت في تشكيل أسلوبه الجميل الصافي، فإنه لا يتردد في القول إن هذه الينابيع تترقرق على صفحات مجلة الر سالة التي أ شرت إليها، والتي كان يـصدرها الكاتب الكبير أحمد حـسن الزيات من سنة ١٩٣٢م حتى سنة ١٩٥٢م، فعلى صفحات هذه المجلة الرائعة والعريقة، كانت تتلاقى أقلام طه حســين وعباس محمود العقاد وإبراهيم المازني وتوفيق الحكيم وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمود حســن إســماعيل وعبد الرحمن الخميســي وســهير القلماوي و شوقي ضيف وعبد القادر القط و سواهم، وكان رجاء النقاش يتأمل أ ساليب هؤلاء جميعا، ويتذوق منها ما يتذوق وقد يقترب من أحدهم ويبتعد عن سواه.

لكن جمال الأسلوب وحده ليس المؤهل الوحيد لكي يكون الإنسان كاتبا مرموقا، إذ لابد من المعرفة التي ينبغي ألا تكون محصورة ومقصورة على مجال معين، وإنما يجب أن تكون معرفة موســوعية شــاملة في الفلســفة وفي التاريخ والاجتماع والسياســة وعلم النفس والدين، بل في الأديان المقارنة، وهذا كله لم يجعل رجاء النقاش مجرد كاتب من ذوي الأســاليب الســاحرة، وإنما أكســبه عمقا في النظرة وفي التحليل، وأبعده تماما عن مزالق التسطيح والفبركة وتشهد مكتبته الشخصية الهائلة التي خصص لها طابقا كاملا في بيته الجديد بحدائق الأهرام على عمق قراءاته وشــمولها ورحابتها، وقد شــهد البيتان القديم في شارع الصفا بالمهندسين، والجديد نقاشات ومساجلات بين عشرات، بل بين مئات من المثقفين والفنانين والكتاب العرب من أبناء مصــر وأبناء ســواها من شــقيقاتها العربيات، وأتذكر هنا أن الشــاعر العظيم محمود درويش حين التجأ إلى مصــر في البداية لم يكن يـسهر سهرات متجددة إلا في بيت رجاء النقاش، أما إذا شاء أن يـستأذن في الانـصراف مبكرا فإن وعدا ضــاحكا كان يتكفل بأن يعيده إلى مقعده، حيث كان رجاء النقاش يعده بأن يتصــل تليفونيا – بالمطربة العذبة نجاة الصــغيرة التي كان محمود درويش وقتها يحبها حبا جارفا ويلتقي معها أحيانا ويسـعد بسـماع صـوتها إذا احترق شـوقا ولو من خلال التليفون، وأظن أن هناك من يعرفون أن نجاة الصغيرة كانت مشهورة بأنها ملهمة لشعراء سابقين على

محمود درويش، من بينهم كامل الشناوي صاحب لا تكذبي، وهي قصيدة من وحي المطربة العذبة نفسها في موقف معين، كما أن نجاة الصغيرة كانت المطربة العربية الأولى التي انطلقت بشعر نزار قباني من القراءة إلى السماع، عبر قصيدته أيظن.

أحتضن الآن ما عندي وما هو أمامي وأنا أكتب هذه السطور – من كتب أستاذي الرائع.. أحتضن هذه الكتب النفيسة، كأني ألوذ بها من الفراغ، وأتحصن بها ضد الغياب.. وإذا كنت قد أشرت إلى جمال الأسلوب وعمق التحليل عند رجاء النقاش، فلابد أن أتذكر التوجه الفكري والإنساني الذي يتيح لي القول دون أي شهادة من أحد – إن رجاء النقاش إنسان جميل ونبيل، تتجسد فيه إنسانية العروبة بانطلاقتها ورحابتها البعيدتين عن العنصرية، وبفضل هذا الإحساس العربي الأصيل الذي يجري مع الدم في عروقه، فإنه يرى وهذا حق أن الأدب العربي هو أولا وأخيرا أدب واحد، لكن بيئاته المحلية تتوزع، كما تتنوع جنسيات مبدعيه ومبدعاته، ويفضل هذا الإحساس كتب عن محمود درويش وسميح القاسم وفدوى طوقان وسلمى الخضراء الجيوسي وغسان كنفاني من فلسطين، وكتب عن الطيب صالح ومحمد الفيتوري وجيلي عبد الرحمن من السودان، وكتب مقدمة رائعة لمجموعة كلثم جبر القصصية وجع امرأة عربية كما رعى سنان المسلماني ومريم آل سعد ومحمد بن خليفة العطية وحسن رشيد ومرزوق بشير وسواهم من أبناء قطر، ولا يزال الشاعر الكبير الشيخ مبارك بن سيف آل ثاني حين يسألني عنه يقول: ما أخبار الباشا؟

كتبت منذ أكثر من عشرين سنة رحلة حب مع رجاء النقاش وها أنذا أكتب الآن عنه ومعه في رحلة حب جديدة، وإذا كانت وكالات الأنباء ووسائل الإعلام قد أشارت إلى غيابه يوم الجمعة الثامن من فبراير ٢٠٠٨م فإن هذه الإشارة لا تعنيني، لأني مدرك أنه يسكن في قولب محبيه جميعا، وسيظل يسكن قلبي.

لقاء حميم مع الشاعر العظيم الذي هرب من ثلاثة معتقلات
في حضرة
أبي العلاء المعري

في الأول من مايوم ســنة ٢٠٠٢ كنت أبدأ زيارتي الثانية لســوريا، حيث أتيح لي منذ اليوم الأول لتلك الزيارة أن أعايش أجواء الاحتفال العالمي بعيد العمال في مدينة حلب الجميلة، التي كانت أولى المدن الســورية التي أزورها، والحقيقة التي كنت أعرفها نظريًا ثم لمســتها بنفســي تتمثل في أن حلب مدينة تعشــق الموســيقى والطرب، ولهذا الســبب كنت أزورها تلبية لدعوة بأحد المهرجانات الموســيقية، وهو المهرجان الذي شــهده الشــاعر الدكتور حســن النعمة، ولكن لأني أعد نفســي كائنًا ليليًا ، بينما يظل الدكتور الشاعر كائنًا نهاريًا ، فإني تصورت أنه قد حاك ضدي مؤامرة قاسية تتمثل في إجباري على الاستيقاظ مبكرًا على غير عادتي اليومية.

تكشفت خيوط تلك المؤامرة ، ففي التاسعة من صباح الجمعة ٣ مايو ٢٠٠٢ أخذ التليفون في غرفتي بالفندق يرن، فرفعت السماعة وأنا أئن من قلة النوم، لأفاجأ بصوت الدكتور حسن النعمة: أما زلت نائما حتى الآن.. تهيأ بسرعة للنزول، فلدينا موعد هام.

في قاعة الفندق، وجدته ومعه الفنان المخضرم ماجد العمري وصديق آخر له، أصبح – فيما بعد – صديقا مشتركا لنا، هو المحامي علي حسن، وصاحب السيارة التي ستنطلق بنا إلى وجهة غير معلومة لي..! جلس الدكتور الشــاعر إلى جوار صــاحب الســيارة، بينما احتل ثلاثتنا «الكنبة» الخلفية منها، وبدوت عابس الوجه في البداية، لا لأننا انضــغطنا في «الكنبة» ولكن لأني لم أكن قد شربت الشاي،ولم أكن قد أفطرت فضلا عن أني لن أستطيع إزعاج الراكبين بالتدخين.

أخيرا.. غمرني فرح خفي عميق، بعد أن عرفت الهدف من المؤامرة.. الهدف أن ننطلق من حلب إلى «معرة النعمان» التي لم أكن قد زرتها من قبل، لكني كنت متعطشا إلى زيارتها، لأنها تضم ضريح الشاعر العظيم أبي العلاء المعري الذي كانوا يلقبونه «حكيم المعرة» و«شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء» وكان هو يلقب نفسه «رهين المحبسين»

بل رهين ثلاثة محابس أو سجون أو معتقلات، فضلا عن أنه كان يستنكر أن يدعوه الناس «أبا العلاء» وكان يرى أنه «أبو النزول»:

دعيت أبا العلاء وذاك مينٌ

ولكن الصحيحَ أبو النزولِ

كنت أتصور أن المسافة بين حلب ومعرة النعمان لا تزيد على ستين كيلو مترا، لكن ماجد العمري أكد لنا أن المسافة تزيد على ثمانين.. هل زرت «معرة النعمان» من قبل يا أستاذ ماجد؟.. أجاب على السؤال بمفاجأة أدهشتنا.. لقد ولدت في «معرة النعمان» وقضيت فيها طفولتي وصباي، ثم انتقلت إلى «حلب».. متى ولد ماجد العمري؟.. لم أوجه إليه السؤال، لكنني عدت إلى كتاب، كان هو قد أو صاني بشرائه، وهو كتاب «أهل الطرب في حلب وبلاد العرب» الذي أعده نور مهنا، حيث عرفت أنه ولد سنة ١٩٢٦، وأنه «جاء حلب يافعا فتيا، يحمل في جعبته همَّ الموسيقى، إذ كان يستيقظ كل أسبوع في زاوية (الجنيدي) – أخواله – بمعرة النعمان، يستمع خلال حصة المولد إلى المدائح النبوية، فيسجلها لبه الصغير، ويعيها عقله الصبي، وإلى حلقة الذكر، فهذه موشحات حلب يرددها المنشدون والذاكرون، ويحلم بالرحيل إليها إلى أن جاء حلب لإتمام دراسته، وفي المدرسة الثانوية تعرف إلى نوع آخر من الأناشيد، إنها أناشيد الوطن العربي، حيث يعيث الاستعمار الفرنسي.. خلال فترة الدراسة اتجه نحو دراسة العود، أحبه وأراد أن يكون بارعا فيه، لكن أستاذه مجدي العقيلي أراد له أن يكون عازف كمان..».

وماذا عن «معرة النعمان» ذاتها؟.. ما أعرفه عنها – من خلال «موسوعة المدن العربية والإسلامية» للدكتور يحيى شامي – أنها «مدينة واقعة عند سطح سفح جبل الزاوية الشرقي، إلى الغرب من الطريق الذي يصل حماة بحلب، وهي تشتهر بزراعة الكروم والخضار والزيتون والتين والحبوب والثمار، وهي مدينة تاريخية قديمة، وسميت بمعرة النعمان نسبة إلى النعمان بن بشير الصحابي الذي اجتاز بها فمات ولده هناك ودفن بها وأقام عليه فسميت به، وفي المدينة آثار سور قديم يقال إنه به قبر يوشع ابن نون،

وبالمعرة قبر عبد الله بن عمار بن ياسر، الصحابي الجليل.. والأشهر أن معرة النعمان لم تسم باسم النعمان الصحابي، بل هي مسماة بالنعمان، الساطع، بن عدي بن غطفان.. بن قضاعة، وإلى المعرة ينسب أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري أبو العلاء الشاعر والفيلسوف، وبها مقامه..».

يبقى أن أعرف معنى«المعرة» خاصة بعد أن تجادلنا وتناقشنا طويلا حوله، دون أن نستقر – الدكتور حسن النعمة وماجد العمري وأنا – على قرار.. هنا أتذكر بيتا لأبي العلاء المعري يقول فيه:

يعيرنا لفظ المعرة إنها
من العرِّ قوم في العلا غرباء

فتحت صفحات نسختي التي أعتز بها من «لزوم ما لا يلزم» والمطبوعة في مصر سنة ١٩٢٤، لأقرأ شرح هذا البيت، وهذا نصه:

«المعرة: العيب والمسبة وعلم على بلدة المنسوب إليها، والعر، بالفتح والضم من المعرة..».. أما في «المعجم الوسيط» ج٢، ص٨٨٥ فإني لم أجد بغيتي، ففيه – مثلا «معر» في البلاد – معرا أي ذهب وأسرع، و«معر» الثوب أي صبغه، و«الأمعر» أي الأحمر الشعر والجلد و«المعرة».. الطين الأحمر الذي يصبغ به، و«معر» الصيف: شدة حرارته.

ها نحن أمام أبي العلاء المعري، حيث يرقد منذ أن رحل عن عالمنا سنة ٤٤٩ هجرية، وها هو عبد الخالق سرجاوي رئيس المركز الثقافي العربي بمعرة النعمان والذي استقبلنا أجمل استقبال، يتولى الشرح، إلى أن أسمعنا مطلع القصيدة الخالدة «غير مجد في ملتي واعتقادي» وهنا نظر الدكتور حسن النعمة نحوي، ونحن في حالة استغراق، مطالبا بأن أكمل ما أحفظه من أبيات هذه القصيدة الخالدة التي تعد رثاء للإنسانية جمعاء، ووجدت نفسي أنطلق في إلقاء القصيدة، وقد تجمع حولنا كل الذين يعملون في المركز الثقافي العربي:

غيرُ مجدٍ في ملتي واعتقادي
نوحُ باكٍ ولا ترنمُ شادِ
وشبيهٌ صوتُ النعيِّ إذا..
قيسَ بصوت البشير في كل نادِ
أَبكَتْ تلكم الحمامةُ أم غنَّتْ
على فرعِ غصنها الميَّادِ؟!
صاحِ.. هذي قبورنا تملأ الرحبَ..
فأين القبورُ من عهدِ عادِ
خففِ الوطءَ، ما أظنُّ أديمَ..
الأرضِ إلا من هذه الأجساد

قلت للدكتور حسن النعمة ولمن كانوا يستمعون إلى إلقائي لقصيدة المعري: إن هذه القصيدة أكثر عمقا من رباعيات عمر الخيام فيما أتصور وأشعر، ثم أخبرته أني ما زلت أبحث – منذ سنوات – عن أداء «غير مجد..» بصوت أسمهان، ومازال البحث جاريا بكل تلهف، خاصة بعد أن اكتشفت أن سعاد محمد قد غنت أبياتا من هذه القصيدة بعد أسمهان، وهي من ألحان العبقري رياض السنباطي.

في المكتبة التي تضم الدراسات التي كتبها أصحابها عن أبي العلاء المعري، والتي اقترح إنشاءها سنة ١٩٥٨ عميد الأدب العربي طه حسين (أيام الوحدة بين مصر وسوريا) أخذ الدكتور حسن النعمة يردد مطلع قصيدة محمد مهدي الجواهري عن أبي العلاء المعري، ولم يكتف بهذا وإنما طلب من عبد الخالق سرجاوي أن يحضر له نسخة ديوان الجواهري من المكتبة، واستغرق في قراءة القصيدة بصوت عال حتى نستمع:

قِفْ بالمعرة وامسحْ خدها الترَبا
واستوح من طَوَّقَ الدنيا بما وهَبا
واستوح من طيَّبَ الدنيا بحكمته
ومَنْ على جرحها من روحه سَكَبا

بعد هذا اللقاء الحميم مع شاعر عظيم، رحل عن عالمنا، هاربا من أسر السجون الثلاثة.. كف بصره.. وملازمته للدار.. و سجن روحه في الجسد، وتذكرنا ونحن نودع الشاعر العظيم ما قاله عن حكام عصره، ممن اهتموا بمصالحهم ونزواتهم وأطماعهم على حساب الناس، حيث قال عنهم:

يسوسون الأمورَ بغير عقلٍ ... وينفذ أمرهُمْ فيقال: ساسَة
فأفٍّ من الحياةِ وأفٍّ مني ... ومِنْ زمنٍ رياسته خساسَة

تحركت السيارة بنا، ولكن بعد أن أضيف إلى مجموعتنا اثنان لم يركبا معنا بطبيعة الحال، وإنما تقدما أمامنا «بموتوسيكل».. إنهما عبد الخالق سرجاوي وصديقه الشاعر والكاتب الشاب غريب الرجب.. أمامنا هدف جديد، بعد أن تحققت زيارتنا لشاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء.. لا أحد منا يعرف موقع الهدف الجديد، وحدهما من يركبان «الموتورسيكل» هما اللذان يعرفان.. هانحن نتحرك بشوق، سعيا إلى لقاء الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذي يقع مسجده، بعد عدة مزارع كبيرة، مررنا بها إلى أن وصلنا، فبدأنا بقراءة «الفاتحة» وجاء من يستقبلنا – بكل ترحاب – وهو «على الطوير» المسؤول عن المسجد وعما جاوره.

بكل خشوع وتأثر، دخلنا مسجد عمر بن عبد العزيز، وهو مسجد متواضع البناء، كأنما يعكس زهد صاحبه الجليل، كما أنه يؤكد ما كان، حيث «أكثر من المساجد – كما يقول الدكتور أحمد شلبي في الجزء الثاني من موسوعة التاريخ الإسلامي ٠ ص٨٨ – لكنه لم يكن يتأنق في إعدادها، ولما طلب إليه أن يدفع مبلغا كبيرا لذلك، أجاب: لأَنْ أنفقه على أكباد جائعة، أحب إليَّ من أن أنفقه على الجدران والأثاث..».

كنت منهمكا في الإصغاء إلى علي الطوير، وهو يشرح لنا، لكني خطوت – برفق – نحو محراب المسجد لكي أقرأ السطور المكتوبة على لوحتين معلقتين، إحداهما إلى اليمين، والثانية نحو اليسار.. إحدى هاتين اللوحتين تقدم نبذة مختصرة عن حياة الخليفة الأموي العادل، أما الثانية فإنها تضم أبياتا من قصيدة، قرأتها، ثم التقطتُ صورة لها، وفيما بعد اكتشفت أن القصيدة للشريف الرضي الموسوي، حيث عدت إلى المجلد الأول من ديوانه : ص٢١٥ – فوجدتها، وهي بعنوان «خير ميت من آل مروان» ويقول الشارح للديوان: «.. قال الشريف الرضي يرثي عمر بن عبد العزيز وقد أجرى ذكره وما تفرد به من الصلاح والعدل وجميل السيرة عن أهل بيته، ولما روى جعفر الصادق أنه قال كان العبد الصالح أبو حفص يهدي إلينا الدراهم والدنانير في زقاق العسل خوفا من أهل بيته..».

حين قارنت بين أبيات القصيدة المعلقة جنب محراب المسجد ونفس الأبيات كما وردت في ديوان الشريف الرضي، وجدت اختلافا في ترتيب الأبيات، كما وجدت أن بعض الكلمات مستبدلة بكلمات أخرى، دون أن تخل بالطبع بالوزن أو بالمعنى، والقصيدة تتألف من أحد عشر بيتا، أقتطف هنا منها عدة أبيات من الديوان نفسه، حتى يتسنى لمن يحب المقارنة أن يقارن:

يا ابن عبد العزيز.. لو بكت   .. فتى من أمية لبكيتك

غير أني أقول إنك قد طبت   .. وإن لم يطب ولم يزك بيتك

أنت نزهتنا عن السب والقذف..   فلو أمكن الجزاء جزيتك

ولو إني رأيت قبرك لاستحييت   من أن أرى وما حييتك

وقليل أن لو بدلت دماء البدن   حزنا على الذرى وسقيتك

دير سمعان لا أغبك غاد   خير ميت من آل مروان ميتك

يستطيع من يحب المقارنة بين هذه الأبيات التي اقتطفتها من الديوان ومثيلاتها المعلقة جنب محراب المسجد أن يقرأ من الأولى «أنت نزهتنا عن السب والقذف» وأن يقرأ من الثانية «أنت أنقذتنا من السب والشتم».

وأعود إلى الدكتور أحمد شـلبي في موسـوعته حيث قال – ص٨٩ – : «.. وقطع عمر ابن عبد العزيز سبَّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان بنو أمية يسبونه على المنبر، وجعل مكانه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

العدل الذي يطمح كل إنسان محب للإنسانية أني تحقق، هو ما حققه أمير المؤمنين الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، ولابد هنا أن أستشهد بما رواه يحيى بن سعيد، حيث قال: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية، فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ولم نجد من يأخذها منا، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم».

.. آه ما أجمل أن يتحقق العدل، وفي أجوائه يشعر كل إنسان بجمال الإنسانية، أيا كان موقعه أو موقفه..

أعود كذلك إلى ابن الحكم في «سـيرة عمر بن عبد العزيز» حيث يروي عن رجل من ولد زيد بن الخطاب قوله: إنما ولي عمر بن عبد العزيز سـنتين ونصـفا، فما مات حتى جعل الرجل يأتي بزكاة ماله يبحث عن مسـتحق لها، فما يبرح حتى يرجع بماله، فقد أغنى عمر الناس..».

لكي يتحقق العدل، لابد أن يراجع كل منا سـلوكه وأفعاله، ولابد أن يبدأ كل منا بنفسـه أولا، وهذا ما فعله – بحق وصـدق – أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز منذ أن تولى أمر المسلمين سنة ٩٩ هجرية حتى سنة ١٠١ هجرية، حيث رحل عن عالمنا وفقا للتاريخ الميلادي الذي حدده المسـتشـرق كارل بروكلمان، في كتابه الضـخم «تاريخ الشعوب الإسلامية»، ص١٥١ – يوم ٩ فبراير سنة ٧٢٠م.

نظرة على دير سمعان حيث يرقد الراهب الذي أحب الخليفة العادل، ثم جولة سريعة في متحف معرة النعمان الذي يضم لوحات وجداريات رائعة من الفسيفساء، أبدعها أصحابها قبل الإسلام وبعده، وانطلقت السيارة من محافظة أدلب، حيث معرة النعمان ومسجد عمر ابن عبد العزيز ومتحف معرة النعمان إلى محافظة حلب، ومنها إلى حلب ذاتها، لكي نتواصل

من جديد مع الجميلة حلب. التي عدت إليها شـارد البال، بعد أن أحسسـت أني كنت واقف – بكل إجلال – أمام الشاعر العظيم الذي هرب من ثلاثة معتقلات!

حسن توفيق - سيرة ومسيرة

– بينما كانت الحرب العالمية الثانية تحصد أرواح ملايين البشر ، كان هناك ملايين آخرون يولدون، ومن بين هؤلاء ولد طفل مصـري ، اسـمه كاملا حسـن توفيق محمود محمد ، وقد ولد في أحد أحياء القاهرة الشـعبية وهو حي شـبرا يوم ٣١ أغسـطس سـنة ١٩٤٣ ، وفيما بعد – عندما كبر – أحس بالنشـوة تغمر روحه حين اكتشـف أن الشـاعر الكبير الذي أعجب به أيما إعجاب وهو الدكتور إبراهيم ناجي كان قد ولد هو أيضـا في حي شبرا ،لكنه ولد في آخر يوم من أيام القرن التاسع عشر الميلادي.

– في الخامسة من عمره شاهد الطفل بنفسه عمليات طلاء فوانيس الغاز المعلقة في الشوارع باللون الأزرق ، ثم أخذ يستمع كل صباح وهو في طريقه إلى المدرسة الابتدائية إلى أغنيتين كانتا تذاعان باسـتمرار، هما يا مجاهد في سـبيل الله – جاه اليوم اللي بتتمناه بالعامية المصـرية وأخي جاوز الظالمون المدى وهي بالفصـحى ، وكانت الأغنية والقصيدة تغمرانه بالنشوة وبالحماسة وبنوع من الطرب التلقائي الذي يدفعه لمحاكاة ما سمعه في الأداء ، لكنه لم يكن يعرف أن الجيوش العربية قد خاضت في فلسطين حربا ضد العصابات الصهيونية وأن هذه الجيوش قد ذاقت مرارة الهزيمة القاسية .

– تلقى تعليمه الإعدادي في مدرسة السيدة حنيفة السلحدار الإعدادية بشبرا ، وفيما بعد عرف أن السـيدة حنيفة كانت سـيدة ثرية ولم يكن لها أبناء، ولهذا تبنت طفلة كانت مخطوفة من تركيا ، هي الشاعرة جليلة رضا ، وقد قرأ الطفل ديوانا كان قد صدر لتلك الشـاعرة وهو اللحن الباكي كما قرأ عن طريق مكتبة المدرسـة مجموعة كبيرة من كتب المغامرات والرحلات ، وكان متفوقا على كل زملائه في مادة اللغة العربية لكنه كان يرسب باستمرار في مادة الرياضيات والحساب .

– تلقى تعليمه الثانوي في مدر سة روض الفرج الثانوية، وكان ا سمها قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ مدرســة الأمير فاروق الأول ، وكان ممن تعلم على أيديهم خلال تلك المرحلة أستاذ اللغة العربية وهو الشاعر كمال نشأت – الدكتور فيما بعد ، وماهر ميخائيل أستاذ اللغة الإنجليز ية ا لذي أهداه مجموعة كبيرة من دواوين الشــعراء الإنجليز من بينهم إليوت ووليم بتلر ييتس وأودن ولوي ماكنيس ، وذ لك لتشــجيعه في محاولا ته غير الناجحة لكتابة قصــائد باللغة الإنجليزية، أما مكتبة المدرســة فقد أتاحت له فرصــة التعرف على رواد الشعر الحر من خلال مجلة الآداب البيروتية التي كانت تصل المكتبة بانتظام ، وهكذا حفظ حســن توفيق قصــائد أنشــودة المطر ومدينة بلا مطر وعرس في القرية لبدر شاكر السياب وقصائد أخرى عديدة لصلاح عبد الصبور ونازك الملائكة وخليل حاوي ونزار قباني ، كما حفظ عن ظهر قلب معظم قصــائد ديوان وراء الغمام للدكتور إبراهيم ناجي ، وما يزال يعتز بالنســخة التي يقتنيها من هذا الديوان لأن ناجي كان قد كتب على صفحتها الأولى إهداء بخط يده لحضرة صاحب العزة عبدالحميد بك خضر مفتش وزارة المعارف العمومية – ٢٦ مايو ١٩٣٤ .

– تلقى تعليمه الجامعي بقســم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة القاهرة ، حيث حصــل على ليســانس الآداب في يونيو ســنة ١٩٦٥ وخلال تلك المرحلة ســعد برعاية وتشجيع أ ساتذته فيما يتعلق بفن الشعر ، ومن أ ساتذته الذين يدين لهم بالحب والولاء الدكتورة سهير القلماوي والدكاترة شوقي ضيف و شكري محمد عياد ويو سف خليف الذي كان شاعرا رومانسيا رقيقا وحسين نصار وعبد الحميد يونس وعبد المحسن طه بدر الذي كان يســمح لتلميذه بأن يزوره في بيته بالمعادي حيث تعرف على أدباء كثيرين ، منهم غالب هلسا و سليمان فياض ومحمد أبو المعاطي أبو النجا وعبد الجليل حسن ، وما تزال صــداقاته مع أبناء دفعته ممتدة ووطيدة منذ ســنة التخرج – ١٩٦٥ –حتى الآن ومنهم من أ صبحوا مرموقين مثل الدكتور جابر عصفور والدكاترة يو سف حسين بكار وإبراهيم السعافين وأحمد أبو مطر والمنجي الكعبي .

– بدأ يتعرف بشغف على عالم الصحافة عموما والصحافة الأدبية خصو صا وهو ما يزال طالبا جامعيا ، وهكذا توثقت صلاته بالكاتب الصحفي أحمد بهجت وأ صبح يتردد على مبنى جريدة الأهرام القديم ، واستطاع أن يلتقي بصورة منتظمة مع الدكتور لويس

عوض والفنان الشـامل صـلاح جاهين وشـعراء العامية الذين كانوا يترددون على صـلاح جاهين ومنهم عبد الرحمن الأبنودي وسـيد حجاب وعبد الرحيم منصـور ،ومن خلال توا صله مع هؤلاء أخذ يكتشف الفارق بين ما يكتبونه من قصائد مرتبطة بالواقع وما يكتبه هو من القصائد الغارقة في رومانسيتها .

– كانت للطالب الجامعي وقتها جولات منتظمة لزيارة سـور الأزبكية القديم حيث اسـتطاع أن يقتني مجموعة كبيرة من أعداد مجلة أبولو ، فضـلا عن الطبعات الأولى من دواوين شعراء تلك الجماعة ، ومنهم محمود حسن إسماعيل وحسن كامل الصيرفي وصـالح جودت وعلي محمود طه ، وخلال تلك الفترة تعرف على نجم أدبي شـهير ما لبث أن أصبح صديقا حميما له وهو الكاتب والناقد رجاء النقاش .

– بعيدا عن أسوار الجامعة ، كان حسن توفيق من المشاركين في الأمسيات الشعرية الأسـبوعية التي كانت الجمعية الأدبية المصـرية تعقدها ، وكذلك شـارك في العديد من الأمسيات التي كانت دار الأدباء تنظمها في مقرها بشارع القصر العيني ، وكان واحدا من الرواد الدائمين لمقهى ريش الشـهير بشـارع طلعت حرب حيث كان العملاق نجيب محفوظ يعقد ندوة أسـبوعية مسـاء كل يوم جمعة ، وكان مرتادو تلك الندوة ممن كانوا يعرفون ب أدباء السـتينيات ، ومن هؤلاء أمل دنقل ويحيى الطاهر عبد الله وإبراهيم أصـلان وممن كانوا يقيمون في مصـر وقتها الشـاعران عبد الوهاب البياتي ومحمد الفيتوري .

– بدأ ينشر قصائده منذ سنة ١٩٦٣ حيث نشر عددا منها في مجلة الشعر القاهرية التي كان يرأس تحريرها الدكتور عبد القادر القط كما نشـر في مجلة الآداب البيروتية، ثم أخذت قصائده تتوالى في النشر على صفحات مجلة المجلة بتشجيع من الكاتب الكبير يحيى حقي ومن بعده الدكتور عبد القادر القط الذي خلفه في رئاسة تحرير المجلة .

– سـجل – بعد تخرجه في الجامعة – رسـالة الماجسـتير سـنة ١٩٦٦ لكن مغريات السـاحة الثقافية والفنية التي انغمس فيها لم تمكنه من إنجازها إلا سـنة ١٩٧٨ حيث حصل على الماجستير بتقدير ممتاز عن أطروحته : شعر بدر شاكر السياب – دراسة فنية وفكرية ، وقد صدرت تلك الدراسة في بيروت خلال نفس تلك السنة ، واعتمد عليها

باحثون أكاديميون في جامعات عربية عديدة ، وأعيد طبعها مرة ثانية في عمان ، كما أنها على وشك الصدور في طبعة جديدة ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة في مصر .

– عمل بعد تخرجه في الجامعة مديرا لمكتب الشاعر العظيم صلاح عبد الصبور والذي كان وقتها مديرا عاما للنشر بالهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر – الهيئة العامة للكتاب فيما بعد ، كما عمل محررا بمجلة الفكر المعاصر التي تناوب على رئاسة تحريرها الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور فؤاد زكريا وله كتابات نقدية عديدة على صفحات تلك المجلة، وعمل لمدة سنتين في دار الكتب المصرية ،ثم عمل في الهيئة العامة للفنون حتى سنة ١٩٧٩ .

– اختاره رجاء النقاش ضمن من اختارهم للعمل معه في جريدة الراية القطرية منذ سنة ١٩٧٩ وهي الجريدة التي ظل يعمل بها رئيسا للقسم الثقافي طيلة ثلاثين سنة ، حيث عاد إلى وطنه مصر منذ يوليو سنة ٢٠٠٩ليتفرغ للكتابة الأدبية .

– حصل على جائزة الدولة التشجيعية في الشعر عن ديوانه انتظار الآتي سنة ١٩٩٠ بإجماع أعضاء لجنة التحكيم وهم الدكتور عبد القادر القط والدكتور يوسف خليف والدكتور محمود مكي والشاعر فاروق شوشة .

– حصل على جائزة أفضل قصيدة من مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري سنة ١٩٩١وذلك عن قصيدته السندباد والرحلة الجديدة التي كانت قد نشرت في الملحق الأدبي لجريدة الأهرام ، ثم اشتمل عليها فيما بعد ديوانه ليلى تعشق ليلى .

– أصدر أول ديوان له سنة ١٩٦٩ بعنوان الدم في الحدائق –انظر العطاء الأدبي للشاعر.

– أصدر كتابه النقدي الأول ضمن سلسلة المكتبة الثقافية بعنوان اتجاهات الشعر الحر سنة ١٩٧٠وقد كان استقبال هذا الكتاب من جانب الساحة الأدبية استقبالا جميلا متحمسا .

– عضو الجمعية الأدبية المصرية منذ سنة ١٩٦٦ وقد رشحه لعضويتها كل من الدكتور عبد الغفار مكاوي وصلاح عبد الصبور وفاروق خورشيد، وخلال تلك المرحلة كان يساهم مساهمة فعالة في تحرير مجلة الأدب الشهرية التي كان يصدرها شيخ الأمناء أمين الخولي .

– عضو اتحاد كتاب مصر منذ بداية تأسيسه حتى الآن .

– ترجمت قصائد من شعره إلى اللغات الأسبانية والإنجليزية والروسية والأوكرانية، حيث قامت المستعربة الأسبانية الدكتورة كارمن رويث برافو بترجمة ونشر قصائد من ديوانه ما رآه السندباد في مدريد، كما قام الدكتوران محمد شاهين – الأردن وعبد الواحد لؤلؤة – العراق بترجمة مجموعة من قصائده إلى الإنجليزية، وقام المستشرق الأوكراني البروفيسور فاليري ريبالكن بترجمة مجموعة من قصائده إلى اللغتين الروسية والأوكرانية .

– زار العديد من الأقطار العربية للمشاركة في ملتقيات ومهرجانات أدبية وثقافية كما زار عدة دول أوربية للمشاركة في مشروع كتاب في جريدة الذي يصدر بالتعاون مع منظمة اليونسكو وكذلك للمشاركة في بعض دورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وزار اليابان سنة ١٩٩٨ لمدة أسبوعين بدعوة من وزارة الخارجية اليابانية، حيث سجل انطباعاته عن تلك الزيارة التي شملت طوكيو والعاصمة القديمة كيوتو وهيروشيما ونجازاكي، فضلا عن لقاءاته مع أشهر الشعراء اليابانيين، وقد تمت ترجمة تلك الانطباعات إلى اللغة اليابانية، وله كتاب يصنف على أنه من كتب أدب الرحلات، ويضم معظم ما كتبه عن تلك الزيارات والرحلات، والكتاب بعنوان رحلات شاعر عاشق – مع الشعر والحب في الشرق والغرب .

– زار أوكرانيا تلبية لدعوة من جامعة عالم الشرق، حيث ألقى محاضرة عن واقع الأدب العربي في قسم اللغة العربية بتلك الجامعة وذلك في شهر أبريل سنة ٢٠٠٦ وقد نشرت إحدى أشهر الجرائد اليومية الأوكرانية ترجمة لتلك المحاضرة شغلت مساحة صفحة كاملة .

- كتب أستاذه صلاح عبد الصبور مقدمة لديوانه الدم في الحدائق ، كما كتب الدكتور عز الدين إسماعيل دراسة عن شعره ، تصدرت ديوانه أحب أن أقول لا .

- كتب كثيرون من النقاد والشعراء والصحفيين عن شعره وعن كتبه النثرية ، ومن هؤلاء الدكتور شكري محمد عياد – الدكتور يوسف حسين بكار – الدكتور كمال نشأت – الدكتور ماهر حسن فهمي – فاروق شوشة – الدكتور أحمد أبو مطر – علاء الديب – إقبال بركة – فاروق خورشيد – أنيس منصور – صالح جودت – الدكتور رياض عصمت – بيانكا ماضية – حنان بكير ... وسواهم .

- اهتمت مواقع عديدة بنشر وإعادة نشر قصائده على الشبكة العنكبوتية – الإنترنت .

- له موقع رسمي على الإنترنت بعنوان : مجنون العرب – موقع الشاعر والكاتب حسن توفيق، وله مدونتان شخصيتان إحداهما ضمن مدونات مكتوب، والمدونة الثانية ضمن مدونات إيلاف .

- مرايا الروح – موقع جديد للشاعر

www.magnoonalarab.com
magnoonalarab.maktoobblog.com
hassan٦٦.elaphblog.com

انظر قائمة ما أصدره الشاعر .



العطاء الأدبي للشاعر حسن توفيق

أولا : الشعر

- الدم في الحدائق – الطبعة الأولى ســنة ١٩٦٩ – الهيئة المصــرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، وقد صدرت طبعته الثانية سنة ١٩٨٩.

- أحب أن أقول لا – الطبعة الأولى سنة١٩٧١ الهيئة العامة للكتاب ، وقد صدرت الطبعة الثانية منه سنة ١٩٨٩.

- قصائد عاشقة – الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ وقد صدرت طبعته الثانية سنة ١٩٨٩.

- حينما يصــبح الحلم ســيفا – الطبعة الأولى ســنة ١٩٧٨ – دار النشــر والإعلان – طرابلس – ليبيا وصدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٨٩.

- انتظار الآتي – سنة ١٩٨٩.

- قصة الطوفان من نوح إلى القرصان – ١٩٨٩.

- وجهها قصيدة لا تنتهي – سنة ١٩٨٩.

- ما رآه السندباد – سنة ١٩٩١.

- ليلى تعشق ليلى – سنة ١٩٩٦.

- الأعمال الشــعرية – الطبعة الأولى ســنة ١٩٩٨ – دار الخليج للطباعة والنشــر – الدوحة – قطر ، أما الطبعة الثانية فقد صــدرت عن الهيئة المصــرية العامة للكتاب ســنة ٢٠٠٢ وصدرت الطبعة الثالثة ضمن إصدارات مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٣.

- عشــقت اثنتين : توشــكا وتمنراســت – الطبعة الأولى ســنة ١٩٩٩ – دار الخليج للطباعة والنشر – الدوحة – قطر.

- بغداد خانتني – قصائد ومقامات في حب العراق – الطبعة الأولى ٢٠٠٤ – مؤسسة الرحاب الحديثة – بيروت – لبنان.

- وردة الإشراق – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٥ – المجلس الوطني للثقافة – الدوحة – قطر.

- أحبك أيها الإنسان – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٨ – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- حلم يتفتح في صخر – الطبعة الأولى سنة ٢٠١٢ – الدوحة – قطر.

- لا مكان للشهداء – ضمن سلسلة الإبداع الشعري المعاصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة .

ثانيا : فن المقامة

- مجنون العرب بين رعد الغضب وليلي الطرب – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٤ – مؤسسة الرحاب الحديثة – بيروت – لبنان.

- ليلة القبض على مجنون العرب – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٥ – مؤسسة الرحاب الحديثة – بيروت – لبنان ، وقد قام المترجم التونسي عبد الودود العمراني بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية، والترجمة منشورة على شبكة الإنترنت – موقع جمعية المترجمين العرب.

مغامرات مجنون العرب – الطبعة الأولى سنة ٢٠١٢ – مكتبة جزيرة الورد – القاهرة.

ثالثا : دراسات وتحقيق

اتجاهات الشعر الحر – سنة ١٩٧٠ – سلسلة المكتبة الثقافية.

وداعا عبد الناصر – بالاشتراك مع أمل دنقل – سنة ١٩٧١ – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

إبراهيم ناجي – قصائد مجهولة – سنة ١٩٧٨ – مكتبة مدبولي – القاهرة.

شعر بدر شاكر السياب – دراسة فنية وفكرية – سنة ١٩٧٩ – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – لبنان.

أزهار ذابلة وقصائد مجهولة للسياب – سنة ١٩٨٠ – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – لبنان.

جمال عبد الناصر – الزعيم في قلوب الشعراء – سنة ١٩٩٦ – المكتبة العالمية – الدوحة – قطر.

الأعمال الشـعرية الكاملة للدكتور إبراهيم ناجي – سـنة ١٩٩٦ – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة.

الأعمال النثرية الكاملة للدكتور إبراهيم ناجي – مجلدان – سنة ٢٠٠١.

مختارات من الشـعر العربي في القرن العشـرين – الجزء الثالث – شـعراء قطر – ٢٠٠١.

جمال عبد الناصر – الزعيم في قلوب الشعراء – طبعة موسعة – سنة ٢٠٠٢ – مؤسسة بيسان – بيروت – لبنان.

الأعمال الشعرية المختارة للدكتور إبراهيم ناجي – سنة ٢٠٠٣ – المجلس الوطني للثقافة – الدوحة – قطر .

محمد بن خليفة العطية شاعرا وإنسانا – تقديم وتحرير – سنة ٢٠٠٤.

خليل الفزيع شاعرا – تقديم وتحرير – سنة ٢٠٠٦.

قاموس الأدب العربي الحديث – إعداد وتحرير الدكتور حمدي السـكوت – (كتابة المواد المنشورة عن أدباء قطر) – سنة ٢٠٠٧ – دار الشروق – القاهرة.

الحياة الحب والحب الحياة – شعراء جبناء ونساء لهن عضلات – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٩ – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة.

الأعمال النثرية الكاملة للدكتور إبراهيم ناجي – طبعة جديدة منقحة – صدر المجلد الأول منها سنة ٢٠١١ – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة .

من شعر ناظم حكمت – ترجمة الدكتور علي سعد – تقديم ودراسة – ضمن سلسلة ميراث الترجمة – المركز القومي للترجمة – القاهرة .

آلام فرتر لجوته – ترجمة أحمد حسن الزيات – تقديم ودراسة – ضمن سلسلة ميراث الترجمة – المركز القومي للترجمة – القاهرة .

الأعمال الشـعرية الكاملة للشـاعر محمد عبد المعطي الهمشـري – جمع وتحقيق – مكتبة جزيرة الورد – القاهرة.

هنريك إبسن .. سيرة حياة – تأليف ستاين إيريك لوند – ترجمة زكية خيرهم – تقديم حسن توفيق.

رابعا : أدب الرحلات

رحلات شاعر عاشق – مع الشعر والحب في الشرق والغرب – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١ – دار الخليج للطباعة والنشر – الدوحة - قطر.

رحلات جديدة مع الشعر والحب – قيد الصدور .

خامسا : مقالات وقصائد منشورة

هناك عشرات القصائد ومئات المقالات المنشورة في مجلات أدبية وثقافية مثل الهلال وإبداع وأدب ونقد في مصر والعربي الكويتية والدوحة القطرية والثقافة العربية الليبية والمجلة السعودية وغيرها ، وفي العديد من الجرائد اليومية العربية ، ومنها الأهرام – الجمهورية – الأخبار – الخليج الإماراتية – القبس الكويتية – أخبار الخليج البحرينية – الوطن العمانية – العلم المغربية – الخبر الجزائرية – الشرق الأوسط السعودية . وهناك عمود أسبوعي ينشر في جريدة الشرق القطرية كل يوم خميس بعنوان مرايا الروح .

سادسا : فن الرواية

عرفة ينهض من قبره – رواية – تبدأ الرواية الأولى لحسن توفيق من حيث اختتم الكاتب الروائي العملاق نجيب محفوظ روايته الشهيرة أولاد حارتنا – الطبعة الأولى يناير سنة ٢٠١١ – وكان النص الكامل للرواية قد نشر في مجلة نزوى العمانية في العدد الثالث والستين الصدر في يونيو ٢٠١٠ - وقد كتبت عن هذه الرواية دراسات ومقالات عديدة بأقلام فاروق شوشة والدكتور أحمد أبو مطر وحنان بكير وعيسى الشيخ حسن وبيانكا ماضية واعتماد عبد العزيز وغيرهم ،هذا إلى جانب لقاءات تليفزيونية عديدة خصصت لمناقشة الرواية .

زازا – رواية مجهولة للشاعر الدكتور إبراهيم ناجي - جمع وتقديم – الطبعة الأولى سنة ٢٠١١ – مؤسسة الرحاب الحديثة – بيروت .

ثرثرة فوق الأنقاض – رواية جديدة تستوحي ثرثرة فوق النيل لنجيب محفوظ وتتوغل أحداثها في زمن أبعد من زمن كتابة نجيب محفوظ لروايته الرائعة – لم تصدر بعد .



الفهرس

بطاقة فهرسة ٢

حتى نقهر الموت ٣

طه حسين يسألني عن أحوال المعذبين في الأرض ٩

طه حسين بين مستنيرين ناصروه ومتشنجين حاربوه ١٥

بماذا يتميز طه حسين عن أبناء جيله العمالقة؟ ٢٢

ليس انحيازًا أعمى لتوأم الروح : طه حسين يفضل المعري على بشار والمتنبي ٢٧

قمر المعرفة الذي غاب بغير إياب سهير القلماوي: نحن نتعلم لكي نعرف.. كم نجهل ٣٥

إلى الحرب قصيدة من شعر سهير القلماوي ٤٤

عباس محمود العقاد .. العملاق الذي كنا نتهيب لقاءه ٤٦

ميخائيل نعيمة ثمرة مدهشة من ثمرات تزاوج الثقافات والبيئات ٥٢

إبراهيم المازني دعوة صادقة ومبكرة للقومية العربية ٥٧

ماذا لو كان نجيب محفوظ شاعرًا وليس روائيًا؟ تعمقه في دراسة الفلسفة جعل الحارة تتسع للعالم بأسره ٦٢

على البلاج .. قصة مجهولة لنجيب محفوظ ثلاثة أدباء يلتقون مع ثلاث حسناوات في الإسكندرية ٦٦

على البلاج قصة قصيرة مجهولة اشترك في كتابتها ثلاثة أدباء : ٧١

حوار معه سنة ١٩٨٠ محمد مهدي الجواهري شاعر العرب الأكبر ٧٥

محمد مهدي الجواهري يواجه الطغاة ويعانق الحياة ٨٣

ثروت عكاشة .. الفنان بساطة الإنسان وروعة ٨٨

صلاح عبد الصبور : عندما أوغل السندباد وعاد.. عنوان ديواني الجديد ٩٢

صلاح عبد الصبور عندما تتجسد القيم النبيلة في إنسان ١٠٠

صلاح عبد الصبور .. وزمان القتلة ١١٠

كل شيء تجلى .. عندما أوغل السندباد وعاد في ذكرى غياب صلاح عبد الصبور عمن أحبوه..... ١١٧

عندما أوغل لسندباد وعاد ١٢٤

فاروق خورشيد فارس نبيل حصانة الأمل ١٢٩

نازك الملائكة.. .... ١٣٥

السياب.. رحلة قصيرة مثقلة بالعناء والبحث عن الانتماء ١٤٢

السياب.. من العراق إلى كل أرض عربية بدر شاكر ١٤٦
بلند الحيدري..والأصدقاء الخونة ١٥٠
البياتي .. عاشق الحياة الذي طحنته الغربة ١٥٥
البياتي في (ينابيع الشمس) في القاهرة تغيرت حياتي لأن الأفق الثقافي كان أرحب ١٦٠
خليل حاوي .. رحل الشاعر وبقي الشعر ١٦٨
يحيى حقي.. فنان البساطة العميقة! ١٧٢
يحيى حقي . عملاق القامة الأدبية ١٧٦
عبد الرحمن منيف عبقري الرواية العربية في زمن التحولات المأساوية ١٨١
محمد شكري من صعلوك فقير إلى كاتب متمرد مثير الطامحون يحطمون جدران السجون........ ١٨٦
عبد الرحيم محمود بين شعر الوطنية .. وقصائد الحب ! ١٩٠
سهرة معه.. بعد أن مزق الصهاينة جسده غسان كنفاني.................................... ١٩٤
بعد الرحيل المأساوي لتوفيق زياد رحل الشاعر الذي ترددت أشعاره على كل الشفاه ٢٠٠
محمود درويش..شاعر عالمي رغم أنف جائزة نوبل! لماذا حكم بالإعدام على عصافير بلا أجنحة ؟! ٢٠٥
محمود درويش . من فلسطين إلى الآفاق الرحبة استطاع الإفلات من نزار قباني ولم يقع في أسر لوركا! ٢٠٩
محمود درويش من الالتزام الحزبي إلى الانتماء العربي ! ٢١٥
ناجي العلي في حوار معه بالدوحة حنظلة هو الأيقونة التي تحميني من السقوط ٢٢٠
يا ناجي العلي.. الآن وقد رحلت وحدك ماذا يمكن للقتلة الجهلة أن يرتكبوه ضدك ؟! ٢٢٤
إميل حبيبي.. أحببته وأعرف أنه حبيب عدوي ! من حيفا أطل على الوجود وإلى ترابها عاد ٢٢٩
إدوارد سعيد .. شاعر فنان لا يتجلى إلا (خارج المكان) ٢٣٧
خواطر مبعثرة حول رحيل الشاعر عاصفة الصحراء ظلمته وقبلها ظلمته الإقليمية الثقافية ٢٤٤
الشاعر محمد الفايز بين الشكل الجديد وغواص ما قبل النفط في الخليج العربي ٢٤٩
غازي القصيبي .. شاعر كبير جرفته دوامة الرواية! التقينا على طريق الحب.. والفضل يرجع لمبدع الأطلال ٢٥٤
معروف رفيق.. شاعر قدير يعرف الطريق رغم مرارة الجرح ٢٦٠
عبد الرحمن المعاودة كان بركان غضب.. على ما آل إليه حال العرب ٢٦٧
علي بن سعود آل ثاني بين اليأس والأمل بين الأندلس إلى فلسطين ٢٧٤
عشر دقائق مع نزار قباني لغة النار العاشقة.. تسري في كتاباته.. شعرًا ونثرًا ٢٨١

نزار قباني بين قضية المرأة ودوامات السياسة ٢٨٥
محمود حسن إسماعيل شاعر عبقري يحيا في ذاكرة الشعراء والعشاق ٢٩٣
شكري محمد عياد كل الأنهار تجري إلى البحر .. والبحر ليس بملآن ٣٠٢
ماهر حسن فهمي .. وما زال نهر الزمن يتدفق..في انتظار أن نراه جميعًا ٣٠٧
الشاعر الكبير كمال نشأت تأثر بمن سبق وأثر فيمن لحق ٣١٣
سمير سرحان مثقف كبير عاش دنياه (على مقهى الحياة) أدى رسالته باقتدار .. فهاجمه الحاقدون والفاشلون الصغار! ٣١٩
أمل دنقل .. الشامخ فوق أنقاض السقوط ٣٢٣
صلاح الدين حافظ والتجربة التي زلزلت أعماقه ٣٤١
رحلة حب مع رجاء النقاش قبل عودته إلى القاهرة ٣٤٥
مع رجاء النقاش في رحلة حب جديدة ٣٤٩
لقاء حميم مع الشاعر العظيم الذي هرب من ثلاثة معتقلات في حضرة أبي العلاء المعري ٣٥٣
العطاء الأدبي للشاعر حسن توفيق ٣٦٦
الفهرس ٣٧٠